AYMAN AL-OTOOM

رواية
NOVEL

أيمن العتوم

خاوية





أيمن العتوم

خاوية





الإهداء

إلى زينب . . .

لعلّك تجدين في هذه الكلمات بعض العزاء .

وإلى بكر . . .

لعلّك حين تكبر تغادر عالَمك المسحور فتعود إلينا .

إليكِ أنتِ .. يا سنفورة

ستبقى مدينتك حية .. ولن تفنى

ستعود أجمل .. ويزهر في كل

شبر منها الورد .. ورد أحمر

حفظكِ ربي .. أنتِ وأهلكِ ومدينتكِ

أحمد

(٥)

«ما أسهلَ الحديثَ عن الصّبر عندما لا تكونُ المصيبةُ مصيبتَكَ!!»

كان لا بُدّ من الحُزن ؛ الطّريق الطّويلة ليسَتْ محفوفةً بالأمل ، ولا بالورود! لا تُصدّقوا ، كانتْ مليئةً بالشّوك ، والحُفَر ، وكانتْ مُظلِمةً ومُخيفةً ، وكانَ على البائسين أنْ يعيشوا كلّ الآلام الفظيعة الّتي تحزّ القلبَ بسكّينٍ صَدِئ ، وكانَ عليهم أنْ يحزنوا وحدهم لأنّ قصصهم الرّهيبة وُلِدَتْ منسيّةً!!

لم نكنْ شُجعانًا ؛ لا تُصدّقوا هذه هي الكذبة الأخرى ، كُنّا جُبناءَ ، ووحدَنا . وكانَ علينا أنْ نسير قَسرنا ، وكانَ علينا أنْ نعبرَ الجسر المُهدّم وعبرناه ، وكانَ علينا أنْ نقضمَ الحجر ونسفّ التّراب ففعلنا . . .!! ولكنْ لماذا رضينا كُلّ ذلك؟! هربًا من الموت؟! بلى . هربًا من الجُنون؟! بلى . هربًا من أنفسنا؟! بلى بلى . كُنّا نهرب من أنفسنا لأنّها أسوأ ما واجهناه في هذه الحرب الطّويلة ، في منتصف الموت تقف الرّوح اليائسة على أقدامها تُنادي عليه أنْ يعجَل ، وتستغيثُ به أنْ يأتي سريعًا .

حكايانا مغموسةٌ بالدّم ، والجوع ، والخوف ، والتّرقّب ، والأمل الكاذب ، والهرب نحو المجهول ، وفي النّهاية لا ندري إنْ كُنّا فقدْنا الحياةَ أم فقدتْنا الحياةُ . بعضُ الموت كان رحمة ، وبعضُ العيش كان انتقامًا شيطانيًا من جهةٍ تعتبرنا أعداءً لها ، ولم نكنْ ندري كيفَ صِرنا أعداءً لكلّ شيءٍ بينَ عشيّةٍ وضُحاها . . .!! ما الّذي تغيّر فينا ، ما الّذي

حملناه على ظُهورنا وقصَمها بهذه الطَّريقة المؤذية . . .؟!! لا ندري . . .
وحده الله كانَ شاهِدًا على كلّ شيءٍ . . . وحده كان يراقب ، وكان يُرسِل بعضَ الإشارات ، وكُنّا أقلّ من أن نفهمها أحيانًا ، وأحيانًا نفهمها لكنْ بعدَ فواتِ الأوان!!

نحن الجَوعَى إلى الحرّيّة ، الجوعَى إلى الكرامة ، الجَوعى إلى الإنسانيّة ، الجَوعَى إلى كلّ شيءٍ مفقودٍ فقده البشر منذُ قرونٍ طويلة ؛ فقدوا الحُبّ ، والسّلام ، والرّحمة ، والعطف ، وفقدوا كلّ شيءٍ حتّى تحوّلوا وتحوّلنا معهم إلى كائناتٍ من ورقٍ تعيشُ في عالمٍ من زَبَد!!

ما الّذي يجمعنا بعدَ كلّ تلك السّنين؟! أسالكُم أنتم ما الّذي يجمعكم؟! وما الّذي يرغّبكم بالحياة؟! لعلّكم ترون الحياةَ ورديّة مُشرِقة ، تمتدّ كنهرٍ متدفّق تنمو على ضفّتيه زهور الياسمين؟! أينَ يوجَد هذا النّوع من الحياةِ الّتي تظنّون؟! لقد بحثْنا عنها طَوال رحلتنا من الموتِ إلى الموت فما وجدناها ولا اهتدينا إليها؟! دُلّونا عليها إذا كانتْ موجودة . قولوا لنا إنّها ليستْ في مكانٍ آخَر ، ولا في أحلامِ المُتفائلين ، ولا في قصص الرّوائيّين!! قولوا لنا إنّنا يُمكن أنْ نعيشها ولو في الآخرة . الآخرة؟! تبدو بعيدةً جداً ، تبدو أنّها ليستْ لنا كذلك!!

أيّها العابِرون بحرَ الأيّام ، لن نحسدكم ، فقط نريدكم أنْ تخبرونا : هل صحيحٌ ما قالوه لنا ذاتَ وجع : إنّ الله لن يجمعَ علينا جهنّمَين!! هل جهنّم في الآخرة أشدّ وطئًا مّن هذه الّتي عشناها في الدّنيا ، أمْ أنّهما مُتشابهتان؟! ماذا ظلّ لنا من عُمرٍ في هذه الفانِية ، ونحن أعمارنا منهوبةٌ منذُ رأتْ عُيونُنا النّور ، وأحلامُنا مسروقةٌ مذ جلسَ لصوصُ الأحلام على صدورنا وأذاقونا الويلات .

أينَ الله أيّها المُؤمنون؟! أينَ الله؟! لسنا نشكّ في أنّه موجودٌ ،

لكنّنا نسألكم أنتم ، لو كنتم تؤمنون بوجوده حَقًا لما سقطْنا في حُفَر النّيران!! آه لو أنّكم تدركون أنّه موجود لتخفّفْتم من عِبْء ذَبْحنا في كلّ يوم ، وأن نُقدَّم على موائدكم في كلّ حين ؛ كأنّ دمَنا شرابُ كؤوسكم ، وكأنّ لحمَنا طعامُ أفواهكم .

وكانَ لا بُدّ من الصّبر ؛ ليسَ لأنّنا نُتقنه ، ولا لأنّنا سعَينا نحوه ؛ بل لأنّنا لم نجدْ شيئًا سِواه نتعلّل به ، ولم نجدْ من مهربٍ نحمي به أنفَسنا من الجنون واليأس إلاّ به . في اللّيل حينَ تهمي دموعُ الأمّهات في صمتٍ يتلقّاها وعاء الصّبر فيمتلِئ بها ، ثُمّ تتحوّل إلى ماءٍ زُلالٍ ينزلُ على القلوب بردًا وسلامًا ولو إلى حين .

كم من آهاتٍ شقّتْ سكونَ الليل ، وكم من آلام عبرت حُجُراتِ القلب ، ثمّ طاب لها المُقامُ هناك فلم تُبارِحه!! وكم من صرخاتٍ مكتومة انفجرتْ في الأحشاء ولم تجدْ أُذنًا تسمع أو قلبًا يُشارِكها ثِقْلَ المُصيبة!!

الموجوع مثلُ الكأس الملأى المركوزةِ على حرفٍ ؛ أي سببٍ يجعل الكأس تهتزّ سيؤدّي إلى أنْ ينسكبَ منها كلّ ما فيها!! ونحنُ كُنّا كؤوسًا دهاقًا ، تقفُ الدّمعة في الآماق تنتظر اللّحظة المناسبة ؛ وكلّ لحظة كانتْ مناسبة إلى أنْ تنهمل الدّموع . لقد رقّقتِ البلوى قُلوبَنا ، فصار يُبكينا كلّ شيء بسبب أو بلا سبب!!

أحيانًا كُنّا نشعر أنّه لولا الفاجِعة الّتي عِشناها لما كُنّا سنقترب من أنفسنا هذا الاقتراب ، ولا كُنّا نعرفُ لوجودنا هدفًا على الإطلاق ، ولا أحسسْنا بقيمة الأشياء الصّغيرة الّتي كانتْ تمرّ دون أن نُعيرَها انتباهًا ؛ لقد تأكّد لنا أنّ الفاجعة مثلُ العدسةِ المُكبّرة تُريكَ النِّعَم الصّغيرة نعمًا عظيمةً ، لكنّها كانتْ في المُقابِل أيضًا ، تمنحنا مساحةً أكبر للشّعور

بالألم، لأنّها العدسة المُكبّرة نَفْسُها تفعل فِعلها هذا في النّعمةِ أو في النّقمة على حَدٍّ سواء!!

نتساءل أحيانًا في غمرةِ الوجع: لماذا تفعل الأقدار بنا هذا كلّه؟! لِماذا يخلقنا الله ويُعذّبنا؟! لِمَ يرمينا في النّفق المُظلِم ويتركنا نواجه الموتَ والرّعب في كلّ لحظةٍ دون أنْ يتركَ لنا بصيصًا من الأمل على أنّ هناكَ ضوءًا ولو ضئيلاً في نهايةِ هذا النّفق؟! أتعرفون: هذه الأسئلة كانتْ تُطارِدنا مطارَدتنا للرّغيف بعد ثلاثة أشهرٍ من الصّوم الإجباري في شهور الزّمهرير في اللّيالي الدّامسة!!

هل كانَ من الممكن أنْ نتخلّصَ من بشريّتنا، أنْ نموتَ من العطشِ والجوع مثلَ الأشجار وقوفًا ودون أنْ نشعر بكلّ هذه المُحيطات من الألم؟! لكنْ أستميحكم عُذرًا: مَنْ قال إنّ الأشجار تموتُ من الجوع دونَ أنْ تشعر؛ إنّها ربّما تمتلك من المشاعر والأحاسيس أضعافَ أضعافِ ما يمتلكه بعضُ البشر من الّذين بدّلوا جلودهم ليُصبِحوا مخلوقاتٍ أخرى؛ لا أقول حيوانات أو وحوشًا؛ فهذه أيضًا لها نصيبٌ من الشّعور؛ لكنْ أينَ يُمكن أنْ نجدَ مخلوقاتٍ مُتبلّدة تمامًا على سطح كوكبنا الّذي نتقاسم العيشَ فوقه لنقول إنّها تُشبههم؟!

هل نجدُ في النّهايةِ مخرجًا؟! هل يُمكنُ أنْ نصحو ذاتَ صباحٍ فنجد الآلامَ ذِكرى، والأوجاع ماضِيًا ولّى دونَ عودة، واليأسَ مُصطلحًا قديمًا حُذِف من المعاجم دونَ أسف؟! هل ينقرض هذا النّوع الوحشيّ من البشر؟! هل يرحمنا التّاريخ فلا يُعيدَ لنا الشّياطين في هيئاتٍ بشريّة؟! لقد بتنا نؤمن أنّ الشّيطان له ظهوراتٌ مثل أيّ نبتةٍ تشقّ تراب الأرض وتظهر على سطحه، كان هؤلاء الشّياطين يشقّون ثياب البشر ويدخلون إلى أجسادهم وأرواحهم فيُصبحونهم!!

ولكنّها حياة ؛ حياةٌ واحدةٌ . وأعمارُنا؟! قصيرةٌ بالغةُ القِصَر . ونحن؟! هالِكون مثل غيرنا ؛ بالمرض ، بالخوف ، بالاعتياد ، بالجوع ، بالألم ، بموتِ الشّعور . . . ، بأيّ وسيلةٍ من الوسائل في يد القتلة الأخفياء . وزمنُ مُكوثنا في مآسينا؟! مثلَ زمنِ مكوثِ الشّعاع العابر قُبّةَ السّماء .

أيّها الموتُ ؛ تهيّأ ؛ لقد أتيناكَ راضين فلا تردّنا خائبين . أيّها الحُزن ؛ تهيّأ ؛ لقد أتيناكَ عرايا فألْبِسْنا ثِيابَك ؛ سوداءَ أو بيضاءَ لا فرق ؛ فما عاد لونُ الحزنِ يُقلِقنا ، إنّه حزنٌ جميلٌ فحسب ؛ وهل للحُزنِ لونٌ ليفخر به على سائر الألوان ، لطالَما جمعَ الحُزنَ الضّدَّين في الموقف الواحد ؛ إنّه أبيضُ للرّاحل أسودُ للباقي!!

أيّها الجوع اشبعْ بِنا ، خُذنا لُقمةً سائغةً بينَ أشداقك ، فما عُدْنا ندري مَنِ الأكثرُ جوعًا بينكما ؛ أنتَ أم الحرب؟! أمّا أنتَ فتأخذُ من أجسادِنا حتّى لا تُبقي إلاّ على فتيلِ الحياةِ الذّابلةِ في أرواحنا ، ثُمّ تُقدّمنا للحرب لكي تطحننا ، كم أنتَ أنانيٌّ أيّها الجُوع ، تأخذُ اللّحمَ ولا ترمي لأختكَ الحربَ إلاّ هيكلاً عظميًا يكسوه جلدٌ رقيق؟! ألم تُدرك أنّه إذا كنتم إخوةً فاقتَسِموا ؛ فلم استأثرتَ بأكثرنا لك ، وتركتَ أقلّنا لسواك!!

أيّتها الحرب ؛ عذرًا إذا أتيناك ضامِرين ، فما كانَ ذلك بأيدينا ، كُنّا نحبّ لكِ ما نُحبّ لأخيك ، لكنّه استأثرَ بنا وما آثركِ . أيّتها الحرب اللّعينة ؛ ماذا يعني أن نصبحَ أيتامًا؟! فالنّجومُ يتامى . وماذا يعني أنْ نصبحَ وحيدين؟! فالأشجارُ وحيدة . وماذا يعني أنْ نصبح ثكالى؟! فالبحار ثكلى . وماذا يعني أن نموت؟! فكلّ شيءٍ سيموت ؛ القاتلُ والمقتول . حاملُ السّلاحِ وحاملُ الوردة . الضّحيّة والجلّاد . زارعُ الزّنبق

وناثر الشّوك . الضّاحك والحزين . اليائس والمُتفائل . الخائف والمُطمئنّ . النّائم والمُستيقظ . الذّاهب والعائد . كلّنا خُبزٌ للموت ذي البطن الّذي لا يشبع ، فيا لَعدالة الموت ؛ يا لَعدالةِ الموتِ المُطلَقة!!

القسم الأوّل

(١)
الله لا ينسَى أحداً ولا يهجرُ مؤمنًا

قال وهو يضمّها من الخلف : «لقد اختاركِ قلبي ، والقلب لا يكذبُ ولا يخون» . كانتْ لا تزال تقفُ أمام حوضِ الغسيل تجلي الصّحونَ المتناثرة فوقَ الحوض ، مسحتْ بكُمّها جبينَها ، وتخلّصتْ من ذراعَي زوجِها حينَ هزّتْ أكتافَها برفق ، ثُمّ حلّتِ (المريول) عن وسطها ، رمتْه في أحدِ الأدراج ، واستدارت لتواجهه ، نظرتْ في عينَيه عميقًا قبلَ أنْ تسأله بشيءٍ من الضّيق : «لقد كَثُرَ كلامُ النّاس يا جلال» . «لا يهمّني ما يقولون ، كُلّ شيءٍ في أيدينا عطاءٌ منه فلماذا لا يربطون عطاءه إلاّ في هذا الأمر ، أليسَ هذا جهلاً؟!» . «النّاس لا تُؤمن إلاّ بما ترى . . .» تنهّدتْ قبلَ أن تُتابع : «هل أنتَ راضٍ حقًا عن حالنا؟!» . «كلّ الرّضى يا حبيبتي . . . وكُلّ مُنتظَرٍ سيأتي ، اللّهفة لا تقرّب موعودًا ، وتجاهل الأمر لا يُبعِد مكتوبًا ، ما قدّره الله صارَ نافذًا فينا قبل لقائنا الأوّل . . .» . «إنّها السّنة الخامسة يا جلال . . .» تُشيرُ إلى بطنِها وتقول ساخرةً : «وهذا البطنُ لم يكبُر» . فيردّ عليها بحنوّ : «سيكبُر حينَ يريدُ الله له ذلك يا سلوى . . . أنا على يقينٍ يا حبيبتي» . يجلِسان على أريكةٍ في غرفةِ الجلوس ، يتابع جلال باسمًا : «ماذا أعددتِ لنا اليومَ من طعامٍ للغداء؟!» . «أوووف . . . أنتَ لا تسأل إلاّ عن بطنك . . . أعمال البيتِ كثيرةٌ وأنتَ لا هَمّ لكَ إلاّ الطّعام» . «ألم يقولوا أقصر الطّرق إلى قلبِ الرّجل معدته؟!» . تلتفت إليهِ غاضبةً

متعجّبةً : «إذا كان الطّبيبُ يقول ذلك ، فماذا تنتظرُ من النّاسِ العاديّين؟!» . «الشّيءَ ذاته ؛ ألسنا جميعًا في نظر النّساء ذكورًا مُتسلّطين؟!» . يقف ، يبتسم : «لا عليكِ يا حبيبتي ، أنا أيضًا تعلّمتُ بعضَ الطّبخ أثناءَ دراستي للطّبّ في لندن حينَ كنتُ أسكنُ عَزَبًا أنا وصديقٌ آخَر من دمشق . . . اسمه (عادل) ، كانَ صديقًا وفيًا بالفعل ، نحيلاً وطويلاً لدرجة أنّ ظهره في الأعلى كان يبدو فيه انحناءةٌ خفيفةٌ بسبب هذا الطّول الفارع ، وكان دائمَ البسمة لم أره ضَجِر من شيءٍ أبدًا ، وأكثرُ ما يُميّزه تلكَ الشّامّة الكبيرة الّتي تستقرّ في الجانب الأيمن من جبينه الوضّاح كأنّها ليلٌ في وسط نهار ، كانَ الأوّل على دُفعتنا ، وكانَ يحبّ العربيّة ، ويحفظ مئات من أبياتِ الشّعر وخاصّة الشّعر الجاهليّ ، خَدوم ، وعرفتُ لاحقًا بعد أنْ تخرّجْنا أنّ جامعةَ دمشق عيّنتْه أستاذًا ومُعيدًا في كلّيّة الطّبّ ، بالمُقابل كانَ طبّاخًا ماهرًا ، تعلّمتُ منه فنونَ الطّبخ الشّامي . . . أترينَ بعضَ الشّحوم القليلة الّتي تتراكم حول وسطي ؛ ثلاثةُ أرباعها قبل أن نتزوّج ؛ من طبخنا العربيّ المُميّز ، ولولا أنّنا كُنّا نقضي على بعضِ الدّهون بلعبِ كرة القدم في ملاعب الجامعة لكانتْ لي كرشٌ قد استفحلَ أمرُها كثيرًا . . .» يضحك وهو يقفُ على قدمَيه : «أمّا أنتِ فأستاذةٌ في الطّبخ الصّحّيّ ، لا دهون ، ولا زيوت قلي ، والرزّ يُسلَق بالماء ، واللّحم يُشفّى من شحومه ويُطبَخ بالبُخار ، إنّها طريقةٌ تليقُ بأخصّائيّة تغذية مُثابرة ، صحيحٌ أنّني قاومتُ أوّل زواجنا هذا النّوع من الطّبخ ، لكنْ أشهدُ أنّ صبركِ عليّ ودأبَك جعلاني أعتادُ عليه ، والآن . . .» . يصمت قليلاً ثُمّ يتابع : «هل أطبخُ أنا أم تطبخينَ أنت؟!» . تلتفتُ إليه مُحنَقَةً : «حينَ تعودُ من عملكَ في الوزارة سيكونُ الطّعامُ جاهزًا» .

عادتْ بها الذّكريات ؛ إلى مدرسة (سُكينة) ، مرّ العُمر سريعًا . . . ما أجملَ الماضي حينَ يكونُ خاليًا من التّبِعات ؛ كانتْ هُناكَ في أواخر الثّمانينات من القرن الفائت شجرةُ توتٍ عملاقة ترتفعُ في أرضٍ خاليةٍ شرقيّ المدرسة على يسار الطّريق ، حينَ كانتْ (سلوى) تصعدُ من مخيّم الحُسَين باتّجاه المدرسة مع زميلاتها في الصّباح الباكر كانتْ تعرّجُ على الشّجرة ، تتسلّقها هي و(فريال) صديقتها المقرّبة ، وأحيانًا تنضمّ إليهما (غادة) . كانتْ سلوى تجلسُ على جذعٍ غليظٍ في الأعلى ، وهيِ تُدلّي رجليها في الفراغ ، وتفعل (فريال) على جذعٍ مقابلٍ الشيء ذاته ، كانتا تأكلانِ حتّى تشبَعا ، جوعُ اليومِ الفائت كانَ ينتهي بمجرّد الجلوس هناك في أعلى الشّجرة لعشر دقائق ، كُنّ يسرقْنها من وقت الاستيقاظ الصّباحيّ لكيْ لا تتأخّرا عن المدرسة ، وحينَ تشبعان ، كانتا تتقاذفان بحبّات التّوت ، وتتسلّيان بقذفه في وجوه الزّميلاتِ الصّاعِدات من قعر المُخيّم كذلك .

تتذكّر لليوم معلّمة الرّياضيّات ، قالتْ للصّفّ مرّة : «أقصر الطّرق بين نُقطَتَين هي الطّريق المُستقيمة» وكانتْ تُردف ذلك بقولها : «أمّا بالنّسبة لكنّ ؛ فالطّريق المستقيمة هي أنْ تعثرْنَ على زوجٍ مُناسبٍ فور تخرّجكنّ من هذه المدرسة!!» . تتذكّر كذلك معلّمة التّربيةَ الإسلاميّة كانت دائمًا تردّد : «الله لا ينسَى أحدًا ولا يهجرُ مؤمنًا» . تكرّرها ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا ، ثُمّ يعلو همسُ الطّالِبات : «لقد نسيها زوجها بعدَ أنْ هجرها إلى أخرى» . وتتذكّر كذلك معلّمة اللغة العربيّة الّتي كثيرًا ما كانتْ تتفلسف ، فتقول : «المُبتدأ لا بُدّ له من خبرٍ وإلاّ كانت الجملة ناقصة ؛ وكذلك الكون ؛ إذا اعتبرنا الكونَ مبتدأً فلا بُدّ له من خبرٍ ، وخبره يومُ القيامة ، لا بُدّ لكلّ بدايةٍ من نهاية» ، ثُمّ تُتبع ذلك بعبارتها

الشّهيرة الّتي تحاول أنْ تقدّمَ نفسَها حكيمةً من خلالها : «الصّبرُ على البدايات يُفضي إلى نتيجة محمودةٍ في النّهايات . . إيّاكُنّ يا بناتي أنْ تستعجلْنَ النّصيب» . رُبّما اليوم تبقى هذه العبارة الأكثر علوقًا في الذّاكرة ، لأنّها تُعبّر عن حالةِ الانتظار السّقيم الّذي تعيشه منذ خمسِ سنواتٍ على الزّواج بفارس الأحلام .

كانَ طبيبًا حديثَ التّخرّج ، متفوّقًا ، أوفدتْه الحكومة الأردنيّة في بعثةٍ إلى بريطانيا ، درسَ الطّبّ في أربع سنواتٍ وعادَ متخصّصًا في الطّبِّ الوقائيّ ، وطبِّ الأزمات . انتدبتْهَ وزارة الصّحّة فورَ عودته لكي يزورَ بعضَ المدارس ويقدّم بعضَ النّصائح والتّوصيات . وكانتْ مدرسة (سُكَينة) هي إحدى المدارس الّتي زارَها في شهر شباط من العام ١٩٩٦م .

كانتْ (سلوى) ذات العينَين الواسعَتَين الخرّوبيّتَين تلبسُ معطفًا كُحليًا أهداهُ لها خالُها الّذي زارهم في الشّتاءِ الماضي بعدَ ثلاثين عامًا عاشَها في ولاية فرجينيا الأمريكيّة حينَ تركَ أباه صانع الأواني النُّحاسيّة وحيدًا في مَعمله ، وهربَ ليعيشَ حياةً أفضلَ من حياةِ البُؤسِ الّتي كانَ يعيشُها . كانتْ سلوى تقفُ ثالثةً في طابورٍ بقي منه سبع أو ثماني طالبات . أصابَها شيءٌ من الملل لطول الانتِظار ، فصارتْ تتحدّثُ بصوت مرتفع ، كانَ هذا أوّل جرسٍ في قائمة الإنذار الطّويلة الّتي ستغيّر كيانَ الطّبيبِ الشّابّ ، كانتْ سلوى تترنّم بصوتٍ مخمليٍّ هادئٍ بقصيدة علي محمود طه ، الّتي كانتْ مقرّرةً في المنهاج الدّراسيّ :

أخي جاوزَ الظّالمون المدى
فحقّ الجهادُ وحقّ الفِدا . . .

أنتـركـهم يغـصـبـون العـروبةَ
مــجــدَ الأبــوّة والسُّــؤددَا!!

ولمّا وصلَ إليها الدّور كانتْ لا تزال تترنّم :

(فَـجَـرِّدْ حُـسـامَكَ مِنْ غـمـده
فليسَ لـه بعــدُ أنْ يُغــمَــدَا)

صعدَ إليها بنظره تارِكًا التّقريرَ الّذي كان يملؤه لزميلتها الّتي سبقتْها ، كأنّما جرّدتْ عليه حسامها من غِمدِ جَفنَيها ؛ التقتْ عيناهما في منتصفِ المسافةِ تمامًا في القلب ، تركَ القلم يهوي من بين أصابعه على التّقرير ، طافتْ بخياله بنات إنجلترا ، كلّ النّساء اللّواتي مررنَ بحياته الجامعيّة وقفنَ كهياكلَ من كرتون ، وباستعادةٍ أخرى لضوء عينَي هذه الطّالبة كُنّ يحترِقْنَ سريعًا ، ويتحوّلْنَ في لحَظاتٍ إلى رماد . نفضَ رأسَه ليستعيدَ توازنه من هذيان الخيال الّذي أصابَه للتّو ، وفتحَ عينَيه من جديد عليها ، كانَ المعطفُ يكشفُ عن جسد نحيلٍ لكنّه ممشوق ، وطُولٍ بَهِيٍّ لكنّه غير فاحش ، ووجه يميلُ إلى السّمرةٍ لكنّه لامع ، وخَدَّين ممتلِئَين لكنْ دونَ أذى ، وشَعْرٍ أسودَ فاحم معقودٍ إلى الخلف في كعكة دائريّة يظهر طرفها من خلفِ الرّأس . ابتسمتِ الفتاةُ في وجهه ، لم يقلْ هو شيئًا ، تابَع الابتِسامةَ من بِدايَتها وهي ترتسمُ فتكشفُ عن صَفٍّ مُنتظَم من اللئالي ، وخَدّين زادا امتلاءً مع اتّساع الابتسامة ، وغمّازتان لوزيّتان كعيونِ المها عميقتان ، عميقتان بشكلٍ سافرٍ . طلبَ من الممرّضة المُساعدة متعلثمًا : «وزنُها؟!» حالَفه الحظّ من جديدٍ وهي تُديرُ ظهرها إلى الميزان أنْ يراها من زاويةٍ مُختلفة ، مشتْ واثقة ، بدا ذيلُ الكعكةِ يهتزّ من الخلف . . . ، «٥٨» أجابتْ المُمرّضة ، ابتلعَ ريقَه وهو يُسجّل الرّقم في التّقرير ، طلبَ منها أنْ تكشفَ عن

ساعِدها ، خفقَ قلبُه وهي تفكّ أزرار المعطف ، ثُمّ تثني كُمّ المريول الأخضر رويدًا رويدًا . . . أشاحَ برأسه ؛ لم يستطعْ أنْ يُتابِع النّظرَ إليها ، شيءٌ ما صدّه عن ذلك ، مع أنّ ذلك هو ما فعله مع مئات الطّالبات من قبل ، نظرَ نظرةَ استجداءٍ إلى الممرّضة : «أنتِ أعطِها الإبرة» .

في الصّفّ عندما عادتْ ازدادت ابتسامتها اتّساعًا ، غمزتْ صديقتَها (فريال) بدلال ، وقالتْ : «يبدو أنّني أسيرُ في أقصر الطّرق - كما قالتْ معلّمة الرّياضيّات - بِخُطًا واثِقة» . ردّتْ عليها صديقتُها الّتي رأتْ كُلَّ شيءٍ مُحنَقَة : «يبدو أنّ طريقَ الأحلامَ ليسَ قصيرًا كما تظنّين» . أجابتْها : «هل أفهم من ذلك أنّ أعزّ صديقاتي تحسدني على ما حدث معي اليوم ؛ أليسَ من المفترضِ أنْ تفرحَ لفرحي» . «الحلم سرعان ما ينتهي بعدَ الاستيقاظ» . قالتْ لها فريال ذلك وهي تُعطيها ظهرها .

بعدَ أسبوع من تلك الحادثة ، زارهم الطّبيب جلال مرّةً ثانية ، استبقَ دهشةَ المديرة وأسئلتها بإبراز كِتاب وزارة الصّحّة المُوجّه إليه لإعطاء مطعوم الإنفلونزا الّذي تقدّمه الوزارة مجّانًا لبعضِ المدارس . كانتْ مدرسةَ (سُكينة) من ضمن مهمّاته ، قالَ لممرّضة المدرسة ، ابدئي لي بصفّ التّوجيهي فالأصغر ، في الممرّ تهامستْ (سلوى) مع (فريال) : «أمعقولٌ أنْ يكون هو؟!» . ردّتْ عليها : «ولا في الأحلام» . في عيادة المدرسة بدا مهيبًا من خلفِ نظّارته المُستطيلة ذات الإطار الأسود ، غمزتْها سلوى قائلةً : «الأحلام تتحقّق سريعًا يا عزيزتي» . ثُمّ ضحِكَتْ بصوتٍ مسموع .

أمسكَ هذه المرّة يَدَها ، بدتْ سمراءَ ناعمةً ، مصقولةً كالرّخام ، ومشدودةً ، مسحَ بالقُطْنِ أعلَى عضدها ، راحَ نفَسُه يتصاعد ، ندّتْ

قطراتٌ من العرق من جبينه وهو مُنحنٍ فسقطتْ على ذراعها مثلَ حبّتَي لؤلؤ ؛ شَفّافَتين وبارِدَتين!! شعرتْ برعشةٍ تسري في جسدها ، همّتْ بأنْ تسحبَ ذراعها من يده ، فضغطَ عليها برفقٍ أكبر ونظرَ في عينَيها متوسّلاً ألاّ تفعل ، كانتْ عيناه بحرًا هادئًا فاستسلمتْ للغرقِ فيهما . لحيتُه الخفيفة المُشذّبة ، ووجهه الأبيض المشوب بالحُمرة ، ونظراته العاشقة جعلتْها تتراجع عن سحبِ يدها . تناولَ الإبرة ، سحبَ المصل ، ضغطَ على الكابِس فنزّتْ بعضُ القَطَرات ، رفَعَها أمامَ عينَيه وقفتِ الإبرةُ بسائلها بينهما شاهدةً على مشاعرَ تتأجّج ، صافيةً كماء الإبرة ، حادّة كطرفها ، وفيها الشّفاء ولو آلمتْ قليلاً . غاصت الإبرةُ في اللّحم الطّريّ ، سحبَ الأنبوبة ، وعادَ فوضع القُطنَ مكانَ الغرزة ، وضغطَ عليها ، وابتسمَ في وجهها بلطف : «لن يزوركِ الفيروس ، إلاّ إذا كانَ حميدًا» .

في الصّفّ لم تقلْ شيئًا هذه المرّة ، كانتْ تمزح ربّما في المرّة الأولى ، هذه المرّة منعها الموقف من أنْ تقولَ كلمةً واحِدةً ، ظلّ أثرُ يده البارِدة على ذراعها السّاخنة يتفاعل حتّى أنّها نسيتْ من حولَها ، كانتْ تستعيدُ تفاصيلَ المشهد وهي ذاهلةٌ عن نفسِها ، أيقظَها صوتُ (فريال) ، وهي تشدّها من ذراعها : «استيقظي يا مجنونة . . . لقد قُرِع الجرس» . في الممرّ المؤدّي إلى السّاحة ومن ثَمّ إلى البوّابة ، كانتْ تسمع كلمات صديقتها دون أنْ تردّ عليها : «هل فقدتِ عقلكِ يا سلوى؟! مَنْ سينظر إلى بنت فقيرة ، فقدَ مريولُها الأخضر لونه لأنّها تلبسه منذ ثلاثة أعوام ؛ فهي لا تملكُ مالاً لتشتري مريولاً جديدًا ، مَنْ سيلتفتُ إلى طالبةٍ قادمةٍ من قعر المخيّم ، تجعل من شجرةِ التّوت فطورها وغداءَها وعشاءَها . . . وتملأ من هذا التّوت كيسًا لكي تأكلَ منه

عائلتُها . . . استيقظي يا صديقتي . . . هذا الشّابّ الوسيم ذو الأعوامِ الثّلاثةِ والعشرين تخرّج في أرقى الجامعات من بريطانيا ، هل هو أحمق لكي يلتفتَ إلى فتاة بائسة مثلك!!!» .

لّما انقضى الشّتاءُ كانَ الطّبيبُ الشّاب قد زار المدرسة أكثر من خمس مرّات ، وكان يحملُ في كلّ مرّةٍ كتابًا جديدًا من وزارة الصّحّة ، يُسندُ إليه المهمّة التّي قَدِمَ من أجلها .

(٢)
القلبُ قد أضناه عِشْقُ الجمالْ

قفزتْ قطّة مذعورةٌ أمام سَيّارة المرسيدس ذات اللّون الزّيتي والحديثة الصّنع ، ماءتْ وهي تحاول الإفلاتَ من عجلاتِ السّيّارة لتُلاحِقَها حجارةُ الأطفال المُصوّبة نحوها بدِقّة ، ثُمّ لتصعدَ درجاتٍ إسمنتيّة طائرةً في الهواء بدون (درابزين) على طرفَيها ، وينتهي بها الحال بينَ يدَي طفلٍ آخر يمدّ لها إناءً مملوءاً بالماء ، فتشرب وهو يُربّتُ على ظهرها ، قبلَ أنْ تستقرّ في حضنه . كانتِ السّيارة تمضي عبرَ شارعٍ مُحفّرٍ ، امتلأتْ حُفره بالمجاري الّتي تبعثُ في الجوّ رائحةً خانقةً لا تُطاق ، وعلى جانبَي الشّارع اكتظّتْ منازل متراصّة من الإسمنت ، ظهرتِ الحجارةُ الصّغيرةُ الّتي خُلِطتْ معه على الجانِبَين ، وكانت بعضُ الأسلاكِ الحديديّة تظهر وتختفي بين الحجارة والإسمنت وقد علاها الصّدأ ، أمّا أسقفُ المنازل فقد كانَ بعضُها لا يزال يحتفظ بمادّته الأولى من (الزّينكو) .

قال له أبوها : «نحنُ كما ترى لا نملكُ شيئًا ، وابنتُنا ترغبُ في إكمال دراستِها» . ردّ جلال بأدبٍ مُبالَغ فيه : «وأنا أيضًا أرغب في أنْ تُكمِلَ دراستَها الجامعيّة يا عمّي» . «لقدْ اختارتْ تخصّص تغذية في الجامعة الأردنيّة» . «موافق» . «وعلى حسابك ، نحن فقراء ، وحالُنا تُغني عن الشّرح» . «موافق» . «لقد قلتَ لي إنّكَ تسكنُ في

الجبيهة؟» . «نعم يا عمّي» . «لا نريد لابنتنا أن تسكنَ بعيدًا» . «أين تريدُني أنْ أسكن؟!» . «في جبل الحسين ، ستظلّ ابنتنا بذلك قريبةً منّا نوعًا ما» . «موافق» . «والبيتُ لا يسكن فيه معكما أحدٌ» . «موافق» . «نحنُ لا يهمّنا بعدَ ذلك أيّ شيء ، تفاصيل الحفلة بالاتّفاق فيما بينكما» .

كانَ عليه أنْ يخرجَ من وزارة الصّحّة ، ويمضي بسيّارته عبر شارع الاستقلال حتّى إذا اقتربَ من دوّار الدّاخليّة كان عليه أنْ يلتفّ حوله متجاوزًا النّفق الّذي يمضي باتّجاه رأس العين ، ويجعل جسر الدّاخليّة الذّاهب باتّجاه العبدلي فوقه ، ثمّ ينفتل يسارًا باتّجاه جبل الحسين ، حتّى إذا تجاوز أرضًا خاليةً كبيرةً غالبًا ما تُقامُ فيها مهرجانات الألعاب في الأعياد ، كان عليه آنئذ أنْ ينعطفَ يمينًا باتّجاه وزارة الأوقاف ، وبعدَ أنْ يكونَ قد عبرَ بعضَ المحلّات التّجاريّة يجد نفسه في شارع خلفيّ هادئٍ بالنّسبة لضجيج شارع فراس ، وأمام أربع عماراتٍ سكنيّة ، كانتْ عمارته الّتي اشترى فيها شقّة في الطّابق الثّاني هي العمارة الثّالثة ، شقّة قديمةٌ نوعًا ما ، لكنّه جدّدها وحَرَص على أنْ تكونَ لائقةً بعروسةٍ حبيبةٍ كسلوى .

وها هو يُدير مفتاحَ الشّقّة ، ليدخل البيتَ بعدَ يوم شاقٍّ من العمل في الوزارة ، حينَ دخل كانتْ زوجته قد انتهتْ من إعداد طعامِ الغداء ، رآها تضع آخرَ طبق من الأطباق على المائدة وهي تتحسّس بطنَها ، فبادرَها مُمازِحًا : «أمعقولٌ أنّ بطنَكِ كبر في غيابي منذ الصّباح» . لم تردّ بكلمة . جلسا يأكُلان بصمت ، لم يكنْ من شيءٍ ليُسمَعَ إلاّ صوتُ مضغهما ، يقطعُ لقمة الخُبز ، يُهيّئها ، يغمسها في صينيّة الدّجاج المشويّ والبطاطا ، يبحثُ جاهِدًا عن مَرَقةٍ في الصّينيّة فلا

يجد ، يكاد يغصّ باللّقمة النّاشفة ، يبحثُ عن شيءٍ يُبلّع اللّقمة ، تُناوله سلوى علبةً من الشّنينة ، يرتشفُ منها ، يجد طعمها غير مُستساغ ، ولكنّها قوانين الصّحّة الّتي يجب ألاّ تُتَجاوز ، يكرع منها ما يكفي لإنزال اللّقمة ، ثُمّ يُتبعها بكأسٍ من الماء البارد ، وهو ينظر إليها حانقًا لها على الكلام ، تتكلّم أخيرًا : «إلى متى ستُبقي الأمر دونَ عِلاج؟» . شعر أنّ العبارةَ قد طعنتْه ، توقّف عن ازدراد اللّقمة الّتي كانتْ في فمه : «لماذا تُلحّين على الأمر بهذه الصّورة ، ألا يُمكن أن نصبر قليلاً» . «إنّها خمسُ سنوات وأنتَ ما زلتَ تقول لي أن نصبر ، النّاس يصبرون سنةً أو سنتين ثُمّ يفحصون بعدها» . «أنا لستُ من هذا الصّنفِ من النّاس» . فتردّ عليه بغضب : «على حِساب أنّكَ مُتعلّم ، إذًا ماذا يقول الجَهَلة؟!» . يُجيبها بشيءٍ من العصبيّة وقد وضع اللّقمةَ في الصّينيّة : «أنتِ ماهرةٌ في التّنكيد عليّ» . «أنا أريدُ أنْ أعرفَ هل أنا زوجة حقيقيّة تريدُ أنْ تُصبحَ أُمًّا أم أنّني مجرّد فتاة جامعيّة تقضي معها شهوتَك» . يقفُ على قَدَمَيه ، يتناول كأسًا أخرى من الماء ، يشربها دُفعةً واحدةً ، يأخذ نفَسًا عميقًا وهو يشدّ على شفتَيه ، يضع الكأسَ على الطّاولة ، ويُغادر .

يقودُ سيّارته من الجهة الخلفيّة ليقفَ على إشارة المستشفَى الإسلامي ، يعبر دوّار الدّاخليّة ، ويشدّ على ضاغطِ البنزين مُيمِّمًا شطرَ السّلط ، يتجاوز الجامعة الأردنيّة ، وصويلح ، والكماليّة ، ويُطلِق لخياله العنان في الطّريق الخالية تقريبًا ، يظلّ يتنفّس بسرعةٍ ، تتفاعل في أعماقه آلاف الصّور والكلمات والذّكريات ، يتجاوز السّلط ، ويهوي باتّجاه الغور في طريق العارِضة ، يستمع إلى رباعيّات الخيّام بصوت أمّ كلثوم ، يستوقفه المقطع الّذي يقول فيه :

القلبُ قـد أضناه عِـشْقُ الجـمـالْ
والصّـدرُ قـد ضـاقَ بما لا يُقـالْ
يا ربُّ هل يُرضِـيكَ هذا الظَّمَـا
والماء ينسـابُ أمـامي زُلالْ

كانَ الشّارع أفعى كثيرةَ الالتواء لا تجعله يستمتع بمناظر الطّبيعة الخلاّبة من حوله ، تحينُ منه التفاتةٌ أحيانًا إلى يساره ، فيُشاهد جبال فلسطين ووادي الأردنّ ، يحلّق عاليًا باتّجاه الشّمس الّتي بدأت تختبئ خلف الجبال البعيدة ، يسرحُ بخياله بعيدًا مُحاوِلاً أنْ يتخلّصَ من أعباءِ الحياة ، وضغوط العملِ ، يشعر أنّه يجب أنْ يهبَ نفسَه للآخرين ، لم يعدْ للحياة معناها أوّلَ ما سافرَ إلى لندن ، كانَ لديه هدفٌ واحدٌ وقد حقّقه بجدّ ومثابرة ؛ وها هو طبيبٌ يُشارُ إليه بالبنان ، ولكنّ روحه لا تحبّ الهدوء ، ولا تركنُ إلى الدّعة ، ولا تستسلم للرّوتين ، كان دائمًا ما يشعر بأنّ روحه طائرٌ لا يعرفُ لها مُستقرّاً ، لم يعدْ إلى الأردنّ لِيدفنَ عِلمَه ومواهبه في وزارة الصّحّة قابِعًا خلفَ المكاتب يوقّع على بعضِ الأوراق ، أو يخرج في طلعاتٍ كَشفيّة على بعضِ المصانع التّابعة لرقابة الوزارة!!

مرّ بجانبِ سيّارة شرطةٍ رابضةٍ على الطّريق ، كانَ ضوؤها اللاّمع قد قطعَ عليها خيطَ خيالاته ، خطفَتْه أشجار الصّنوبر الشّاهقة من نفسه مرّةً أخرى ، حينَ صادفتْه أوّل انعطافةٍ في الطّريق المُتعرّج اتّخذها عائدًا باتّجاه السّلط ، كان قد سار أقلّ من عشر دقائق حينَ برز له مقهىً يربضُ فوق سفح الجبل على جانب الطّريق ، كانَ آخر ما سمعه من الرّباعيّات قبل أنْ يركنَ سيّارته هناك :

يا عـــالِمَ الأسـرارِ عِلمَ اليـقينْ

يا كـاشِفَ الضُّـرِّ عن البـائِسينْ

يا قـابِلَ الأعـذار فـئنا إلى

ظِلِّكَ فَـاقْـبَلْ توبةَ التّـائبينْ

نزلَ إلى المقهى، كان مُكوّنًا من قِسمَين، اختارَ القِسمَ المكشوف، جلسَ في الهواء الطّلق، كان الوقتُ خريفًا، عبرتْ نَسَماتٌ باردة وجهه فشعرَ ببعضِ الرّاحة، كان اللّيل قد بدأ هبوطَه التّدريجيّ، شاهدَ قُرصَ الشّمسِ الأحمر وهو يغطسُ خلفَ جبالِ فلسطين، ظنّهما عاشقَين؛ أحدهما اختفى في الآخَر وذاب فيه، «لا بُدّ لأحد أن يختفي من أجلِ أنْ يظهر الآخر»، قال ذلك لنفسه، خطر بباله أنّ هذا ما يُمكن أنْ يحدثَ بينهما، المشاكل بدأتْ تزيد، وسلوى الّتي تطمح أن تُصبح أُمًّا غيرُ قادرةٍ على أنْ تتقبّل الأمر كما هو، إنّها تريدُ طِفلاً ولو بأيّة طريقة؟! صار يتخيّل حوارًا قائمًا بينهما: «وافترضي يا سيّدتي أنّ هذا لم يحدث، وأنّ الحمل لم يتمّ، وأنّني لم أذهبْ إلى طبيبٍ لأفحصَ فحولتي، فماذا ستفعلين؟! ستهربين؟! ولو افترضْنا أنّ هذا أيضًا حدث؛ فإلى مَنْ ستهربين؟ إلى أهلكِ في المُخيّم؟! يعني ستهربين إلى الجحيم!!! غير معقول... أعتقد أنّني أنا الّذي سأهرب... ولكنْ أنا أيضًا إلى مَنْ أهرب...؟! يا سلوى، لا حلّ إلاّ بأنْ يهربَ أحدُنا إلى الآخَر، لقد خُلقتُ لأكونَ لكِ وخُلقتِ لتكوني لي، فلماذا كلُّ هذا العناد؟! ستقولين الطّفل. لا بأس. أنا أيضًا أريدُ طِفلاً تزداد بوجوده حدائقُ بهجتي، مَنْ قال لكِ إنّني لا أريدُ طفلاً يملأ حياتَنا كما تريدين وزيادة. ولكنْ لماذا العَجَلة؟! هل أحدٌ يركضُ خلفنَا بسوطٍ وسيجلدنا به إنْ لم ننجب هذا الطّفل؟! هل سيكتبون اسمَينا في قوائم المحكوم

عليهم بالإعدام إنْ لم نبذُر تلك البذرة الصّالحة؟! تريّثي قليلاً يا حبيبتي . لا تدعي استعجالكِ يُعكّر صفوَ ماءِ الوداد الّذي بيننا . . . لكنّني أعرف . . . نعم أعرف . . . أنتِ لا تُحبّينني كما أُحبّك . . . أنا أحببتُكِ من كلّ قلبي في صباح ذلك اليوم من شباط في ذلك الشّتاء قبل خمس سنواتٍ وأنتِ لم تفعلي . . . أنا متأكّدٌ أنّكِ لم تفعلي ، كلّ ما كان يهمّكِ أنْ ترتبطي بطبيبٍ متخرّج في أوروبّا مثلي . . . ربّما إطار النّظارة الأسود جذبكِ قليلاً . . . ربّما الشّوق المُستعِر في عَينَي وأنا أنظر إلى عينَيك جذبكِ قليلاً نحوي ، لكنّكِ لم تحبّيني من كلّ قلبِك كما فعلتُ . . . أمّا أهلُكِ فقالوا : فرصة ، إنّه لا يطرق بابَنا المنسيّ طبيبٌ غنيٌّ كلّ يوم . . . وأنا؟! أنا الضّحيّة في كلّ هذا . . . وفوق كلّ ما وهبتُه لكِ وصنعتُه من أجلك ، تجلدين ظهري في كلّ يوم بسؤالكِ اللّعين : لماذا ليسَ لدينا طفلٌ حتّى اليوم؟! هل تريدين حقًّا جوابًا يُسكتُكِ ويُخلّصني من نُباحكِ كلّ صباح . . . السّبب أنّني أنا عقيم ، نعم أنا عقيم . . . هل ارتحتِ الآن؟! هل سكتتِ العواءات الّتي تنهشينني بها في كلّ حين!! نعم . . أنا لا أنجب ؛ حيواناتي المنويّة ليست قادرة على التّلقيح ، وهي ضعيفةٌ إلى الحدّ أنّها تموتُ قبل أن تخطو نصفَ خطوةٍ باتّجاه البويضات الخصبة الّتي تتمتّعين بها . . . هاه . . . هل أعجبتْكِ هذه الإجابة؟! إذًا فلتتوقّفي عن حفرِ رأسي بفأسِ الأسئلة الّتي لا تنتهي . . . أرجوكِ توقّفي عن ذلك . . .» .

سقطتْ جمرةٌ من رأسِ الأرجيلة الّتي ظلّ مُمسكًا بخرطومها دون أنْ يسحبَ منها نَفسًا واحدًا ، أحدثَ سقوطها على الصّفيحة المعدنيّة صوتًا خفيفًا ، كانَ هذا الصّوتُ كفيلاً بإيقاظه من بحر تساؤلاته ، وكفيلاً بأنْ يُنهي الحوار المُتخيَّل الدّائر بينه وبين زوجته . تلفّتَ حوله ،

كان المقهى في القسم المكشوف خاليًا من الزّبائن ، بدأ اللّيلُ يسودّ ، راحتْ مصابيح البيوت البعيدة في مدن الغور وفلسطين تتلألأ في اللّيل البهيم ، كانَ منظرًا مدهشًا ، استطاع أنْ يُريحَ بعضَ الأثقال الجاثمة على صدره وهو ينقّل نظره بين الأفق حيثُ تبدو الأضواءُ البعيدةُ كما لو كانتْ نجومًا تناثرتْ على الأرض ، وبينَ السّماء حيثُ كانت النّجومُ تتراقص طروبةً غيرَ آبهة بما يحدثُ فوق سطح الأرض ، تمنّى لو أنّه مثل هذه النّجوم : «لها قلبٌ ضاحكٌ ، وصدرٌ خالٍ من الهموم» . سحبَ نَفَسًا تلو الآخر من الأرجيلة ، شعر وهو ينفثُ دخانها في الهواء ويُحرّكه يمنةً ويسرةً أنّه يتخفّف بعضَ الشّيء من أثقاله . بدأتِ الزّبائن تَفدُ إلى المقهَى . تناهَى إلى سَمْعه بعضُ أحاديثهم اليوميّة ، وقهقهاتهم الّتي بلا معنى . فضّل أنْ يقوم . البقاء لن يُساعده على مزيدٍ من الاسترخاء . نهض . نقدَ صاحبَ المقهَى ثمنَ الأرجيلة والقهوة السّادة ، وركبَ سيّارته عائدًا .

كانتْ مئذنة مسجد (أبو قورة) للقادم من جهة جريدة الدّستور تبدو كأنّها تشقّ مساكنَ عمّان نصفَين ، وقبلَ أنْ يهوي إلى نفق الصّحافة كانتْ سمّاعات المسجد تصدحُ بأذان العِشاء . ردّد في سرّه : «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله» . وواصلَ سيره باتّجاه شقّته في جبل الحسين . أدار مفتاحَ الشّقّة ، ودفعَ الباب بهدوء ، رأى سلوى تجلسُ متحفّزةً على أريكةٍ في غرفةِ الجلوس ، تأكّد أنّه لو فتحَ فمه بكلمةٍ فستنشبُ بينهما حربٌ طويلة ، ولذلك آثرَ الصّمت ، انسلّ مثلَ أرنبٍ إلى غرفةِ النّوم ، دسّ جسده في الفِراش ، وراحَ يستحلفُ النّوم أنْ يزوره قبل أنْ تحدثَ أيّةُ طامّة!!

(٣)
لا شيءَ ينبغي له أنْ يلوّث ما بيننا

في الصّباح تغيّرتْ أشياءُ كثيرة ، كانتْ بانتظاره ، بَهِيّةً كأنّما يراها لأوّل مرّة ، جميلةً كأنّما قضت اللّيل وهي تتزيّنُ له!! حدّث نفسَه مُتعجّبًا : «إذًا لم تكنْ غاضبة!!» . ظلّ حَذِرًا ممّا سيأتي . قالتْ له بدلال : «أعددتُ لنا فُنجانَين من القهوة على الشّرفة ، ريثما تنتهي من غسيل وجهكَ سأكونُ بانتظارك» . ازدادَ عجبُه ، لكنْ أيضًا ازدادَ حذره . في الحمّام نظر في المرآة كانتْ عيناه تنطقان بتعب مُتخثّر ، عرفَ أنّ الأمرَ في القلبِ أو في الرّوح ، فالعملَ ليسَ شاقًّا إلى هذا الحَدّ ، والمُرتّب الّذي يتسلّمه من الوزارة كافٍ لأنْ يعيشَ عيشةً مُرفّهة ، وخاصّة أنّهما وحدهما . غسلَ وجهه بالماء وراح يراقبُ تساقط القطرات المتبقّية من خلال لحيته المُشذّبة السّوداء الّتي شابَها شيءٌ من الشّقرة عند أسفل الذّقن . ظلّ ينظرُ في عَينَيه لفترة ، غاصَ في ماضيه يومَ كانَ طالبًا في الكلّيّة العلميّة الإسلاميّة ، توقّف عندَ صورته وهو في الثّامن ، شاركَ في صيفِ ذلك العام في مخيّم للطّلاّب في (العالوك) ، كانَ المُخيّم نافذته على العمل الجماعيّ التّطوّعيّ ، أحبّ كلّ لحظة في المخيّم ؛ إعداد الطّعام ، حراسة الخِيَم ، معالجة الجرحى بالإسعافات الأوّليّة ، وأكثرَ ما أحبّه تلك الفقرة الّتي جاءهم فيها موظّف من الجمعيّة الفلكيّة ، وبدأ يشرح لهم عن النّجوم والأبراج ، ويُريهم الكواكب ، رأى يومَها الكوكب الأحمر (المرّيخ) ، ورأى المُشتري

كذلك ، وتعجّبَ حينَ رأى القمر ، كانَ مليئًا بالحُفَر ، قال الفلكيّ إنّها نيازك سقطتْ على وجهه فبدا كأنّه مُصابٌ بالجُدَريّ ، تأكّد من أنّ الشّعراء لو كانوا يعرفون حقيقةَ القمر لما وصفوا حبيباتهم به . تذكّر أصدقاءَه يحيى وتيمور وعدنان ، جميعهم رافقوه في المدرسة حتّى النّهاية ، بعدَ ذلك تقاذفتْهم الجامعاتُ والدُّول . غسلَ وجهه مرّةً أخرى ، أبقى على كَفَّيْه فوق جانبَي وجهه وراح ينظرُ من جديدٍ في عينيه من خلال المرآة ، كانتَا قد بدأتا تتخلّيان عن احْمِرارهما ، رأى نفسَه في العاشر وهو يتسلّم جائزة التّفوّق الأكاديميّ ، قال له المدير : «اصنَعْ شيئًا لبلدِك ، العلامةُ ليستْ كُلَّ شيءٍ ، إنّها بوّابة الطّريق ، والطّريق فيها كثيرٌ من التّفصيلات» . لم يفهم كثيرًا ما قصده المدير يومَها ، لكنّه اليوم يبحثُ عن التّفصيلاتِ بالفعل ، الرّوتين الّذي في الوزراة قاتلٌ ، قاتلٌ للإبداع والعطاء!! توقّف من جديدٍ عندَ صورةٍ ثالثة : إنّها هو وأصدقاؤه الخِرّيجونَ في الثّانويّة العامّة كانَ الخامس على المملكة ، قال له أبوه : لقد كنتَ مصدرَ فخرٍ لنا ، فكنْ صورةَ بلدِكَ في بريطانيا ، هزّ رأسه وابتَسم : ما أسهلَ الحياةَ إذا واجَهتَها بشيءٍ من الجِدّ!! في الطّريق المُوصِل إلى كلّيّته والممتدّ عبرَ بِساطٍ أخضر ، وبأشجار الزّيزفون الّتي تُغطّي جانبَيه ، وعلى مقاعد خشبيّة تعلّم حُبّ الكتاب ، كانَ يقرأ بلا توقّف . لم يعرفْ من المملكة الّتي كانتْ لا تغيبُ عنها الشّمس غيرَ زملائه وزميلاته في الكلّية وغير الكتاب ، أقامَ حاجزًا بينه وبينَ أيّ شيءٍ آخَر باستثناء بعضِ مغامراته المجنونة في مخيّمات بعيدة فوق الهضاب الباردة ، هكذا كانَ يجدُ روحَه ، هناكَ في السّفر والمُساعدة ، كانَ طبّاخَ المُخيّم ، وطبيبَه ، ومُوزّع المهامّ عليه . نظرَ نظرةً أخيرةً إلى عينَيه ، رأى فيهما نسرًا يخفقُ بجناحَيه ، هتفَ دونَ أن

يسمعه أحدٌ مُخاطِبًا نفسَه : «خُلقتَ لتُحلِّق» . تناول المنشفة ، دعكَ بها وجهه سريعًا ، وفتحَ البابَ كأنّما تذكّر أنّه تأخّر عن دوامه ، على الباب من الخارج وجدها واقفةً بانتِظاره وفي يدها منشفةٌ كانتْ قد وقفتْ بها طوال الوقت لِتُعطيها له . مدّتْ بها نحوه . ابتسم . قال لها : «لقد نشّفتُ وجهي» . تقدّمتْ هي إليه ، وراحتْ برفق تُجفّف بعضَ القطراتِ المتبقّية على جانبَي الرّأس ، هتفتْ بصوتٍ حنونٍ : «الفنجانان لا يستطيعان الانتِظار أكثر ، وإلاّ بَرَدا» . مشتْ أمامه كأنّما تدلّه على الطّريق . كانتْ قد مدّتْ شرشفًا من المُخمَل فوق الطّاولة الصّغيرة المصنوعة من خشب الزّان والمحفورة بعناية عندَ زواياها ، وعلى صينيّة مُذهّبة استقرّ فنجانان من القهوة قد فَقَدا رغوتهما ، وبينهما كانتْ هُناك علبةٌ صغيرةٌ أنيقةٌ تضمّ حبّاتٍ من الشّوكولاتة الفاخرة ، وإلى جانبِ العلبة كانتْ هناك فازا كريستاليّة صغيرة مملوءةٌ إلى نصفها بالماء ، وموضوعٌ فيها وردتان جوريّتان حمراوان . جَلَسا مُتقابِلَين . نظرَ عن يمينه كانَ الشّارع خالِيًا إلاّ من بعضِ السّيّارات الّتي تقطعه بين فترةٍ وأخرى ، على الجانب المُقابِل بدتِ السّاحةُ الّتي يلعبُ فيها أولادُ الحارة كرةَ القدم غالِبًا في عصاري الأيّام ميّتة لا حياةَ فيها ، كانَ الأولادُ قد صنعوا الأهداف من براميل مُعبّأة بالبَحصة ، ومُثبّتٌ فوقَها عوارض خشبيّة بارتفاع مترين ، طريقةٌ قديمةٌ من أجل تحديد المسافةَ الكافية بين عارِضَتي الهدف . حوّل نظره عن السّاحةِ باتّجاه سلوى ، ابتسمتْ قائلةً : «أعرفُ أنّ شوقي لطفلٍ أضمّه بين ذِراعَيّ يُفقدني أعصابي أحيانًا ، فلا تغضبْ منّي» . ردّ عليها : «الأمور بخير . أراكِ لم تتهيّئي للذّهاب إلى الدّوام؟!» . «لقد أخذتُ إجازةً من الشّركةِ الّتي أعملُ فيها لمدّة أسبوع ؛ أريدُ أنْ أتفرّغَ للعنايةِ بك» . «العنايةِ بي؟!

أنا؟!» . «نعم ، أنتَ يا حبيبي ؛ شعرتُ أنّي مُقصّرةٌ في الأيّام السّابقة كانت الاستشارات الغذائيّة تنهال على الشّركة من كلّ الجهات وكان عليّ أنْ أردّ عليها جميعًا ، انغمستُ في العمل ونسيتُك ، وحتّى إنّني نسيتُ نفسي ، لا نهايةَ للعمل كما يقولون حتّى لو انتهى العمر ، دعْنا نسرقْ من أيّامنا لننعمَ بلحظاتِ صفاء لأنفُسنا» . تابعتْ وهي تتناول حبّةً من الشوكولاتة ، تُقشّرها ، وتُقدّمها لجلال : «لا شيء ينبغي له أنْ يلوّث ما بينَنا» . تناولَ من أصابعها حبّة الشّوكولاتة بشفتَيه ، قال وهو يُرجعُ ظهره إلى الوراء : «تستحقّين أسبوعًا للرّاحة ، ولو أردتِ أنْ تتركي العمل من أجلِ أنْ تظلّي مرتاحةً فلا مانعَ عندي ، نحنُ لا نحتاجُ المال ، حالُنا ميسورة ، ميسورةٌ جداً والحمدُ لله» . «أتركُ العمل؟! لا . . . لا . . . طولُ الجلوسِ في البيتِ يُصيبُني بالضّجر ، وربّما سيزيدُ من العصبيّة عندي ، لستُ مجنونةً لكي أؤذي نفسي بهذه الطّريقة . . . ربّما سأفكّر بتركِ العمل في حالةٍ واحدة ؛ إذا رُزقنا بطفل . . . آآآه . . . تخيّلْ يا جَلال ، لو جاء هذا المولودُ فسأهبه كلّ روحي ، ووقتي ، وحياتي ، سوفَ أركلُ الوظيفةَ بقدمَيّ من أجل عينَيه ، طفلٌ واحدٌ فحسب يا ربيّ ، هل أنا أطلبُ الكثير!!» . لم تكدْ تُنهِي كلامَها ، حتّى وقفَ كالملسوع ، نظرَ في ساعته ، قال لها : «يبدو أنّني تأخّرت» . ارتدى ثيابه على عجل ، ومن شرفةِ البيت ، راقبتْه وهو يستقلّ سيّارة المرسيدس ذاهبًا إلى عمله .

في البيت ، جلستْ وحدَها متمدّدةً على أريكة طويلة في غرفةِ الجلوس ، شغّلت موسيقَى هادِئة ، وراحتْ تحلم ، تخيّلتْ بطنَها يكبُر ، تكبُر بسرعة ، وضعتْ يدَها على بطنِها وراحتْ تقرأ آياتٍ من القرآن لتحمي الطّفل القادم من الأذى ، ها هي تُغادِر مع زوجها إلى

المُستَشفَى ، كانتْ ولادةً سهلةً ، لم تتألّم أبدًا ، نزلَ كما لو كانَ شعرةً استُلّت من كومةٍ من العجين ، لم يبكِ ، نزلَ ضاحكًا ، وها هي تختار له اسمًا ، اسمًا يليقُ بانتظاره الطّويل ، لقد اختلفا على تسميته ، زوجُها يُصرّ على الاسم الّذي اختاره وهي تستمتع بمُناكفته ، أبوكَ على العين والرّأس ، ولكنْ لماذا نظلّ أسرى لهذه العادة المَقيتة ، هل تريدُني أنْ أذكّركَ بأنّكَ مُتعلّم ، وأنّ هذه العادات من القرون الوُسطَى ، تعقّلْ يا رجل ، سَمِ الولد اسمًا يبقَى معه إلى الأبد ، ويفتخر به أمام زملائه ، ويرفَع رأسَه عندما ينادُونه به ، هل تريدُ هذه الأسماء التّقليديّة الّتي عَفا عليها الزّمن وأصبحتْ من الماضي السّحيق ، نحنُ نعيشُ عصرنا يا جلال لا عصرَ غيرنا ، تعرف . . . أحيانًا أشكّ بأنّك تخرّجتَ في أرقَى جامعات العالَم ، أشعر بأنّ جسدَكَ هو الّذي سافرَ إلى هُناك أمّا عقلكَ فقد ظلّ يعيشُ هنا ، بل ظلّ يعيشُ في عشرةِ قرونٍ ماضِية . . . ها هو يرضخ لرغبتها ، وها هي تضمّه بينَ ذراعَيها ، وها هي قد نزلتْ إلى السّوق قبل شهرٍ من ولادته لكي تشتري له خِزانةً كاملةً من الملابس . . . أيقظَها من خيالاتها صوتٌ عالٍ بدا أنّه قادمٌ من الشّارع ، نهضتْ ، تلفّتَتْ من حولها كانَ كلّ ما في البيتِ على حاله ، سارتْ باتّجاه الشّرفة ، ومن هناك رأتْ حادثَ اصطِدام وقعَ بينَ سيّارتَين ، وقد تجمهرَ عددٌ من النّاس حول الحادث ، وكانَ هناك اثنان يتصايحان ويتبادلان الشّتائم ، وقد هَمّا بأنْ يتعاركا لولا تدخّل بعض المارّة ، وتأكّدتْ أنّهما السّائقان ، سمعتْ أحدَ المتجمهرين يقول قبل أنْ تغلقَ باب الشّرفة : «بالمال ولا بالعيال يا شباب . . . بسيطة» .

عادتْ إلى المطبخ ، كلّما وقفتْ هناك تذكّرت العبارة المشؤومة ، لكنّ تاريخها في دراسة التّغذية وبراعتها في ذلك كانا يُلغِيان أيّة فكرةٍ

أخرى ، أعدّتْ طبقًا من الأرزّ المطبوخ بالبخار ، نقعت اللّحمَ في الخلّ فترةً قبلَ أنْ تنضّده في صحنِ شَيٍّ مستطيل في ثلاثة صفوف ، وتدفع به إلى الشّوّايةِ أسفل الفرن ، ثُمّ راحتْ تُقطّع البندورة والخيار والخسّ والجزر وتضيف إليها كمّيّة صغيرةً من البازيلاء الخضراء ، وتشكّل صحنًا مُتناسِقًا من السّلطة ، وترشُّ عليه زيتًا بلديًا صافِيًا ، ومقدار ملعقة صغيرةٍ من السُّمّاق . وضعت صحنَ السّلطة الجاهز في الثّلاّجة ، وانتظرتْ ريثما ينضج اللّحم والأرزّ .

عادتْ إلى غرفةِ الجلوس ، همّتْ بأنْ تُديرَ التّلفاز على محطّة (صحّتي) ، لكنّها تراجعتْ ، داهمَتْها الذّكرياتُ فجأةً ، كانتْ تستمتع باسترجاع الماضي ، أكثرَ ما كانَ يخطرُ في بالها في استعادتها للأيّام الخوالي ، تلك اللّحظة الّتي ضغطَ فيها جلال على ساعِدها برفقٍ راجِيًا إيّاها بنظرةِ عينَيه ألاّ تنزعَ ذراعَها من كفّه ، إنّها اللحظة الأصدق ، تُسمّيها هكذا من بينِ لحظات الحياة المليئة بالمُجاملة والنّفاق والكذب . واليوم بعد مرور أكثر من خمسِ سنواتٍ على تلك اللّحظة ما زالتْ تشعرُ بدفئِها وبأهمّيّتها ، بعضُ اللّحظات العابرة في الحياة ربّما تُشكّل الحياةَ نفسَها لصاحبها ، بعضُ النّظرات إذا دخلت القلب لا تستطيعُ كلّ الأحداثِ أنْ تنتزعها من هناك . . . اليوم هي تُعوّل على تلك النّظرة ألاّ تهدمَ ما عاشاه معًا ، تعوّل عليها أنْ تُبقي على شعلةِ الحبّ في الأعماق متّقدةً حتّى وإنْ كانتْ شعلةً ضئيلةً ضعيفة ، لكنّها موجودةٌ وباقِية ، واستعادة النّظرة الصّادقة كفيلةٌ بأنْ تبثّ الحياةَ فيها من جديد .

نبّهها جرسُ المُؤقّت الّذي شغّلتْه في الفرن على انتهاء وقتِ الشّيّ ، نفضتْ رأسَها ، وقامتْ إلى المطبخ ، أتمّتْ إعداد الغداء ،

وضعتِ الأطباق على طاولة الطّعام ، وجهّزتْ كلّ شيءٍ بأناقة مُبالَغة . لفّتْ رأسَها يمينًا ، وتشمّمتْ رائحةَ ثيابِها ، لقد كانتْ رائحة الطّبخ قد علقتْ بها ، تحسّستْ من ذلك ، بدا ذلك جليًا على تعابير وجهها ، دخلتِ الحمّام ، تحمّمتْ ، غسلتْ جسدها مرّتين قبل أنْ تغسلَ جسدها في الثّالثة بماءِ الورد ، خرجتْ سمراءَ فاتنة مصقولة ، لبستْ أحسنَ ثيابِها لزوجها ، إنّه الثّوب الّذي كان يحبّ أنْ يراها تلبسه له ، أهداه لها حينَ عادَ قبلَ سنةٍ من إحدَى سفراته إلى ألمانيا مُبتَعَثًا في مهمّة صحّيّة للتّعرّف على أحدث طرق الطّب في الأزمات ؛ التّخصّص الّذي درسه في مرحلة دراسته الطّبّ في بريطانيا . ورشّتْ من زجاجة العطر ثلاثَ رَشّات ، قبل أن تُربّت بأطراف أصابعها على صدرها المُكتنز ، ثُمّ تستدير بجذعها المشوق ، المصبوبِ صَبًا ، ذلك الّذي حافظتْ عليه كما لو كانَ لفتاةٍ في الثّامنة عشرة ، ثُمّ تغرز وردةً حمراء عندَ ملتقى الانفراجة في الثّوب النّيليّ الفاتن .

جلستْ إلى المائدة بكامل بهائها ، كانت السّاعةُ قد قاربتِ الثّانية والنّصف ، وهو موعدُ قدوم جلال ، راحتْ تتسلّى بتنسيق الأطباق وهي جالِسة من جديد ، تخاطبُ نفسَها : «ربّما هذا التّرتيب يُعجبه أكثر . . . كلاّ . . . هكذا أفضل . . . كلاّ . . . كلاّ . . . بل على هذا النّحو بلا شكّ هذا هو ما يُفضّله . . .» . السّاعةُ المُعلّقةُ على الحائط ذات الصّندوق الخشبيّ البنّي والبندول الّذي يتأرجح ببلاهةٍ ودون كلل راحتْ تدقّ معلنةً الثّالثة . قرصَ الجوعُ مَعِدَتها ، همّتْ بأنْ تأكل ، لكنّها تراجعتْ وهي تتخيّل أنّ جلالاً بكامل جلاله سوف يدخل اللّحظة ، صحيحٌ أنّه تأخّر ، لكن الغايب عذره معه كما يقولون ، ربّما الشّوارع مُزدحمة ، ربّما سيّارته تعطّلتْ ، ربّما انشغلَ بأيّ شيءٍ ، لكنّه

سيعود ، قليلٌ من الصّبر كفيلٌ بأنْ يحلّ أعقد المواقف ، هكذا راحتْ تفكّر . . . قامتْ مُضجَرةً ، عبرت المطبخ ، أطلّتْ برأسِها من الشّرفة ، لم ترَ أثرًا لسيّارته ، إنّها تعرف أين يصطفّ بالعادة ، كانَ مكانُها خالِيًا ، مدّتْ بصرها عابرةً الشّارع ، فوجدتْ بعضَ الأولادَ يلعبون كرة القدم في السّاحة الإسفلتيّة ، السّاحة الّتي تنازع الورثةُ على ملكيّتها فاستغلّها هؤلاء الصّبية ليفرّغوا فيها طاقاتهم ، بدَوا في كامل نشاطهم وبهجتهم ، كانتْ أعمارهم متفاوتة ، رأتْ صِبيانًا يشاركونهم اللّهو العفويّ ، بعضُهم بدا أنّه في الخامسة أو السّادسة لم يدخل ربّما المدرسة بعد ، تمنّتْ أنْ يكونَ لديها أطفال ، لا ليس أطفالاً هذه أمنية ربّما تبدو غير واقعيّة في حالتها ، طفلاً واحِدًا يركضُ ويصيحُ ، ويلعبُ بالرّمل ، ويُمسك الحجارة ، ويهرول باتّجاه لا شيء ، ويسقط ، ويبكي ، ثُمّ يقوم ، ويرمي في النّهاية نفسَه في حِضنها . . . علا صُراخُ الأولاد فجأةً ، وهووا يحضنونَ أحدهم ، لقد أحرزَ هدفًا ، بدا لها أنّ كلّ مَنْ يسعَى إلى غايةٍ لا بُدّ أنْ يحرز فيها هدفًا إذا ما استمرّ في سَعيه . . .
جاءتْ سيّارة (ميتسوبيشي) فِضّية من نوع (جالانت) تعرف أنّها لجارهم الّذي يسكنُ في الشّقّة المقابلة ، كانَ هذا الجار يعيشُ في الشّقّة شهرًا ويغيبُ شهرًا ، ولم تكنْ تعرف لا هيِ ولا جلال أين يذهب ، ولا طبيعةَ عمله . أطلقَ الجارُ (زامورًا) طويلاً من سيّارته حينَ رأى أحدَ الأولاد يقفز من الملعب الإسفلتي ليتبع الكرة الّتي تدحرجتْ باتّجاه الشّارع . . . كانَ هذا الزّامور كفيلاً بأنْ يُعيدها إلى الواقع . . . أينَ أنتَ يا جلال!! عادتْ إلى طاولة الطّعام ، كانَ يبدو أنّ الأطباق قد بدأتْ تبرد ، انتباتْها نوبةٌ من الحُزنِ المُفاجِئ ، همّتْ بأنْ تبكي ، بكتْ بالفعل ، أوقفتْ بكاءَها بعدَ لحظاتٍ وراحتْ تضحكُ مستغربة :

«أمجنونةٌ أنتِ؟! على أيّ شيءٍ تبكين؟!» . كفكفتْ دموعَها ، وقامتْ إلى المرآة المركوزة في الممرّ الواصل بين غرفةِ الطّعام والمدخل ، نظرتْ إلى نفسِها ، لا تزال فاتنة ، تلك الحمرة في عينَيها كانَ من المفترض أنْ تُشوّه المشهد ، لكنّها زادَتْها فِتنةً ، ضحكتَ وبكتْ في زفرةٍ واحدة . أصلحتْ هِندامَها من جديدٍ ، وخُيِّلَ إليها من صوتِ المصعد أنّ جلالاً قادمٌ ، ركضتْ باتّجاه الباب ، نظرتْ من خلال العين السّحريّة ، فرأتْ باب المصعد يفتح ، توقّف قلبُها للحظةٍ على أمل أنْ يكون (جلال) . خرجَ رجلٌ أربعينيّ يلبسُ نظّارةً سوداءَ على عينيه ، ويحملُ في يده كيسًا من الورق ، عرفتْ أنّه جارهم الّذي يسكنُ في الشّقة المقابلة ، سخرتْ من نفسها ؛ ألم ترَ سيّارته وهو يركنها قبل قليلٍ أسفلَ العمارة!!

عادتْ إلى طاولةِ الطّعام ، بدا كُلّ شيءٍ كئيبًا وتافهًا ولا قيمةَ له ، أرادتْ أن تصرخ ، أنْ تلعنَ حَظّها ، أنْ تتساءَل عن الأقدار الّتي تُكافئها بهذه الطّريقة المُؤلِمة على حرصها واهتمامِها بزوجها ، جرّبتْ أنْ تجلسَ دونَ أنْ تُفكر بشيءٍ ، قالتْ لنفسها كأنّما تبوح لها بسرّ : «فليذهب جلال إلى الجحيم ، أنا لا أريدُ أنْ أنتظره أكثر من ذلك ، إنّ هذا الرّجل الّذي يبدو أنّه طبيبٌ ومتعلّم ، لا يوجد بينه وبين هذه الطّاولة فرق ، إنّه متبلّد الأحاسيس ، لا مشاعرَ لديه ألبتّة ، ألم يُفكّر بي للحظةٍ وأنا أُعِدّ له هذه المائدة منذُ الصّباح؟! ألمْ يشعُرْ كم تعبتُ من أجلِ أنْ أُسعِده؟! أنا متأكّدة من أنّه لو جاءَ في منتصف اللّيل ، فسيأكل مثل الثّور ، ثُمّ يستلقِي على الفراش دون أنْ يقول كلمةَ شكرٍ واحدة ، وإذا ما اقتربتُ منه فإنّه سيخور مثل العجل قائلاً : «لقد كانَ يومًا مُتعبًا ؛ اعذريني يا عزيزتي» . أعذركَ أيّها الحجر الأصمّ ، أعذرك أيّها الحائط الّذي لا يعرفُ معنى أنْ تكونَ امرأةٌ مِثلي في حياته . . .!! كانتْ تشدّ

على يدها بشدّة وهي تتخيّل ذلك الحِوار ، لدرجة أنّها تألّمت ، كانَ هذا ما أيقظَها ، نظرتْ إلى السّاعة كانتْ تُشير إلى الخامسة . . . غَلَبها النّعاس ، ومن غَيظِها ، رمتْ رأسَها على الطّاولة ، وراحتْ في سُبات عميقٍ!!

(٤)
البحيرةُ تبدو من بعيد كأنّها سماءٌ تمدّدتْ على الأرض!

طرقَ الجرس ، فانتبهتْ قليلاً . أدار المفتاح في الباب ، ثُمّ دخل بهدوء ، كانتْ بينَ الصّحو والمنام ، رأتْ شبحًا يتهادَى في الممرّ قبلَ أنْ يدلفَ إلى غرفةِ الجلوس ، فزّتْ من مكانِها ، فركتْ عينَيها لتتأكّد من أنّها تراه بالفعل ، أرسلتْ نظرةً إلى السّاعة المُعلّقة على الحائط ، كانتْ تُشير إلى الثامنة مساءً ، نظرتْ إلى نفسها كانتْ لا تزال ترتدي فُستانَها النّيليّ ، رفعتْ بصرها من جديدٍ إلى ذلك المستمرّ بالتّقدّم نحوها ، تأكّدتْ أنّها لا تحلم ، إنّه جلال ، صرختْ في وجهه قبل أنْ يطرح السّلامَ عليها : «أينَ كُنتَ أيّها العبقريّ . . . أينَ قضيتَ كلّ هذا الوقت يا حبيبَ القلب . . . ألا تعرف كم السّاعة الآن؟ إنّها الثّامنة ، ستّ ساعات وأنا أنتظرك يا عديمَ الإحساس . . .» . ركضَ باتّجاهها وضمّها إليه ، لكنّها تفلّتَتْ من بين ذراعَيه ، وصرختْ : «ابتعدْ عنّي ، لو كان لديك شعورٌ بالمسؤوليّة لَمَا تركْتني وحدي أنتظركَ على طعام الغداء كلّ هذا الوقت» . هتفَ بها : «اهدئي» . لكنّها استمرّتْ بالصّراخ ، لم يجدْ مهربًا هو كذلك من الصّراخ لتسمعه : «قلتُ لكِ اهدئي ، كنتُ في مهمّة مع وزارة الصّحّة» . «مهمّة؟! هذا ما أحصل عليه منكَ في كلّ مرّة ؛ مهمّة؟! ألا تنتهي هذه المهمّات؟! هل يبعثونكَ في كلّ يوم في مهمّة ، ما هذه الوزارة الّتي لا تجد من آلاف الموظّفين فيها سِواك لكي

تبعثه كلّ يوم في مهمّة!!» . «كُنتُ أنا وفريقٌ من الأطبّاء في الجنوب ، لقد طُلِبَ منّا أنّ نزورَ بعضَ شركات تصنيع الأغذية في الطّريق إلى الكرك» . «كَذّاب . . . ذهبْتَ تستمتع مع أصدقائك وتركْتَني وحدي» . هزّته الكلمة ، قال بأسى : «أنا كذّاب؟!!» . «وستّين كذّاب ، لا يُمكن أنْ تخدعني طِيلة الوقت» . «أُقسم بالله . . .» قاطعتْه قائلةً : «لا تُقسِم بالله كاذبًا . . . لا تضع اسم الله بيني وبينَك . . .» . «ماذا تريدين منّي حتّى تهدئي . . . هل تريدين أنْ أخرجَ من البيت؟» . انفجرتْ هذه المرّة بأقصى طاقتها : «هذا ما تُتقنه أيّها الفاشل . . . تخرج من البيت . . . تنسلّ من وسط المشاكل الّتي تفتعلها وتهرب كأنّكَ بريءٍ وكأنّكَ لم تفعلْ شيئًا» . «أُقسم لكِ بالله أنّني كنتُ في الجنوب ، ولم تستغرق زيارتنا هناك أكثرَ من ساعتَين ، الوقتُ كلّه سرقتْه الطّريق مِنّا . . . اهدئي أرجوك . . هل ينفع اعتذاري لكي تهدئي . . . ها أنذا أعتذر . . هل يكفي هذا؟!!» . ثُمّ اندفعَ نحوها ثانيةً وضَمّها بين ذراعَيها ، وهو يردّد : «أنا آسف . .» . أجابتْه وقد بدأتْ تهدأ قليلاً : «كانَ يُمكن أنْ تتّصل بي وتخبرني أنّكَ ذاهبٌ إلى هُناك» . «الأمر كُلّه لم يكنْ مُرتّبًا له ، حدث فجأة» . أجلَسَها على المقعد ، كانتْ بالرّغم من صُراخِها وهَيَجانها تبدو رائعة ، انحنى ، التقطَ الوردةَ الّتي سقطتْ في غمرة صياحِها على الأرض ، وأعادَها إلى مكانِها عندَ المنفرج ، ثمّ ارتقى من هناك ليُقبّلها على جبينِها : «أتعرفين أنّني أتضوّر جوعًا ؛ هل يُمكننا أنْ نأكل الآن» . «ولكنّ الأكل قد برد» . «كُلّ طعام يُؤكَل معكِ فهو طيّبٌ وهنيءٌ» . أجابتْه هذه المرّة بشيءٍ من الخُبث : «عُدتَ إلى كلامِكَ المعسول ، تُتقن صِياغة العبارات . . . لا تفعلْ بي ذلك مرّةً أخرى . . . اتّفقْنا» . «حاضر يا مَلاكي» .

في تلكَ اللّيلة حدثَ ما كانا ينتظرانه ، وكتبَ الله في أقداره لهما ما كانا يتطلّعان إليه . قال لها وهو يهوي في بئر النّوم : «سآخذُ إجازةً أسبوعًا مثلكِ ، دَعينا نتفرّغ لأنفسنا قليلاً» . ضحكتْ وهي تطوّق عنقه بذراعَيها ، وأردفت : «وستأخذني إلى كلّ الأماكن الجميلة» . لم يُجِبْها ؛ كانَ قد أصبحَ مسلوبًا .

جهّزَ كُلّ شيءٍ منذ أنِ استيقظ . رَكِبَا السّيّارةَ في الصّباح ، وتوجّها شَمالاً ، قطَعا جرش وإربد ، وتوجّها غربًا من إربد باتّجاه (كفريوبا) ، وواصلا السّير غربًا تاركين عددًا من القُرى ذات الإطلالات المُدهشة ، صارتْ (كفر أسد) خلفَهما ، انحرفا يمينًا ، سَلَكا الطريق المؤدّية إلى وادي العرب ، ظلاّ يسيران حتّى أراحا في (العُشّة) ، جلسا هناك في الحقول الفسيحة ، يُرسِلان طرفَيهما في البعيد ، تناولا طعام الغداء تحت ظلّ شجرةٍ وارفة ، ثمّ نهضا يواصِلانِ السّير حتّى وصلا إلى (أمّ قيس) كانَ جلال يقول لها : «مشهد الغروب من تلال أمّ قيس وأمامكِ بحيرة طبريّا مشهدٌ لا يتكرّر ، وعلينا أنْ نصلَ هناك قبلَ الغروب بساعةٍ على الأقلّ ، لأنّها هي السّاعة الوحيدة الّتي يُسمَح لنا بالمكوث في حضرة ذلك المشهد ، وبعدَها ستتولّى النّقاط العسكريّة أمر إفراغ المنطقة من الزُّوّار» .

قال له العسكريّ الّذي يعتمر خوذةً خضراء ، ويتدلّى سلاحٌ آليّ على جانبه : «هُوُيّتكما» . دفَع بهما إليه ، أثناءَ ذلك نظر في المرآة فشاهدَ عددًا غير قليلٍ من السّيّارات المُصطفّة في الدّور ، ورأى مثلَ هذا العدد أمامه ، لم يكدْ يُحصي سبعَ سيّاراتٍ تظهر في المرآة حتّى أعادَ له العسكريّ الهُوُيّتَين ، وانطلقتِ بهم السّيارة عبرَ جادّةٍ ترابيّة ، كانت آثار العجلاتِ قد حفرتْ عليها مسربَين عميقَين يشهدُ بمرور شاحناتٍ

عسكريَّة كبيرة . على جانَبي الجادّة كانتْ ترتفع سيقانُ حشائش قد حال لونُها ، ظلَّتْ ترافقهم حتّى وصلوا إلى ساحةٍ فسيحة ، ترجّلا من السّيّارة بعدَ أنْ وجدَ لها مكانًا في موقفٍ إسفلتيّ ، كانتْ نسماتُ الهواء الّتي تهبُّ من الغرب حيثُ البحيرة مُنعشة ، لدرجة أنّ سلوى عبرتْها موجةٌ من الحبور والانفعال أنستْها كُلَّ ما حدثَ ليلةَ أمس . طوّقَ ذراعَها بذراعِه ومَشَيا عابِرَين السّاحة باتّجاه الهضبة السّاحرة ، لم تتمالك سلوى نفسَها حينَ بدتْ لها البحيرةُ من بعيدٍ كأنّها سماءٌ تمدّدتْ على الأرض بين مجموعةٍ من التّلال الوادِعة ، وفي البعيد كانتِ الشّمسُ ترحل ، كانَ قرصُها المدوّر قد تخلّى عن شدّة سُطُوعه وانقلبَ إلى اللّون الأحمر تُحيطُ به هالةٌ دائريّة صفراء ، وينعكسُ شُعاعها الكسول على صفحة الماء فيرسُمُ فوقَها خطًّا مستقيمًا يبدأ عريضًا من مركزِ انطلاقته ويظلّ يتقلّص حتّى يتحوّل إلى خيطٍ رفيع يبدو كما لو أنّه ينتهي تحتَ أقدام النّاظِرين!!
على الطّرف الأعلى قليلاً مِّن الهضبة راحتْ عددٌ من الخيول تعدو ، كانتْ خيولاً تُستأجر من قِبَل الزّائرين لمن أراد أنْ يجرّب كيفَ يبدو المشهد من على صهوةِ حصانٍ أشقر ؛ إنّه مشهدٌ كلاسيكيّ ، يبدو كأنّه قادمٌ من عصور الفَتْح الأولى!!

ظَلاّ سائرَين إلَى أبعدِ نُقطة ممكنة ، مسموح لهما بالوصول إليه ، وهناك جَلَسا على الأرض ، وراحَا يتحدّثان ، قالَ لها : سنذهبُ طَوال هذا الأسبوع في كلّ يوم إلى مكانٍ ، ولن نعودَ إلى البيت إلاّ حينَ ينهشُ التّعبُ عافيَتَنا» . ضَحكت وهي تُريحُ رأسَها على كَتِفه الأيمن : «أنا لا أصدّقُ نفسي ، أشعرُ أنّها ذات الأيّام الّتي قضيناها بعد التّوجيهي مباشرةً حينَ كُنّا مخطوبَين!!» . «وما الّذي يمنعُ أن تعود؟! الأيّامُ ملكُنا ، ونحن نرسمُ بها بهجَتنا ، أليسَ هذا كافِيًا لنصبح قيسًا

وليلى من جديد؟!» . قالتْ وهي تضحك : «بلى» . بدتِ الشّمسُ كأنّ ربعها السّفليّ قد غطسَ في الماء ، ومن بعيدٍ راحت أشعّتها المنعكسة على سطح البحيرةِ تتراقص كأنّما ألقى أحدهم فيها حجرًا ، غاصتْ في المشهدِ الخَلاّب ، رأتْ حول البحيرة مزارع وبساتين خَصبة ، خُيّلَ إليها أنّها تسمعُ تغريدَ بلابلَ فوقَ أشجارها ، وفراشات تُحوّم حول أغصانِ ورودها ، سرحتْ مع الأفق الفضّيّ ، الّذي رسمتْه غيومٌ بيضاءُ ناصعة كانتْ قد تناثرتْ في السّماء فبدتْ كأنّها قناديلُ مُعلَّقة ، جاءَها صوتُه لينتشلها من البحر الّذي غرقتْ فيه : «ما رأيُكِ أنْ نزور المُدرّج؟!» . انتبهتْ إليه ولم تقلْ كلمةً واحِدة ، نظرَ في عينَيها ، كانتا ناعِستَين ، ابتسم ، وأعادَ السّؤال على مسامِعها ، أجابتْه : «وهل هناكَ مُدرّج؟!» . «كانَ أوّل مدرّج أراه في حياتي ، تخيّلي أنّني زرته قبلَ أنْ أزور المدرّج الرّومانيّ في عَمّان ، كانَ ذلك وأنا في الصّفّ الثالث ؛ في رحلة مدرسيّة أخذنا فيها أستاذ الفنّ ، قال لنا إنّه في أوّل المدرّج كانتْ هناكَ الملكة تجلسُ كأنّما تُشاهدُ عَرضًا مسرحيًا ، لكنّها للأسف كانتْ مقطوعةَ الرّأس» . «ماذا؟! مقطوعة الرّأس؟!» . «تمثالُها مقطوع الرّأس» . «ومَنْ فعل ذلك؟!» . يُقال إنّه حينَ فتحَ المسلمون هذه البلاد أقدموا على قطع رؤوس التّماثيل ، لكنّهم لم يهدموا أيّ معلمٍ من المعالم الأخرى ، كانوا يرونَ أنّ هذا تجسيدًا للإنسان ، وهو من عمل الله وحده ، وأنّ صاحبَ هذا النّحت سيُسأل يومَ القيامة أنْ ينفخَ الرّوح في تمثاله ، فلا يستطيع ، فلا أحدَ يستطيع أنْ ينفخَ الرّوح في التّمثال إلاّ الله . . . لكنْ لا بأس . . . الملكةُ أخذوها بعيدًا ، أظنّ أنّ الفرنسيّين فعلوا ذلك ، والمدرّج الرّائع ما زال موجودًا ، هيّا بنا ، ما زال أمامنا ما يقربُ من ثلثِ ساعةٍ على الغروب ، يُمكننا أنْ نرى آخرَ روحٍ في

الشّمسِ وهي تطبعُ قُبُلاتها على المُدرّج المهيب» . قامَا ، قالَ لها يُمكننا أنْ نفعلَ ذلك مشيًا ، لكنّه قد يستغرقُ بعضَ الوقت ، وقد تغربُ قبلَ أنْ نصل . استقلاّ السّيارة ، أوقفَها عندَ بيتٍ طينيٍّ قديم يبدو أنّ أحدَ الأهالي قديمًا كانَ يسكنه قبلَ استقلال الأردنّ عن الاستعمار البريطانيّ ، وترجّلا منها عابرَين جادّة صخريّة تتناثر على طرفيها صخورٌ قديمة يبدو أنّها استُعملتْ فيما مضى لتشييد بعضِ البيوتِ المُدمّرة ، ظلاّ يصعدانِ في الجادّة حتّى واجههما درجٌ رومانيٌّ قديم ، ذو حجارةٍ مُزرقّة ، صعدا درجاته القلائل ليجدا نفسَيهما في ساحةٍ فسيحةٍ تعجّ بالأعمدة الرّومانيّة ذات التّيجان المُميّزة ، أمسكَ بيدها ، وشدّ عليها ، وراحا يجولانِ ببصرهما في المكانِ الفسيح الّذي تتخلّله تلك الأعمدة ، تحتَ أقدامهما كانتِ الأرضُ مرصوفةً عن بكرةِ أبيها بحجارةٍ من ذاتِ اللّون الّذي استُخدِمَ في الدّرجاتِ المُفضياتِ إلى هُنا . تابَعا سَيرَهما لِيُشرفا على بوّابة عاليةٍ ذاتِ قوسٍ مركوزٍ في أعلاها ، كانَ لونُها مُختلفًا تمامًا عن لون الأعمدة المتناثرة في السّاحة ، كانتْ سوداء ، إنّها صخورٌ بركانيّة ، من ذلك اللّون الرّماديّ القاتم الّذي يميل إلى اللّون الأسود ، وفيه ثقوبٌ صغيرةٌ لا تُحصَى ، دخلا من تلك البوّابة ، وكأنّما غادَرا عالَمًا وولجَا إلى عالَم مُغايِر ، خلفَ هذه البوّابة الّتي هي واحدةٌ من بوّابات أخرى تُفضي إلى المكان ، كانَ المُدرّج المهيبُ سيّد المكان ، كانت الحجارةُ السّوداء قد تحوّلتْ إلى مقاعد للمُشاهِدين ، وكانت هذه المقاعدَ تمتّد على هيئة قوسٍ أو نصفِ دائرة ، وتبدأ من الأسفل حيثُ المركز صعودًا إلى أعلى ، وكانَ بإمكانَ الجالس في أعلى صفوف المقاعد في هذا المدرّج أنْ يُشاهدَ البحيرةَ السّاحرة ، وسلسلة الجبال الّتي تتمطّى خلفها . قُسِمَت هذه المقاعد الحجريّة إلى ثلاثةِ أقسام ، ويتخلّل

كلّ قسم ممرّ للّذين سيفدون إلى المدرّج ليتّخذوا لهم مقعدًا فيه ، أو لأولئك الّذين سيُغادرونه . «لا بُدّ أنّ المُهندس الّذي صمّم هذا المدرّج هو مهندسٌ بارعٌ» قالتْ سلوى . أجابها جلال : «إنّه الفنّ المعماريّ الرّومانيّ الفريد ، ما يميّز مدرّج أمّ قيس أنّه فيما أظنّ هو المدرّج الوحيد الّذي قُدّ من صخورٍ بركانيّة ؛ إنّه التّاريخ حينَ يتحدّث» .

قَفَلا عائِدَين ، تركا خلفَهما قصّةً أعظمَ من أنْ تُروَى ، قال لها : «ما رأيُكَ أنْ نشربَ شيئًا ساخِنًا في هذا المقهى الّذي يُشرِفُ على الفضاء الفسيح» . «وهل هذا سؤال يا جلال ، بالطّبع أودّ ذلك» . كان هذا المقهى قد أقيمَ حديثًا نسبيًا كاستراحةٍ للزّوّار ، ويقع على يسار الدّاخل إلى الآثار ، طَلَبا كوبَين من الشّاي بالنّعناع لِيُدفئا أعماقَهما ، كانَ الجلوسُ هناك في القِمّة ، والتلبُّث هنا قد سرّبَ إليهما بعضَ البرودة ، ظلّتْ النّسماتُ الباردة تداعبُ وجهَيهما ، وترسمُ عليهما البسمةَ كلّما نَظَر أحدهما إلى الآخر ، شعرتْ سلوى مع كلّ نظرةٍ أنّها لا تستطيع أنْ تُطيلَ النّظر طويلاً في عَينَي جلال ، إنّها بالفعل تعيشُ لَحظاتِ الخُطوبةِ الأولى ، قال لها وهو يمسح بباطنِ يده ظاهر يدها المستريحة على الطّاولة : «كُنّا مُحتاجين إلى هذه اللّحظات حقيقةً ، ما أغربَ الإنسان ، يقضي عمره في عملٍ لا يجلبُ له إلاّ الرّهق ولا يمنح قلبَه فرصةً للرّاحة ، ويظلّ على خوفٍ من تحصيلِ الرّزق وما يدري أنّ هذه اللّحظات رزقٌ كذلك ، ويخافُ أنْ يُنفقَ ماله لإسعاد نفسه ، وما يدري أنّه في غدٍ سوفَ ينفقها مُرغَمًا ولا يجدُ لما يُنفقُ أيّة سعادة» . «إنّها فرصتنا يا حبيبي» . كانَ الشّايُ قد وصل . شَرِباه شَغوفَين . واستمتعا بمنظر اللآلئ المُتناثرة في البعيد . ثُمّ سارَا إلى حيثُ سيّارتهما ، ركباها ، وعادَا قافِلَين إلى عَمّان .

(٥)
كأنّه يومُ عيد

انتبهتْ لذلك بعدَ شهرَين من زيارة (أمّ قيس) ، كتمتْ أنفاسَها وهي تُشاهد النّتيجة ، كادَ يُغمَى عليها ، تمالكتْ نفسَها في اللّحظةِ الأخيرة . رغبتْ في أنْ ترقص ، وقفتْ على قدمَيها ودارتْ حولَ نفسِها . بكتْ من الفرحة . هوتْ على الأرض وهي ما زالتْ تتفحّص النّتيجة . همّتْ بأنْ تحضنَ كلّ شيء تجده في طريقها ، تمنّتْ لو أنّ (جلال) في البيت لكي تحضنه طويلاً ؛ صرختْ بكلّ ما أوتيتْ من قُوّة ، شقّتْ صرختُها الجدران الصّمّاء : «أنا حاااااامل!!!!» .

لقد صدقَ الوعدُ . صار الحلمُ حقيقةً . ستسجد لله طَوال هذا اليوم حمدًا . ستدور في كلّ أنحاء البيت وهي تزغرد ، سوفَ تُخبِر العالَم بما حدثَ معها ، ستخبر أوّلاً (فريال) صديقتَها الّتي زارتْها قبلَ ما يقربُ من ستّة أشهر ، وكانتْ تحملُ بينَ يديها رضيعًا ، قالتْ لها فريال وهي تهزّ رأسَها لتغيظَها : «سنواتُك الخمس ذهبتْ سُدًى يا سلوى ، كلّ هذا التّظاهر بالعشق بينكما ، ولم يجدْ ماؤه أرضًا خصبةً؟!» فردّتْ عليها آنئذ : «كلّ شيءٍ بأمر الله يا فريال» . «صحيح ، ولكنّ الله طلبَ منّا أنْ نأخذَ بالأسباب» . «لقد أخذنا يا صديقتي» . «وطلبَ كذلك مِنّا أنْ نتداوَى» . فتجيبُها مغتاظةً : «وماذا طلبَ منّا أيضًا؟» . فتتجاهل سؤالها لتبدأ معها إغاظةً أخرى : «تعرفين يا سلوى ؛ لا شيءَ في الدُّنيا يُعادِلُ ضمّةَ الأمّ لابنها ؛ إنّها سعادةٌ لا يُمكن أنْ يعرفَها إلاّ مَنْ جرّبها . . .

صدّقيني من كلّ قلبي أتمنّى لكِ يا سلوى أنْ تجرّبيها» . «الأمل بالله يا فريال» . «أتعرفين حينَ يبكي ؛ صوتُه موسيقَى ، وحينَ يهدأ وجهه ملائكيّ ، وحينَ يرضع وينام في حضني أشعرُ بأنّني أمتلك الدُّنيا وما فيها . . . لا تُصدّقي يا سلوى أنّ الشّهادات تُغني عن الأمومة شيئًا ، الأمومةُ غريزةٌ والشّهادةُ كِذبةٌ كُبرَى . . . أتتذكّرين ما كانتْ تقوله معلّمة الرّياضيّات عن أقصر الطّرق ، لقد كانتْ مُحقّةً يومَها ، وظلّتْ مُحقّةً حتّى بعدَ أنْ درسْنا وأخذْنا شهادات جامعيّة ، ها هي شهادتي كُلّها لا تُساوي عندي رائحة طفلي . . . أتعرفين يا سلوى . . . إنّ للطفلِ رائحةً لا تُقاوَم ، رائحة الرّضيع الّتي . . . « تُقاطِعها سلوى بغيظ : «أعرف . . . أعرف . . . دَعينا نتحدّث في موضوعٍ آخر ، دعينا نتحدّث عن زميلات الطّفولة والدّراسة وما حدث معهنّ» . لكنّ فريال حاصرتْها من جديد متجاهلةً طلبَها الأخير : «انظري إلى يدَيه يا سلوى ، إنّ لها ملمسًا مُخمليًا . وخدوده ؛ تخيّلي إنّها ناضجة ، لدرجة أنّني أتمنّى أن أُداعِبها طَوال العمر» . يومَها لم تكره صديقتَها فحسب ، بل تمنّتْ أنْ تقتُلَها ، تمنّتْ لو أنّها لم تعرفْها من قبل ، تمنّتْ لو أنّها سقطتْ من فوقِ شجرةِ التّوتِ في تلكَ الأيّام الغابرة واستراحتْ منها إلى الأبد . . . لكنّ هذه الّتي ملأتْ قلبَها غيرةً وحسرةً قبلَ ستّة أشهر هي مَنْ تودّ أنْ تكونَ اليومَ أوّل مَنْ يعرفُ بِحَمْلِها .

لم تكنْ فرحته بأقلّ من فرحتها ، لكلّ منهما أسبابه ، هو على الأقلّ استعادَ الثّقة بفحولته الّتي ظلّتْ موضع اختبار على مدى خمس سنوات أو أكثر . قال لها : «من اليوم ستَرتاحين» . قالتْ له : «سأعمل أربعةَ أشهر لكي أُنفِقَ كلّ مرتّباتي في هذه الأشهر الأربعة على الملابس الّتي سأشتريها له ثُمّ أرتاح» . ردّ عليها : «نحنُ لا ينقُصنا

المال ، خذي منه ما تشائين» . أجابتْه : «لي غرضٌ آخَر ؛ أريدُ أنْ ترى كلّ زميلاتي في الشّركة بطني وهو يكبرُ رويدًا رويدًا ، شيءٌ قد لا يُشكّل لديكَ فرقًا ولا تكترثُ أنتَ له ، لكنْ نحنُ النّساءَ يعني لنا الكثير ، أريدُهنّ أنْ يراقِبْنَ بطني في كلّ يوم يكبُر قليلاً ولو عُشرَ بوصة ، وسأتعمّد ذلك» . «أنتِ مجنونةٌ» . «أنتَ رجل» . «كما تشائين» .

طوال أشهر ظلّتْ تنزل إلى السّوق ، دارتْ على كلّ محلاّت بيع ملابس الأطفال في جبل الحسين ووسط البلد ، دخلتْ مئات المحلاّت دون أن تتعب ، تقول لهذا البائع : «أريدها ملابس قطنيّة تمامًا ليس فيها أيّة إضافات من بوليسترين أو سِواه ، وبلا أزرار إذا سمحتْ ؛ الأزرار باردة وقد تُؤذي الطّفل ، تخيّل لو أنّه انقلب فصارتْ يده تحت بطنه ؛ تخيّل مدى الأذى الّذي ستُلحِقه الأزرار بيده النّاعِمة ، أو بوجهه أو بأيّ مكانٍ آخَر من جسمه . . .» . يُناوِلها البائع ما تريد ، تُقلّبه بين يدَيها ثُمّ تردّه إليه ، إنّه بربّاط ، وأنا لا أريده بأيّ نوع من الرّبّاط ، لأنّه ذلك قد يؤدّي إلى اختناق الصّغير ، بلا أزرار إذا سمحت ولا بربّاطات ؛ فأنا أعرفُ ما أريد . . .» . يُناوِلها البائع ما تريد بعدَ نَفاد صبر ، تَرُدّه من جديد : «الأصفر لا يُلائم الصّغير ، أريده زهريًا» . يُناوِلها الملابس الزّهرية ، تأخذها ، وتسأل من جديد : «هل لديكَ ألوانٌ أخرى . . . أعطني الأحمر والأزرق والأخضر والعسلي والكمّوني والسّماوي . . .» . تشتري عشرة ملابس للطّفل بعشرة ألوان ، تنقد البائع ثمنها دونَ أنْ تُراجِعه ، وتخرج من المتجر وقلبُها يرقصُ فرحًا .

تطوفُ على متجرٍ آخَر ، تسأله كأنّها خبيرة : «هل لديكَ تَبّان داخلي؟!» . «موجود يا سيّدتي» . «أريده بكبّاسات . . . تعرف لماذا؟!» .

«أعرف، عندي تبّان بكمّ وبنصف كم وبلا أكمام؛ ماذا تُفضّلين» . «أريد الثلاثة» . «وعندي ألوان . . . خمسةُ ألوان» . «أريد كلّ الألوان للتّبان بكمّ وبنصف كمّ وبلا أكمام» . تشتري خمسةَ عشرَ تبّانًا وتخرج، تقلّب محفظَتها، صرفْتُ راتبَ شهر، تضحك، ما زال لديّ الكثير.

في الشّارع تشعرُ أنّ النّاس مُبتهجةً مثلها؛ كأنّه يومُ عيد، كان شارع فراس مكتظًا، أضواء المحلاّت السّاطعة جعلتْه يبدو كما لو كانَ في النّهار، بعضُ (المولات) كانتْ تُغني بأصواتِها الصّاخبة عن أعمدة الشّارع المُضاءة من الدّولة، مَشتْ إلى السّيارة، زوجُها في البيت، حدّثتْ نفسَها: «لا يعرفُ ما يحتاجه الطّفل، يكتفي بفرحةٍ باهِتة، الفرحةُ الحقيقيّة لنا نحن الأمّهات . . . آه كم هم الرّجال غائبون عن الواقع . . . لماذا قلوبهم متحجّرة إلى هذا الحدّ . . . ماذا كان سيَنقُصه لو أنّه شاركني فرحةَ التّسوّق هذه، وساعدَني في اختيار الألوان والأصناف . .» . يسكتُ صوتُها الدّاخليّ قليلاً ثُمّ تنتبه فجأةً: «لا . . . لا . . . ربّما لو جاء لقلبَها نكدًا . . . الرّجال قليلو الصّبر، سيظلّ يقول لي هيّا بنا، لقد تأخّرنا . . . لقد جُعت . . . ألا يكفي ما اشتريتِه اليوم . . . لماذا أنتِ مهووسةٌ إلى هذا الحدّ . . . هل أنتِ أوّلُ أُمٍّ في الدّنيا . . . لا لستِ كذلك ولن تكوني الأخيرة . . . هيّا . . . إنّ رجلَيّ لم تَعُدْ تحمِلانني . . .» . تهزّ رأسَها دون أنْ تدري في وسط الشّارع، تُحادث نفسها من جديد ساخِرةً: «لم تعد رجلاك تحمِلانِك . . . آه ما أقلّ حيلتكم أيّها الرّجال . . . تتعبون من مشوارٍ واحد . . . قليلاً من التّضحية أيّها الأب . . . لا أريدُ أنْ تُضحّي من أجلي، بل من أجل ابننا الأوّل . . .» تتنهّد، تزفر، تطوّح والأكياس في يديها، وتهتفُ في

أعماقها: «الحمدُ لله أنّه لم يأتِ... هكذا أفضل...». وتُتابع سيرها نحو السّيّارة: «على الأقلّ سيّارته تُغني عنه...». فتحت صندوق السّيّارة الخلفيّ، رأتْ العجلة الاحتياطيّة تتربّع وسط الصّندوق، وإلى جانبها عِدّة (البنشر)، وعلبتا زيت نصف فارغتَين، هتفت: «أوووف... ما هذه القذارة!!». رتّبتْ زاويةً من الصّندوق تصلح لأنْ تضع فيها الأغراض.

جلستْ خلفَ المِقود، همّتْ بتشغيلها، توقّفتْ، نظرتْ إلى السّاعة، كانت الثامنة والنّصف مساءً، ترجّلتْ من جديد: «ما زال لديّ بعض الوقت، عليّ أنْ أنتهي من الملابس». دخلتْ خمسَ محلاّت قبل أنْ تقول للبائع في المحلّ السّادس: «أريدُ (الأفرهول) كاملاً له كبّاسات مطّاطيّة ناعِمة من الأمام، ومُغطّى اليدَين والرّجلَين». «موجود». الحمدُ لله». «هذا النّوع، وهذا، وهذا، وهذا». «تمامًا هذا ما أبحثُ عنه؛ أريدُ من كلّ نوع عشرةً» فتحَ البائعُ عينَيه على اتّساعهما، ورفعَ حاجِبَيه، اطمأنّ إلى أنّها لم تُلاحِظ ردّةَ فعله وهي تتفحّص الأنواع، اشترتْ أربعين (أفرهولاً)، وخرجتْ، كانتْ كنزًا لبائعي ملابس الأطفال في ذلك المساء!!

شعرتْ بشيءٍ من التّعب، حدّثتْ نفسَها مُشجّعة: «أكملي اليوم فقط ما يحتاجه من ملابس لشهوره السّتّة الأولى». انعطفتْ من إشارة فراس شمالاً باتّجاه أحد المحلاّت المُتخصّصة، سألت البائع عن ملابس رسميّة للأطفال في عمر ما قبل السّنة الأولى، قالتْ له قبل أنْ يُجيبها: «بناطيل خفيفة على هيئة الجينز أو الكتّان، مع قميص أبيض نصف كُمّ أو بِكُمّ، المهمّ أنْ يكونَ معه ربطة عنق مناسبة، أو بَبْيونة سوداء». أراها البائع أصنافًا متعدّدة، اشترتْ كلّ ما عرضه أمامها،

سألَتْه قبلَ أنْ تغادر المتجر : «هل لديك جرابات ، أعطني دزّينتَين» . أعطاها البائع ما أرادت ، شهقتْ كأنّما نسيتْ شيئًا مُهِمًا : «آه . . . هل لديكَ أحذية؟» . «أحذية لطفل رضيع؟!» . «يا أخي افهمْني . . . هي جرابات على شكل أحذية ، تعرف المنظر مهمّ» . «نعم عندي» . اشترتْ كذلكَ دزّينتَين .

في طريقِها إلى السّيّارة ، قالتْ لنفسِها : «يكفي . . . السّاعة صارت العاشرة ، وجلال لم يتغدَّ بعدُ ، لكنْ عليه أنْ يتحمّل ؛ إنّها ضريبةُ الأبوّة ، ألا يريد أن يتعبَ هُو الآخَر معي . . . لكنْ . . .» . تذكّرتْ شيئًا : «نسيتُ أنْ أشتري له المراييل . . . فحبيبي إذا بدأ يأكل عليه أنْ يظلّ نظيفًا» .

ظلّتْ تُحاور نفسَها طوال مسيرتها إلى المكان الّذي ركنتْ فيه السّيارة ، تنفّستْ بعمق وهي تجلس في الكرسيّ وتستعدّ للانطِلاق : «الطّواقي ، والكفوف ، والرّوب ، واللّفة ، والقِماط ، وغِطاء السُّرّة ، ومشدّ الظّهر . . . سأشتريها في المرّات القادمة . . . آه . . . والبانيو الصّغير ، واللّيفة ، والبودرة ، والكولونيا ، والشّامبو ، وسائل الحمّام بالبابونج ، وكريم السّماط ، وزيت الأطفال ، وقصّاصة الأظافر . . . كلّها سأشتريها . . . لا تخافي يا سلوى سيكون لديك الوقت والمال لذلك . . . آآآه . . . وميزان الحرارة مهمّ جداً ، يجب أن يكون ميزانًا إلكترونيّا يقيسُ الحرارة من خلال الأذن . . . وبقيّة الأشياء تأتي . . . من المُؤكّد سأجدُ لها وقتًا . . . ربّما . . . ربّما يلزمني كذلك أنْ أشتري من الآن له مربّعات اللّعب والسّرير والعرباية وكرسيّ السّيارة ، والكرسيّ الهزّاز ، والنّاموسيّة آه . . . النّاموسيّة . . . لن أدع البعوض اللّعين يقترب منه . . سأتدبّر بقيّة الأشياء بطريقتي . . . لكنْ لا تنسَي يا سلوى اللّهايات كذلك

والرّضّاعات ومهد الطّفل . . . كلّ ذلك سأجدُ له وقتًا . . . أنا أعرفُ كيفَ أجدُ له وقتًا . . . إنّه حبيبي الأوّل وهذا أقلّ ما يستحقّ . . . كأنّني نسيتُ جهاز سحب الحليب ، وملابس الرّضاعة الخاصّة ، ومفارش السّرير والحرامات ، و . . .» تَعبتْ من التّعداد . كانتْ الدُّنيا مُقبِلة عليها ، إنّها تحظَى بشعورٍ لا يُمكن أنْ يُترجِمَه عنها أبلغُ الشّعراء ، ولا أعظم الوصّافين ، إنّها السّعادةُ حين تتمثّل في كلّ شيء ، وتبرز من كلّ مكانٍ ، وتستقرّ في كلّ خليّة من الجسد والرّوح!!

(٦)
الأطبّاء قلوبهم كتبٌ مفتوحةٌ

قال لهم الوزير ، إنّها إرادة ملكيّة ، ولقد تشرّف هو بتبليغهم إيّاها ، أنتم فريقٌ طبّيٌّ متميّزٌ بالفعل ؛ نسّبتْ أسماءَهم الوزارةُ للدّيوان الملكيّ لكي يحظَوا بفرصة الاستجابة للنّداء الإنسانيّ في (أنغولا) ، ستستغرق المهمّة - أعني مهمّتكم أنتم أيّها الأطبّاء ستّة أشهر ، بعدَها تعودون إلى الوطن ، لتبتعثَ الوزارةُ آخَرين .

في البيت ، قالتْ وهي تطير من الفرح : «لقد ملأتُ الخِزانةَ عن بكرةِ أبيها بملابس طفلنا القادم» . كانتِ الخزانة قد صمّمَتْها عند أمهر النّجارين قبلَ سنتَين ، أجابَ كأنّه لم يسمع ما قالتْه : «تنتظرني مهمّةٌ جديدة» . أشارتْ إلى بطنِها كأنّما تهربُ من ردّةِ فعله الباردة ، في محاولةٍ جديدة لاستثارة اهتمامه : «انظر ، إنّني في الشّهر السّادس ، لقد زادتْ حركتُه» . كشفتْ عن بَطنِها ، واقتربتْ منه ، أمسكتْ بيده ، وقالتْ له : «هُنا . . . هُنا . . . ستشعر برفساته الرّائعة ، إنّه مثلُ مُهرٍ جامح» . خفضَ رأسه ، واستسلمَ ليدها ، لكنّها حينَ نظرتْ في عينَيه ورأتْ هُمومًا تطوفُ في سحابَتيهما تركتْ يده فجأةً لتهوي إلى جانبه ، قالتْ باستِياء : «كأنّ الأمرَ لا يعنيك؟!» . «كيفَ لا يعنيني يا حبيبتي . . . سنغادر إلى أنغولا الخميسَ القادم؟!» . «أنغولا؟!» . «مهمّة إنسانيّة ، مساعدة المرضَى والمنكوبين والفُقراء ، مع فرقة من الجيش الأردنيّ تابعةٍ لقُوّات حفظِ السّلام» . «وما الّذي يدفعكَ إلى أنْ

تذهب إلى آخر الدُّنيا؟!» . «الواجب الإنسانيّ يا سلوى ، ثُمّ إنّ الوزيرَ بنفسه اختارني قائدًا للفريق الطّبّيّ» . «وتتركنا وحدنا؟!!» . «يُمكنُ أنْ تأتي عائلتُك إلى هُنا» . «أنتَ عائلتي» . «لا مناصَ من تلبية النّداء يا سلوى» . «أسبوعًا أم أسبوعَين؟!» . «بل ستّة أشهر» . «ستّة أشهر؟!» . «سأكونُ قد أنجبتُ طفلَنا!! أريدُكَ أن تكونَ إلى جانبي وأنْ ترى معي طفلَنا أوّل ما يخرج إلى الدُّنيا» . «سيكون قلبي معكِ» . «أريدُكَ أنتَ وقلبك إلى جانبي» . «لا أستطيع» . «كذّاب ؛ عدتَ إلى الكذب من جديد . . . تُتقنُ الكلام ، لكنّكَ مُراوغ . . . أنتَ تهربُ منّي . . . أنتَ لا تتحمّل مسؤوليّة البيت ولا العائلة ولا ابننا القادم . . . أنتَ فاشلٌ» .
علا صُراخُها ، أشارَ لها بيده أنْ تسكُت ، فالجيران يسمعون ، لكنّها بدلَ أنْ تسكت تمادت في ذلك : «قلتَ لي واجبُ إنسانيّ . . . هاه . . . واجبُ إنسانيّ في أنغولا على المُحيط في آخر الدُّنيا ، أمّا طفلُكَ في بيتِكَ الّذي هو من صُلبِكَ فليسَ واجبًا إنسانيًا» . يُسرِع إليها يضُمّها ، يحاول أنْ يُهدِّئَ مِنْ رَوعها : «سوفَ أوصي لكِ بزميلة متخصّصة لترعاك» . «زميلة . . . هاه . . . قلتَ لي زميلة . . . لا أريدُ منكَ ولا من أحد أنْ يرعاني . . . أنا سأتدبّر أمري . . . وبعيدًا عنكَ . . . فلتذهبْ إلى الجحيم . . فلتذهبْ إلى أنغولا أيّها الفاشل فهي أهمّ من ابنِك» .
في اللّيل أعطتْه ظهرَها ، قضتْ ثُلُثَيه وهي تنتحب ، كانتْ تشهق محاولةً كتمانَ صوتِها ، اقتربَ منها أكثر ، قال لها من وراء أكتافها : «لا أستطيع أنْ أرفض . . . صدّقيني لا أستطيع» . «لا أستطيعُ أنْ أُصدّقك . . . نفسي أفهمك يا جلال . . . نفسي أفهم تصرّفاتكم أيّها الرّجال!!» . «لماذا لا تأخذي الموضوع ببساطة» . «كيفَ آخذه ببساطة وهو يعني لي الكثير ، لو كانَ الأمر يتعلّق بشيءٍ آخَر لربّما تفهّمتُ ،

لكنْ حينَ يتعلّق الأمر بالطّفل الّذي ينمو في أحشائي ، فلا يُمكنني أنْ أفهم ما تفعله إلاّ على أنّه هروب ، وكذب ، وعدم تحمُّل مسؤوليّة ، وتبلُّد في الأحاسيس . . . أنا لا أدري كيفَ أصبحتَ طبيبًا وأنتَ لا تملك ذرّة مشاعر تُجاه عائلتك!! ألا يقولون إنّ قلوبَ الأطبّاء كقلوب الطّير ترقّ وتبكي لأتفه الأسباب . . فما بالُ قلبكَ لم يرقّ لابنك . . .» . تصمتُ قليلاً ، تشهق من خلال دموعها الّتي غطّتْ عينَيها وحجبتْ عنها مجال الرّؤية ، ثُم تكفكفُ بعضَها بظاهر كُمّها ، تنشق ، ثُمّ تتابع : «لكنْ لماذا ألومُك . . . حقًا لماذا ألومُ مثلَك . .؟! أنتَ لم تفعلْ شيئًا سِوى أنّكَ بذرتَ تلك البذرة في تلك اللّيلة الّتي عُدنا فيها ربّما من أمّ قيس . . . ثُمّ أدرتَ ظهركَ بعدَها تنشدُ الرّاحة! أنتَ لم تشعر بما أشعرُ به ، لم تشعر كيفَ نمتِ المُضغة ، ولا كيفَ صارتْ قِطعةَ لحم ضئيلة بلا ملامح ، لم تشعر بفرحتي ولا باختلاطِ مشاعري وأنا أنظرُه نُقطةً صغيرةً على جهاز الكشف . . . لم تشعر به وهو يعومُ في السّائل الحامي ، ولا بكتلته السّاحرة وهو يصطدم بجدار الرّحم ، ولا برجليه وهما ترفُسان حين كَبُر أكثر . . . أنتَ فقطْ ألقيتَ ماءَك ورحلت ، لماذا ألومُكَ وأنتَ لم تشعُر بشيءٍ من ذلك أبدًا . . . أحيانًا لا أفهمكَ يا جلال . . لا أفهم الكائن الحيّ المزروع فيك . . . أُحبّكَ فأُصدّقك . . . تُمسكُ بيدي فأسيرُ معكَ الطّريقَ إلى نهايتها ، لكنّكَ في مُنتصفِ الوجع تتركُ يدي فجأةً دونَ سابقِ إنذار ؛ فأكرهك . . . نعم أكرهك . . إنّكَ تعيشُ في عالَم آخَر عصيٍّ على الفَهم أحيانًا ، ما الّذي يقلبكَ فجأةً من رومانسيّ حالِم إلى مُتكلّسٍ أبله بليد ، أأنتَ أنتَ في الحالَين . . .؟! أكادُ لا أُصدّقُ . . . تعرف . . . أحيانًا أقول إنّه من المُستَحسنِ أنْ تعرضَ نفسكَ على طبيبٍ نفسيّ ، لعلّه يُساعِدكَ

ويُساعدني على تفسير حالتك . . . أتعرف أنّ بلادَتكَ فاقتْ حدّها حينَ لم تسألني حتّى هذه اللّحظة فيما إذا كان المولودُ ذكرًا أم أنثى . . . وعلى الرّغم من ذلك هل تطلبُ منّي أنْ أقول لك المعلومة . . . هل تستحقّ أن أقولَها لك . . . ربّما . . . لتبكي ندمًا في المُستقبَل على تفريطك في حقّ عائلتك . . . اممم . . . المولود ذكر . . . نعم ذكر . . . وأتمنّى ألاّ يكونَ يُشبِهك . . . على الأقلّ في الأفعال . . . لو كانَ له وجهك فأتمنّى ألاّ يكونَ له قلبُك . . . أتعرفُ شيئًا آخر لن أجعلكَ تتدخّل في تسميته . . . لم تُكلّفْ نفسَكَ عناءَ الاهتِمام به منذ اللّحظاتِ الأولى ، فلماذا يكونُ لك حقّ إطلاق الاسم عليه . . . ستذهب إلى أنغولا . . . ماذا يُوجَد في أنغولا الّتي لم أسمع بها من قبل . . . هل يوجد فيها نساءٌ جميلاتٌ لذلك أردتَ أنْ تعيشَ حياةً أخرى بعيدةً عنّي» . لم تتمالك نفسَها بعدَ العبارة الأخيرة فراحتْ تشدّ على طرف غِطاء النّوم بأسنانها ، وذهبتْ في نوبةِ بُكاءٍ شديدة . فكّر في أنْ يُهدّئها قليلاً . . . مدّ يده يريدُ أنْ يُربّت على رأسِها ويشدّ على كتِفِها ، توقّفتْ يدُه في منتصفِ المسافةِ بينهما ، خافَ أنْ تسيرَ الأمور على نحو أسوأ ، لكنّه تشجّع في النّهاية . . . حينَ لمستْ أطرافُ أصابِعه شعرَها ، أمسكتْ بيده بعصبيّة وقذفتْها بعيدةً قائلةً بهياج : «لا تلمِسْني أيّها الكذّاب . . . لا تحاول أنْ تضحكَ عليّ» . استَسلمَ لرفضِها ، قامَ من فِراشه يائسًا ، خرج من غرفة النّوم ، وتخطّى غرفةَ الجلوس ، عبرَها إلى الشّرفة ، كانت السّاعة الثالثة فجرًا ، جلسَ إلى كرسيّ هُناك ، وراحَ يراقبُ الشّارع الخالي من كلّ شيءٍ إلاّ من السّيّارات المُصطفّة على جانبه الأيمن ، أرسلَ نظره في البعيد ، لم يرَ إلاّ بيوتًا مُطفأةَ العيون ، وعماراتٍ غائصة في الهجوع ، كانتْ هناك نافذة

وحيدةٌ مُضاءَة في عمارةٍ قديمةٍ في الجادّة البعيدة الّتي تهوي إلى وسط البلد ، لمحَ شبحًا قامَ من مكانه ، وتهادَى خُطوةً أو اثنتَين قبل أنْ يُعتِمَ المشهدُ كُلّيًا!!

في الصّباح قبل أنْ يذهبَ إلى عمله ، أعدّ لهما طعامَ الإفطار ، كانتْ لا تزال تستغرقُ متعبةً في نوم عميق من ليلةِ أمسِ الفارقة . حمّصَ عددًا من قطع خبز (التوست) ، ودَهَنها بمُربّى المشمش والزّبدة ، ووضع صحنًا صغيرًا من القشطة ، ومثله من العسل ، وجهّز إبريقًا من الشّاي بالنّعناع ، وقسّمَ في صحنٍ واسع شرائحَ من البندورة والخيار . غسلَ يدَيه ، ثُمّ جفّفهما ، وذهبَ لإيقاظِ سلوى ، كانتْ مستسلمةً استسلامًا عجيبًا للنّوم ، وقد بدتْ عيناها مُنتفخَتين ، وحولَهما هالةٌ حمراء لشدّةِ ما نَزَفَتا من الدّموع أمس . هَزّها من كَتِفها برفق ، احتاج أنْ يعيد الأمر ثلاث مرّات قبلَ أنْ تحاول فتحَ عينَيها ، وحينما رأته استدارتْ إلى الجهةِ الأخرى ، جلسَ على حافّة السّرير ، ووضعَ يده على كتفِها : «أنا آسف لِما حدثَ أمسِ . . . ربّما نتحدّث في الموضوع لاحقًا . . . الآنَ قومي فالفطور جاهزٌ» . هزتْ كَتِفَيها ثلاثَ مرّاتٍ متتابِعات دلالةَ الرّفض ، فأعاد : «وأعددتُه بنفسي» . فهزّتْ كتفها مرّةً واحدةً . «وأنا آسف . . آسف يا جميل . . .» . فأدارتْ وجهها إليه ، نظرتْ إليه مُعاتبةً : «هل يُمكن للوزير أنْ يُعفيكَ من هذه المهمّة ، أو أنْ يُقلّصها إلى شهرٍ مثلاً» . «سأحاول . . . أعدُكِ أنّني سأتحدّث في الموضوع اليومَ معه» .

قالتْ له وهي تقودُ السّيارةَ بهما إلى المطار : «أراكَ تُحبّ السّفر كثيرًا» . «هذا صحيح» . «فلماذا لا تأخذني معك؟!» . «آخذُكِ إلى الحرب وأماكن النّزاعات الخطيرة؟!! كلاّ لا يُمكن» . «ولماذا تُعرّضُ

نفسَكَ أنتَ للخطر» . «أجدُ متعةً في مهمّتي كطبيب وأنا أقفُ على حافّة الهاوية بينَ الموتِ والحياة مع المنكوبين . . . أنْ تمسحَ على جراحهم يعني أنْ تكونَ ملاكًا هبطَ من السّماء ليهبهم أملاً جديدًا» . «أنتَ تعرفُ أنّني أحتملُ ذلك من أجلك» . «أعرف» . «فلا تُعذّبني بطول الغِياب» . «سأحاول» . «نحن ننتظركُ ؛ لستُ وحدي ، أنا وطفلُنا القادم» . «ستظلاّن نورَ عينَيّ» . «هل عُدتَ إلى المراوغةِ من جديد!!» . «كلاّ ، نحن لا نتقنُ المراوغة ؛ الأطبّاء قلوبهم كتبٌ مفتوحةٌ» . وضحك . ردّتْ عليه ضاحكةً هي الأخرى : «صدّقتُك» . وغاب .

(٧)

لا تتركْني وحدي يا جَلال، أنا أموت!!

غارقةً في الظّلام ، كما لو أنّها كانتْ منذورةً لأنْ تُذبحَ على أيدي أبنائها ، وعلى الرّغم من أنّها منجمٌ كبيرٌ للذّهب والماس ، وبحرٌ كبيرٌ للنّفط ، ووعاءٌ مكنوزٌ للنّحاس إلاّ أنّ أهلَها يعيشون في فقرٍ مُدقع ، وجهلٍ عميم . هُناك لصوص مُحترَمون عبرَ العالَم دأبوا على العزفِ على لحن الدّيمقراطيّة المُزيّفة من أجل أنْ يسرقوا قوتَ الشّعوب ، ويستأثروا بثرواتهم تحتَ غِطاء المُساعدات الأمميّة!!

وصلوا إلى العاصمة ، ومنها توزّعوا مع قوّات حفظ السّلام إلى الشّمال ، وهُناك بدأتْ قصّته مع المرضَى . كانتِ الحربُ الأهليّة قد وضعتْ أوزارَها ، لكنّ النّاس يعرفون أنّ الحفاظ على السّلام أصعبُ بكثيرٍ من إنهاء الحرب .

عَبَر المستشفَى الميدانيُّ الّذي يقوده الطّبيب جلال غاباتٍ من الذّرة وقصب السّكّر ، إنّها أفريقيا ذات الصّورة المنقولة عنها في قناة (ناشيونال جيوغرافيك) تمامًا ؛ مساحاتٌ شاسعة من الثّراء الإلهيّ في الطّبيعة وفقرٌ في معيشة النّاس ، كان يبدو أنّه تناقضٌ لا يُصدَّق ؛ هذا الغِنى في الموارد قابَله فقرٌ في الإنسانيّة . كانَ المطر كثيفًا ودرجة الحرارة تقتربُ من خمسين درجةً سيليزيّة ، ظلّتِ القافلة تتابع سيرها عبرَ طُرُق شبه ترابيّةٍ متعرّجةٍ في الغابات الكثيفة ، حتّى وصلتْ مكانَ إقامتها ، كانَ المكان على أطرافٍ (لواندا) حيثُ التّجمّع الأكبر للسّكّان .

لم يحتمل ما رأى، أصابَ قلبَه الوجع، كتبَ لها بعدَ شهرٍ مشاهداته: «إنّها تنمو لكنّها شوهاء، نهر (كوانجو) حيثُ تلتفّ على التفافاته مجاميعُ من النّاس يُشكّل لهم مصدرًا للموت أكثرَ ممّا يشكّل مصدرًا للحياة. السّبخات تنتشر هنا بكثرةٍ. الأوبئة تفتكُ بالصّغير والكبير ولا تستثني أحدًا. هل أحدّثك عن الأمراض، يبدو أنّني أحتاجُ إلى نصفِ مستودعات الأدوية في الأردنّ لمقاومة خطرها هنا، كيفَ يُمكنُ أنْ يُنسَى الإنسانُ بهذه السّهولة!! إنّهم يقتلون بعضَهم، ثُمّ يعودون ليستجدوا إبرةً ضدّ الملاريا، الملاريا هنا مثل الصّداع في الأردنّ تصيبُ نصفَ الشّعب، البكتيريا عندهم مثل الأرزّ، أعني أنّها موجودةٌ في كلّ مكان، لو صافحتَ يدَ أنغوليّ هنا فعليكَ أنْ تضعَ كفّكَ تحت الميكروسكوب لتستمتع بمنظر جيوش البكتيريا الّتي تسبحُ فوقَها. الحرارة تُشكّل جزءًا من السّبب، قلّة النّظافة تحلّ أوّلا، والجهل بمعايير الصّحّة ثانيًا. والحرب ثالثًا، ثُمّ يأتي الطّقس. هناك أمراض أتعرّف عليها لأوّل مرّةٍ هنا، لم أسمع بها من قبلُ. لديهم طفيليّات تُدعَى المثقّبيّات تُسبّبُ مرضًا قاتلاً لا يكاد ينجو منه أحدٌ؛ إنّه مرض النّوم؛ سببه ذبابة. ذبابة (تْسي تْسي) تلدغ المُصاب وتمضي في طريقِها شاكرةً حصولَها على غذائها المُفضّل ذلك اليوم، يبدأ الأمر بظهور بقع طفحيّة حمراء، تتحوّل إلى حُمّى يرافقها وجع في العضلات والمفاصل وصداع وتهيّج، ثمّ تغزو هذه الطّفيليات في مراحل المرض المتقدمة الجهاز العصبيّ المركزيّ، ممّا يؤدي إلى حدوث الهذيان والهلوسة، والنّوم لساعات طويلة قد تُفضي إلى النّوم الأبديّ!! ليستْ هنا المُشكلة، لو أنّ وزارة الصّحّة الّتي أعمل لصالحها في الأردنّ بعثتْ بجيوش من الأطبّاء إلى هُنا، وخصّصتْ كلّ ما تملك من علاجاتٍ في مخازنها وقذفتْ بها

إلى هذا الجزء الغامض من العالَم بالنّسبة لنا ، فلنْ يتغيّر شيءٌ!!
السّبب أنّ العِلاج مرتبطٌ بزمنٍ ، فإذا انتهى العِلاج ، وشُفِي به عددٌ من
النّاس ، فإنّ المُصابين الجُدُد سيشكّلون مئات أضعاف النّاجين
السّابقين ، المشكلة تكمُنُ في التّوعية ، وهذا ما لا تسمح به عاداتُهم
ولا ظروف الحرب والتّنازع على السّلطة ، لو أنّهم اتّبعوا وسائل الوقاية
فإنّهم لن يعودوا بحاجةٍ لنا ولا لأدويتنا ، أمّا والحال هذه فلن نفيدهم
إلاّ بتأخير وقوع المرض ، أو معالجة جزءٍ يسيرٍ منهم . . . على صعيدٍ
آخَر ، ما أخبار طفلنا . . . هل وقع اختيارُكِ على اسمٍ مناسبٍ له . . . أنا
بخير ، مرّ شهرٌ غريبٌ عليّ هُنا ، تعلّمتُ فيه ما لم أَتعلّمْه في بريطانيا
في أربع سنين . . . يبدو العالَم فكرةً قابلةً للتّغيّر والتّجدّد في كلّ
حين ، الإنسانُ بالمعرفة يتغيّر ، ويُصبح خَلقًا جديدًا . . . أستمتعُ بمعالجةِ
الأطفال ، ومنكوبي الحرب ، وأحاول أنْ أخفّف بعضَ المعاناة عن
البائسين هنا . . . من قديمٍ خُلِقَ الإنسانُ ليعرف ، ليعبدَ الله بالمعرفة ،
يبدو أنّهم هنا بعيدون جدًّا عن هذا النّوع من العبادة . . . قالوا لنا أنْ
نفهمَ طبيعةَ المجتمع الأنغوليّ لكي لا نقع في المحذور ؛ المسيحيّون
يشكّلون أكثر من ٩٥٪ من سُكّانه ، ما آلمني أنّ هناكَ نسبةً ضئيلةً من
المسلمين المَنسيّين ، وقد بدأت السّلطة كما نُقِلَ لنا بهدمِ بعضِ
مساجدهم الّتي يصلُ عددُها إلى العشَرات ، إنْ كانَ هذا صحيحًا -
ولا أدري إنْ كان كذلك على وجه الدّقّة - فهذا يعني أنّ السّلطة الّتي
تملكُ يدًا حديديّة وتتذرّع بالدّين لا يُمكن أن تكونَ إلاّ قاتلة . . . أنا
بخير مرّة أخرى . . . خمسةُ شهورٍ أخرى ، ستمرّ سريعًا . . . أكتبُ لكِ
رسالةً خطّيّة لتقرئي قلبي . . . ستصلكُ عبرَ (تيمور) ، صديقي الّذي
لم أُحدّثْكِ عنه سابِقًا ، كانَ زميلي في الثّانويّة العامّة ، كانَ مُشاغِبًا من

طراز فريد ، والحديثُ عنه ذو شجون كما يقولون ، أتذكّر أنّه بجسده الضّخم كانَ يحملُ أستاذ الفيزياء ويرفعه على الطّاولة ، ويطلب منه أنْ يشرحَ الدّرسَ من هُناك ، أستاذ الفيزياء كانَ قصيرًا جِدًا . . . لا أدري لماذا أُحدّثك بهذه التّفاصيل ، ربّما لأنّني أجدُ في الحديثِ معكِ راحتي ، أجدُ فيها التّخفّف من أعباءِ مسؤوليّتي الإنسانيّة المؤلمة والممتعة في آنٍ واحد ، تتجدّد دماءُ القلب إذا وجد الإنسانُ مَنْ يُصغي إليه ولو لمرّةٍ واحدٍ في العُمر . . . (تيمور) هذا حصل على معدّل ٩٣٪ ودرس الهندسة ، كانَ يُحبّ الفيزياء ، والآنَ هُو مع الفريق الأردنيّ مُهندسًا ، سيعودُ خلال أسبوع إلى أرضِ الوطن ، كانَ قد سبقني إلى هنا بخمسةِ أشهر في الدّفعة الّتي قبلَنا . . . تخيّلي أنّني لم أره منذ عشر سنوات بعدَ الثّانويّة العامّة ، ودارتْ بنا الدُّنيا لأراه هنا في أنغولا ، لقد صدقوا حينَ قالوا : العالَم قريةٌ صغيرة . . . أحبكِ حدَّ الهَذَيان . . . وجودي هنا بعيدًا عنكِ وسّعَ مساحات الحنين ، جعلني أشتاقُكِ في كلّ لحظة . . . أرجو أنْ يكون الجميع عندكم بخير . . . سأتّصل بكِ من حينٍ لآخر . . . اِنْحني قليلاً وقبّلي الصّغير في بطنكِ من أجلي . . . وإلى لقاء . . .» .

المخلص جلال

لواندا – أنغولا

آذار ٢٠٠١

زادتْ حركتُه في الأيّام الأخيرة ؛ إنّه ينمو ويرفس في كلّ اتّجاه . قالتْ له وهو تطبطبُ على بطنها وقد أصابها الإرهاق : «لماذا تستعجل الخروج إلى هذا العالَم ، ما زالتْ أمامك فرصةٌ طيّبة لتحظَى بحياةٍ

أجمل في رَحِمي . . . أيّها المُشاكِس انتظِرْ شهرًا آخر ، وسأكون بانتظارك . . . آآآآه . . . أبوكَ لن يكونَ معنا ، لا تحزنْ يا صغيري ، سوفَ تغفر له هذه الزّلّة أليسَ كذلك؟!» .

قامتْ إلى الغرفة الّتي اشترتْها في الشّهر السّابع للأمير القادم ، كانَ السّرير الأزرق على هيئةِ عربةٍ من عربات الأباطرة الرّومان يتربّع في قلبِ الغرفة ، وعن يمينه خزانة الملابس الّتي امتلأتْ كاملةً بكلّ ما يلزمه ، وعن يساره خزانة الأدراج ، رتّبتْ في الدّرج الأوّل مناشفه الخاصّة بألوانها الفاتحة ، ورتّبتْ في الدّرج الثّاني جراباته ، وأحذيته ، وفي الدّرج الثّالث ألعابه . الدّائرة الّتي أُلصِقَتْ على مُحيطها أحصنةٌ صغيرة وطبول ومهرّجون ووجوه باسِمة ، ورُكّبَتْ فوق وجه الطّفل وتحتَ النّاموسيّة ، كانتْ قد تأكّدتْ من أنّها صالحِة ، ومن أنّها تدور بشكلٍ جيّد ، وتُصدِرُ موسيقَى هادِئة كي تُغنّي للطّفل ريثما ينام .

تأكّدتْ كذلك من جاهزيّة ألوان الغرفة ، كانتِ الجدارن قد دُهنتَ بالأزرق السّماويّ ، وفي وسط كلّ جدارٍ رُسِمَتْ طريقٌ متعرّجةٌ باللون البُنّي وخطوطٌ بيضاء تفصلُ بين جانِبَيها ، وسُيّرتْ فيها عرباتٌ تركبها دِبَبةٌ تبدو سعيدةً تُلوّح للغزلان القادمة من الجهة الأخرى من الطّريق .

تنهّدتْ وهي ترى كُلّ شيءٍ تقريبًا مستعداً لقدوم البطل ، هتفتْ في سرّها : «شيءٌ واحدٌ فقط كان يُمكن أنْ يجعل المشهد مكتمل الجَمال ، لكنّه مثل الآخرين ، كانَ ينظرُ إلى سماءٍ أخرى» . أغلقتِ البابَ ، وعادَتْ إلى غرفةِ الجلوس ، شعرتْ بالوَحدة ، تناولتْ أحد الكتب الّتي اشترتْها مُؤخّرًا في العناية بالأطفال حديثي الولادة ، قرأت عن الموضوعِ من جوانبه جميعًا ، صِحّيًا ، ونفسيًا ، واجتماعيًا .

جاءَتْها صديقتُها فريال في الأسبوع الأخير ، نزلتْ معها إلى

السوق ، اشـتـرتَا ما يلزمُ الأمّ النُّفَساء ، وحينَ عـادَتا ، قالتْ لهـا فريال : «سأظلّ إلى جانبك في الأسبوعِ الأوّل على الأقلّ» . أجابتْها : «شكرًا يا عزيزتي ، أمّي ستتكفّل بالأمر» .

صرخَتْ ، لمْ يكنْ معها ليسمعَ صرخَتها . تألّمت ، شدّتْ على أسنانِها ، شعرتْ بأنّ جسدها يتمزّق ، وأنّ لحمها يتفسّخ ، قبضتْ على شرشفِ السّرير بكلتا يدَيها ، حلّقتْ عيناها بعيدًا في سقف الغرفة ، غامتْ بها الدُّنيا من شدّة الألم ، رأتْه هُناكَ واقفًا على سحابةٍ بيضاءَ يبتسمُ لها ، استغاثتْ به ، ازدادتِ ابتسامته ، همّتْ بأنْ ترمي نفسَها في حضنه ، لكنّها لم تستطع أنْ تحرّك عُضوًا واحِدًا من جسدِها ، هتفتْ بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ : «لا تتركْني وحدي يا جَلال ، أنا أموت ، لا تتخلَّ عنّي» . لم يفعلْ شيئًا ، ظلّت ابتسامتُه تزداد . . . تذكّرتْ لحظَةَ الدّفء الأولى . . . أغمضتْ عينَيها ، شعرتْ بيده وهي تشدّ على يدها برفق ، فتحتْ عينَيها رأتْ عينَيه ، إنّهما هما ، ذات العينَين ، تتوسّلان إليها ألاّ تتركَ يدها من يده ، هذه المرّة قالتْ له عيناها : «لا تتركْ يدي يا جلال . . . لقد وهبتُ لكَ عمري كلّه فلا تُلقه على الأرصفة هباءً» . صرختْ صرخَتها الأخيرة الّتي تقفُ على الحدّ الأخير قبلَ الوقوع في الهاوية ، أجابَها بصرخةٍ أخرى خرجتْ من رَحِمِها هذه المرّة ، وهبتْه الحياةَ بعدَ أنْ كادَ يقذفُ بها في وادي الموت . . . رأتْ وجوهًا كثيرةً ، بدأتْ تسمع أصواتًا مُختلطة ، شاهدتْهُ مُتكوِّرًا بينَ يدي الطّبيبةِ ، وذراعاه وساقاه تتخابطان في الهواء ، بدأ الغباش ينزاحُ عن عينَيها ، غابَ وجه جلال في اللّحظة الّتي ظهرَ جَليًا فيها وجه الطّبيبة وابتسامتُها تكشفُ عن صفٍّ مُنتظَم من الأسنان ، وتُقدّم الطّفل إليها : «انظري إليه . . . ما أجمله . . . إنّهُ أجملُ طفلٍ

أخرجتُه من رَحِمِ الأمّهات في السّنين الأخيرة» . ساعدت المُمرّضتان سلوى على أنْ تستندَ قليلاً ، ناولتْها الطّبيبةُ الطفل ، أمسكتْه بينَ يدَيها بلهفة ، وفيما كانتْ شفتاها ترتجفان من السّرور والشّكر ، كانتْ دمعتان ساخنتان واحدةٌ تسبقُ الأخرى تسيلانِ من عينَيها . حدّقتِ النّظر في ابنِها ، عبرتْها دفقةٌ من الفرح المُكثّف ، كانَ جميلاً بالفعل بشكلٍ لافتٍ ، وجهه مثلَ فلقة البدر ، أحمرَ ما زال يبضُّ دمًا ، وقبلَ أنْ تُفكّرَ بشيءٍ آخَر عزَمَتْ على أنْ تهبَه كلّ وقتِها بعدَ أنْ كادَ ينتزعُ منها روحَها . خامَرها شعورٌ مُفاجِئٌ أنّها تحلُم ، لم تُصدّق نفسَها ، نظرتْ حولَها لتتأكّد ، سَمِعت الطّبيبة تقول لها : «مُبارَك أينَ أبوه؟! أليسَ موجودًا هنا؟!» . طَعَنها السّؤال لكنّه أكّد لها بأنّها لا تحلم ؛ أجابتْ : «سيأتي قريبًا» . «ماذا ستسمّينه؟!» . «بدر . . . سأسمّيه بدرًا . . . بدر ؛ لأنّه أضاء ظُلُماتِ حياتي ، ولأنّه جاءَ بعدَ ليلٍ طويل ، ولأنّه سيظلّ كالبدر عالِيًا ، ومنيرًا ، وهادِيًا» .

(٨)
لا تتزوّجْ بامرأةٍ عاديّة

ضَحكَ كطفلٍ وهو يحملهُ بينَ يدَيه ، قرصَ خَدّه الأيمن فاحمرّ ، دَعَكَ أقدامَه الصّغيرةِ بينَ يدَيه : «إنّهما صغيرتان مثلَ حبّتَي دُرّاقٍ ناضجتَين» . راحَ يُكركره في بطنه بأصابعه ، ويُطيلُ النّظر في انثناءات ساقَيه ويديه ، وتعرّجاتها النّاعمة المُكتنزة : «ستتبعُ أباكَ يا بدر . . . ستُصبحُ رفيقَه ، انظُر ماذا أحضرتُ لكَ من أنغولا . . . حصانًا خشبيًا ذا أرجل متحرّكة تعمل بالرّيموت ، يُمكنكَ أنْ تمتطي ظهره عندما تكبر قليلاً ، حينَها ستُعجِبُكَ الهديّة . . .» يُناوله لأمّه ، يُتابع معها : «ستّة أشهر مرّت ، مثلما يمرّ العمر ، لا شيَ يُوقِفُ الزّمن ، حتّى الموت الّذي رأيتُه في أنغولا لم يستطعْ ذلك ، الزّمنُ ماضٍ كحدّ السّكّين في جسدِ البشر ، لن يرتاحَ حتّى يعبرهم جميعًا ، أتدرين ، لن يتوقّف أيضًا بعدَ عبورهم ، سيظلّ سائرًا بسكّينه إلى الأمام ليعبُرَ آخَرين ، لا ندري مَنْ هم ، ولا ما هي عوالمهم ، المؤكّد أنّه لن يتوقّف إلاّ عندَ الله ، حينَ يقولُ له الله عبرتَ جميعَ مَنْ خلقتُ ، وأنا وحدي مَنْ يستطيعُ أنْ يوقِفَك ، حينَ يتوقّف الزّمن ، تقومُ حياةٌ أخرى ، وعالَمٌ آخر!!» . «أهذا ما عُدتَ به من أنغولا يا جلال . . .!!» ردّتْ عليهِ ساخرةً ، وتوقّع هو أنْ تُعجِبها فلسفته ، لكنّه دارَى ذلك بالابتسام ، وبادر إلى القول : «لا . . لا . . . عُدتُ بأشياءَ أخرى كثيرة ، عدتُ لك بهدايا أتمنّى أنْ تُعجبك» . فتحَ لها عُلبةً صغيرةً من العاج ، خطفَ البريقُ بَصَرها ونَفَسها ، كان في

قلبِ العلبة خاتمٌ من الماس ، بالإضافة إلى قُرطَين طويلَين سلسلتهما الذّهبيّة تنتهي بقطعةٍ كبيرةٍ من الماس ، أمسكَ بيدها اليُمنَى ، ركزتِ الطفل في تجويفِ يدها اليُسرَى ، ألبسَها الخاتَم ، لمعَ الماسُ على إصبعها البرونزيّة فزاده جمالاً ، راحتْ بسمةُ رضًى ترتسمُ على شفتَيها ، وموجةُ حبّ تتدفّق في أعماقِها . قال لها : «الآنَ دورُ الأقراط ، ضعي بدرًا على السّرير ، أريدُ أنْ أراهما يتدلّيان من أذنَيكِ يا حبيبتي» . خلعَ أقراطَها القديمة ، وراح برفقِ حبيب ، وخِبرةِ طبيب يُلبِسُها الأقراط الجديدة ، حينَ انتهى من ذلك ، كانا يبدوان كما لو كانا مجموعةً من النّجوم اللامعة تتدلّى من سقف سماءٍ شاهقة ، هزّتْ رأسَها ، فتناثرتِ النّجومُ في الفضاء الفسيح ، كانت هذه النّجومُ تستغرقُ وقتًا لتسقط على أكتافها لطول عنقها ، تذكّر ما كانَ يقول له عادل «لا تتزوّج بامرأةٍ عاديّة ، بل بامرأة يصدقُ فيها قولُ الشّاعر :

بعيدةُ مَهوى القُرط إمّا لنوفلٍ

أبوها ، وإمّا عَبدِ شمسٍ وهاشِمِ» .

ضَحِكَ ، وسأل في سِرّه هل وجدَ هُوَ الآخَر لنفسه زوجةً من هذا الصّنف!!

خلال سنةٍ من ولادته ، لم تكنْ تتركُه لحظةً ، كانتْ تستمتعُ بإرضاعه ، وإطعامه ، والغناء له حتّى ينام ، وشراء ملابس جديدة له ، وتحميمه كلّ يومَين تقريبًا ، وشراء مزيدٍ من الألعاب والهدايا له ، والجلوسُ قربَ سريره تُراقبُ عينَيه اللّوزيّتَين ، وخلوده إلى الهدوء ، كان يبدو طفلاً وادعًا ، أحبّته أكثر لوداعته ، لم يكنْ يستيقظ في اللّيل إلاّ قليلاً ، كانتْ تنامُ ليَلَها الطّويل هي وجلال دونَ أنْ يُزعِجَهما . وإذا قامتْ فلكي تغيّر له ملابسه ، أو تُرضعه . وإذا خرجتْ من البيتِ

فغالِبًا ما يكونُ هو سببًا في الخروج ؛ إمّا لكي يأخذَ مطاعيمَه في أوقاتِها المُحدّدة ، وإمّا لكي تشتري له طعامًا أو لباسًا ، وإمّا لكي تذهبَ به إلى أمّها فتشاركها الفرحة بوجوده .

راقبتْه ينمو لحظةً لحظةً ، وحفظتْ تضاريسَ جسده الصّغير خليّةً خليّة ، وتأمّلتْ في ثَنَيات ساقَيه عندَ الرُّكبتَين وذراعَيه عند المرفقين ثَنْيةً ثنية ، واستغرقتْ في النّظر إليه كلّ حياتِها ، ولم ينزِلْ عن يدَيها في شهوره الأربعة الأولى أبدًا ، حتّى ولو خلدَ إلى النّوم فلا ينامُ إلاّ في حضْنها ، وكأنّما أخرجتْه من رَحِمها في الدّاخل ليلتصقَ بصدرها من الخارج ، لم تكنْ تسمحُ لشيءٍ أنْ يُلهيَها عن (بدر) حتّى ولو كان (جلال) نفسه ، كانتْ قد عزمتْ ، أنْ تُشربه كلّ ما في قلبِها من حنانٍ وحَدْبٍ ورعاية ، تحمله بينَ يديها إنْ ذهبتْ إلى المطبخ ، أو مشتْ في الممرّ ، أو هُرِعت لتفتح الباب ، أو قامتْ لتردّ على الهاتف ، أو خرجتْ لتشمّ بعضَ الهواءِ على الشّرفة ، وكانتْ تُلاعِبه في كلّ مكانٍ من البيت ، وتخافُ عليه من نسمةِ الهواءِ أنْ تجرحَ خدّه ، وحينَ تخلو بنفسها على سريرها تحمدُ الله على هذه الهِبة الإلهيّة العظيمة ، مولودٌ كالبدر ، لا يُدانيه في جمالِه وبهاء طلّته أحدٌ من الأطفال الّذينِ رأتهم . كانتْ سنّان صغيرتان بعدَ عشرةِ أشهرٍ من الولادة قد نبتَتا في الفكّ الأسفل ، حينَ بدأ اللحم ينشقُّ عنهما لصالح العظم الأبيض كادتْ سلوى تطيرُ من الفرح ، تحسّسَتْهما لأوّل مرّة ، وضحكتْ من قلبِها حينَ سرى خدرٌ في أصابِعها وهي تتلمّسُ طرفهما المُدبَّب ، ثُمّ تعيدُ النّظر إليهما وتتحسّسهما من جديد ، والضّحكةُ تدوّي في أرجاءِ الغرفة!

كادتْ تُخبِر الحارةَ كُلّها بالحدث السّعيد ، هاتفتْ أُمّها وهي تتقافزُ

من الطَّرب : «إنَّه يتـعلَّق بأرجل الطَّاولةِ يا أمّي وينهض . . . صـار بإمكانه أنْ يتشبّث بطرف الأريكة يا أمّي ، ويزحفُ معها حتّى يستوي على قـدمَيـه ، واقِـفًا . . . إنّه يقفُ عليهـما يا أمّي . . . أمسِ أمسكتُ بكفّيه وأنهضْتُهُ ، تماثلَ للوقوف بسيقان رفيعة تُجاهدُ لكي تستوي قائمةً على أقدامِها ، ظللتُ ممسكةً بكفَّيه الصّغيرتَين الطّريّتَين حتّى تخلّى عن حركتهِ المهتزّة وانغرزتْ أقدامه في الأرض ، وحينَها جرّبتُ أنْ أتركَ كفَّيه ، كان قلبي سيسقط لو أنّه سقطَ بعدها ، لكنّني كنتُ أُخْلي كَفَّيَّ من كَفَّيهِ بهدوء ورِفق ، وحينَ صارتْ كفّاه حُرّتَين . . . تخيّلي يا أُمّي ما حدث . . . لم يسقط . . . تمامًا كما أقولُ لكِ . . . لم يسقط . . . ظلَّ واقفًا على قدَمَيه ، ابتعدتُ عنه مسافةَ خطوةٍ واحدةٍ وأنا أطيرُ من الفَرَح ، ثُمّ أشرتُ له بيدَيّ لِيُقبِلَ نحوي . . . صحيح أنّه لم يستجبْ لي ، لكنّه ظلّ واقِفًا ، نظَرَ إلى اليمين قليلاً فاهتزّتْ خُطوته ، وقبلَ أنْ يقع على الأرض ، كنتُ آخذه بين ذراعَيّ ، وأحضنه طويلاً ، وأقبِّلُ خَدَّيه المُتورّدَين ، والدّنيا لا تسعني من الفرحة!!» . «شيء رائع يا بنتي . . . أعيشُ وأشوفُه عريس يا بنتي ، رَح يكون أجمل عريس يا سلوى . . .» .

قُلْ : «ماما . . . ماما . . .» . لم يقلْ شيئًا . . . قُلْ : «بابا . . . بابا . . .» . ظلّ يُحدّقُ في البعيد . «أيّ شيء يا حبيبي . . . إممّه . . . إببّه . . . قُلْ يا بدري . . .» ظلّ خارجَ الفعل والقَول . . . «أريدُ أنْ أسمعها منكَ يا أحلى بدرٍ في حياتي . . . قُلْ مرّة واحدةً . . . مرّةً واحدةً فحسب : ماما . . . وسأموتُ من الفرحة . . . أنتَ ولدٌ مُطيعٌ يا بدر . . . من المؤكّد أنّكَ لا تُريدُ أنْ تحرمني من سماع هذه الكلمة . . قُلْ ولو نِصْفَها . . . ما . . . ما . . .» . أشاحَ برأسِه كأنْ لم يسمع شيئًا .

«لا بأسَ هذه المرّة ، سنرى من فينا العنيد يا حبيبي . . . سأظلّ وراءَك حتّى أسمعها منك ، وتُعطّرَ بها عالَمي ، عالَمي الّذي كانَ الظّلامُ الدّامسُ يلفّه من كلّ جهة ، عالَمي الّذي لم يُضِئْ إلاّ بوجودك» .

صارَ يمشي ، وبدأ عهدٌ جديدٌ ، أوانٍ كُسِرتْ ، أطباق وقعتْ ، كؤوس رُمِيَتْ ، مزهريّات نُكّستْ ، ومياهٌ سُكِبَت في كلّ مكان . . . أبعدتْ عنه سلوى كلّ شيءٍ قابلٍ للكسر ، فتفنّن في تحريك الأشياء عن أمكنتها ؛ نثرَ الثّياب ، وأزاحَ الفازات الثقيلة ، وركضَ في كلّ اتّجاه بلا هدف ، كان يركضُ فجأة ، ويقفُ مكانه فجأة ، وكان ينسلُّ بهدوءٍ كأنّما يلعبُ لعبةَ الإخفاء مع أمّه ، فيقُف خلفَ أريكةً عالية ، يدفنُ نصفَ وجهه فيها ، وينظر بعينِه الظّاهرة إلى الفراغ ، يظلّ مُحدقًا في الفراغ فترةً طويلة ، لا ينزعه من عالَمه لا صوتٌ هادئٌ ولا صوتٌ عالٍ ، لا نداء ولا ابتسامة ، لا تلويحٌ بالقدوم ولا تلويحٌ بالغضب والمعاقَبة ، كانَ يملكُ نفسه لنفسَه ، وبدا كأنّه لا سُلطَان عليه لأحدٍ وهو في مثلِ هذه السّن ولو كان ذلك أباه أو أمّه!!

في صباحِ هذه اليوم ، استيقظتْ سلوى مُبكّرة ، عبرتْ غرفته إلى حيثُ سريره ، كان نائمًا كالملائكة ، هادئًا كالصّدّيقين ، شعره الأسودُ الفاحم كانَ قد بدأ يُصبحُ غزيرًا ، وعيناه اللّوزيّتان بدتا أجمل وهما مُطبَقَتان ، وخدوده المتورّدة ، وجبينه الأبيض العريض ، وذقنه المُدوّرة ، إنّه يُشبهُ أباه تمامًا ، أخذَ عنه كلّ شيءٍ تقريبًا ، وسيُكملُ بعضَ الصّفات حينَ يكبُر قليلاً ؛ سيُصبحُ ذا لِسانٍ ذَرِبٍ مثله ، وذكاءٍ مُتوقّد . . . هكذا حدّثتْ نفسَها . . . طبعتْ قبلةً حانيةً على جبينه ، وغطّتْه بشرشف قطنيّ أنيق ، وذهبتْ إلى غرفة الجلوس ، لكي تكوي قميصًا لجلال قبلَ أنْ ينطلقَ إلى عَمَله ، ناولتْ القميصَ لجلال ، قالتْ

له وهي تُكمِلُ أزرار القميص : «إنّه لا يتكلّم حتّى الآن يا جلال» . «ما زال صغيرًا يا سلوى» . «سنتان يا جلال ، ليسَ صغيرًا» . «أعرفُ أطفالاً لم يتكلّموا حتّى بلغوا الرّابعة» . «هذا كلام عجايز يا جلال ، ليسَ كلامَ طبيبٍ . . . تفعلها دائِمًا ؛ يتغلّبُ طبعُك على طِبّك» . «لا تخافي يا سلوى ، سيصبح بدر مثل عمر بن أبي ربيعة في الكلام ، يطوفُ الأسواق ويجذب النّساءَ إليه بحُسنِ كلماته وأشعاره» . ضَحِكَ ، ثُمّ أتبعها : «سنتمنّى حينَها أنّه لم يتكلّم قطّ» . وارتفعتْ ضحِكته من جديد .

راقبتْه كالعادة من شرفة المنزل ، وهو يركبُ سيّارة المرسيدس الزيتيّة وينطلقُ إلى عمله ، تنهّدتْ : «أرجو أنْ يكونَ كلامُكَ صحيحًا» . عادتْ إلى غرفتها ، استسلمتْ لغفوةٍ بسيطة ، في النّوم بدأتْ تحلم ، رأتْ (بدر) قد كبر ، وهو يمشي في حديقة مليئةٍ بالأطفال ، لكنّه كانَ يمشي وحده ، لم يكنْ تستهويه ألعابُ الأطفال الآخَرين ، ظلّ واقِفًا مُنزوِيًا في طرفِ الحديقة صامِتًا ، فجأةً رأتْه يركضُ نحو شجرة عِملاقة ، ويُطوّقها بذراعَيه ، ويشدّها إلى صدره ، ويقتلعها من مكانها . . . هالَها المشهد ، كيفَ تكونُ لطفلٍ مثله القُدرة على اجتثاث هذه الشّجرة العملاقة من جذورها ، ثُمّ رأتْه يرمي بها فتهوي على رؤوس الأطفال المنتشرين في الحديقة فتدفنهم تحتَها ، صرخَ أحدهم صرخةَ رُعبٍ وهو يخرجُ من تحتَ غصون الشّجرةِ هارِبًا ، صَخّتِ الصّرخةُ أذُنَيها ، فاستيقظَتْ مذعورة ، نزلت عن السرير بسرعة ، ركضتْ إلى غرفةِ بدر ، لم تجده هُناك ، فَزِعَتْ ، ركضَتْ من جديد إلى غرفةِ الجلوس . . . ها هو ، كانَ قد قلبَ طاولة الكيّ ، ووقعَ طرفُ المكواةُ على يده فاحترقتْ ؛ كان يجلسُ في مكانه بهدوء دونَ أيّةِ علاماتٍ

على تألّمه أو خوفه أو بكائه ، كانَ أثرُ الحَرقِ قد بدأ يظهر على يده . . . جُنّ جنونها ، ركضتْ باتّجاهه ، أبعدتِ المكواةَ عنها ، حضنتْه ، استسلمَ لها ، نظرتْ إلى يده المحروقة ، وبكتْ ، بكتْ بُكاءً مريرًا ، عالجتْه بما هو مُمكن ، واتّصلتْ بجلال . لم تُسامحْ نفسَها تلكَ اللّيلة على إهمالِها ، ظَلّتْ تبكي بصمت ، قالتْ لجلال من بينِ دموعها : «لقد أسقطَ طاولة الكوي الّتي لا أقدرُ أنا على إسقاطِها» . «إنّه طفلٌ قويّ» . «لا تحوّل الموضوع إلى مسخرة يا جلال» . «أنا أحاولُ أنْ أخفّف عنّي وعنكِ . . . ماذا تريدين منّي أنْ أفعل ، أنْ أقلبَها إلى مأساة ، أنْ أجعلها نهايةَ الدُّنيا . . . هو طفلٌ وتصرّفَ دونَ وعي ؛ هكذا هي المسألة ببساطة!!» . «عُدتَ إلى جلال القديم ، جلال المُتبلّد ، الّذي ينظرُ بعقله السّقيم ، يا أخي قليلاً من العاطفة ، قليلاً من العاطفةِ أيّها الطّبيب!!» . «عُدتِ إلى أسطوانتكِ المشروخة» . «هل تدري أنّه لم يبكِ ولم تنزلْ دمعةٌ واحدةٌ على خدّه ، مع أنّ الحرق لو حدثَ معي لانتحرتُ من البكاء ؛ ماذا تُسمّي ذلك؟!» . «أنّه يحتمل أكثرَ منكِ ، أنتِ امرأةٌ مُدلّلة ، وهو رجلٌ صَبور!!» . «يا لسخريتك . . . يا لَخَفّة دمك يا حبيبي . . . هل لاحظتَ شيئًا آخَر . . . إنّه لم يقلْ كلمةً واحدةً ولو كانتْ ماما أو بابا . . . ولمْ أسمعها منه حينَ أتركه ، أو أغلقَ الباب خلفي دونه ؛ لا تقلْ لي إنّه ما زال صغيرًا . . . خُذني على مِقدار عقلي . . . صغيرٌ نعم على تركيبِ الجُمَل والنّطق بعبارات تامّة والتّعبير عن مشاعره ، ولكن حتّى الكلمات المُفردة الّتي يقولُها الأطفال وهم لم يُكمِلوا السّنة لا يقولها هو . . . لا بُدّ أنْ نعرضَه على أخصّائيّ نُطق ، أنا متأكّدةٌ من أنّ لديه مشكلةً في هذا الشّأن» . «أنتِ دائِمًا تُهوّلين الأمور . . . نامي الآن ودعيني أنَمْ ، عندي دوامٌ في الصّباح ، وتذكّري

ألاّ تضعي الأشياء الخطيرةَ في متناول يده» . «بالطّبع . . . بالطّبع . . . سأصمت . . . فأنتَ دائمًا تُلقي اللومَ على الآخرين ، وتظهر بمظهر النّاصح الأمين ، ولا تتقنُ سوى إلقاء الأوامر ، ولا يهمّكَ إلاّ دوامكَ في هذه الوزارة اللّعينة . . . نَمْ أيّها الطّبيب الوسيم . . . نَمْ . . .» . ثُمّ أدارتْ ظهرهَا مُغتاظةً .

(٩)

الوظيفة تُفسد أخلاقَ المرأة!!

زارتْها صديقتُها القديمة (فريال) ، كان ابنُها هو الآخر قد صار عمره ثلاث سنوات ، جلَستا تسترجعان الماضي الجميل ، تركتْ ابنَها يلعب مع (بدر) ، حملتْهما سلوى إلى غرفةِ الطّفل حيثُ كانتْ مجهزّةً بمجموعة من الألعاب المُسلّية ، ووضعتْ بينهما قطارًا يتحرّك على سكّة تعبرُ جِبالاً وتهبطُ وديانًا ، يُطلِقُ بوقه صفيرًا حادًا طيلة الوقت ، ويُخرِج بُخارًا بين فترةٍ وأخرى . ووضعتْ بين أيديهما كذلك حديقةً شمعيّة من الحيوانات تضمّ أسودًا ونمورًا وكِلابًا وسِنّورات وغزلانًا وثيرانًا وحيوانات أخرى ، ولفّتْ حولَهما حديقةً أخرى قُطنيّة من الدّببة والقرود والزّرافات ، ونثرتْ على شكلِ دائرةٍ من حولهما عددًا من الوسائد والمخدّات محشّوة بالرّيش كي ينعما بالرّاحة والاستِمتاع . تركتْهما وعادتْ إلى صديقتِها . أعدّتْ لهما فنجانَين من القهوة ، ووضعتْ على الصّينيّة طبقًا من التّوت الأبيض ، قالتْ لها وهي تقرّب الصّينيّة منها مشيرةً إلى التّوت : «من أجل الماضي الّذي لا يعود» . أجابتْها فريال : «لماذا تريدُ واحدةٌ مثلُكِ أنْ يعود ، إنّه ماضي البؤس والحرمان ، وعيشة أهل المخيّم المُقرفة ، أنتِ الآن تتمتّعين بحياةٍ غاية في الرّفاهيّة» . شعرتْ بامتعاضٍ من كلامِها ، نقطةٌ سوداء في القلب نفذتْ إلى سويدائه واستقرّتْ هناك بمجرّد أنْ أنهتْ عبارتَها ، تداركتِ استياءَها ، بتحويل الكلام إلى جهةٍ أخرى : «أنا أقول إنّ متعةَ المرأة في

بيتها مع طفلها تُعادل كُلّ وظائف الدّولة ، وكُلّ أموالِ الدّنيا» . أجابتْها فريال : «ولماذا تضطرّ مثلك إلى وظيفةٍ أو مال ، وعندها طبيبٌ مشهورٌ يأخذُ راتِبَ وزير» . كان كلامها هذا نُقطةً أخرى سوداء في قلبِها ، هذه المرّة لم تستطعْ تفادي الاستِياء الّذي ظهر في سؤالها لفريال : «وأنتِ لماذا لم تعملي بشهادتكِ يا ستّ فريال» . «بالنّسبة لي ، الوظيفةُ أحلى على قلبي من العسل ، ولكنّ زوجي منعني متذرّعًا بأنّ الوظيفةَ تُفسد أخلاقَ المرأة» . «وأنتِ ماذا كانَ موقفك؟!» . «لم أجادِلْه كثيرًا ، وخاصّة أنّ أهلي وقفوا إلى جانبه ، وأيّدوه ، مع أنّ راتبنا لا يكفينا لمنتصف الشّهر ، والمال الّذي يجنيه زوجي من محلّ متواضع للخضروات في منتصف المُخيّم مثل درجة الحرارة يزيد وينقص ، تمرّ علينا شهور جيّدة ، ولكنّنا نضطرّ في بعضِ الشّهور إلى أنْ نستدينَ مثلَ الّذي أنفقناه وزيادة . . . على كلّ حال مستورة كما يقولون» . «أتتذكّرين صديقتنا الأخرى في شجرةِ التّوت؟!» . «تقصدين غادة؟!» . «نعم غادة ، أينَ صارتْ أخبارُها» . «إنّها . . .» لم تُكمِلْ عبارتَها ؛ دوّتْ صرخةٌ كبيرةٌ هزّتْ القلوب ، تبعتْها صرخاتٌ أخرى ، ركضتَا إلى غرفةِ الأطفال لتُشاهدا المنظر الّذي هزّهما بشكلٍ مُفاجِئ ، كانَ بدر يجثم على صدر الطّفل الآخَر ، وقد ضغط عليه بِمقصّ من طرفه الحادّ في عنقه ، وراحَ يضربُه به ضربات مُتتالية ، والطّفل يصرخ ويستغيث . . . ربطتِ الدّهشةُ أرجل الصّديقتَين ، لم تتخيّلْ واحدةٌ منهما أنّ طفلاً قادرًا على الإمساكِ بمقصّ شَعْرٍ بهذا الاستِحكام ، وضربه في صدرِ صديقِه بهذه القوّة . . .!! ابتلعَتا المفاجأة المهولة ، خطفتْ فريال ابنَها ، وركضتْ به مُهتاجةً ، وتبعتْها سلوى ، هاتفتْ جلال بالموضوع ، وأخبرته بالأمر على وجه السّرعة ، وطلبتْ منه أنْ

يُقابِلهم في المُستَشفَى الإسلاميّ .

لم يكنْ يومًا عاديًا ، كانَ بدايةً للسّباق في مضمار الانهيار العصبيّ لدى سلوى ؛ ابنُها ليسَ ابنَها ، إنّه ليس لها ، ذهبتْ بها الظّنونُ بعيدًا ، هل يكونُ قد أصابتْه عينٌ ، أو نزلتْ به نازلةٌ من سِحر أو حسدٍ أو ما شابه ؛ إنّه ليسَ طبيعيًا ، لا يُمكنُ لطفلٍ أنْ يفعلَ ذلك ، لقد فَعلها بكلّ هدوء ، لم يكنْ يظهر على وجهه أنّه غاضبٌ أو منفعل ، أو أنّ دافعًا شعوريًا داخليًا هو الّذي حرّكه لِفعلِ ذلك!!

قال الطّبيبُ الّذي خاطَ الجرح : «سيتعافَى قريبًا إنْ شاء الله . . . لا بُدّ من كتابة تقرير بالحادثة ، ماذا سأقول عن سبب الإصابة؟» . وجم جلال ، وكادَ يُغمَى على سلوى حينَ فكّرتْ أنّ الحادثة ليستْ قضاءً وقدرًا ، وإنّما هِيَ بفِعل فاعلٍ ، ومن هذا الفاعل ؛ إنّه ابنُها ، هل سيكتبون في التّقرير إنّ (بدر) ذا السّنتين ونصف هو قاتل أو مجرم ، دارتْ بها الأرض ، لولا أنْ تداركتْها كلماتُ زوج فريال الّذي تقدّم إلى الطّبيب ، وقال : «اكتُبْ إنّه وقع من الأريكة على الأرض ، وأصابه المِقصّ في صدره ، إنّ ابني دائب الحركة ، وأنا أعرفه جيّدًا ، وهذا الأمرُ ليسَ مُستغربًا ، ويمكن أنْ يحدثَ مع أيّ طفل» . تراجعَ إلى الوراء ، وقد شعر بأنّه أنقذَ عائلةً على حسابِ نفسه ، لكنّه شعرَ بأنّه اختلقَ قصّةً لم يكنْ جديرًا به أنْ يفعلها ، وفي المقابل لم يكنْ ليضعَ نفسَه موضعَ تهكّم وسُخرية من قِبَل الآخرين حينَ يعرفون أنّ طفلاً أصغرَ من ابنه هو الّذي تسبّب له بهذه الإصابة البليغة!! تنفّستْ سلوى الصّعداء ، وهمّتْ بأنْ تحتضنَ رفيقتَها لولا وجودُ النّاس من حولهم ، طلبَ جلال منهما المُسامَحة ، وتكفّل بنفقات المستشفى ، ونفقات العِلاجِ فيما بعد ، شكرَ الأب ، وأسفَ غيرَ مصدّقٍ أنّ ابنه فعلها .

في البيت، دخلوا مُنهكين، نظرتِ الأمّ إلى بدر، كانَ وادِعًا كعادته، ضمّته إلى صدرها، فدفنَ نفسَه هناكَ كأنّه محتاجٌ إلى حنان، انهمرتْ دموعُها على خدّيها بصمت، ظلّ جلال ساكِتًا دون أنْ يقول كلمةً واحدة، نظرتْ إليه كان مُطرِقًا كأنّه هو الّذي فعلها، سارتْ بابنِها إلى غرفته، وضعتْه بهدوءٍ في سريره، نظرتْ في عينَيه، كانتا صافِيتَين، وبريئتَين تمامًا، حدّقتْ فيهما وراحتْ تخاطبه في سِرّها: لماذا فعلتَ ذلكَ يا بدر؟! لماذا فعلتْها يا حبيبي؟! ما الّذي أغضبكَ حتّى أقدمْتَ على ذلك؟!». هزّتْ رأسَها يمنةً ويسرةً، وحرّكتْ كفّيها فوقَ كتفيها، وهي تهتفُ: «أنا لا أصدّقُ ما حدث... مستحيل». أغلقتْ باب الغرفة، ورمتْ نفسَها على السرير منهارةً بجانب جلال: «أريدُ أنْ أعرفَ شيئًا واحدًا؛ من أينَ جاءَ بمقصّ الشَّعر؟!». ذاب السّؤال في العتمة، أطلقتْ سؤالاً جديدًا: «أليسَ مقصّك؟!». «بلى». «كيفَ حصلَ عليه؟!». «لا أدري!!». «كيف لا تدري!! ألمْ تقلْ للتّوّ إنّه مقصّك؟!». «إلامَ تُلمّحين يا سلوى؟!». «لا ألّمح لشيء، لكنْ مثلما تُجيدُ إلقاءَ النّصائح عليّ، حاول أنْ تنصحَ نفسَكَ مرّةً واحدةً!!». «قلتُ لكِ لا أدري... أليستْ إجابةً كافيةً، ثُمّ مَنْ كانَ معه لحظةَ انقضاضه على ابن صاحبتِك المسكين، هل كنتُ أنا هُناك، أمْ أنت؟!». «أنا... أكملْ، ماذا تريدُ أنْ تقول بعدَ ذلك... مُهملةً... بالطّبع ستقولُ عنّي مُهمِلة، أتعرفُ لماذا ستقول ذلك؟ لأنّك تمكثُ كلّ نهارك خارج البيتِ لا تعرفُ ما أفعله أنا من أجل ابننا، ولا تعودُ إلاّ في آخره، ودائمًا تقول إنّكَ متعبٌ، تأكل كالدّابّة، وترتاحُ قليلاً، تقرأُ في كتابٍ، ثُمّ تأوي إلى الفراش، وإذا حالفكَ الحظّ فستسأل سؤالاً يتيمًا عن بدر: ما أخباره... وتظنّ أنّكَ

بهذه السّؤال تكون قد قُمتَ بواجبك تُجاهه . . . لا يا عزيزي ، إنْ كنتَ تريدُ أنْ تقول إنّني أهملتُه في تلكَ اللحظة ؛ فأنتَ أهملتَه في كلّ اللّحظات ، أنا لا أدري إلى الآن على وجه الدّقّة كيفَ تشعر بوجوده بيننا؟! هل تشعر أنّه ابنُكَ على الحقيقة ، إذا كانَ كذلك فلماذا لا تمنحه من وقتكَ شيئًا . . . لماذا دائمًا أكونُ أنا المُخطئةَ في نظرك . . . لماذا . . .» . ثُمّ غلبَها البُكاء فلم تستطعْ أنْ تُكمِل ، قامتْ من السرير ، لحَقَها ، غسلتْ وجهها في الحمّام ، حضَنَها : «أنا آسف ، لم أقصدْ ذلك أبدًا . . . أعرفُ أنّ الأمر صعب ، وأعترفُ بأنّني أنا الّذي أتحمّل المسؤوليةَ عن وصول المِقصّ إلى يديه ، فهو في النّهاية مِقصّي . . . سننتبه إلى حركاته أكثرَ بعدَ اليوم . . . سأنتبه أنا على وجه الخصوص ، لا تخافي ، ربّما تكونُ حادثةً عابرةً ، قد نتندّر بها في المُستقبل ، من يدري؟! بدر بصحّة جيّدة ، وهذا أفضلُ ما في الأمر» . «ليسَ بصحّة جيّدة يا جلال أبدًا ، الصّحّة لا تعني ثبات درجة حراراته ، وعدم إصابته بأيّة أمراض ، الصّحّة تعني أنْ يكونَ طبيعيًا ، وهو حتّى الآنَ لا يبدو كذلك ، لقد قاربَ عمره ثلاث سنوات وما زلتُ أشتهي أنْ يُناديني مرّة واحدة : ماما . . . أكثيرٌ عليّ أنْ أسمعها بعدَ كلّ هذا العناء معه» . ثُمّ ألقتْ برأسِها على صدره ، وعاودت البكاءَ من جديد . قادَها لافًا ذراعه اليُمنى على كتفها ، وقال لها وهو يطبع على رأسِها قبلةَ امتنان : «أنت أمٌّ رائعة ، بذلتِ كلّ ما تملكه الأمّ وأكثر من العناية والحنان من أجله ، وها نحن . . . وها هو بدر . . . بخيرٍ جميعًا إنْ شاء الله فلا تقلقي» .

بعدَ عشر دقائق من استلقائِهما ، كانَ نَفَسُهما قد انتظم ؛ لقد غَطَسا في نومٍ عميقٍ بعدَ يومٍ استثنائيّ .

في منتـصفِ اللّيل ، تركَ بدر سـريره ، بهـدوءٍ نزلَ عن المركـبـة الرّومانيّة ، سارَ إلى غرفةِ الطّعام ، تسلّق أحدَ الكراسيّ ، وصلَ إلى ظهر الطّاولة ، تناولَ أحـدَ الأطباق الزّجاجيـة ، وبذات الهـدوء ، نزلَ عنهـا ، أمسكَ الطّبق بشكل أفـقيّ ، وراح يدورُ به في أرجـاء الغـرفـةِ بشكلٍ مُنتَظَم ، رسمتْ خُطُواتُه دائرةً دقيقةً قطرها ثلاثة أمتار ، ظلّ يدورُ حولَها حوالي السّاعتَين ، في نهايتها شعَرَ بالتّعب ، وقعَ على البلاط ، ورمَى الصّحنَ بعيـدًا فـانكسر ، أحـدثَ انكِسارهُ صوتًا حـادًا . صحتِ الأمّ مذعورة ، صارتْ تستيقظُ لأدنى صوتٍ ، هُرِعتْ إلى مصدر الصّوت ، وجاءَها صوتُ جلال من الدّاخل مُنزعِجًا : «ماذا هُنالك يا سلوى؟!» .

(١٠)
هدايا الله لا تُردّ

كانَ يجلسُ في السرير، لم تغيّر حادثة الأمس من هدوئه شيئًا، واضعًا يُمناه تمامًا في مُستوى عينَيه متعامِدًا حرفُها مع التقائهما، وإبهامه مرتكزٌ على الجانب الأيمن من وجهه، كانتْ كفّه مثلَ شراعٍ أفقي لقاربٍ يغرق، راحَ يرفرفُ بأصابعها في حركةٍ مُنتَظَمة، مثلما ترفرف الطّيور بأجنحتها وهي تهمّ بالهُبوط، استمرّ على رفرفة كفّه طيلةَ الوقت، لبستْ أمّه ثيابَها، وظلّتْ رفرفته قائمة، وارتدى جلال قميصَه الأزرق الفاتح، وبنطلون الجينز، ومسحَ نظّارته ذات الإطار الأسود العريض، وظلّتْ كفّ صغيره ترفرف، حملتْه أمّه في حضنها، وحافظَ على حركته المُرفرفة دون ملل. حانتْ من أبيه التفاتةٌ نحوه، ابتسمَ، أتبعَ ابتسامته الشّاحبة زفيرًا نفثَ به ما في صدره؛ لقد صارَ الأمر واضحًا بالنّسبة له، قال لها: «النّتيجةُ محسومةٌ حسبَ خبرتي الطّبّيّة». ردّتْ عليه: «أنتَ فنّانٌ في قَتْلِ الأمل؛ نبتتُه الفوّاحةُ لا تُعمّر في يديكَ طويلاً». «أنا لا أقتلُ الأمل، ولكنّني أُحْيي الحقيقة، إذا كانت الحقيقة تتصادمُ مع الأمل فذلك شأنهما، شأني مع صغيري هو شأنُ الحقيقة معي». «دَعْنا ننظر ما يقوله الأخصّائيّ يا عزيزي، ما زالتْ هُناكَ فرصةٌ للفرح، أمنَ الحرام أنْ أتفاءل بحصولي عليها».

صعدا الدّرج المُؤدّي إلى باب العيادة، كانَ درجًا رُخاميًا أسودَ مصقولاً، خفّفَ سوادَه زهور الزّنبق متنوّعة الألوان المزروعة في أحواض

صغيرة ترتكزُ على درابزين مشغول بطريقة مُبتكرة ، استقبلتْهما السكرتيرة حينَ استوتْ بهم الدّرجات في مكتبٍ صغير ، أخذت المعلومات ، وأشارتْ إلى غرفة على يمينها كي ينتظروا دورهم . كانت الغرفة مليئةً بالمقاعد الفضّيّة المُثقّبة الموزّعة على أطرافِها ، وبين كلّ ثلاثةِ مقاعد كانتْ هناكَ طاولةٌ صغيرةٌ تضمّ مجموعةً من المجلاّت الطّبّيّة ومجلاّت أخرى ، وفي منتصف الحائط الأيسر ارتفعتْ شاشةٌ كبيرة تعرض برامج غالِبًا ما تتعلّق بأخصّائي تغذية ، أو أخصّائي العلاجات الطّبيعيّة والفيزيائيّة . احتلّ المُراجعون ثلاثةَ أرباع المقاعد في انتظار دورهم ، كان أكثرهم يتكوّن من عائلة ثلاثيّة تمامًا كعائلة جلال ، وكانَ الصّمتُ سائِدًا ، فلم تكنْ تُسمَعُ نأمة ، باستثناء الصّوت الخفيض الّذي تُطلقه الشّاشة في جوّ الغرفة كأنّها قليلُ الأدب الوحيد في هذا الجوّ المُطلَق من الاحتِرام الاضطراريّ . شيءٌ من الذّهول كانَ يُخيّم على وجوه الأمّهات ، وشيءٌ من الملل كانَ يُخيّم على وجوه الآباء ، وكثيرٌ من الهدوء واللاّمبالاة كانَ يُخيّم على وجوه الأطفال . استمرّ (بدر) بحركته الّتي بدأها منذُ الصّباح ، ظلّتْ كفّه ترفرف باتّجاه أفقيّ متعامدٍ مع عينَيه ، عينَيه اللّتين تنظران يسارًا باتّجاه نهايةِ أصابِعه حتّى بدتا حولاوَين ، حاولتْ أمّه أنْ تكفّه عن ذلك ، لكنّه كانَ في وادٍ غيرِ ذي سَمَع!! تركتْه وقد بدأتْ طيور الشّكّ والقلق تنهشُ قلبَها الّذي كان وما زالَ طريًا في كلّ ما يتعلّق بهذا الصّغير الّذي انتظرتْه طويلاً حتّى هلّ هلاله ، وانتظرتْه أطول حتّى صارَ (بدرًا) ، لكنّ البدر يصيبُه ما يُصيبه من المُحاق ، ويطرأ عليه ما يطرأ عليه من السّرار والتّغيّر ، فهل كانَ بدرُها من هذا النّوع!!

أكلَ ذُبابُ الوقت وجوهَ المُنتظرين ، كانتِ الجلسة الواحدة تستغرقُ

ساعةً أو تزيد ، وصلهم الدّور بعدَ أكثر من خمسِ ساعاتٍ ، ظلّ بندول القلب فيها يتأرجح حتّى حطّم كلّ ما فيه من لهفةٍ للمعرفة ، معرفة ما الّذي يحدثُ في عالَم هذا الصّغير .

سألها الطّبيب ذات الأسئلة الّتي سألها لجيشٍ من الأطفال في السّابق ، توقّف في منتصفِ الأسئلة ؛ لم يشأ أنْ يكملَ ، لم يكن الأمر صعبًا ليعرف ، لقد كانتْ يده ترفرفُ أمام وجهه من أوّل دخوله عليه ، ظلّ ثابتًا على تلك الحركة لم يُغيّرها طَوال وقتِ الأسئلة ، أمسكَ الطّبيبُ يده فتوقّف برهةً وأصدرَ صوتًا أقربَ إلى الزّعيق ، وحينَ أفلتَها عادَ إلى حالتِه الأولى ، كانَ يُمكن أنْ يقول لهم النّتيجة بعدَ خمس دقائق من البدء في طرح الأسئلة ، لكنّ الوقتَ يعني المال ، فاستمرّ تحت ذريعة التّأكّد من الحالة ، وتوصيف شدّتها ، حصلَ على إجابات شافية ، وقدّمَ التّوصيفَ للوالِدَين بطريقةٍ مِهنيّة : «إنّه يُعاني من اضطراب في العلاقات الانفعاليّة مع الآخَرين (استنتجَ ذلك من قصّته مع ابن فريال) ، وهو لا يعيش وعيًا لهويّته الشّخصيّة بالتّناسب مع عمره (استنتجَ ذلك من المناداة عليه باسمه دون أنْ يردّ) ، وهو مُصاب بانخراطٍ مرضيّ في حالاتٍ تعبيريّة مُعيّنة (استنتجَ ذلك من رفرفةِ يديه) ، وعنده مُقاومةٌ للتّغيير أو الرّوتين (استنتجَ ذلك من الإمساكِ بيده والتوقّف الآني مع الانزعاج الّذي ظهر في الصّوت) ، ولديه خبرات إداركيّة شاذّة ، وقلق حادّ ومتكرّر وغير منطقيّ (استنتجَ ذلك من استيقاظه في منتصف اللّيل ودورانه المنتظم في دائرةٍ منتظمة الأبعاد) ، وهو إلى كلّ ذلك فاقدٌ للكلام ، غير قادرٍ لاكتِسابه مع تعريضه لسماع أصواتِ المتكلّمين أو محادثتهم له .

كانَ جلال يضع يدَيه في جيبِه ظلّ واقِفًا ، يهزّ إحدَى ساقَيه ،

يريد منه أنْ يُنهي ويقول لهم النّتيجة بلسان واضح لا التواءَ فيه : «والآنَ أيّها الحكيمُ الخبير ؛ ما هو الوصف العلميّ لحالةِ ابني» . «ابنكم مُصاب بالتّوحّد» . شهقتِ الأمّ ، دارتْ بها الأرض ، وضعتْ يدها على فَمِها ، حاولتْ مرارًا أنْ تحبسَ صوتَها ودمعتها ، لكنّها فشلت ، قامتْ من أمام الطّبيب ، حاضنةَ ابنها ، وهمّتْ بالانصراف ، نظر الطّبيبُ في عينَي الأب قائلاً : «ولكنّه توحّد من الدّرجة المتوسّطة . . . فرصته . . .» . حينَ سمعت الأمّ كلمة «فرصته» عادتْ سريعًا إلى الطّبيب متلهّفة لسماع ما بعدَ هذه الكلمة ، كانَ الأمل يحدوها لتكون التكملة إيجابيّة ، لكنّها سمعتْ صوتَ الطّبيب يُكمِلُ العبارةَ كما لو كانَ أزيزَ طائرةٍ غاضبة ، لكنّها بعيدة ، فجاءَها صوتُه واضحًا لكنّه عميقٌ جدًا : «فرصته في الشّفاء ضعيفة . . . ولكنْ . . .» . لم تُتمّ وقوفها لتسمعَ ما بعدَ لكنْ . . . خافتْ ألاّ تحمِلها رِجلاها ، فولّتْ خارجةً ، وهي تُداري نحيبًا يتفجّر في أعماقها ، ويكادُ يُغرقُها ويقضي عليها .

في السّيّارة ظلّ صدرها يئزّ أزيز مرجل يغلي بما فيه ، لم يتوقّف عن الصّعود والهبوط ، ظلّتْ تلفّ ذراعَيها حول (بدر) وهي تدفنه في حضنها كأنّها ستفقده إلى الأبد ، أمّا جلال فكانَ يقود السّيّارة بدون أن يفوه بكلمةٍ كأنّه أبكم ، عيناه فقط حلّقتا في البعيد ، استدعى خبرته في الأمراض والاضطرابات ، لم يستطعْ بما يملكُ من معلومات أنْ يصل إلى الجين المُسبّب للحالة إنْ كانَ كذلك ؛ يدرك تمامًا أنّ الأطبّاء في الآونة الأخيرة شخّصوه على أنّه اضطراب لا مرض ، ولذلك هو مجهولٌ بقدر ما هو معروف ، وغامض بقدر ما هو جليّ ، لا أحد يستطيع أنْ يحصر الأسباب الّتي أفرزتْه ، ولا أنْ يقول إنّها عشرة أو

حتّى مئة ، ستظلّ هناك أسباب بعدد المُصابين ، أكثر من مليوني مُصاب عبر العالَم ، معناه أنّ الأسباب الّتي تقف وراء ذلك لا يُمكن حصرها .

فيما انخرطتْ سلوى مع (بدر) في نوبة انعزال كُلّي في سريرها ، وكوّرتْ نفسَها عليه كقوقعةٍ تريدُ أنْ تحميه من أيّ خطر خارجيّ ، وكأنّ التوحّد جرثومةٌ تُصيبُ الإنسان من خارجه ، ونسيتْ أنّه حالةٌ داخليّة تتفاعل في عالَم الطّفل الجُوّاني . . . فيما كانتْ تفعل ذلك ، كانَ جلال يسألها عن شهادة المطاعيم الخاصّة بابنهما ، أشارتْ له دون أنْ تقولَ إلى الرّفّ الأعلى من خزانتهما ، تناول الملفّ الّذي يحتفظان فيه بكلّ ما يخصّ الطّفل ، قلّب الأوراق سريعًا ، رجع إلى المطاعيم الّتي أخذها بعدَ السّنة الأولى من عمره ، فتّش كمنْ يبحثُ عن شيءٍ مُحدّد ، عثر على ما يريد ، عندما كان عمر (بدر) سنة وثمانية أشهر أخذ مطعوم (MMR) الثّلاثيّ الفيروسيّ ضدّ الحصبة ، والحصبة النّكفيّة ، والحصبة الألمانيّة ، إنّها نقطة الانعطاف الأهمّ في المسيرة المُرهَقة ، والّتي ستأخذ أشكالاً مُتعدّدة لا يُمكن التنبّؤ بها في المُستقبل . إنّه اليوم الّذي نامَ بعده يومَين متتابعَين دون أنْ يتركَ سريره ، وهو ذات اليوم الّذي ارتفعتْ فيه درجة حرارته بشكلٍ مُفاجِئ ومُستمرّ .

جلسَ جلال يُراجع البحوث العلميّة للأعراض الّتي ترافق هذا المطعوم ، توصّل إلى كلّ الإجابات عن الأسئلة الّتي دارتْ في ذهنه ، شيءٌ واحدٌ تمنّى أنّ القدر أسعفه فيه ، لو أنّه راقبَ تزامن نومه الطّويل مع ارتِفاع درجة حرارته وربطَ بينهما لكان يُمكن أنْ يتدارك الموقف ، لكنْ سبقَ السّيف العذل كما يقولون ، عليهم الآن أنْ يتعايَشوا مع

الحقيقة الّتي لا يُمكن الهروب منها ، الهروب منها لا يُفيدُ بشيءٍ ، ولن يجعل الحال تتحسّن ، المواجهة الصّادقة والواعية هي كلّ ما يحتاجانه الآن ، مضى على ذلك المطعوم ما يقربُ من عام ، وكلّ ما حدثَ بعدَ ذلك اليوم من تسرّب (للبِبتيدات) المُسبّبة للهلوسة إلى مجرى الدّم قد أخذ دورته بشكلٍ تامّ ، المشكلة ستتفاقم بعدَ اليوم في أمعاء الطّفل أكثرَ من أيّ جزءٍ آخَر من جسمه ، وعليهما أنْ يُحصّناه ضدّ ذلك ، حتّى ولو أنّ أمعاءه الآن فقدتْ مناعتها وصارتْ نهبًا للتّقلّبات المَرضيّة .

مدّ يديه بهدوء ليأخذَ منها الطّفل ، قال لها : «إنّه أقدارٌ نازلةٌ من السّماء» . «لا أصدّق . . . ولا أريدُ أنْ أصدّق . . . أنتَ تكذبُ عليّ كعادتك» . «الإنكار يا سلوى لن يُفيدَنا في شيء ، بل قد يتسبّب في مزيدٍ من الأضرار لطفلنا ، دعيني أشرحْ لك الأمر بطريقة واضحة» . أخذ منها الطّفل وهي مَشدوهة ، انسحبتْ ذراعاها تتبعه وهو يخرج من الغرفة حاملاً ابنهما الغارق في النّوم إلى غرفته .

جلسَ إليها في غرفة الجلوس ، نظرَ في عينَيها عميقًا : «نحنُ لا نختارُ . . . الله اختارَ عنّا . . . الرّضى أوّل الحلّ ، وسأقول لك الحقيقة دونَ التِباس» . تركتْه يتكلّم ، وأدراتْ وجهها إلى الجهة الأخرى ، وهي تبكي بصمتٍ ، ظلّتْ تمسح دموعها دون أن تُريه وجهها الّذي غرسَ فيه الخبر ينابيع من الفجيعة المُتدفّقة . قال لها : «هدايا الله لا تُردّ» . أشاحتْ من جديدٍ بوجهها ، وأزاحتْ جسدَها بعيدًا ، دفنتْ نفسَها في أحد وسائد الأريكة ، وغالبت الدّموع فغلبتْها ، لكنّها دارتْ صوتَ نشقها بوضع يدها بإحكام على فمها . أردفَ : «وهداياه على مِقداره . . . هل نبكي على ما وهبنا» فَعَلا نشيجُها ، وراحَ جسدُها

يرتجّ ، قامَ إليها ، احتضنها وهي معطيةٌ ظهرها له : «إنّنا مُؤتمنون من اليومِ على العناية به ، لا تأخذي كلامَ الطبيب في العيادة على محمل الجِدّ ، بعضُ الأطبّاء يُبالغون ويحمون أنفسهم بذلك تحسّبًا لأيّة مُضاعفات ، أنا أعرفهم ، إنّه دورُنا لنقول لهم ولكلّ اليائسين : سنتمسّكُ بالأمل ، وسنحاربُ الحالة ، وسنخرجُ منتصرين . . . هل أنت مستعدّةٌ لمعركتنا القادمة مع التّوحّد يا سلوى؟!» . ردّتْ عليه بمزيدٍ من ارتجافِ جسدها الّذي بدا أنّه قد هرمَ في ذلك اليوم عشرةَ أعوامٍ كاملة!!

(١١)

لا تشكُ للنّاسِ جرحًا أنتَ صاحبه
لا يُؤلمُ الجرحُ إلاَّ مَنْ به ألمُ

زارتْها أمّها في اليوم الثّاني لتخفّف عنها ، وخاطبها أبوها بحنوّ ففجّر ينابيع الرّحمة في أعماقها فردّتْ بمزيدٍ من البُكاء . لم تتقبّل أحدًا طوال أسبوع من تلك الحادثة ، أصابتْها كآبةٌ ، ودخلتْ مع ابنها في توحّد من نوع آخَر ، وامتنعتْ دون إرادةٍ منها عن الطّعام حتّى نحُل جسدها ، وصارَ طيفًا يلوح إذا قامتْ لتشربَ ماءً ، أو عادتْ لتدفنَ نفسَها في السّرير ، أو دخلتْ غرفته لتطمئنّ عليه . وهو؟! لم يُبدِ في الأسبوع التّالي أيّة أعراضٍ جديدة ، استمرّ في حالة الانشداه الّتي لم يخرجْ منها سابِقًا ، وأوى إلى النّوم لساعاتٍ طويلة وعلى فتراتٍ متكرّرة ، كأنّه هو الآخَر اكتشفَ مثلهم ما أصابه ، فراح يهربُ من الحالة الّتي ألقتْ بظلالها على حياته!!

وكأنّ الحزن عارضٌ مَرَضيٌّ هو الآخر ، بدأ يخفّ بعدَ ذلك الأسبوع القاتِم ، وبدأ النّسيان يلتفّ على القلب كعريشةٍ من الياسمين ، ويخرج من هناك حامِلاً معه بعضَ الأحزان المترسّبة ، والدّموع المتخثّرة ليُلقي بها بعيدًا ، ويعود من جديدٍ ليبدأ حملةً أخرى من تنظيفِ القلب ، وإعداده للمرحلةِ القادمة .

صارتْ تُفسّر كلّ حركةٍ يأتي بها بدر ، وتعرف الغايةَ من ورائها ، جلسَ معها جلال لاحِقًا ، وشرحَ لها عن اضطراب التّوحّد بشكلٍ وافٍ

حتّى أدقّ التّفاصيل في الأمر ، ولأنّه إذا أردتَ أن تُقاتِلَ عدواً فعليكَ أن تعرفه ، فإنّها أغرقتْ نفسَها في البحث عبر (الإنترنت) عن كلّ ما يمتّ إلى التّوحّد بصلة ، ودخلتْ في علاقاتٍ ممتدّة مع أمّهاتٍ أصابَ أبناءَهن ما أصابَ ابنَها ، وانضمّت إلى مجموعاتٍ أخرى ، وتسلّحتْ بالمعرفة لتُقاتِل معهنّ المتطفّل الجديد الّذي قلبَ حياتَهنّ إلى ساحة حرب ، وألجأهنّ إلى أنْ يتخلّينَ عنها لصالح أبنائهنّ ، وبدأ نهرُ الحياة يسيلُ بتفهّم الأمر والتّعايش معه . كانَ عليها رغمًا عنها أنْ تُدرك أنّ أفضلَ وسيلة للنّجاةِ من رصاصات المرض هي تعطيل الزّناد الّذي يضغطُ عليه في كلّ مرّة ، الرّصاصات لا يُمكن القضاء عليها قضاءً تامًا ؛ وذلك لأنّها متوالدة ، وليستْ رصاصات محدودة ، وتنطلقُ من الجهات كلّها لا من جهةٍ واحدة ، لكنّ اليدَ الّتي تضغطُ على الزّناد يُمكن إلهاؤها بشيءٍ آخَر غير التّسلّي بالقضاء على الآخرين وإرسالهم إلى وادي الموت ، ريثما تستمرّ الحياة ؛ الحياة الّتي سُلِبَ منها كُلّ شيءٍ فصارتْ بلا حياة!!

ازدادتْ عزلتُها ، صديقتُها فريال بعد حادثة المِقصّ لم تعدْ تُكلّمها ، فضلاً عن أنّها لم تنسَ بعدُ أنّ (بدر) كادَ يقضي على حياةِ ابنِها ، والآن بعد أنْ صار مُصابًا بالتوحّد فإنّه سيقضي على ابنها عقليًا ، وسيُصبح معاقًا مثله ؛ هكذا كانتْ تعتقد ، وعليه فقد عزمتْ أنْ تقطع العلاقةَ بها وبالمُصيبة الّتي عندها نهائيًا ، أمّا الجيران فإنّها لاحظتْ أنّ جارةً قديمةً هي (إنصاف) انتشلها خبرُ ابنِها من النّسيان فبدأتْ تزورُها بين الفينة والأخرى ، ووجدتْ عندَها (سلوى) السّلوى ، بعدَ أنْ يئست من كلّ مَنْ تعرف .

«المُصيبة تُعلّم النّاس الحِكمة ، والنّعمة تُنسيهم حقّ شُكرها» ،

بمثل هذا كانتْ في كلّ مرّةٍ تُلخّصُ ما يحدثُ معها . ولأنّ الحياةَ عربةٌ ضخمةٌ ذاتُ عَجَلات عملاقةٍ تطحنُ كلّ مَنْ يقفُ أمامها ، فقد قرّرتْ أن تركبَها لا أنْ تقفَ في وجهها ، قرّرتْ أنْ تصعدَ إليها ، وتجلسَ في مقاعدِها الأماميّة ، وتحاول أنْ تقودَها على الرّغم مِما تشاهده في وجوه رُكّابها من ألم وضيقٍ مستمرّ ، ورؤيةٍ للوجع في كلّ حينٍ ، وإحساسٍ بالمرارةِ في كلّ لحظة .

لم يعدِ السّرير ذو المركبة الرّومانيّة مكان (بدر) المُفضّل ولا غرفته الأثيرة ، حركته الدّائبة صنعتْ منه سائحًا يزورُ كلّ شبرٍ في البيت ، فتحَ الثّلاجَة وأكلَ منها ما امتدّتْ إليه يده في غفلةٍ من سلوى الّتي كانتْ تستلقي عصرَ ذلك اليومِ في سريرها مُتعبةً ، سرى الطّعامُ في جسده سريعًا فهاجَ بعدها . . . دخل الحمّام ، تسلّق حوض (البانيو) ، وبيدٍ قويّة فتح صنبور الماء ، وراحَ الماء يتدفّق من الرّشّاش ، سقطَ الماء على وجهه ، ابتهج . اشتدّ تدفّق الماء ، بلّل ثيابه بالكامل ، خابطَ بيديه ، نظرَ إلى الأعلى ، سقط إلى القاع ، تدفّق الماءُ أكثر ، كانَ باب الحمّام مُغلَقًا ، وصلَ الماءَ إلى منتصف الحوض ، ظلّ يحرّك يديه بقوّة وبسرعة حتّى غمره الماء وكادَ يقضي عليه ، صحتِ الأمّ على صوتِ وشوشةٍ بعيدة ، أصاختْ سمعَها ، كانَ الصّوت آتيًا من جهةِ غرفة (بدر) ، قفزَ قلبُها خارجَ صدرها ، ركضتْ باتّجاه مصدر الوشوشة ، قالت في المسافة القليلة الفاصلة بينَ الغرفتَين وهي تقطعها فَزِعةً : «سيغرق . . . إنّه يتلذّذ بالماء . .» . فتحتْ باب الحمّام ، كانَ الماءُ قد غمرهُ بالكامل ، كادتْ أنفاسُها اللاّهثة أن تتوقّف ، انتشلتْه من الماء وهي تتأرجح بين الصّحو والإغماء ، وتُفكّر بالموت والحياة ، ركضتْ به إلى سريره ، أضجعتْه على ظهره ورفعتْ ساقَيه ، وأجرتْ له إسعافاتٍ

أوّلية لإخراج الماء الّذي امتلأ به صدره، لفظَ دفقات الماء بالضّغط على صدره، شهق، فتح عينَيه، ومن جديد بدتا هادئتَين وادعَتَين كأنّ شيئًا لم يحدث... انحنتْ عليه سلوى، حضنتْه، وهي تهتف: «لا تفعلْ ذلك بي يا حبيبي... لا تتركْني وحيدةً يا بدر...».

عرفتْ بعدَ تلك الحادثة، أنّ حياتَها ستُستَلَب ثانيةً ثانيةً، لأنّها ستهبها له من أجلِ ألاّ يقضي على نفسه. صارَ كلّ شيءٍ في البيت محظورًا ومحذورًا؛ لأنّه يُمكن أنْ يؤذي الحبيب الوحيد. أُغلقَ بابُ الثّلاّجة بالرّتاج كي لا يأكل منها شيئًا، فكلّ الأطعمة تؤدّي إلى حدوثِ انتكاسةٍ في حالته إلاّ أطعمة معيّنة، ستتعرّف عليها - وهي خبيرةُ التّغذية - لأوّل مرّةٍ في حياتها فيما بعد. ثُمّ أقفل بابُ الشّرفة لأنّه من السّهولةِ بمكان أنْ يدخلها ويتسلّق بيدَيه القويّتَين درابزينها، ويسقط من هناك إلى الشّارع فيتلقّفه الموت المستتر. وأغلقَ بابُ البيت، ووضع المفتاح أعلى من المرآة المُقابلة له كي لا يصل إلى يديه، لأنّه إذا فتحَ البابَ وخرجَ فلا أحدَ يدري أين ينتهي به المطاف؛ في الشّارع أو في سطح العمارة، أو تائِها في الطّرقات، ومَنْ يستطيع أنْ يعرفه، وهو كيفَ يُمكن أنْ يعرّف عن نفسه، ولسانه لا يتكلّم إلاّ أصواتًا.

أمّا التّحف والكريستالات فقد أخفِيتْ من البيت، بعدَ أنْ كسر عددًا منها، وأزيحتْ بعض قطع الأثاث من الطّريق، لأنّه لا يحتمل وجودها، ولديه القدرة على تحريكها من أماكنها وإتلافِها، ورُفعَ عن الأرض كلّ شيءٍ، وعُطّلتْ كبسات الكهرباء المنخفضة الّتي تكون في متناول يده، ورُفعت الكتب الّتي كان يتسلّى بتمزيقها ومضغِ أوراقها، كانَ يبدو آكِلاً جيّدًا لها. وأغلقتْ أبواب الغرف الأخرى غير غرفته،

وأجريتْ تعديلات متسلسلة على غرفته الخاصّة ، وتخلّصتِ الأمّ من كلّ لعبةٍ تحوي قطعةً حديديّةً مهما كانتْ صغيرة ، وأخفيت المفاتيح والأحذيةَ ذات الإبزيمات ، وأزيلتْ سكّة الحديد من اللّعبة ، وأبدل بكلّ ذلك ما كان من قماشٍ أو قُطن أو شمع ، حتّى الألعاب الشّمعيّة ذات الحوافّ الحادّة أبعدتْ عنه . ونُظّفت الممرّات من الفازات أو الصّناديق أو المُزخرَفات أو المقاعد القريبة من المرايا . وأخفيت المكانس اليدويّة والكهربائيّة .

وباختصار صارَ البيت بعدَ عمليّات التّعديل هذه كأنّه خاوٍ على عروشه . وبدا كما لو أنّ الصّدى يتردّد فيه عندما ينادي أحد الزّوجَين الآخَر!!

في اللّيل بعدَ أنِ اطمأنّتْ إلى أنّه نام ، عادتْ بها الذّكريات ، تساءلتْ فيما إذا كانتْ لهفتُها إلى الإنجاب هي الّتي أوصلتْها إلى هذا القعر المُظلِم من الحياة ، ما جدوى أنْ تُنجِبَ ما يُسبّب لها الأذى ، ويُلجِئها إلى البكاء في كلّ حين ، ويُحوّل حياتها إلى جحيم . هتفتْ في أعماقها : «هل كانَ توقي إلى ابنٍ من صُلبي دونَ وعي هو ما أودى بي ، أكانَتْ لهفتي وشوقي مبالَغًا بهما فأراد الله أنْ يُعاقِبني . إلى مَنْ أشكو؟! لو شكوتَ إلى أقربِ النّاسِ إليكَ فلن يشعروا بشيءٍ ممّا تشعر به ، ما أسهل ما يقومُ به الآخَرون ، مجرّد حديثٍ فارغ عن الصّبر وأهمّيّته ، ومواعظ باردة عن الاحتِمال والتّفاؤل . . . في الحقيقة لو كانوا هم المُصابين ، وحالتهم كحالتي هل كانوا يملكون لسانًا فصيحًا لإزجاء هذه المواعظ والنّصائح . . . كاذبٌ مَنْ يقول إنّه يقفُ إلى جانبك ، إنّه يقفُ إلى جانبك بلسانه فحسب ، هذا صحيح ، ما أسهلَ التّعزيةَ باللّسان ، أمّا بالجَنان فالأمر يبدو ضربًا من المستحيل ، أمّا على

مستوى الشّعور فلن يُدركَ الفجيعةَ إلاّ مَن اكتوى بلهيبها ، ولن يشعر بفداحة الخَطب إلاّ مَنْ نزلَ به ، ولنْ يذوقَ طعمَ المرارة إلاّ مُتجرّعها ، وتذكّرتْ بيتًا من الشّعر حفظتْه في المرحلة الثّانويّة ، كانتْ مُدرّسة الدّين كثيرًا ما تردّده :

لا تشكُ للنّاسِ جرحًا أنتَ صاحبه

لا يُؤلمُ الجـــــرحُ إلاّ مَنْ به ألمُ

أينَ تكمنُ الرّاحةُ إذًا؟! في أنْ يريحني الله من هذه البلوى الّتي جثمتْ على صدري وصدر البيت بأكمله؟! أستغفر الله . هل كان يُمكن تدارك الأمر بحذفِ الأخطاء السّابِقة!! هل فعلاً يُمكن حذفُ ما انقضى من الزّمان ؛ ليسَ من الذّاكرة ، بل من الواقع ، ما أشدّ قسوة الماضي ؛ سكّينه الّتي يكتبُ بها الفجيعةَ فوقَ الجسد لا تُشفَى أبدًا ، إنّ التِئامَ الجرح لا يعني الشّفاءَ منه ، لأنّه يظلّ شاهدًا على الفجيعة نفسها ، يبرز في كلّ مناسبة ليذكّرك بها ، ويغرسَ شوكةً أخرى في القلبِ مع كلّ ذكرى!!

ما أصعبَ أنْ يتبدّد الحلم في لحظة ، بعدَ أنْ كانَ قَبْضَ اليد!! وما أنفذَ الطّعنةَ حينَ تكونُ في أقربِ النّاسِ إليك!! في الجزء الّذي أحبَبْتَه أكثرَ من نفسك ، في الابنِ الّذي كانَ ملءَ السّمع والبصر والفؤاد . . .!! ما أوحشَ الطّريقَ حينَ تمشيها وحدَك ، تطول وتمشي ، تُظلِم وتمشي ، تمتلئ بالحُفر والذّئاب وتمشي . . . وتظلّ الغاية بعيدة ، والأمل يخفت ، وكلّما انقضى جزءٌ من الطّريق ، انقضى جزءٌ من العمر ، انقضى جزءٌ من الأمل!!

آه ، لو أنّه لم يأخذ ذلك المطعوم لربّما كانتْ حالته غير حالته الآن!! كيفَ يُمكن للإنسان أنْ يعودَ بالزّمن إلى الوراء ليتفادَى

الأخطاء!! أسوأ ما في الماضي المليء بالأخطاء أنّه لا يُمكن أنْ يعود لتتمكّن من إصلاح تلك الأخطاء!! ومَنْ قال إنّها أخطاء؟! الأخطاء فيما يكتبه الإنسان لنفسه ، لا فيما يكتبه الله له ، وهل فيما يكتبه الله خطأ!! أستغفر الله . لكنْ لماذا من بين كلّ هؤلاء الأمّهات التّائقات إلى فلذة الكبد ، وحبّة القلب ، يُصيبني أنا وحدي هذا الضّنا ، ويُثقل الله كاهليّ من بينهنّ جميعًا بهذا الحمل الثّقيل!! وهل الأقدار أحمالٌ ثقيلة؟! هل يتسلّى الله بتعذيب عياله؟!! حاشاه . هل يريد لي أن أتعذّب في الجحيم فيما غيري يرتعُ في النّعيم؟! أستغفر الله . إذًا فَلِمَ يستخلصني المرضُ بابني مستثنيًا الآخرين؟! لأنّ الله يريد أنْ يستخلصني لنفسه؟! كانَ يُمكنه أنْ يفعل . . . كان يُمكنه أن يفعل . . . لكنْ بطريقةٍ أخرى ، لو أنّ المصيبة نزلتْ في غير ابني . . . الوحيد . . . الحبيب . . . آه . . . لو كانَ بمقدور الإنسان أنْ يوجّه سِهام الأقدار النّازلة ، لوجّهتُ سهمَ إصابتكَ يا حبيبي إلى أيّ شيءٍ آخَر ولو كانَ هذا الآخَر أنا . . . ولو كانَ قلبي أو روحي . . . يا قلبي ويا روحي!!

(١٢)

الحزنُ في عينيكِ جميلٌ لكنّ الفرح أجمل

إنّها المدينةُ الورديّة ، الضّاربة في التّاريخ ، والحامِلة عَبَقه الّذي يضوع قبلَ أنْ تدخلها بمسافةٍ بعيدة ، في كلّ شبرٍ ترى أثرًا من العظمة ، العظمة الّتي جعلها الإنسانُ تقفُ على أقدام الخَيال ؛ الخيال الّذي يتمثّل في أنْ تتفجّر طاقة الإنسان حينَ يريد ، إنّه قادرٌ على أنْ ينحتَ الجِبال بيوتًا ، ويحوّل الصّخر الأصمّ إلى لوحةٍ فنّيّة تحاور كلّ زائريها . قال لها : «المُعجِزة هنا تتحدّث عن نفسها ؛ لا يُمكنِ لأيّ عائق أنْ يحدّ من طاقة الإنسان ؛ الإنسانُ هو المعجزة ، ما من شيءٍ يقفُ أمام الإرادة ، والإرادةُ ليستْ هبّةً عاطفيةً ، ولا ثورةً شعوريّة ، إنّها عقلٌ يُفكّر بعمق ، ويُخطّط بتؤدة ، ويُنفّذ بثقة» . شعرتْ أنّه يعنيها بهذه الكلمات . قال لها : «إنّها فرصةٌ لتخرجي من القوقعة الّتي سجنتِ نفسكِ فيها . . . دَعِي الحزن يرحل ، الحزنُ في عينيكِ جميلٌ لكنّ الفرح أجمل ، أتعرفين . . . كلّ ما يكتبه الله هو أجمل ما كتب ، ألمْ يكنْ لقائي بك قبلَ عشر سنوات أجملَ ما حدثَ لنا ، ألم يكنْ بدر حينَ وُلِد أجملَ ما حدثَ لنا ، ألم يكنْ يومَ عرفْنا أنّه مصابٌ بالتّوحّد أجملَ ما حدث لنا . . .؟!! لا تقولي إنّني أبالغ ، ما حدث لبدر هو أجمل ممّا حدثَ لأكثر من ملايين الأطفال المبثوثين عبرَ العالَم . . . سأوضّح لكِ قبلَ أنْ ترمقيني بعينَين مُنكرتَين . . . بحُكم خبرتي في التّعامل مع الأزمات ، شاهدتُ آلاف الأطفال المُصابين

بسوء التّغذية ، رأيتُ أطفالاً لا يغطّي هيكلهم العظميّ إلاّ قشرةٌ رقيقةٌ من الجلد . . . عرفتُ أطفالاً آخرين لم تتمكّن هيئات الإغاثة من إنقاذهم فماتوا جوعًا . . . مئات الآلاف الأخرى ماتوا بالأمراض وخاصّة في مناطق النّزاع في أفريقيا ؛ بعضهم كانوا طعامًا سهلاً للوحوش ، كانَ يُمكن أن يُفتَرسوا أمام أعينِ آبائهم وأمّهاتهم . . . مئات من الآلاف ماتوا بالفقد ، أتعرفين أنّ اليُتم أسوأ للطّفل من الموت ، خاصّة إذا أُلقِيَ به في دارٍ للأيتام تقومُ عليها حكومةٌ عربيّة ، سينشأ أسوأ ممّا لو كانَ ميّتًا ؛ إنّه سيصبح عالةً على المجتمع بدلَ أنْ يكونَ لبنةً صالحةً فيه . . . وسيذهب باتّجاه اللاجدوى في كلّ أمور حياته ، ولن يهتمّ بتعليمه أحدٌ . مئات من الآلاف الأخرى من هؤلاء الأطفال ماتوا في الحروب ، والّذين نجوا عاشوا حياةً أسوأ في الاتّجار بهم ، أو في اضطرارهم إلى العمل وبعضهم لم يتجاوز السّادسة . . . تخيّلي يا سلوى أنّ بعضهم في سنّ السّادسة أو السّابعة ، نعم في السّادسة أو السّابعة يقوم بأعمال لا يقوم بها رجلٌ مكتمل الرّجولة ، تُجّار الحروب والمستفيدين من النّزاعات يستغلّون عمالة الأطفال بشكلٍ بَشع ؛ فيكلّفونهم أعمالاً في البناء أو في الحقول أو في الأعمال المِهنيّة من النّجارة والحِدادة لا يقوى عليها البالغون . . . ولو أردتُ أنْ أعدّد لك مآسي الأطفال عبر العالَم لاحتجتُ إلى أيّام وأيّام . . . أليسَ طفلُنا خارجَ هذه الدّائرة بأكملها؟! فكّري معي بهذه الملايين من الأطفال الّتي تُعاني ؛ أتظنّين أنّهم بدون أمّهات؟! كلاّ ؛ إنّ لديهم أمّهاتٍ تحترقُ قلوبهنّ عليهم احتراقًا ؛ وإنّ لديهم آباءً كانوا يرون في عيونهم الحلم ، ثمّ ضاع الحلم سُدى . أقسى ما يُمكن أنْ يُصيب الأمّهات هو أنْ يعشْن مآسي أطفالهنّ وهنّ يرينَ تلك الفجائع تتناهشُ حبّاتِ القلوب

ثُمّ لا يستطعنْ أنْ يفعلْنَ لهم شيئًا . . . أمّا الأمّهات اللّواتي مُتنَ فقد ارتحن . الموتُ في بعضِ الأحيانِ راحةٌ ؛ إنّه راحةٌ للرّاحل أكثرُ منه للمُرتَحل عنه!!

ظلّتْ صامتةً شاردةً . . . كانَ قلبُها قد بدأ يونع لكلماته ، وإنْ ظلّ يحتاج إلى جرعاتٍ أكثر من ماء الطّمأنينة لكي يخضرّ . . . عبرَا (السِّيق) ماشِيَين ، كانتْ تحمله على ظهرها ، بدت جبال الصّخور شاهِقة ورائعة ، شعرتْ ببرودة المكان وروحه بمجرّد أنْ صارا في الظّلّ ، كانت العربات الّتي تقودها خيولٌ تمرّ مسرعةً في الطّريق ، قال لها أحدُ الخيّالة : «أتريدين عربةً أيّتها السّيّدة؟!» . ردّ عليه جلال : «شكرًا يا صديقي» . «إنْ لم يكنْ من أجلكِ فمن أجل ابنكِ الجميل ، حرامٌ عليكِ أن تُتعبيه معك» . نظرتْ متعجّبة إلى جلال وهي تدير وجهها إليه : «لم يبقَ إلاّ أنْ ينصحني مرّار الطّريق . . . أرأيت . . . كلّهم أصبحوا فجأةً يخافون على ابني!!» . ردّ عليها جلال ضاحِكًا ، بلهجتنا يقولون : «ما ظلّ بالخُمّ غير مَمْعوط الذّنب» .

على فتراتٍ متقطّعةٍ من الطّريق ظهرتْ بعضُ المجاميع السّياحيّة ، كان الدّليل السّياحيّ العربيّ يلبس نظّارة من أجل أنْ يكتمل مشهده ويرطن ببعض الكلمات الأجنبيّة . . . الصّغار هنا ، بعضهم مِمّن لم يدخل المدرسةَ بعدُ ، يتكلّمون كلّ لغاتِ السّائحين . . . على الأقلّ تلك الّتي تنفعهم في الحديث ببعض العبارات المهمّة في مجال العمل ، الطّعام ، الشّراب ، ركوب العربات ، والاستفسار عن الفنادق ، وبيع الكروت التّذكاريّة ، والأشغال اليدويّة .

أراحا عندَ الخزنة ، جلَسَا في ظلّها ، كانتْ عملاقةً تروي حكايا العمالقة ، وشاهقةً تروي المجدَ لأمّةٍ سادتْ ثُمّ بادتْ . أنزلتْ (بدر) من

فوق كتفَيها ، وأجلستْه على صخرةٍ في المكانِ إلى جانبِها ، كانَ واضِعًا يدَيه على أذنَيه ، كأنّما يريد أنْ يمنعَ الصوت من أنْ يصلَ إليه ، قرّبتْ وجهها من وجهه وطبعتْ قبلةً عميقةً على خدّه ، وضعتْ يدَيها على كتفيه ، وبابتِسامة سألته : «هل أعجبتكَ الرّحلة؟!» . ظلّ واضِعًا كفّيه على أذنَيه دون أنْ يُبدي أيّ اهتمام أو إشارةً إلى أنّه سَمِعها . ابتسمتْ أكثر : «لا بُدّ أنّكَ جائع» . فَطِنَتْ إلى طعامه الخاصّ ، لقد نسيتْه في السّيّارة ، وحده الماء الّذي جعل الله منه كلّ شيءٍ حيّ لا يُؤثّر عليه ولا يؤدّي إلى تراجع في حالته ، لو كانَ الأمر كذلك لماتَ التّوحديّون عطشًا ، فكّرتْ : «ابتّلى ولطف» . لكنّ أغلب الأطعمة الّتي يتهافت عليها النّاس هي مِمّا يُسبّب مضاعفات شديدة لدى أطفال التّوحُّد . ليسَ من السّهل الآنَ العودة إلى السّيّارة لجلبِ الطّعام ، انزعجتْ . قالتْ لجلال : «علينا أنْ نعودَ بأسرع وقت» . اختصرا مُشاهَداتِهما للمكان ، كانَ يُحبّ أنْ يريها الكنيسة ، أرادَ أنْ يشرح لها عن الحضارات الّتي شهدتِ المكان ، لكن ما باليد حيلة . عادا . في طريقِ العودة تَعِبَا ، رَكِبَا إحدى العربات لاختصار الوقت ، كان (بدر) لا يزال يضع أكفّه على أذنَيه ، بدأ في منتصف الطّريق بالصّياح ، كانَ صياحه بُكائيّ ، حاولت سلوى تهدِئته فاستمرّ في بكائه . غطّى صوتُ العجلات الحديديّة الّتي تنهب الأرض الصّلبة على صوتِ الصّغير ، فضاعَ صُراخه بين صُراخ العَجَلات ، وساعدَ على ذلك أيضًا حوافر الخيول الّتي تفحص الأرض عائدةً إلى أوّل السّيق أو ماضيةً إلى الخزنة ، ومع ذلك كانتْ بعضُ نظراتِ النّاس إلى سلوى كأنّما تقول : «أليسَ ابنَكِ؟! لماذا لا تقومين بتهدئته . . .؟! ما أقسى قلبَ هذه الأم تسمع ابنَها ينفجر بالبُكاء ولا تُحرّكُ ساكِنًا . . . هذه أمّهات آخر الزّمان

لا تعرف ما معنى أن تكونَ أُمّا فهي لا يهمّها إلاّ نفسها وخروجها في رحلات ترفيهيّة . . .» . كانتْ بالفعل نَظَرات طاعنة تقول أشياء فظيعة ، ومع كلّ المحاولات لإخراج (بدر) من الحالة الّتي دخل بها لم تفلح سلوى بشيء ، واستمرّ في حَفلته البكائيّة حتّى رَكِبَا السّيّارة . رفضَ أنْ يأكلَ شيئًا أو أنْ يشربَ ولم ينقطع عن صُراخه . قال جلال : «أنا أعرفُ ما حلّ به . . . سأشرح لكِ بعدَ قليل» . أسرعَ بالخروج من المنطقة ، لم يذهب إلى الطّريق العامّ ، سلكَ طريقًا خاليةً من النّاس ، صعدَ بالسّيارة إلى أحد الجبال البعيدة عن أماكن السّكن ، وفي مكانٍ ظليل أوقفَها ، كان بدر لا يزال يواصل البكاء ، قال جلال لها : «تعالَي معي» . تركاه في مقعده الخلفيّ ، وابتعدا عن السّيارة بضعة أمتار ، وتابع : «خمس دقائق وسينتهي كلّ هذا . . . إنّه في مرحلة التّفجّر السّمعيّ ، حتّى إنّه يكاد يسمع دبيبَ النّملة ، والضّوضاء العالية الّتي كانتْ في السّيق وأصوات النّاس وصياحهم مع الصّدى المُتردّد كانَ أكبرَ من قدرته ، لقد جمعتْ أذناه كلّ تلك الأصوات وكثّفتها ممّا أدّى إلى استقبال طاقة صوتيّة لا يُمكن لبشرٍ عاديّ أنْ يحتملها ، الأمر يُشبه أنْ تسمعي عشر سمّاعات مُضخّمات للصّوت تقبع أمام أذنك في لحظةٍ واحدة» . «يا إلهي . . . ماذا يعني ذلك؟!» . «ألاّ يتعرّض لأماكن التّجمّعات ، بمعنى آخَر يجب أنْ تتجنّبي الدّخول به إلى الأسواق المزدحمة ، أو الملاعب الممتلئة ، أو السّفر به في طائرة وخاصّة مرحلة الدّخول الأولى ، حيثُ تكونُ أصوات المسافرين المُتداخلة أو أصوات المطار العالية أو أصوات محرّكات الطّيّارة إبّان إقلاعها ، أو أصوات الطّائرات الّتي تستعدّ للهبوط أو تلك الّتي تستعدّ للمغادرة . . . وكلّ ما يشبه ذلك من أماكن تتداخل فيها الأصوات . . .» . ظلّتْ

واجِمة ، كانَ هَمًا جديدًا يُضافُ إلى همومها . عندما عادا إليه ، كان قد كفَّ عن بُكائه بالفعل كما توقّع جلال ، وهدأ ، وبدا وادِعًا ، عيناه تنظران من خلال النّافذة بسلام .

«سننام اليوم في البتراء ، وسننطلقُ في الصّباح إلى العقبة ؛ ما رأيكِ بذلك؟! أريدُ أن ننعمَ برحلةٍ جميلةٍ ، كلّ خُطوةٍ أخطوها معك تزيدُ من هرمون السّعادة عندي ؛ هل سمعتِ من قبلُ بهرمون السّعادة هذا؟!» قال ذلك وأطلقَ ضحكةً مدوّيّة . أجابتْه بشرود : «لماذا علينا أنْ نفعل ذلك؟!» . «من أجلكِ» . «من أجلي؟!» . «الحياةُ أقصر من أنْ تُقضَى في الهمّ والعمل ، لا بُدّ من الانتصار على مرورها السّريع بالحُبّ . . . القلوب إذا أُهملتْ في الصّدور صَدئت ، أنا لا أريدُ لقلبي أنْ يصدأ ، أريدُه أنْ يحاور القلبَ الّذي اختاره ، أنْ يضحكَ له ، أنْ يلهو معه . . . أحرامٌ على المُتحابّين أنْ يتفرّغوا لأنفسهم قليلاً» . كانَ كلامه ينزلُ على القلبِ بردًا وسلامًا ، ولكنّ نظرةً واحدةً إلى الخلف حيثُ (بدر) كانتْ تطغى على ذلك البرد والسّلام ، لكي تُحِلّ محله الهمّ والغمّ ، تمنّتْ لو كانتْ تستطيع أنْ تعيش في عائلةٍ طبيعيّة ، لوهبتْ قلبَها وعمرها كلّه لجلال ، أما وهذا الصّغير بينهما فلن يسمح لهذا الحبّ أنْ ينمو بشكلٍ طبيعيّ ، ولا لهذا القلبِ أنْ يظلّ عابِقًا . وكأنّما فَهِمَ صمتَها الطّويل ، فأردف : «إنّ المحنةَ الّتي نزلتْ بنا يجب أن تقرّبنا أكثر من بعضِنا لا أنْ تُبعِدنا ، إنّ وجود بدر في حياتنا يجب أنْ يزيدها رقّة وحنانًا ، إنّنا معًا يُمكننا أنْ نتخطّى الألم ، وحينَ أقول معًا فهذا معناه سَكَنُ الأرواح وتآلفُ القلوب» . لم تردّ . ظلّتْ صامِتة ، وإنْ كانتِ الحيرةُ قد نخرتْ قلبَها في تلك اللّحظة .

في الليل ، قامَ بدر ، لم يجد دائرةً قطرها ثلاثة أمتار لكي يدور

حولها ، ضيّق دائرته إلى مترٍ واحد ، حملَ فازة كريستاليّة ثقيلة ، وراح يدور بها كصوفيٍّ يدور حول مركز القلب ، ثُمّ غيّر طبيعةَ حركته الّتي استمرّت ساعةً ، فوقفَ في مركز الدّائرة ، وصنع من الفازة الثّقيلة قُوّة طاردة تحافظُ على دوارن ساقَيه في المركز ، فراحت الفازة تحوم وهي بينَ يديه في محيط دوَرانه ، ظلّ يدور إلى أنْ داخ ، قبلَ أنْ يسقط في الدّورة الأخيرة أفلتَ الفازة في حركة مُفاجئة فارتطمتْ بالجدار ، كانَ صوتُها قويًا إلى الحدّ الّذي يُمكن أنْ يُوقظ نصف النّائمين في ذلك الطّابق من الفندق الّذي يهجعون فيه .

عادًا في اللّيلةِ نفسِها ، لم تصبرْ حتّى الصّباح ، صرختْ به بعدَ أنْ أصلحَ الأمر مع مدير الفندق : «أريدُ أنْ أعودَ الآن إلى عمّان» . «لننتظر حتّى الصّباح يا حبيبتي» . صرختْ به : «الأمر لا يُحلّ بالكلمات الشّاعريّة . . . أريدُ أنْ أعودَ الآن ، وإلاّ فسأنفجر في الصّياح والبكاء» .

(١٣)
من أينَ تأتيكَ الطّعنة؟!
مِمّن أعطيتَه ظهرك مُطمئنًا

تغيّرت الحياةُ سريعًا ، حُرِمَ الأبوان من كلّ طعام كانا معتادَين عليه في السّابق . صنعت المحنة في حياتِهما مسارًا جديدًا ، ترقّقت القلوب ، وتحنّنت الأفئدة ، واتّسعتْ مواطن الإدراك .

لم تعد الأغذية المُشتراة تدخل إلى البيت أبدًا . ألغيتْ كثيرٌ من الأطعمة الّتي كانتْ تملأ الثّلاّجة . صُنعتْ كلّ الوجبات في البيت ، بما فيها الخبز ، لا خبزَ بعدَ اليومِ من الأسواق . الأسواق تعجّ بالسّموم القاتلة . صار أيّ طعامٍ في السّوق يُنظَر إليه على أنّه قاتِلٌ خفيٌّ ، يتسلّل إلى بيوت النّاس وبإرادتهم ، ثُمّ يبدأ بالإجهاز البطيء عليهم . سيُقال ذات يوم بعد سنين من المداومة على دخول هذه السّموم إلى الجسوم لشخص ما : «إنّك مُصابٌ بالسّرطان» . السّرطان هو ذلك القاتل المتجوّل الّذي يتسلّى في السّكن داخل الأجساد ؛ لم يكنْ ليدخل إلى أيّ جسدٍ لولا أنّ الإنسان سمحَ له بذلك ، فأتاه من مواطن ضعفه ؛ شهوته إلى الطّعام . اختبأ في الأطعمة الّتي تبدو لذيذة ، واتّخذ له مكانًا صغيرًا في بقعةٍ لا تُرى من جسم الإنسان تُسمّى الخليّة ، ثُمّ بعدَ أنْ طابَ له المقام واستطال به الزّمن راح يتفجّر بطريقةٍ سريعةٍ ، وينتشر في زمنٍ قياسيّ ؛ ليقضي في النّهاية على الإنسان ، الإنسانُ الّذي قال له بملءٍ فيه فيما مضى : «أهلاً وسهلاً ومرحبًا» .

قالتْ (إنصاف) ، جارتهم الّتي تقطن في العمارة الثّانية من هذه السّلسلة : «لقد رعى زوجي في سنواته الأربع الأخيرة خيرَ رعاية ، وساعده حينَ تفرّق عنه الآخَرون ، جئتُ لكي أردّ له ولكِ الجميل» . ردّتْ عليها سلوى : «حَقًا؟!» . «ألمْ يكنْ يُخبرك بذلك؟!» . تظاهرتْ بأنّها لم تسمعْ . «لقد عرفْناه من هنا ، جلال يحملُ في قلبه من حبّ الخير ما لم أره في أيّ إنسانٍ من قبلُ ، لم يكنْ ينتظر مِنّا مُقابل ذلك شيئًا ، أمثاله لم يعودوا موجودين» . «جميل . . . . ها أنتِ تقولين ، لكنْ بِمَ كانَ يُساعده؟!» . «كانَ يأتي لزوجي بالدّواء مجّانًا وعلى نفقة وزارة الصّحّة ، وأحيانًا من المنظّمات الإغاثيّة الّتي يعمل بها كما كان يقول ، راتبنا التّقاعديّ لم يكنْ قادرًا على الوفاء بمتطّلبات العِلاج» . تنهّدتْ سلوى ، شعرتْ بالفخر ، لكنّها كتمتْ ذلك ، سألتْها : «أرجو أنْ يكون قد ساعده ذلك على الشّفاء» . أرسلت إنصاف زفرةً طويلةً ، ترقرقتْ دمعةٌ يتيمةٌ في عينِها ، لكنّها تمالكتْ نفسَها لتردّ بنغمةٍ شجيّة ومُفعَمةٍ بالرّضا : «لقد مات منذُ أكثرَ من سنة» . «مات؟!» . «كانَ يُعاني من السّكّري ، عشنا معًا خمسةً وثلاثين عامًا ، لم يرزقنا الله بالأولاد ، أعطَى زوجي قلبه وعقله لمهنته الّتي يُحبّها ، كانَ أستاذًا للعلوم للمرحلة المتوسّطة في مدرسة الحُسَين ، قبلَ سبع سنوات اكتُشفتْ إصابته بمرضِ السّكّري ، بدأ العِلاج ، وقاومَ المرض ، ومُني بخسارات عديدة في معركته الطّويلة معه ، قُطعتْ رجله اليُمنى فاستَعاضَ عنها بعُكّاز ولم يتغيّب عن المدرسة ، وكان يذهبُ إليها بساق واحدة ، يضع العُكّاز تحت إبطه ، ويستندُ عليه ، وباليد الأخرى يشرحُ لهم المادّة على اللّوح . وحينَ كان يمشي في السّاحة بين الطّلاّب كانَ يبدو أنشطَ منهم ، يُمازِح هذا ، وينصح ذاك ، وقد يُهدّد بعكّازه

أحدهم وهو يرفعه في وجهه قبل أنْ يهوي به من جديد على الأرضِ كي لا يسقط . كانَ يُداري بهذا مُصيبته ؛ زادتْه رجله المقطوعة إصرارًا على أنْ يستغلّ كلّ لحظة من حياته ليبذلها فيما أحبّ ، والجأتْه حالته إلى أنْ ينغمسَ انغماسًا في التّدريس والعَطاء ، كانَ أمامه حَلاّن ؛ إمّا أنْ يستسلم لهذا القاتل الّذي يطعنه خفيةً ويأتيه من حيثُ لا يدري ، ويهبه بالتّالي روحه وضَحكته ، وإمّا أنْ يُقاتله ولو كانَ برجلٍ واحدةٍ ، ويُشهر رجله الخشبيّة الأخرى في وجهه كلّما حاول التّسلّل إليه . . . بالطّبع لم ينجح ، لكنّه حاول ، ذلك لأنّ السّكّري كان يتربّص به في كلّ لحظة ، لم يكنْ لينساه فترةً بسيطةً إلاّ لينقضّ عليه فجأةً ودونَ سابِق إنذار ، لم يكن المرضُ ذكيًا ، بل كان خبيثًا ، كانَ لِصًا ، وسارقًا مُحترفًا ، سرقَ الفرحةَ من البيت ، وسرقَ البسمةَ من الوجه ، وسرقَ العِشرةَ بعدَ عمرٍ طويل . قالوا من أينَ تأتيكَ الطّعنة؟! مِمّن أعطيتَه ظهرك مُطمئنًا إليه ، هذا ما فعله السّكّريّ بالضّبط ؛ بعد عامٍ واحدٍ فقط من تلك الحادثة قال له الأطبّاء إنّهم سيضطرّون لقطع السّاقِ الأخرى ، ضجّتْ في أعماقه روحه ، واضطربتْ بينَ جوانحه إرادتُه ، قاده خياله إلى المُستقبَل ، كيفَ سينظر الطّلبةُ إليه وهو يبدو مثلَ طفلٍ عاجزٍ أمامهم ، هذا الّذي كانَ يملأ جنبات المدرسةِ حيّويّة وهِمّة ، ويزرعُ فيها الأمل والإرادة ، ويُنبتُ في كلّ صفٍ العزيمة . . . ها هو كسيحٌ مُقعَد مُتهالكٌ على كرسيّ وضيع ، يكاد يغوصُ في قعره لضآلته!! هل كان بإمكان الإنسان أنْ يختبئ من قَدَر الله؟! هل كانَ باستطاعته أنْ يتغافلَ عنه أو يتناساه ، ولو فرضنا أنّه فعل ذلك ونجح فيه ؛ فهل بإمكان القدر أنْ يتغافلَ عنه؟! مَنْ يستطيع أنْ يحوّل غُدُوّ الرّياح ورواحها سِواه!! مَنْ؟! في النّهاية حينَ لا تملك إلاّ أنْ تتقبّلَ أمر الله ،

فتقبّله راضيًا . استسلمَ لمشيئته . صار يتنقّل على الكرسيّ المتحرّك ، ولم يثنِه ذلك عن أنْ يظلّ على العهد مع طلاّبه ، فكانَ يذهبُ إلى المدرسة ويُعطي حصصه كافّة وهو يجلسُ على كرسيّه المتحرّك ، وزادَ حُبّ الطّلبة له ، وأعطَى من قلبِه كلّ ما يقدر عليه من وسائل في الشّرح وإيصال المعلومة . في سنته الأخيرة بدأ بصره يضعُف ، إحدى عينيه أعتمتْ ، والثّانية كانَ يرى بها نصف رؤية ، وظلّ مواظِبًا على تعليمه ، وأعفاه وزير التّربية من التّدريس ، وحدّد له راتِبًا تقاعديًا مُبكّرًا ، لكنّه رفض ، وتوسّل إلى مدير المدرسة أنْ يبقَى في مهنته حتّى وإنْ جاء كتاب الوزير بإعفائه من ذلك ، ولحبّ المدير له ، أو لنقل إنّه بدأ يُشفِق عليه ، ولم يهن عليه إغضابه فقد سمح له بذلك ، ولكنّه بعدَ أقلّ من شهر فقد بصره نهائيًا ، فاضطرّ للجلوسِ في البيت ، وكانتْ هذه الحادثة الكارثة الكُبرَى الّتي حلّتْ به ؛ تقبّلَ المرض نفسَه ، وقطْعَ ساقَيه ، وعمى عينَيه ، ولم يستطعْ تقبُّل جلوسه في البيت! دخل في حالة اكتِئاب ، حاول جلال أنْ يُخرِجَه منها بالطّبّ العضويّ ، وبالطّبّ النّفسي ، كانَ يتحسّنُ أحيانًا ، ولكنّه استسلمَ للمرض في النّهاية . كانَ لقاؤه بطُلاّبه يرفع من معنويّاته ، وكان انغِماسه في مهنة التّدريس يزيد من صلابة جهاز المناعة ، فلمّا حُرِمَ من ذلك تهدّمتْ لديه القلعةُ الحصينة ، فسَهُلَ على المرضِ أنْ يتسلّل إلى روحه ، ويقضي عليه . . . مات . . .» . توقّفتْ إنصاف قليلاً ، مسحتْ دمعةً سبحتْ على خدّها ، نظرتْ إليها سلوى ، رأتْ في عينَيها حزنًا لكنْ إلى الحزن رضًى ، ثُمّ أردفتْ : «مات . . . مات وهو يدعو لجلال ، لقد كانَ يسلّيه في عُزلته الأخيرة ، ويُخفّف عنه ، ويقف معه إلى جانبه في معركته الشّرسة مع مرض السّكّري . . . وها أنا في

الخمسين من العمر ، لا أريدُ من الحياة إلاّ أنْ أساعدَ في عمل الخير ، وأقف إلى جانب من وقف إلى جانبنا . . . اعتبريني مثل أختك ، وسأكونُ لبدر مثلما تكونين أنتِ له» . عانقتْها سلوى ، وشردتْ بأفكارها بعيدًا : «إنّها الرّسالةَ الثانية الّتي تصلني ؛ أرملةٌ في الخمسين ، تعيشُ على راتب زوجها التّقاعديّ ، وبالطّبع حرمت من نعمة البنين ، ومن وجود الرّجل الأقربِ إلى قلبها . . . أنا بالفعل أملكُ ثروةً كبيرة قياسًا إليها!» .

الأعشاب الّتي تتمايل على سَطح البحيرة بنعومةٍ يُمكن أنْ تُخفي تحتها التّمساح . والشّوك الّذي ملأ الحديقةَ المهجورة بلونه القاتم هو ذاته الّذي أطلع الوردة الزّاهية . لا تكفر بالنّاس ولا تُعطِهم كُلّ ثقتك . آمِنْ بالبذرة المُغيّبة في جوف الثّرى ، لكنّ هذه البذرة لن تشقّ التّراب إلاّ إذا سقاها أحدهم بالماء ، كُنْ أنتَ أوّل السُّقاة .

تهادتْ مُثقلةً عبر الطّريق الرّخاميّة اللامعة التّي تشقّ السّاحة الأماميّة الصّغيرة في المنتصف إلى المدخل الرّئيسيّ . استقبلتْها المديرة في مكتبها ، كانتْ لا تزال تحمله في حضنها ، وقد بدا أنّه صار أنضج . بياضه المشوبُ بالحمرة ازداد نصاعةً ، خدّان ممسوحان ، وعيونٌ ذابلةٌ ، وشَعرٌ كثيفٌ يكاد يغطّي جبهته بالكامل . كانتْ قد ألبستْه كنزةً خمريّةً ذات أزرار سوداء ، وبنطالاً أزرق غامقًا ، وحذاء بُنّيًا ذا قاعدة مطّاطيّة . اتّخذتْ لها كرسيًا إلى يمين المكتب ، كانتْ أصوات الأولادِ في السّاحة الخلفيّة تتعالى ، ومن خلال الشّبّاك القارّ خلف المكتب استطاعتْ أن ترى ساحةً فسيحة يتقافز فيها الأطفال بعشوائيّة ، وبضع معلّمات مُبعثرات فيها يراقبْن المشهدَ من بعيد . «ابني عمره خمسُ سنواتٍ ، وأريدُ له مدرسةً مُميّزة ، يحتاج إلى

المساعدة ، وهو طفلٌ هادئٌ إذا ظلّ تحت الرّقابة» . كان بدر لا يزال مُحافظًا حتّى تلك اللّحظة على نظرته الشّاردة ، وهدوئه الأخّاذ . مدّتِ المديرة يدها إلى علبةٍ مزركشةٍ وفتحتْها ، ثُمّ ناولت الصّغير حبّة من الشوكولاتة . تراجعتِ سلوى بابنِها إلى الوراء بحركةٍ لا إراديّة ، وهتفتْ بصوتٍ تحذيريّ : «ألا تعرفين . . . إنّه لا يأكل مثلَ هذه الأشياء» . ابتسمتِ المديرة فيما لم يبدِ بدر أيّة ردّة فِعل تُجاه ما قامتْ به . «إنّنا نجذبهم بهذه الأشياء المُحبّبة عندهم» . «أنتم لا تجذبونهم ، أنتم تؤذونهم ، كلّ أطفال التّوحّد يجب أن يتناولوا أطعمةً خاصّة ؛ ألا تُدرِكون ذلك هُنا؟!» . «إنّها حضانةٌ تضمّ أطفالاً بين الرّابعة والسّادسة ، صحّتهم جيّدة ، وهم يتعلّمون على يدَي خُبراء مُختصّين في التّربية ، يُمكنك أن تثقي بالكادر المُؤهّل لدينا» . «نعم ، لقد تعبتُ حتّى وصلتُ إليكم ، ولا أريد أنْ أبحثَ أكثر» . «اطمئنّي ، هذا عملنا» .

شعرتْ أنّ قلبَها انتُزِع منها وهي تُدخِله إلى صفّه ، حركةُ عينَيه بعيدًا عنها أشعرتْها أنّه غيرُ راضٍ عمّا تفعله ، أو أنّ عالَمه الجديد ما زالَ غريبًا عليه . «سأعودُ لآخذكَ في آخر الدّوام يا حبيبي ، لن أتأخّر عليك» . كادتْ عيناها تدمعان ، هل تعرفون معنى أنْ يُنتزَع القلبُ من الصّدر؟! هل تُدركون معنى أنْ تتركَ جزءًا منكَ في مكانٍ وتغادره إلى مكانٍ آخر؟! هل تعرفون كم يكون النّدمُ قاتِلاً حينَ يبدأ بعَضّ روحك ولا يترككَ تهدأ أبدًا!!

في البيت ، لم تفعلْ شيئًا سوى الجلوس في الشّرفة ، وإلقاء النّظرات البلهاء إلى الشّارع ، ومراقبة روتين الحياة وهو يجري ببطء ، والاستِماع إلى دقّات السّاعة دقّةً دقّةً ريثما يحينُ موعدُ عودته . انتظرتْه على باب الصّفّ قبل أنْ يخرج مع بقيّة زملائه ، مشى إلى لا

غاية ، تلقّفتْه كحبيبٍ غابَ قرنًا عنها ثُمّ عاد لها فجأةً . قالتْ له : «أنتَ بطل ، ستتفوّق عليهم جميعًا» . ظلّ صامتًا ، كانَ يحدّق من فوق أكتافِها في الفراغ المملوء بحركات النّاس الذّاهبين والجائين ، كان يرى ما لا يُرى .

في اليوم الثّاني أصابتْها الحالةُ إيّاها . خُيّل إليها أنّ المعلّمات لا يفهمْن عالَم ابنِها المغرق في غموضه ، وأنّهنّ لجأنَ إلى ضربه مطمئنّات إلى أنّه لا يستطيع أنْ يُدافع عن نفسه ، ولا أنْ يُعبّر عن شعوره تُجاه مَنْ آذاه ، أو الشّكوى منه لأهله وذويه . . . في اليوم الثّالث تخيّلت الأولاد أكبر منه سِنًا يقومون بالاتّفاق عليه ، والمناوبة على الصُّراخ في وجهه ، وهو يضع يديه على أذنيه ، ويفتح فمه بأقصى قدر مُمكن ثُمّ يهرب في غير اتّجاه ، ثُمّ يسقط مغشيًا عليه . . . جُنّتْ ، راودتْها الهلوسات . . . لم تقدرْ من بعد على مزيدٍ من التّخيّلات ، ولم تستطع أنْ تحمله بينَ ذراعَيها وتذهب به إلى المدرسة والظّنون تأكل في كلّ يوم طمأنينتها . في اليومَين الأخيرين من الأسبوع الأوّل ، تبرّعتْ (إنصاف) بإيصاله إلى المدرسة وإعادته . . جلستْ في الشّرفة من جديد ، بسطتْ يدَيها على ساقَيها ، وراحت تحرّك جذعها إلى الأمام ثُمّ تُعيده إلى الخلف بحركةٍ ديناميكيّة ، وهي تصرخ في أعماقها : «لا أستطيع أنْ أتحمّل رؤيته يتأذّى وهو غير قادرٍ على الشّكوى» . تزداد حركتها البندوليّة ، تُصبح سريعة ، ثُمّ سريعةً جدًا كأنّها خَطْف ، وعلا هُتافُ أعماقِها من جديد : «لن أُسامحَ نفسي ولا المعلّمات ولا المديرة ولا حتّى جلال ولا الكون كلّه إذا ما لحقَ بابني أدنى أذىً . . .» ثُمّ صمتتْ ، كأنّها ارتاحتْ بعد أنْ أفرغتْ كلّ أثقالها الّتي تهتاج في أعماقها بالحركة والكلام .

بعدَ أسبوع، اتّصلت المديرة بسلوى: «ابنُك غير قادر على الاندِماج مع زملائه، حاولْنا مرارًا، لكنْ يبدو أنّه يعيشُ في زاويةٍ مُعتمة لم نستطع أن نصلَ إليها عنده، أو حتّى نُلقي عليها بعضَ الضّوء». كتمتْ قرفًا كادَ يُترجَم إلى صرخةٍ من فلسفة المديرة في توصيفها لحالة ابنِها، ردّتْ عليها: «لقد قلتم لي أنْ أكون على اطمِئنان، أليستْ هذه مسؤوليّتكم؟!». «إنّه مصدر خوف لنا ولكلّ العامِلين هنا، مشكلةُ فَهمه والتّواصل معه غيرُ مُمكنة الحلّ، يبدو أنّ درجة التوحّد لديه شديدة، نحن لا نتحمّل مسؤوليّته». «بهذه البساطة تقولينها، لا نتحمّل مسؤوليّته... أنتم فاشِلون». «أنا أنصحكِ بأنْ تخصّصي مُربّية له وحده، نحن نعتذر». وأغلقتِ الهاتف.

عادتْ به سلوى إلى البيت. كانتْ غاضِبة، ومُحبَطةً، ومُتعَبة. هبطتْ به بسرعةٍ إلى الأرض، وحرّرتْ يَدَيها من ثِقله. كادَ يقع لكنّه التفتَ نحوها بامتِنان، وابتَسم. توقّفتْ قبل أنْ تتمّ مشيَها باتّجاه غرفتها: «أمعقولٌ أنّه فعَلَها». فتحتْ فمها مشدوهةً... حدّقتْ إليه بعينَين مذهولتَين: «هل أراه حقًا أم أنني أحلم». لا، حتّى الأحلام يُمكن أنْ تُرى. ابتسَم ابتِسامةً مسروقة، أوقفها في المُنتَصف، بدا كأنّه زوى فمه قليلاً. أمّا هي فسبحتْ في عالَم آخر، بدتْ نسمةُ فرحٍ واحدةٍ قادرةً على أنْ تهزم جبالاً من الآلام سابقةً. أشرقَ وجهها، نسيت تعبها في لحظة، نصفُ ابتِسامة كانت كافيةً لتُنهي غضبها، وتُعيدَ إليها التّفاؤل ثانيةً. حينَ لمحتِ ابتسامَته كانتْ قد وقفتْ على قدَمَيها، هوت نحوه فاحتَضَنَتْه من جديد، هتفت وقلبُها يرقصُ في حناياها: «نصفُ ابتِسامةٍ لِهذا اليومِ تكفيني يا حبيبي... ها أنتَ يا

بدر . . . ها أنتَ قادرٌ على أن تتفاعلَ شعوريًا معي ، يااه لقد انتظرتُ شيئًا مثلَ هذا طيلةَ خمس سنوات حتّى أتى . . . هل تسمعني يا حبيبي ، أنتَ ولدٌ رائعٌ ، ولدٌ ذكيٌ ، وأنا فخورةٌ بك . . . المدرسة الّتي كنتَ فيها لا تستحقّك ، إنّكَ أعلى من أن ترضَى بها . . . أنا لك ، سأجلسُ أنتظر اكتمال ابتِسامتك ولو أخذ ذلك منّي عمري كلّه» .

حينَ عادَ جلال من عمله مساءَ ذلك اليوم ، روت له ما حدث في المدرسة ، قال لها : «لا تنتظري من أحد أنْ يصنع المُعجِزات لنا ، المدارس لا تقبل المُصابين بالتّوحّد لأنّها تريدُ أنْ تُساعدهم ، إنّ لُعابَهم يسيل لأجل المال الّذي في جيوب آبائهم ، آخر ما يفكّرون به الإنسانيّة الّتي يجب أنْ يتعاملوا بها مع البشر . . . لا تحزني يا سلوى ، سنجد طريقةً مناسبة» . «لقد أنساني ما فعله بدر الهمّ كلّه اليوم يا جلال» . «ماذا . . . ماذا فعل؟!» . «لقد ابتسم بدر يا جلال ، انفرجتْ أساريرُ وجهه ، افترّتْ شفتاه ، وبانتْ أسنانه ، ونظرَ إليّ مُباشرة ، تخيّل . . لقد فعل ذلك كلّه!!» .

أحضرتْه . . . «لقد كبر يا جلال . . . . صار شابًا وسيمًا . . . بعدَ قليل سترى الحسناوات يتهافتْن على اللّحاق بآثاره ، ويرتمين تحتَ أقدامه يتوسّلنْ أنْ يرأف بهنّ ، ويخلّصهنّ من عذاب القلب . . .» قالتْ ذلك بدلال ، وانفجرتْ ضاحِكة . . . كتمتْ ضحكتها فجأة ، مدّتْ عينَيها إلى جلال وسألته ، وقد تغيّر لونُ وجهها : وأنتَ أيّها الطّبيب الوسيم ، هل كانتْ فتيات بريطانيا الشّقروات يفعلنْ ذلك من أجلك!!» . ابتسم جلال ابتِسامةً باهتةً دون أنْ يقول كلمةً واحدة ، لكنّه غاصَ في الذّاكرة بعيدًا ، خطفتْه العبارة إلى سنوات ٍ خلتْ ، تذكّرَ شيئًا واحدًا ، تذكّر زميله في جامعة (كامبريدج) في الدّرب

المرصوفة في إحدى ساحات الجامعة وهما يجلسان على مقعد خشبيّ تحت أشجار الزيزفون ، و(عادل) يناقشه في أحدث النّظريّات الطّبّيّة ، ويُحدّثه وهو يزفر زفرةً حرّى عن أحلامه في أنْ تكون للعرب نظريّاتهم الخاصّة بهم ، ويكشفُ له عن أمله في أنْ يختصّ هو بواحدة يُقدّم فيها خدمةً للبشريّة والإنسانيّة ، كانَ حالمًا وواثقًا وعبقريًا . أمّاً بدر فأدار رأسه إلى الجهةِ الأخرى ، وهو يُلوّح بيديه!

(١٤)

عالَم الطّفل يبدو عميقَ المعنى، نحنُ نقفُ على حوافِّه البعيدة!!

في اللّيل، في سكونه العميق، في ظلمته الأشدّ، في هدوئه السّاحر، قامَ من سريره، مشى بهدوء وثقة، سارَ إلى غرفةِ نوم أبوَيه، فتحَ الباب، كانَ وقعُ أقدامه على الأرض يُشبه حفيفَ الورقة إذا لامستْ قماشًا من المُخمَل. أمسكَ بكتفِ أمّه، هَزّها، ظنّته جلالاً، فأدارتْ وجهها إلى الطّرف الآخر البعيد، لكنّه هزّها بقوّة أكبر هذه المرّة، يَملك منذ أنْ كان في الثّالثة ذراعَين قويَّين، صوّت بكلمات غير مفهومة هي أقربُ إلى التّأتآت، فتحتْ عينيها، رأتْه، لم تصدّقْ أنّه هو. فركتْ عينَيها، نعم إنّه هو... اعتدلتْ في سريرها، حنتْ جذعها نحوه إلى الأمام وهي تحاول أنْ تراه واضحًا من خلال النّور المتسلّل من الممرّ الواصل إلى غرفة الجلوس، تساءلتْ مستغربةً: «بدر؟!!». زادتْ تأتأته، أمسكَ بيدها، وشدّها نحوه، استسلمتْ لما يريد، أخذها من يدها، وسارَ بها إلى غرفته، عبرَ الباب إلى السّرير؛ لأوّل مرّة تنتبه إلى أنّه فتحَ بابَه بوعي، وبابَ غرفتها كذلك، كانَ يفعل دونَ هدف في السّابق، الآنَ فعل لغاية، إنّه يتواصل معها ليوصلَ لها رسالةً، أسعدَها هذا الأمر لدرجة أنّها شعرتْ بعبرةٍ من البكاء تقفُ في حلقها وتكادُ تخنقها، بلعتْ ريقَها، واستعادتْ هدوءَها لكي تعرفَ ما يريد: «هاه... يا حبيبي... ماذا تريدُ أنْ

تقول . . . ها أنذا معك» . واصلَ سحبَها من يدها إلى أنْ وقفا معًا أمام سريره ، ظلّ مُمسكًا بيمناه يدَ أمّه ، وأشار بيُسراه إلى الشّرشف المفرود على السّرير ، كانَ من الشّراشف القُطنيّة المُريحة ، تتداخل فيه الألوان الفاتحة ، لترسمَ حقلاً ربيعيًا بورود متعدّدة الأصناف ، وفي طرفه القريب إلى موضع رأسِ الصّغير ، ترتسمُ نجومٌ وكواكب وسطَ سماء قاتمة كُحليّة ، وعندَ رجليه ينبسطُ سهلٌ من العشب الأخضر ، ترتع فيها بعضُ الحيوانات الأليفة . كانَ بدر يُشير إلى هذا الشرشف وإلى جانب السّرير الخشبيّ الّذي حُفِرَ على هيئة عربةٍ رومانيّة ، برزتْ فيها العجلات ، والخيل الّتي تجرّها ، ولوّنت العجلات والأطراف ، وعُرف الخيل بألوانٍ بهيجة . أشارَ إليهما بشكلٍ متتالٍ وهو ينطق بكلماتٍ لا يُفهَم منها شيء ، كانَ حتّى ذلك الوقتَ لا يستطيع إخراجَ حروفٍ محدّدة ، مجرّد تصويتات ذات نبرات متفاوتة في شدّتها تلتقطُ الأمّ منها بعضَ الإشارات ، وتُكملها في محاولةٍ لفهمهما . أمّا الآن فإنّها تقفُ أمام إشارتَين جديدتَين ، يده الممدودة إلى الشّرشف ، ومنطقه المُبهَم . لكنّها لم تفهم شيئًا . سألتْه بالصوت وبحركات اليد : «هل يُضايقك هذا الغطاء يا بدر؟!» أمسكتْ بالشّرشف ، حكّتْ جذعها ، وعبّرتْ بوجهها عن التّضايق . لكنّه لم يُبدِ ردّةً إيجابيّة ، لم تزلْ تتذكّر ذلك اليوم حينَ كانَ في نهاية الرّابعة وقد بدأ يحكّ جسده بشدّة ويقوم بخلع ملابسه بشكلٍ مُفاجِئٍ وسريع ، لم تدركْ يومَها ما الّذي أصابه ، فألبستْه ثانيةً ، ولكنّها لم تكَد تُتمّ إلباسَه حتّى عادَ فخلعَ ملابسه بسرعةٍ وعصبيّة ، وقد بدا أنّه مستاءٌ جداً ، وكانتْ أنفاسه تتقطّع وهو يُحاول أن يخلع قميصه دون أنْ يفكّ أزراره ، من خلال عنقه الّتي تشدّ عليها فتحة القميص فتُضيّق عليه الخِناق . يومَها فعل ذلك أكثرَ من

عشر مرّات ، وحينَ استنجدتْ بإنصاف ، أشارتْ عليها أنْ تراجع المختصّة ، وذهبتا معًا ، وشرحتْ لهما أنّه في سنّ معيّن وفي مزاج محدّد ، وفي درجة حرارةٍ مُعيّنة يُحسّ أطفال التّوحّد بأنّهم يلبسونَ ثيابًا لا تُطاق ، كما لو كانتْ محشوّة بالشّوك ، قالت المختصّة يومَها : «لتقريب الصّورة يُمكننا أنْ نتخيّل أنّ الجزء الدّاخلي الّذي يُلاصق جسد الطّفل من الثّياب مصنوعٌ من ورق الزّجاج الّذي يُستخدَم لحفّ الجدران الخشنة!! هل تخيّلتم مدى الضّيق الّذي سيعيشه الطّفل لو استمرّ هذا الإحساس دون أنْ يقوم بخلع ملابسه أو تغييرها؟!!» . اليوم لم يكنْ ربّما هذا ما يريد قوله . بعدَ محاولات عديدة لم تنجح لإدراك ما يريد ، وضعتْه في الفراش ، وقبّلتْه على خدّيه ، وأسبلت الغِطاء عليه ، وعادتْ إلى سريرها .

لم تنمْ ، ظلّتْ تُفكّر في إشارة يديه إلى الشّرشف المحشوّ بالألوان ، فكّرتْ في صباح اليوم التّالي أنْ تغيّره ، إنْ لم يُبدِ اعتراضًا ، فالمسألة لا تتعلّق بهذا الشّرشف ، وحينَها ستفكّر أنّ هذا هو الحلّ ، وأنّه كانَ يريد أنْ يتخلّص منه .

حملتْه (إنصاف) إلى المختصّة في جلساته شبه اليوميّة عندها ، أمّا سلوى فهرعت إلى السّوق تبحثُ عن شرشفٍ جديد يلائم ذوقَ بدر المُتقلّب . حينَ عادَ من عند المختصّة كانتْ قد رتّبتْ سريره ، دخلا الغرفة ، همّت الأمّ بأنْ تُمدّده على السرير ، لكنّه هبّ واقفًا حينَ رآه قد تغيّر . سارعتْ بإزالته وإعادة القديم ، ابتسم ، ابتسمتْ هي الأخرى . أشارَ من جديدٍ إلى الورود وإلى العجلات . أمضتْ سلوى ليلةً أخرى تُفكّر في فهم إشارته .

أحضرتْ له في اليوم التّالي ، شراشف مكتنزة بالألوان الثّرثارة .

أعجبتْه . صارتْ تغيّر له في كلّ يوم واحدٍ ويتقبّله ، بعدَ أسبوع ضربتْ جبهتَها بباطن كفّها ؛ لقد أدركتْ أنّ السّرّ يكمن في الألوان . ندمتْ على أنّها لم تفهمه من قبل . صار قلبُ الطّفل معلّقًا بكلّ ما هو بهيج ، غيّرت طِلاء الغرفة إلى ما هو أزهى ، وثيابه ، وألعابه ، وأحذيته ، وكتبه ودفاتره!!

بعد أسبوع آخَر دخلتْ غرفته ، وجدتْه قد استخدمَ أقلامه ليرسمَ وردةً من الورود الّتي على شرشفه الأخير لكنّه لم يُلوّنْها . . . أذهلها أنّ هذه الوردة بالذّات هي الّتي استرعت انتباهه من بين كلّ ما في الحقل الممتدّ . . . فكّرتْ بطريقةٍ مختلفة ، ربّما هذا ما كانَ يريدُ أنْ يوصله إليها دون أنْ تدري ، من جديدٍ ضربتْ جبهتَها بباطن كفّها ، وهتفتْ : «عالَم الطّفل يبدو عميقَ المعنى ، نحنُ نقفُ على حوافّه البعيدة دون أنْ نتمكّن من الدّخول إليه ولو بمقدار خطوة أو خطوتَين ، كلّ ما يقومُ به الطّفل رسائل إذا أُحسِنَ استقبالُها فسوفَ تكشفُ عن خيالٍ خلّاق . . . عُيُونه ، تعابير وجهه مهما كانتْ بسيطة ، بسمته حتّى ولو كانت نِصفيّة ، حركات يديه ، إيماءاته ، نبراتُ أصواته ، وحتّى هيئة وقفته عندما يقف منعزلاً لساعاتٍ وحده دون أنْ يُحرّك ساكِنًا» . بدأتْ منذ ذلك اليوم تُؤسّس لمعجم لغويّ جديد خاصّ بطفلها التّوحّدي ، وكلّما أضافتْ إلى القاموس كلمةً جديدةً أو إشارةً حديثة فرحتْ كأنّها انتصرتْ في معركةٍ طويلة لا يبدو لها نهاية ، على الأقلّ في الزمن المنظور!!

ذهبتْ إلى أكبر مكتبةٍ في جبل الحسين ، اشترتْ ثلاثة دفاتر رسم بأحجام مختلفة ، وابتاعتْ ألوانًا زيتيّة ، ومائيّة ، وشمعيّة ، وخشبيّة . وضمّتْ إلى القائمة فرشاةَ رسمٍ ألمانيّة فاخمة ، وسألتْ عن

طاولات الرّسم ، لكنّها توقّفتْ قليلاً ، رجعتْ إلى نفسِها ، ضَحِكت : «إنّها أطول منه ، إذا أعجبتْه الفكرة سأشتريها له حينَ يصيرُ في العاشرة» .

حمل العامل في المكتبة معها كلّ ما اشترتْه ، طلبتْ منه أنْ يضعها بعناية في الكرسيّ الخلفيّ للسّيّارة ، استقلّتِ المصعد وهي تحلم بأنّها سوفَ تُدخِلُ سعادةً من نوعٍ مختلفٍ على قلبِ ابنِها ، كانَ قلبُها يدقّ بسرعةٍ كأنّها هي الطّفلة الّتي اشترى لها أبواها كلّ أدوات الرّسم الفاخرة هذه . في غرفته ، رتّبتْ كلّ ما له علاقة بالألوان . وعلى مكتبه الّذي أضافتْه إلى غرفته قبلَ عام نضّدت المشتريات بشكلٍ أنيق ، ثُمّ راحت تنتظر قدومه انتظار عاشقةٍ لحبيبٍ يأكل الوهمُ قلبها في أنّه لن يجيء . . .!!

(١٥)
الطّريق طويلةٌ وعليكِ أنْ تصبري

سمعتْه من غرفتها يضحك ، لقد كبرت الابتِسامة يا بدر ، وتحوّلتْ إلى ضَحِكة مُجلجِلة . لم تُصدّقْ ما تسمع ، كانت الثالثةَ فجرًا ، لكنّه كان بالفعل يضحكُ من قلبه ، هل تُضحكه ذكرى عابرة ، أو التِماعة في الذّهن لصورةٍ ما؟! لم يضحك من قبلُ وهو بينَ يدَيها ، لكنّه على أيّة حال ها هو غارقٌ في ذلك ، قفزتْ من سريرها كغزالة تُسرع بالنّهوض من مَجثمها ، منذ خمس سنوات بعد اكتشاف الحالة أعارتْ أُذُنَيها له ، ودرّبتْ نفسَها على ذلك ؛ فلو تقلّب في فراشه من جنبٍ إلى جنب لاستيقظتْ على صوت ذلك!! كركرتْ ضحكته من جديد وهي تخطو باتّجاهه ، كانت الغرفة مُضاءة . وهو يجلسُ في وسطها ، ومن حوله تبعثرتْ الفرشاة وبعضُ الألوان التي صبغتِ الأرضيّة البُنّيّة بألوانٍ متعدّدة . كانَ دفتر الرّسم يستلقي على تلك الأرضيّة المطّاطيّة ، وقد رسمَ على صفحاته العشرين عشرين لوحةً كاملة!!

قطعت المسافة المتبقيّة من الباب إلى وسط الغرفة بقفزةٍ واحدة ، تناولت الدّفتر ، وصُدِمتْ لما تراه ، قلّبت الصّفحات سريعًا ، وعيناها تكادان تنفران من محجريهما ، ذُهِلتْ ، لم تتمالك نفسَها ، علا صدرها وهبطَ في خمس ثوانٍ عشر مرّاتٍ ، وضعتْ يدها على فمها ، ثُمّ أرسلتْ طرفَها إليه ، كانَ لا يزال على جلسته الأولى لم يعدّلْ منها

شــيـئًـا ، تحـاشَى أنْ تتـلاقَى نظراته مع نظراتِ أمّـه ، هتـفتْ بـه : «بدر . .!!» . لكنّه لم يُعِرها أيّ اهتمـام ، رفع رأسَـهُ إلى أعلى قليلاً ، وتجاهلها من جديد وهو ينظرُ في الفراغ .

رسم العربة والخزانة عشرينَ مرّة ، كانت اللّوحة الأخيرةُ واضحة الخطوط ، متقنة التّفاصيل ، دقيقة التّلوين ، كما لو أنّه تدرّب كثيرًا ليخرج في النّهاية بلوحةٍ تتمتّع بهذا الجمال والإتقان .

سألتْه : «تحبّ الرّسم؟!» . ظلّ صامتًا ، فغيّرتْ طريقةَ عرضها للجملة بعد أنْ غيّرتْ نبرةَ صوتها : «واضحٌ أنّك تحبّ الرّسم» . لم يُبدِ أيّ انفعال تُجاه الجملة الأخيرة أيضًا ، فقط سَحَبَ نَفَسًا كأنّما قد استراح من مهمّة طويلة استغرقتْ منه ما يقرب من سبع ساعاتٍ متواصِلاتٍ . اضطجع على جانبه ، قال دون أنْ ينطق : «عليّ أنْ أرتاح الآن» .

في الصّباح ، ذهبتْ به أمه بصحبة إنصاف إلى الأخصّائيّة ، عرضتْ عليها سلوى دفتر الرّسم ، قالتْ لهما : «واضحٌ أنّ الرّسم سيكون وسيلة تواصله مع العالَم الخارجيّ . . . كلّ طفلٍ توحّديّ يبحث عبرَ رحلةٍ طويلةٍ ومُضنية عن طريقة تُمكّنه من التّواصل مع الآخَرين ، لقد اهتدى إليها بعد عناء ، إنّها فرشاة الرّسم . . . في المستقبل القريب سيُصبح تحكّمه بالفرشاة مُذهِلاً ، إنّ كلّ طاقاته وأحاسيسه سوف تنسرب من جسده عبرَ عصا الفرشاة ، وسيفرّغها من هناك على الورق» .

أعطتْه الأخصّائيّة لوحةً بيضاء ، وهيّأتْ له مكانًا ليأخذ راحته في الرّسم ، وجلَسَت الثّلاث يتحدّثنَ بعيدًا عنه ، لم يستغرق الأمر معه أكثرَ من خمسَ دقائق ، ليجلس تارِكًا الفرشاة وواضِعًا يديه في حِجره ،

نهضنْ كلّهن إلى حيثُ يجلس، تناولت الأخصّائيّة اللّوحة ورفعتْها أمامهنّ جميعًا: «لقد رسمَ نفسَه، إنّه يقول لقد وجدُتني . . . كثيرٌ من الكلمات سيقولها لكِ يا سلوى بالريشة، وعليكِ أنْ تلاحظي كلّ صغيرةٍ وكبيرة، إنّ كلّ ما يقوم به الطّفل -ولو كانَ مُجتزءًا- هو لغة مكتملةٌ، علينا أنْ نبحثَ عن الفراغات الّتي تسقط من لغته ونُكملها بناءً على خبرةٍ طويلة، وملاحظةٍ دقيقةٍ في التّعامل معه».

في طريق العودة، دخلتا إلى المكتبةِ ذاتها، لقد صار سهلاً عليها أنْ تختار ما يُناسبه. انتحى زاويةً قريبةً بعد أنْ دخل، حاول صاحب المكتبة أنْ يكونَ لطيفًا معه، حادثه فظلّ صامتًا، رحّب به قارصًا خدّه فتراجَعَ خطوةً إلى الوراء، سأله ما اسمكُ أيّها الجميل؟! لكنّه استمرّ في تجاهله، كانَ بدر يريدُ أنْ يقول له: «أسمعُ كلّ شيءٍ ولا أستطيع أنْ أجاريك، أشاركُك أحاسيسكَ الطّيّبة، ولكنّني عاجزٌ عن أنْ أرتّبَ كلماتي؛ إذا استمرّ طوفان الكلمات يخرج من فمك بهذا التّدفّق الكبير فسأشعر بالعجز أكثر، أرجوك، إنّكَ تحوّلني إلى دمية جميلة لكنّها غير ناطِقة، توقّفْ عن الكلام، شكرًا لقلبكَ الطّيّب». حملَه صاحبُ المكتبةَ بينَ يديه بعدَ أنْ طال وقوفه وحاول أنْ يُجلِسه على أحد المقاعد، لكنّه ما إنْ وضعه حتّى فزّ واقِفًا وهو يضع يده على مؤخّرته، تعجّب صاحب المكتبة، ظنّ أنّ الكرسيّ فيه مشكلة، مسحه بيده، ثمّ أشفق على الصّغير فحمله ليُجلِسه عليه، لكنّه قاومَ هذه المرّة بطريقة أشدّ، فتركه. كانتْ سلوى قد لاحظتْه من بعيد، ابتسمتْ وعيناها تلتقيان بعينَي إنصاف، لقد عرفتا أنه أجابه بأحسن مِمّا سأله، لكنْ على طريقته.

في السّيّارة، لم يكفّ عن التّصويت، راحَ ينطق كلماتٍ غريبة،

ليستْ مفهومة ، إنّها من قاموسه الخاصّ ، قاموسه الّذي يحتاج إلى تحليل عميق من أجل الارتِقاء إلى فصاحته وبلاغته وعمقه!! ها هي اليوم بعدَ هذه السّنوات تُدرك أنّ طفلَها طبيعيّ!! طبيعيّ في عالَمه وبين أقرانه الغارقين في مثل حالته ، إنّنا نبدو لهم نحنُ مَنْ يعيشُ في عالَم آخَرَ غير عالَمهم ، لا بُدّ أنّهم يهتفون في أعماقهم : «هؤلاء البشرُ العاديّون مساكين ؛ مثيرون للشّفقة ، عليهم أنْ يتعالجَوا ، إنّهم عاديّون ، عاديّون تمامًا ، حياتهم مليئةٌ بكلّ ما هو زائدٌ عن الحاجة ، إنّنا نحتاج إلى زمنٍ طويلٍ لنفهم عالَمهم السّاذج ، لو كانَ الطّبّ مُتقدِّما في عالَمنا ، لدعونا لهم بأشهر الأطبّاء من أجل أنْ يُقدّموا لهم العِلاج النّاجع» .

في ذلك العام ملأ عشرين دفترًا من دفاتر الرّسم الكبيرة ، احتفظتْ سلوى بهنّ جميعًا في مكتبة خاصّة ، قامتْ بتجليد كلّ دفترٍ على حِدة ، واعتنتْ به اعتِناءً مُبالَغًا فيه ، وأودعتْه المكتبةَ كأنّها تُودع كنزًا ثمينًا . بعدَ عام صارَ بدر يرسم دون أنْ يُقلّد رسمَةً سابِقة ، اكتشفتْ سلوى أنّ له خيالاً جبّارًا ، بدا الخيال الّذي يسبح فيه طفلُ التّوحّد لا نهايةَ له ، كانَ يرسمُ وجوه أشخاصٍ لم ترهم سلوى من قبل ، قالتْ لها الأخصّائيّة : «لقد رأيتِهم ، كنتِ برفقته آنذاك ، ربّما في حديقةٍ أو في مدرسةٍ أو في مكان ما ، بالتّأكيد كنت معه ، لكنّ بعضَ الوجوه تمرّ عليكِ سريعًا ولا تتركُ في ذاكرتكِ أثرًا أبعدَ من أثرِ مرور نسمةٍ عابرة بجوار شجرةٍ هَرِمة ، أمّا بالنّسبة له فالوجوه عبارة عن صور تنطبع في الذّاكرة ولا تنمحي أبدًا إلاّ إذا أرادَ هو أنْ يمحوها ، ذاكرته الآن بلا شكّ تعجّ بآلاف الوجوه على الأقلّ ، وأنا متأكّدةٌ لو أنّه استمتعَ برسمها ، فإنّه يحتاجُ ربّما إلى سنتَين ليُفرِغ تلك الصّور من ذاكرته على الورق . . . إنّ خيالَه جبّار يا سلوى ، وذاكرته مُدهِشة» .

رقصتْ على إيقاع العبارة الأخيرة، عشر سنوات من عمر طفلها كفيلةٌ بأنْ تقول إنّ للتّعب نتيجة، لا شيء يذهبُ هدرًا إلاّ إذا هدرتَه أنت، لا جُهدَ يضيع إلاّ لمن لم يؤمن بأنّ الثّمرةَ قادمةٌ، واستعجلَ قطفَها ظنًا منه بأنّ مجرّد سَقيها لمرّة أو مرّتين كافٍ أنْ يُطلِعها باسِقةً نَضِرة.

في ذلك العام بالذّات طلبتْ من العُمّال أنْ يصبغوا جدران غرفته باللّون الأبيض، ويُزيلوا كلّ ما فيها من ألوانٍ سابقة. ويُفرغوها من الأثاث إلاّ ما كانَ ضروريًا. وضعتْ بين يديه فرشاةً من كلّ حجمٍ ونوع، وتركتْه وحيدًا مع ألوانه وفي ملعبه الّذي يعشقه. في اليوم الأوّل رسمَ على الجدار الّذي على يمين الدّاخل طريقًا تذهبُ بعيدةً، سوداء، مُظلِمة، ليسَ فيها شجرةٌ واحدة. في نهايتها بدا أنّ هناكَ شخصًا ما ينتظرُ حافلةً يتوقع أنْ تأتي من مطلع الدّرب، أو ينتظر شيئًا، بدا ذلك من وجهه الّذي ينظر إلى بداية الطّريق ويُحاول أنْ تقع عيناه على شيءٍ ما. اتّصلت بالأخصّائيّة ورجتْها أنْ تأتي إلى البيت. تأمّلتْها ثُمّ قالتْ: «إنّه يقول إنّ الطّريق طويلةٌ وعليكِ أنْ تصبري عليّ، أنا لا أريدُ أن أزعجك، وأتألّم حينَ أدرك أنّني أسبب لك بعضَ التّعب لكنّ ذلك خارجٌ عن إرادتي». حينَ رحلتْ جلستْ تُفكّر بتفسير الأخصّائيّة، قالتْ لها إنصاف: «إنّه ينظر باتّجاهك، إنّه ينتظرك، إنّه يحبّك ويعتقدُ أنّ لديك الأملَ كلّه». أعجبها تفسير (إنصاف) أكثر، كانَ يحمل الطّاقة الشّعوريّة الّتي تبحثُ عنها كلّ أمّ، ليسَ للأمّ فرحةٌ أكبر من أنْ تدرك أنّ هناكَ مساحةً لها في قلبِ ابنها؛ بالطّبع من قال إنّ الأمّ لا تهبُ كلّ قلبِها لحبيبها!!

جُنّتْ سلوى بموهبة بدر، كانتْ يده الّتي تُمسك الفرشاة باحتراف

تقول كلّ شيء، لقد استعاض عن لسانه بيده، الحروف الّتي يقولها عبر الفرشاة تبدو واضحةً مُعبّرة ربّما أكثر مِمّا لو أوتي لِسانًا فصيحًا. إلى اليوم وقد قاربَ العاشرة لم يتمكّن سِوى من قولِ بعضِ الكلمات البسيطة، أو الجمل الّتي لا تزيد عن ثلاث كلمات.

بعدَ شهرٍ واحدٍ من ذلك اليوم دخل عليها جلال وجدها قد دعتِ العمّال منذ الصّباح، وقد جمعوا معظم أثاث البيت من ذلك الّذي يكون لصيقًا بالجُدران وأودعوه في غرفة المخزن، ثُمّ إنّهم صبغوا كلّ جدران البيت باللّون الأبيض. لم يُعجِبْه الأمر، قال لها: «إنّكِ تبالغين في الأمر كثيرًا، من الجميل أنّكِ وجدتِ ما كان بدر يبحث عنه، ولكنّ التّعامل مع الأمر بهذه الصّورة تعاملٌ حَدّيّ!!». «إنّكَ لا تفهم... أنتَ في وادٍ ونحن في وادٍ». «أنا لا أفهم... ربّما... كلّ ما أطلبه أنْ تضُمّاني معكما إلى الوادي الّذي تسرحون فيه كي أفهم». قال ذلك محتدّاً. أجابتْه ببرود، وهي تطلب من عاملٍ آخر أنْ يُسرع في عمله: «صَعْب». «يا سلوى إنّك تدمّرينَ حياتَنا». «إذا كانَ تدمير حياتنا فيه إصلاح حياته فلا بأس... علينا أنْ نُضحّي؛ أليسَ ابنَنا، وليسَ له غيرنا؟!». «بلى. نستطيع أنْ نتقاسم الحياةَ الصّالحة معًا دون أنْ يضرّ أحدُنا بالآخَر». صرختْ دون سابق إنذار بلهجةِ استنكار: «»يضرّ أحدنا بالأحد بالآخر». كانَ هياجُها قد بدأ يتصاعد، تابعتْ: «أعرفُ أنّكَ ستقول هذا الكلام، ماذا سيطرأ عليك، أنتَ أنتَ لم تتغيّر منذ خمسةَ عشر عامًا... عملُكَ بالنّسبة لكَ هو أهمّ من كلّ شيءٍ آخَر، ابنُك إذا أتى في سُلّم الأولويّات عندك، فسيأتي في نهاية هذا السُّلّم... تُطارد الأزمات والحروب، ولا تنتبه لأزمة ابنك الّذي هو من صلبك... هل تستطيع أنْ تقول لي كيفَ نما ابنُكَ خلال العشر

سنوات هذه . . . هه . . . هل تستطيع أنْ تقول لي كيفَ كان يأكل أو يشرب أو ينام ، كيفَ كان يخلع ملابسه في الحمّام ، وكيفَ كان ينظّف نفسه . . .؟! هل تستطيع أنْ تقول لي كيف كان يشكو ويتألّم . . . كيفَ كانَ يتحدّث . . كيفَ كانَ يعبّر عن نفسه . . . كيفَ كانَ يبكي طَوال الوقت وأنتَ مشغولٌ في عملك لا تدري أنّ ابنك لم يكفّ عن البكاء طوال ثماني ساعات متواصِلات دون أنْ تكونَ لديّ أدنى فِكرة عمّا يريد ، وما الّذي يُؤلمه؟! هل عرفتْ ما هي أوّل كلمة قالَها بعد أنْ تدرّب عليها أكثرَ من ستّ سنين لينطقها . . .؟! هل أنتَ تعيشُ معنا أم تعيشُ مع نفسك . . .؟! كلّ ما فعلْتَه أنّكَ كنتَ تبحثُ عن آخر ما توصّل إليه الطِّبّ من علاجاتٍ لمصابي التّوحّد . . . أحبّ أن أقول لك . . . فلتذهبْ كلّ العلاجات الّتي وجدْتها أو اقتنعتَ بها إلى الجحيم ، الأطبّاء يملكون عقولاً نعم ، عقولاً تقودهم إلى البحث عن علاج من خلال التّفاعلات الكيميائيّة ، لكنّهم لا يملكون قلوبًا ، قلوبًا تبحثُ عن علاج في اتّجاه آخر . . . أحبّ أن أقول لك أيضًا أيّها الطّبيب الوسيم إنَّ أطفال التوحّد يلعنون الأدوية الّتي تخترعونها ، والعقاقير الّتي تكتشفونها ، إنّها تزيدُ من حالتهم سوءًا ؛ إنّهم ليسوا مرضى كما تظنّون ، بل أنتم المرضى . . . إنّهم لا يحتاجون إلى عقولكم ، بل يحتاجون إلى قلوبكم ، إلى قلوبٍ تفهمهم ، تحنّ عليهم ، تتقبّلهم كما هم ، تتفهّم عالَمهم ، تتلقّى ردّةً أفعالهم دون تأنيبٍ أو عقاب ، تحاول أنْ توجدَ مساحةً مشتركةً بين العالَمين لكي ينعموا بالرّضى عن أنفسهم ولو مرّة واحدة . . . إنّهم ليسوا مرضى . . . أسمعت . . . إنّهم ليسوا مرضى ، بل أنتم المرضى أيّها الأطبّاء المُتبجّحون الأنانيّون» . لم يردّ جلال بكلمةٍ واحدةٍ ، ظلّ فاتِحًا عينَيه

وهو يستمع لها إلى آخر كلمة ، حتّى إذا أكملتْ ضيّق عينيه ، وزفر زفرةً طويلة ، وغابَ في غرفةِ النّوم الّتي لم يجد فيها غير السّرير في منتصفها ، رمى عليه جسده من شدّة الإرهاق ، وحاول أنْ ينام . جاءه صوتُها من بعيد من بينِ صياحها على العُمّال : «طعام الغداء في الثّلاّجة يا جلال ، بإمكانك أنْ تسكب لنفسك منه صحنًا ، لديّ مهمّات يجب أنْ أُنجزها» .

بعد شهرين من تلك الحادثة ، كانتْ كلّ جدارن البيت تمتلئ بالرّسومات المُذهلة . استوقفتْها اللّوحة الّتي رسمها على جدار غرفة الجلوس . كانتْ لفريال وهي تمسِكُ بينَ يديها ابنَها الجريح ، والدّماءُ تسيل على وجهه ، هو يبكي وهي تبتسم . أصابَها ذلك بالدّوار ، خافتْ أنْ تسأله عنها ، لكنّها تشجّعت : «ماذا تريدُ أنْ تقول من خلال هذه الرّسمة يا بدر؟» . ظلّ صامتًا ، رفعَ رأسه كالعادة ونظر إلى البعيد . قالت الأخصّائيّة : «تذكّره لهذه المواقف قد يُسبّب له انتكاسة ، علينا أنْ نجدَ طريقةً لمحو مثل هذه الصّور من ذاكرته ، أخشى أنْ يؤذي نفسه ، استدعاء موقفٍ كهذا مرّ عليه ما يقرب من سبع سنين من الذّاكرة العميقة لا يُبشّر بخيرٍ» . قالتْ لها إنصاف : «إنّه يعتذر من خلال هذه الصورّة ، يقول كانَ ذلك خارِجًا عن إرادتي ، لم أشأ أنْ أؤذيه ؛ أنا أحبّه مثلما أحبّكِ يا أمّي» . ومرّة أخرى أعجبها تفسير إنصاف أكثر ؛ كان تفسيرها مُطمْئنًا أكثر ، في حين كان تفسير الأخصّائيّة مُقنعًا أكثر ، ومثل أيّ أمّ كانتْ سلوى تبحثُ عمّا يُطمئنها أكثر مِمّا يُقنِعها . لكنّها باتتْ على حذر . عالَم المُصابين بالتّوحّد مليءٌ بالمُفاجآت!!

قالتْ لها الأخصّائيّة قبلَ أن تغادر البيت في ذلك اليوم : «من الأفضل أنْ تتخلّصي من هذه اللّوحة بصبغها ، دعيه يرسم لوحةً

جـديدةً ، لوحـةً يكونُ فـيـهـا بعض الرّضى عن النّفس ، إنّه هنا يلوم نفسه ، قد يكون اللوم وسيلةً إلى التّطهير ، ولكنْ يبقَى الأمر مُحتَملاً أنْ . . . لقد أخبرتُك ، لو أتيحتْ له جدران كلّ البيوت في كلّ عمان لملأها بالرّسومات الّتي تزدحم بها ذاكرته العجيبة!!» .

(١٦)

نور ضئيل يتراقص من بعيدٍ في نفقٍ غائرٍ معتمٍ

«أنا ... » صمتَ دقيقةً وهو يحاول أنْ يُكملَ الجملة الّتي بدأها، كرّر «أنا ...» عشر مرّات قبل أنْ يقول بعد فترة صمت طويلة: « ... عطشان» . ضمّته إلى صدرها، وبكتْ. ليسَ لأنّها اكتشفتْ أنّه عطشان، فقد كانتْ تعرف ذلك قبل أنْ ينطقَ بالكلمتَين بطريقة وتريّة، ولكنّها بكتْ فرحًا لأنّه ركّب في النّهاية جملةً من كلمتَين، حدثَ هذا وهو في التّاسعة من عمره، كانَ فتحًا عظيمًا بالنّسبة لسلوى أنّ (بدر) بدأ مشواره مع الكلام، ليسَ مهمًّا طولُ هذا المشوار أو صعوبته، أو المواقف المُحزنة والمُفرحة فيه، المهمّ أنّه بدأ، وإذا بدأ فمعنى ذلك أنّه قابلٌ للنموّ والتطوّر.

أحضرتْ له مجلّة (ماجد) بعدَ ذلك اليوم، قرأتْ أمامه بصوتٍ مرتفع، جُمَلاً بسيطة، كرّرتْها على مسامعه طوال ساعتَين دون ملل، لكنّها لم تظفر منه بأيّ نتيجةٍ في النّهاية، وضع كَفّيه على أذنَيه في إشارة لتضخّم الأصوات الّتي يسمعها، فتوقّفت الأمّ عن الاستمرار في المحاولة، وأجّلتْ ذلك ليوم آخَر. نجحتْ بعدَ أسبوع حثيثٍ متواصل أنْ تجعله ينطق بعبارَتين: «أناً بدر»، و «أنا أحبّك يا ماما».

على مدى عام كاملٍ لم تكفّ عن محاولاتها معه في أنْ يكوّن جُملاً صحيحة، كانَ يهربُ من أمّه إلى الفرشاة، يرسم لها وردةً فتفهم

أنّه يختصر بهذه الوردة الّتي يرسمها بصورةٍ احترافيّة كلمته الّتي تعلّمها مؤخّرًا: «أنا أحبّك يا ماما».

تولّتْ إنصاف بعدَ ذلك أنْ تقرأ له في كلّ يوم صفحةً من مجلّة (ماجد) تُعيدها عليه في خمس ساعات خمسً مرّات. صارَ يفتح فمه، قالتْ لها: «إنّه يُخزّن الكلمات الّتي يسمعها، يومًا ما سينطقُ بها دفعةً واحدة...» فرحتْ سلوى بذلك، لكنّ الأخصّائيّة فسّرت الأمر بطريقةٍ معاكِسة: «لديه مخزونٌ كبير من الكلمات الّتي سمعها، وحينَ يهمّ بنطق جملةٍ من الجمل، يحتار كيفَ يختار من هذا المخزون الكبير الكلمات المُناسِبة، وإذا اختارها في النّهاية بعد جهدٍ مُضنٍ، فإنّه سيحاول من جديد أن يبذل جهدًا أكبر في ترتيبها، وهو دائمًا ما يبحثُ عن الكلمات الأبعد في ذاكرته، والّتي غالبًا ما تكون غير مناسبة للموقف الّذي يعيشه الآن، ولذلك ترينَه يفتح فمه مرارًا دون أنْ ينطقَ بكلمة، إنْ تزاحم الكلمات من ذاكرته على شفتَيه يُشبه محاولة نهر ضخم أنْ يتدفّق من خلال ثقب إبرة...!! لكنْ بالمزيد من التّمارين قد يتمكّن من اختيار كلماته بصورةٍ أفضل وترتيبها على نحو مقبول... جرّبي أنْ تسأليه بعد فترةٍ أسئلةً تتعلّق بالجمل الّتي تعلّمها مُؤخّرًا».

رافقتْه إلى سريره الجديد، لقد رُكِنت العربة الرّومانيّة إلى جانب الأثاث القديم، صارتْ جزءًا من الماضي. لوّح لها بيدَيه، ثُمّ تقدّم لها خُطوة، لم ينظر إلى الأعلى هذه المرّة، نظر إليها مُباشرة، كانتْ عيناه تختصران كلّ لغات الامتِنان في العالَم، لمعَتا بودّ، ورأتْ فيهما سلوى دمعةً مترقرقة. مدّ ذراعَيه وحضنَها، وظلّت ذراعاه مُعلّقَتين هناك. لم تكنْ هناك أيضًا في كلّ لغات العالَم ما يُمكن أنْ يعبّر عن فرحة الأمّ

بما حدث . تابعتْه بنظراتها الدّامعة حتّى نامَ في سريره . ركضتْ إلى غرفتها بسرعة حتى لا يرى دموعَها ، هوتْ على الأرض وهي تبكي . . . وتبكي ، ما أعظمَ ما أنجزت ؛ لقد تقدّم قليلاً في مجال التّعبير عن شعوره الخاصّ!!

خرجتْ بعدَ أنْ هدأتْ إلى الشّرفة ، لم يكنْ جلال قد عاد من عمله بعد ، صار يتأخّر إلى الرّابعة بعد أنْ عيّنه وزير الصّحّة رئيسًا لقسم الطّبّ الوقائيّ وطبّ الأزمات في الوزارة منذ شهر نيسان من عام ٢٠١٠م . عبرتْ نظراتها الشّارع إيّاه ، كانَ عددٌ قليلٌ من الأولاد يلعبون في الملعب الإسفلتي الّذي لم تُبنَ فيه منذ أنْ سكنا هنا أيّ بناية ، لقد ظلّ نزاع الورثة قائمًا حوله طوال هذه السّنوات . كان منظر الأولاد مُبهِجًا ، تمنّتْ لو أنّ (بدر) يتمكّن يومًا من أنْ يُصبحَ واحِدًا منهم ، ويندمج في مجموعتهم . سرحتْ وهي تنظر إلى الأفق البعيد ، عادت بها الذّاكرة إلى الأيّام الّتي كانتْ تكتبُ فيه لجلال على ورقةٍ صغيرة تدسّها في محفظته ما تريدُه من أدواتٍ لكي تقوم بإعداد الطّعام الخاصّ ببدر ، استمرّت على تلك الحمية طيلة هذه السّنوات ، اليوم بعدَ أنْ تجاوز العاشرة صار بإمكانها ألاّ تُلزمه بالسّير على ذات الحمية ، لكنْ حتّى مع تغيير الطّعام ظلّتْ هناك كثيرٌ من المحذروات .

ها هي تتذكّر ذلك اليوم تعبتْ فيه حتّى بكتْ ، وهي تراقبُ صحّة بدر ، تتردّى أكثر مِمّا تتحسّن ، ويُصاب بالأسقام أكثر مِمّا يبرأ .

صنعتْ في البرنامج الأوّل الّذي استمرّت عليه عامًا كاملاً طوال السّنة الرّابعة من عمر بدر شرابًا خاصًا لتقوية المناعة ، فمعظم مشاكل الطّعام عند أطفال التّوحّد هي ضعف جهاز المناعة عندهم . كانتْ تُحضّر ملعقة كبيرة من القرفة المطحونة ومثلها من الزّنجبيل المطحون ،

ورشّة كبش قرنفل ، ورشّة هيل ، وكوب ماء مليء ، وكوب حليب جوز الهند الطّازج بالإضافة إلى ملعقة صغيرةٍ من العسل الطّبيعيّ ، وتخلطه كلّه في وعاءٍ واحد ليُصبح شرابُ المناعة جاهزًا ، يكفيه ذلك ليوم أو يومَين ، ثُمّ عليها أنْ تعيدَ الكرّة في اليوم التّالي ، ولمدّة عام بقيتْ تصنع له هذا الشّراب دون كلل . مُنِيَتْ بانتصارت في بعضِ الأحيان ، ومُنيتْ بخساراتٍ أكبر في أحيانٍ أخرى ، لم يكنْ أمامَها إلاّ أنْ تحاول ، الغريق يرى خيطَ الحياة واضِحًا في القشّة الّتي تتقاذفها أمواج البحر العاتية!!

كانَ على (بدر) أن يأكل ثلاث وجباتٍ في اليوم ، وكلّ وجبةٍ يستغرق إعدادها ساعتَين إلى ثلاث ساعاتٍ من قبل سلوى . لكنّ الحبيب يستحقّ أنْ تبذل له كلّ عمرك من أجل أنْ تراه يبتسم لك يومًا ما ، ولو كانَ هذا اليوم يبدو بعيدًا جدًا .

على الفطور أعدّتْ له ذات صباحٍ كعكة بذور الشّيا ، طحنتْ كوبًا من جوز الهند ، وأضافتْ إليه ملعقةً صغيرةً من الملح البحريّ وملعقةً أخرى من الصّودا ، ونصف كوبٍ من العسل وستّ بيضات مع نصفِ ليمونةٍ مبروشةٍ ، وخلطت المقادير كلّها مع ملعقتين صغيرتين من بذور الشّيا ، ودفعت الخلطة إلى الفرن ، وانتظرتْ نصفَ ساعةٍ حتّى تنضج .

كان خطّ الطّعام الّذي تسير فيه يُشبه خطّ الألغام في حقلٍ مهجورٍ زُرِعَ منذ الحرب العالَميّة الأولى ، أيّ خطأ قد يكلّفكَ حياتك ، أو يُصيبك بإعاقة دائمة . كانتْ تسير بحذر على ذلك الخطّ ، تحاول أنْ تتلمّس كأخصّائيّة تغذية قديرة الأصناف الّتي لا تسبّب له تهيّجًا في الأمعاء وبالتّالي انتكاسةً صحّيّة ونفسيّة قد يحتاج الرّجوع منها إلى

الحالة الطّبيعيّة وقتًا طويلاً .

بالإضافة إلى الوجبات الثّلاث المُعدّة سلفًا ، كانَ عليها أنْ تُقدّم له (صوص الأفوكادو) أو (بستو الكزبرة) بينَ الوجبات ، بكمّيات قليلة ومدروسة بعناية . لقد تخلّتْ تمامًا عن حياتها لتهبه كلّ ما تستطيع . . . أثّر ذلك بالطّبع على علاقتها بجلال ، لكنّه هو الآخَر كان يجد نفسه مُضطرًا إلى أنْ يتعايَش مع الحالةِ الجديدة في الطّعام والشّراب ، لم يكنْ ليخالف التّعليمات الصّحّيّة الشّديدة المفروضة على البيت بأكمله من سلوى ، خاصّة وأنّه أولى النّاس بتطبيق هذه التّعليمات بوصفه طبيبًا!!

تعرّفت العائلة خلال فترة الحمية الخاصّة ببدر على مئات الأصناف من الأطعمة الّتي كانتْ مجهولةً في السّابق ، واضطُرّوا إلى أنْ يكونوا جنودًا أوفياء ومُقاتلين من طرازٍ شديدٍ مع بدر في معركته مع أعدى أعدائه ؛ الأمعاء!!

في أعياد الميلاد لبدر ، حرصتْ الأمّ على أنْ تقدّم في كلّ عام كيكةً متوافقة مع طبيعة جسده ولا بأسَ بحاجز بسيط من الخروقات الّتي لا يدوم أثرها السّلبيّ طويلاً ، كلّ ذلك من أجل أنْ يستمتع الحبيب الأوحد بعيد ميلادٍ بهيج .

في عيد ميلاده الثالث صنعتْ له كيكة الكاكاو بكريما الفراولة ، حضّرت نصف كوب من طحين جوز الهند ، وأضافتْ إليه نصف كوب من الكاكاو الخامّ ، واستعاضت عن السّكّر بنصف كوب مُحلّى الصّبّار ، وخفقتْ مع الخلطةِ ثلاث بيضات ، وأضافتْ ملعقةً صغيرة من كربونات الصّودا ، وخبزتْه بالفرن الّذي كان قد سُخّنَ إلى درجة ١٨٠ مدّة ربع ساعة تقريبًا . ثُمّ تناولتْه من الفرن لتتركه يبرد ، وراحتْ

في أثناء ذلك تُجهّز كريما الفراولة، جمعتْ نصف كيلو من الفراولة الطّازجة النّاضجة والباردة وأضافتْ إليها كوبًا من حليب الإبل، وكوبًا من زبدة جوز الهند، وملعقتَين من العسل الطّبيعيّ، وخفقتْه بالخَلاّط، صارت الكريما الآن جاهزة لكي تُدهَن فوق الكيكة وتُشكّل الطّبقة العُليا منها. قالتْ بعد أنْ أتمّت كلّ شيء وهي تضع القالب على طاولة الاحتِفال: «المنظر ولا أشهى، بقي أنْ يعجب حبيب القلب».

كانتْ رحلتها مع الحمية، أطول رحلةٍ في حياتها، أكثر الرّحلات تعبًا وإرهاقًا، أصعبهنّ في عمليّات الإعداد، كانتْ تستيقظ أحيانًا قبلَ الفجر من أجل أنْ تعدّ فطوره الخاصّ، سلبتْها حمية بدر من نفسها، أذهلتْها عن وجودها، كم حلمتْ أنْ تستيقظَ في الصّباح مثلما تسيقظ أيّ أمّ أخرى، سندويتشة من الجبنة أو اللّبنة تفي بالغرض للأولاد وينتهي الأمر، ولو لم تقمْ من فراشها فبإمكان الأولاد أنْ يفعلوا ذلك بأنفسهم. أمّا مع بدر فهناك حياةٌ أخرى لا يمكن أنْ يعرفها إلاّ من جرّبها؛ حياةٌ تجعلك مُستنفرًا في كلّ ثانية، مستعداً للقادم في كلّ لحظة، أعصابُكَ تعمل في جميع الاتّجاهات، وحواسّك لا تتعطّل ولا تأخذ راحةً حتّى أثناء النّوم، لقد تلخّصتْ حياتُها كلّها فيما تفعله من أجله، ومع كلّ هذا كانتْ راضِية، كانتْ كلّ مكافأتها الّتي تنتظرها هي أنْ ترى تحسّنا ولو بمقدار نورٍ ضئيلٍ يتراقص من بعيد في نفقٍ غائرٍ معتِم... وكم من السّنوات مرّتْ دون أنْ ترى حتّى ذلك النّور الضّئيل!!

(١٧)

هل يعرفُ الحجر القاسي عمق البُحيرة؟!!

أيُمكن للصّخر أنْ يُزهِر؟! أيمكن للحلم أنْ يتنازل عن كبريائه، ويتخلّى عن تحليقه البعيد في السّماوات الشّاهقة ويتحوّل إلى حقيقة؟! ما أشدّ ظلم الآمال؛ تظلّ توعدك بأنْ تتحقّق، وتُماطِلكَ بالوعد الآجل، ثُمّ تذوب فجأةً كما يذوب السّراب في الفيافي الموحِشة!!

حينَ صار (بدر) في السّادسة كانتْ سلوى تحلم بأنْ تستيقظ في الصّباح فتجده قد صار طبيعيًا، يتصرّف كما يتصرّف كلّ البشر، بل حلمتْ بما هو أبعدَ من ذلك، حلمتْ بأنْ يأتي هو بنفسِه إليها ويطلبُ منها بكلّ بساطةٍ وهدوء أنْ توصله إلى المدرسة؛ المدرسة الّتي ظلّتْ نجمًا شاهقًا ذاهبًا في السّماوات كلّما ظننتَ أنّك اقتربْتَ منه ابتعد!!

كم تمنّتْ أنْ تشتريَ له حقيبةً مدرسيّة يطلبُها هو بنفسه، ويأمرها بنوعٍ فاخرٍ من الحقائب، كانتْ ستشريها مهما بلغ ثمنها وغلا سِعرها. كم تمنّتْ أنْ يكون له كباقي الأطفال مقلمته الّتي تعجّ بالأقلام من كلّ نوع ولون، وتزدحم بالمساطر، وبالبرّايات والمحّايات على أشكال مُختلفة، ثُمّ تشاهد فيها وهي تقلّب محتوياتها متظاهرةً بأنّها تبحثُ عن شيءٍ ما؛ تشاهد بقايا قلم الرّصاص المبريّ، وبعضِ الحبر الّذي لطّخ زواياها من أقلام فاضتْ بما فيها، وتعثر على طرفِ مسطرةٍ مكسور، وممحاةِ مَعضوضة، وزاويةٍ من زواياها مكحولةٍ ببقايا رصاصٍ مكشوط.

في الصّباحات الباكرة، تأكلها الحسرة وهي ترى باصات الأولاد تمخر الطّرق ذاهبةً إلى المدارس غيرَ عابئةٍ بأمّ لم يستقرّ قلبُها بينَ جوانحها منذ أنِ انتزع بسبب ما أصابَ ضناها الوحيد... تنظر إلى نوافذ هذه الباصات فترى وجوه الأطفال بكلّ مشهد، وترتسم الوجوه على كلّ هيئة، كلّ هيئات الوجوه عَذبة؛ وجوه باسِمة، وأخرى عابِسة. عيونٌ مُتفائلة، وأخرى لم تُكمل استيقاظها بعد. كم تمنّتْ أن تعلو ظهرَ ابنها حقيبةٌ مدرسيّة كما تعلو ظهورهم هم... أهي تحسدهم...؟! ربّما... كلاّ... لكنّ المشهد كانَ يُصيبها بالمرارة؛ تُخاطبُ نفسَها: «أليسَ من العدالة أنْ يكونَ ابني بينَ هؤلاء؟! ماذا كانَ ينقصه حتّى صعدوا جميعًا إلى الباص ولم يصعد هو؟! بِمَ كانَ يختلفُ عنهم حتّى ينتظرهم على أبواب بيوتهم ولا ينتظره هو؟! لِمَ كان يُطلِقُ بوقَه الجميل مُناديًا عليهم واحِدًا واحدًا ولم يكنْ يُطلق هذا البوق مُنادِيًا على ابني أنا؟! لِمَ كان يُتابع سيرَه إلى غايته حامِلاً معه جميعَ أطفال الحيّ تاركًا ابني خلفه دونَ أنْ يحمله معه؟!».

كم عانتْ من المقارنات القاتِلة بين ابنها وأبناء الآخَرين: «إنّه في السّادسة ولا يكتب ولا يقرأ؟! ابني في السّادسة يكتب صفحةً كلّ يوم، ويقرأ مئةَ كلمة» تقول واحدة. تُتبعها أخرى: «لماذا لا تُعلّمينه الإنجليزيّة كما فعلتْ فلانةٌ لابنِها؛ إنّ ابنَها - مثلما سمعتُ - يستطيع أنْ يستظهر غيبًا صفحةً من مسرحيّة ماكبث لشكسبير». تزيدُ حسرتها ثالِثة: «قلتِ لي عمره ثماني سنوات؛ الحقّ عليكِ؛ الاهتمام به يبدأ وعمره سنتان كما فعلتْ فُلانة». وتستمر المُقارنات، وتتدفّق المواعظ والنّصائح من كلّ جهة، ولا أحدَ يدري بالنّار الّتي تشتعل في الصّدر؛ كانتْ دائِمًا ما تخطر ببالها هذه العبارة: «مَنْ ذاق السّياط ليسَ كمنْ

عَدّها» . لكنّها تُؤثر الصّمت ، وماذا يُجدي الكلام مع صنفٍ من البشر لم يعِشْ ما عاشت ، ولم يُعانِ ما عانَت ؛ هل يُدركُ العصفور الصّغير حجمَ السّماء؟! أم هل يعرفُ الحجر القاسي عمق البُحيرة؟!!

كان حال لسانِها يقول : «ارحلوا عنّي وخُذوا معكم مواعِظكم ، خُذوا حرصكم الكاذب ، ونصائحكم الباهِتة ، وقلوبكم الّتي لا تعرفُ من الحقيقةِ شيئًا ، واتركوني مع حبيبي وحدنا ، اتركوني مع عالَمه الّذي لم تعرفوه ولن تعرفوه ، لأنّ معرفته تحتاج إلى دخوله ، ودخوله يحتاج إلى مهارة ، وأنتم تفتقرون إلى هذه المهارةِ افتِقارًا كبيرًا ، ولا تفقهون من هذا العالَم شيئًا» .

كانَ ابنُها حتّى التّاسِعة ، يُصدر تصويتات غير مفهومة للآخرين مثل : «كوكووو أو إيييي أو ممممم . . .» ، لكنّها كانتْ تُدرّبه على القول وعمره ثلاث سنوات ، لم تفلح إلاّ حينَ صار في العاشرة ، إنّ جملةً من كلمتَين لأمٍّ عانتْ سبعَ سنواتٍ لكي تسمعها لأثمن عندها من كنوز الأرض كلّها ؛ ويح قلبِ الأمّ ؛ أرقُّ من الفراشة على الصّخرة ، وأحنّ من النّهر على الرّوض ، وأعلّ من النّسيم على الخدّ ، وأنقَى من الغمام ، وأطهر من ماء السّماء!! يُمرِضه دمعُ الصّغير ، ويشفيه بسمته ، ويملؤه بالرّضا ضحكته ، ويُطرِبه نداؤه : يا أمّي!!

كانَا يجلسان في غرفة الجلوس في واحدة من ليالي الشّتاء الباردة ، كان اللّيل قد استطال ، والفجر ظلّ ممعنًا في البُعد ، كانَ صوتُ الرّياح مُزمجرًا في الخارج ، ووقعُ حبّاتِ المطر الّتي تتقاذفها الرّياح في كلّ اتّجاه على الشّبابيك يُصدر نقرًا رتيبًا ثمّ يخفت حينَ تُغيّر الرّياح اتّجاهها ، ثُمّ يعودُ ثانِية ليعلو وينقر الشّبابيك من جديد بقوّة مع سرعة الرّياح ذاتها . ثقبتِ البرودة هواء الغرفة فسالت في كلٍّ مكان ، كانت

المدفأة مركزًا يتكوّرون حولَه آنئذ ، في آخر كانون من عام ٢٠١٠ ، كانتْ بلادٌ بأكملها تنزف ، وشعوبٌ عن بكرةِ أبيها تجوع ، وأوطانٌ بكلّ بهائها تُقتَل ، وكانَ العراق . قال لها : «سنذهب إلى المناطق المنكوبة من العراق أنا وكادرٌ طبّيٌّ كاملٌ» . حدثَ ذلك في الأسبوع الفائت حينَ طلبَ أنْ ينعقد اجتماعٌ للقسم الّذي يرأسه ، وقفَ على رأسِ الطّاولة بعدَ أن أخذوا أماكنهم ، لم يجلس يومَها ، ولم يقلْ غيرَ عبارةٍ واحدة : «أنا ذاهبٌ إلى العراق في مهمّةٍ إنسانيّة ، مَنْ يتطوّع للذّهاب معي؟» . وأنهى الاجتِماع . لم يُنسّبْه الوزير ، ولم يطلبْ منه شيئًا من ذلك ، انتدبَ نفسَه بنفسه لأنّ ألَمًا ما في قلبه أمرضه وهو يرى ويسمع ما يحدث ، فأراد أنْ يُبرئ قلبَه ممّا أصابه . سألْته : «ستغيبُ كثيرًا؟!» . «حسبَ الظّروف ؛ على الأقلّ ثلاثة أشهر ، ما زالتْ بعض التّفجيرات تضربُ قلبَ العراق ، وما زال بإمكان دولةٍ مُعافاة كالأردنّ أنْ تُساعد ببعضِ الدّواء ، وكرئيس لطبّ الأزمات يُمكنني أنْ أتصرّف ببعضِ أطنان الأدوية المُكدّسة في مخازننا» . كان بدر يسمع كلّ شيء ، ويجلسُ طوال الوقت بينهما . سألْته : «تفعلها في كلّ مرّة!» . سألها بحذر : «ماذا تقصدين؟!» . أجابتْه بلهجةِ عتابٍ تستعدّ أنْ تتكئ من هناك لتتصاعدَ في موجة غضب : «ألا ترى كم كبر ابنك ، وكم صار بحاجتك؟!» . أجابَها ساخرًا : «لن أذهبَ لأفجّر نفسي هناك ، سأذهب لأمسحَ على بعض الجراح وسأعود ، ليستْ لديّ بندقيّة لأطيل مكوثي في الغابات وخلف السّواتر الإسمنتيّة!!» . «ما أبردَ أعصابَك يا رجل . . . على كلّ الأحوال ، وجودُك مثل عدمه ، ماذا سيتغيّر إنْ غبت ، بدر لن يفتقدكَ كثيرًا» . آلمْته العبارةُ الأخيرة ، فنظرَ في عَينَيه : «هل هذا صحيحٌ يا بدر؟!» . لكنّه ظلّ ساكِتًا ، وراحَ يُلوّح

بيده أمام عينَيه كمن يُودّع نفسَه ، كان باطن يده الّتي راحتْ تتحرّك كبندول السّاعة الأقرب إلى وجهه . هتفتْ سلوى : «انظر ، إنّه يقول لكَ لا تتركْني وحدي» . «أجابها : «سنعلّق الأمر به ، إذًا ، وسأسأله سؤالاً مُباشِرًا ؛ هل تسمح لي يا بدر بالذّهاب إلى العراق . . لن أتأخّر عليكَ ، أعرفُ أنّكَ بحاجةٍ إلى المساعدة هنا ، ولكنْ أيضًا هناك أناسٌ هناك بحاجةٍ إلى المُساعدة . . . فما رأيُك؟!» . أنزلَ يده ، وكفّ عن تحريكها ، وصمتْ . قالتْ سلوى : «أظنّ أنّكَ سمعتَ الجواب» . «أنا لم أسمعه ، إلاّ إذا كانتْ لديكِ سمّاعات خاصّة» . وضحك . «بالطّبع لم تسمع ، لأنّ حاجِزًا كثيفًا يقفُ بينَكَ وبينِ ابنك ، نحن نسمع بقلوبنا أيّها الطّبيب الوسيم» . قال في محاولةٍ لتغيير الموضوع : «صاحبتك إنصاف امرأةٌ عجيبة ، أراها تتفانى في خِدمتك مع أنّها تكبرك بثلث قرن ، لا أدري لماذا تفعل ذلك؟!» . «أعرفُ أنك تدري ، وأنّك تحاول تغيير الموضوع» . كانَ سينشبُ بينهما نِزاعٌ من جديدٍ لولا أنّهما رأيا (بدر) وقد بدأ يفتح فمه ويُغلِقه ، ثمّ بعدَ مشقّة قال : «عراق» ، ثمّ تبعتْها لحظةُ صمتٍ وهما يُراقِبانه ، قال بعدها : «حبيبي» . أرجع جلال ظهره إلى الوراء وابتِسامته تشقّ وجه إلى نصفَين ، ثُمّ قرّب أذنه يريد أنْ يسمع المزيد : «بابا» ، ثّم أردف : «ماشي» . ثُمّ عادَ إلى حركة يده الأولى . صرخ : «أرأيتِ يا سلوى ، إنّه سمح لي بذلك ، أنتِ فقط من تتفنّنين بوضع العراقيلِ في طريقي دائِمًا» . ثُمّ هوى على ابنه يحضنه ويُقبّله .

انطلقَ لسانُ بدر بعد تلك الحادثة ، صار تكوين الجُمل لديه أسهل ، شفَى قلبَيهما لكثرةِ ما كانَ يردّد من عبارات ؛ أكثرها لم يكنْ مفهومًا ، قد يظنّها من يسمعها هذيانًا أو مهاترات ، لكنّ الأخصّائيّة

قالتْ : «إنّها كلمات وجمل ذات معانٍ حقيقيّة ، إنّهم يندفقون بعد أنْ يتخلّصوا من حُبسة اللّسان في السّنوات السّابِقة على سجيّتهم ، بالطّبع كلّ جملةٍ عندهم تتكوّن على الأغلب من أربع كلمات ، تُنتَقى من بحرٍ متماوج من الألفاظ المتنافرة ، ولا يُمكنُ لعبارةٍ واحدة أن تُشبه الأخرى ؛ لأنّ قاموسهم أوسع من قاموس أيّ طفلٍ في عمرهم ، الأطفال العاديّون يردّدون جُمَلاً تتكرّر فيها العبارات فيبدو قاموسهم ضيئلاً ، أمّا هؤلاء فلديهم وفرةٌ لا تنتهي من الكلمات ، عباراتهم تبدو لأوّل وهلةٍ غير مفهومة ، لكنّ سبب ذلك أنّ ترتيبَها غير متناسقٍ فحسب ، فلو أنّنا وضعنا الكلمة الثّالثة محلّ الأولى أو الثّانية محل الرّابعة فستظهر الجملةُ واضحةً ، ترتيبُ الكلمات في أماكنها الصّحيحة ليستْ مهمّتهم ، إنّها مهمّتكم أنتم ، هم عليهم فقط أنْ يقولوا وعليكم أنتم أنْ تُفسّروا!!» .

عادَ بعد شهرَين ، تلقّاه (بدر) على باب الشّقّة ، دفنَ رأسه في صدر أبيه ، وراح يحكّ رأسه هناك وهو يكرّر كلمة (بابا) عشرات المرّات ، حينَ هدأ ، أمسكَ بيد أبيه وقاده إلى غرفة الجلوس ، كانتْ سلوى قد صبغت الحائط الّذي يُقابِل الداخل باللّون الأبيض تنفيذاً لرغبة بدر في أنْ يرسمَ عليه شيئًا جديدًا ، صُعِقَ أوّل ما رأى الحائط ، وضع يده على فمه من الدّهشة ، وصرخ : «أنتَ فعلتَ هذا يا حبيبي!!» . كان بدر قد رسمَ أباه كما لو كانت اللّوحةُ صورةً حقيقيّة ، أتقنَ فيها امتدادَ الحاجِبَين ، واللّحية الّتي ما زالتْ تحتفظ بلونها الأسود ، وإنْ تحوّلتْ بعضُ شعرات الذّقن الصّهباء إلى اللّون الأشيب ، نظّارته ذات الإطار الأسود السّميك ، وسمّاعةُ الأطبّاء تتدلّى حول رقبته راقِصةً في الفراغ ، وهو ينحني لِيُعطيَ إبرة مصلٍ لمريضٍ يستلقي

على نقّالة . كان واضِحًا أنَّ هذه التّركيبة للّوحة قد جُمِعَتْ من صور شتّى انتُزِعَتْ من أماكن لا يجمعُ بينها رابطٌ واحدٌ ، قد يكون رآها في مرافقته لأبيه في بعض المرّات النّادرة ، أو شاهَدها في مجلّة مُهمَلة فوق إحدى الطّاولات . . . لم يكنْ من صورةٍ انتُزعتْ من الذّاكرة البصريّة أصدقَ ولا أوضح من صورةِ جلال ، كانَ يبدو كأنّه حيّ يخترق الجدار لا يستلقي فوقه . . . ضمّه أبوه من جديد ، ولفّ رأسَه بذراعَيه ، وعلى الشّعر الكثيف الّذي يعتلي قمعَ رأسه راح يُمطره بوابلٍ من القُبَل الحانية .

بعد عام بدأ الشّرخ يتّسع ، وبدأتِ السّماء تنشقّ ، سمعها أحدهم تبكي بكاءً مريرًا ؛ تحوّل النّزيف إلى طوفانٍ من الدّماء ، وُضِعتْ رقاب الشّعوب في جغرافيّات عديدة تحت المقصلة ، تنامتْ ثقافة الكراهية ، ذُبِحت الطّيور ، وخُنِقت البلابلُ ، واجتُثّت أشجار الحقول ، ولم يعدْ للجمال قيمة ، بدا أنّ عصر الغربان قادم ، وأنّ عددًا هائلاً من هذه الغربان راحَ يبحثُ في الأرض في كلّ يوم ليُري القتلةَ المُتفشّين في كلّ بقعة كيف يوارون سَوءات إخوتهم!!

القسم الثاني

(١٨)
أريدُ أنْ ألمسَ السّماءَ بيدي

كان هذا عام ٢٠٠٥ في ليلةٍ باردة لكنّها صافية . كانَ الثّلج قد غطّى الطّرقات فلزمَ السّكّان بيوتهم ، وراحوا يُشعلون مدافئهم من الحطب أو المازوت ويتحلّقون حولها . لفّ الهُدوءُ كلَّ شيءٍ ، وظلّ الثّلج يواصلُ فيها نَدَفاته ليلَتَين متتابعتَين بغزارة ، لكنّه بعد العاشرة من اللّيلة الثّانية راح يندف بهدوء ، كانت حبّات الثّلج حينها تُشبه ريشًا أبيض يتساقط من السّماء متهادِيًا ، يهبط بدلال ، يتأرجح يمنةً ويسرةً كثيرًا قبلَ أنْ يُقبّل الأرض ويُنهي رحلته هُناك ، وينضاف إلى طبقةٍ سميكة لكنّها هشّة من الزّائر الأبيض الجميل!!

ليلةٌ هادِئة تمامًا ، لا حركةَ في الشّوارع ، لا محلاّت مفتوحة ، ولا محطّات مُضاءَة ، والسّيّارت المركونة على جوانب الطّريق تخلّتْ عن لونها القديم ، واتّخذتْ لها لونًا واحِدًا . حتّى الكلاب الّتي غالبًا ما تتجمّع في الجهة الغربيّة البعيدة من شارع تشرين كفّتْ في تلك اللّيلة عن العُواء ، وأوتْ إلى خِربٍ منتشرةٍ على الطّريق الصّناعيّ المُوحِش لتقي نفسها من البرد القارس . ليلة تسبح في البرد وفي الهدوء ، ولا يقطع هدوءَها الأخّاذ إلاّ أصواتٌ بعيدة لبشرٍ خرجوا اضطِرارًا في مثل هذه السّاعة المُتأخّرة ، كانَ صوتهم يجرح الصّمت السّاحر ، لكنّه أيضًا يفتح الضّوء على الحياة ليقول إنّ هذه المدينة الّتي لا يتحرّك فيها شيءٌ ليستْ ميّتة .

كـان أبو زياد أحـدُ هؤلاء ، نادى على ابنه لكي يأتي بالرّفش من أجل أنْ يُزيلوا الثّلج من تحت عجلات السّيّارة . قال له : «لا يُمكن أن تسير السّيارة يا أبي في مثل هذا الجوّ . . . ألا ترى أنّه من المستحيل فِعلُ ذلك؟! وَهَبْ أنّنا استطعنا تحريكها من مكانها ، انظر إلى الطّريق الملتفّة الماضية بهذا الاتّجاه لقد طُمِستْ بالكامل» . «لكنّ أمّك لا تستطيع أنْ تحتمل أكثر ؛ ألا تسمع صُراخَها؟!» . «لستُ أطرش يا أبي» . «وما العمل إذًا؟!» . «جرّبْ أنْ تتّصل بالمستشفَى لعلّهم يبعثون سيّارة إسعاف إلى هنا» . «سيصلون غدًا ؛ أنا أعرف هذه المستشفيات اللّعينة جيّدًا» . «هناك حلّ آخَر يا أبي» . «قل ، ولكنْ لا تكنْ مجنونًا» . «ألا ترى أنّ الجوّ مجنونٌ أيضًا ، أعتقد أنّني فكّرتُ في حلّ يناسبُ هذا الجوّ» . «قُلْ يا ولد ، أمّك تستغيث» . «ستحملها على ظهرك» . «إلى المستشفى؟!» . «لا إلى الملهى . . . بالطّبع إلى المستشفى يا أبي ماذا أصابك؟!» . «أنتَ فقدتَ عقلكَ يا ولد ، انظر إلى ظهري الّذي انحنى لطول ما انحنيتُ وأنا أقطعُ الأخشاب» . «انحنِ هذه المرّة من أجل امرأتك» . «لا أستطيع» . « ماذا هل هرمتَ إلى هذه الحدّ ؛ كيفَ تنام مع امرأتك إذًا يا عجوز!!» . «يا ولد ، أمّك ثقيلة» . «لقد حملتَ على هذا الظّهر أطنانًا من الأخشاب الّتي لم تجعلْكَ أكثرَ من نجّار يعيشُ عيشةَ الكفاف ألا تستطيع أنْ تحمل كتلةً من اللّحم لا تزيدُ عن ٧٠ كغم» . «اخرسْ يا ولد» . «أنا سأحملها» . «يا ولد أليسَ حنتور (أبو إسماعيل) الّذي يوزّع المازوت موجودًا؟!» . «إنّه بعيدٌ يا أبي ، لكي تصل إلى البيّاضة تكون أمّي قد فارقت الحياة ، قلتُ لكَ أنا سأحملها فلا تقلق» . لم يبذل جهدًا كبيرًا في إقناعها بذلك ؛ كانَ الوجع أكبرَ من أنْ تبذل وقتًا في البحث عن خيارات أخرى أو مُقنعة ، لفّتْ

غطاءها على رأسِها ، وأحكمتْ ثيابها الثّقيلة على جسدها ، هبطَ زياد بطوله الفارع ، وجسده القويّ ذي العضلات النّاتئة على الأرض ، كانتْ تجلس على كرسيّ بلاستكيّ ، حوّلتْ رجلَها على عنقه ، وأمسكَ هو بالقائم الحديديّ لخزانةٍ مركونة إلى جدار الغرفة ، احمرّ وجهه وهو يحاول أنْ يرفعها ، ترنّح قليلاً قبلَ أن يتمالكَ نفسه بالشّدّ أكثر على عضلاتِ ساعده المُستندة على قائم الخزانة ، وبالاتّكاء على ساقه اليُمنى الّتي ثبتَتْ بشكلٍ جيّد وهي تغالبُ الجاذبيّة في رفع الجسد عن الأرض : «اتبعني يا أبي من أجل أنْ تدلّني على الطّريق فقط» .

كانَ بيتهما في دخلةٍ صغيرة مغلقة النّهاية تنفذ من الجهة الأخرى إلى شارع الشّهداء المُزدحم بالعمارات السّكنيّة العالية ، ظلّ يمشي في هذا الشّارع حتّى تجاوز نقطة التقائه بشارع الخراب من جهة الشّرق ، قالتْ له أمّه وهي تصرخ من الألم : «لقد أتعبتُكَ والله يا حبيبي» . ردّ من بين أنفاسه المتقطّعة واللاهثة ، مُتعَبًا : «تصلي بالسّلامة» . فتصرخ من جديد : «سأموت» ، فيجيبها بثقة : «سنصل خلال دقائق» . قبل أنْ يظهر التّقاطع الّذي يلتقي فيه شارع الشّهداء مع شارع الكواكبي ، عصفتْ ريحٌ شديدة ، حرّكت الثّلج النّائم ، فذرّ في العيون كذرّ الرّماد ، أشاح زياد بوجهه ، وشعر بأنّه لم يعدْ يرى الطّريق أمامه ، أفقدتْه إشاحته بوجهه اتّقاء العاصفة توازنه فكادَ يسقط هو وأمّه لولا أنّ الأب أمسكَ بهما قبل أنْ يترنّحا بقليل : «هانتْ» . قال الأب . «المستشفى هناك على بُعد أمتار قليلة» قال زياد . جاء صوتُها مبحوحًا وخافِتًا : «لم أعدْ أحتملْ» وسكنَ تمامًا في اللّحظة الّتي سكنتْ فيه الرّيح!

على عجلٍ وضعوها على نقّالة، حملها الممرّضون وهم يصيحون: «ابتعدوا... ابتعِدوا». شقّ صياحهم طريقًا عبر عدد من النّاس راحوا يبتعدون بصورة متتابعة من أمامهم، هتف الطّبيب الّذي كان يركضُ خلفَ الممرّض الّذي يحمل مصل الغذاء الواصل إلى وريد الأمّ: «إلى غرفةِ العمليّات... بسرعة يا شباب». تطوّع اثنان من الممرّضين الّذين رأوا الحالة أنْ يركضوا أمام هذا الموكب، ويُسارِعا بفتح باب غرفة العمليّات. على الباب صعدَ صدر الأمّ وهبط، ارتجّ، انتفضتْ بسرعة، صرختْ، وتبعتْها صرخاتٌ أخرى زاعِقة، حينَ وضعت النّقالة على السّرير كانَ بطن الأمّ قد خفسَ تمامًا، والصّغيرة تواصلُ البُكاءَ من تحت رجلَيها، حملتْ ممرّضتان الطّفلة، بينما راح عددٌ آخَر يحاول إنقاذ الأمّ الّتي راحتْ في غيبوبة جرّاء انخفاض ضغط الدّم والنّزيف. «إنّها بحاجةٍ إلى ثماني وحدات» قال الممرّض. «اجلبْها من بنك الدّم في الحال» ردّ الطّبيب.

في المساء، كانَ الأب يحتضن ابنته الّتي جاءتْ بعدَ خمسةَ عشر عامًا من مجيء الابن الأوحد. سمع الممرّضة تقول: «إنّها شقراء لا تليقُ إلاّ بأمير». «الأميرة للأمير» ردّ الأب بفخر. كان زياد يجلسُ في زاويةٍ بعيدة يراقبُ المشهدَ ساخِرًا، سألته: «هل سمّيتَها؟!». ردّ: «حينَ تستيقظ الأم وتتعافى سنتّفق على ذلك». «ليلاس» هتف الابن الّذي خرج عن صمته فجأةً: «ليلاس... اسم جميلٌ، سمّها كذلك، ألا يحقّ لي أنْ أشاركَ أيضًا في عمليّة التّسمية، أظنّ أنّني تعبتُ قليلاً في حملها من البيت إلى هنا في هذا الجوّ الفظيع؛ أليسَ كذلك؟!». حدجه الأب بنظراتٍ قاسِية: «سنرى ما تقول أمّك يا ولد».

شارع الشّهداء في حيّ الوعر كالشّهداء أطول الشّوارع امتدادًا وتاريخًا . كانوا قد انتقلوا إليه من حمص القديمة ، في السّابق كانوا يقطنون على أطراف وسط البلد في جورة الشّيّاح ، حينَ اضطرّ التّنافس المهني الأب إلى أنْ يبحثَ عن مصدر رزقٍ في مكانٍ آخَر ، فاختار هذا المكان ، استأجر بيتًا قديمًا في زاروبةٍ مكوّنًا من ثلاث غرفٍ في الأعلى ، ومثلها في الأسفل ، فتح غرفتَين من الغرف المتراصّة في الطّابق السّفليّ بعضها على بعض ليجعل منها متجره ، وأبقى على الثّالثة مخزنًا لما يُنجِزه من أعمال ، حقّقت النّجارة له دخلاً ماديًّا معقولاً ، استطاع أنْ يكسبَ المال بعيدًا عن عيون الحاسِدين والمُنافسين هناك في البلدة القديمة .

حينَ أنهى ابنه (زياد) الإعداديّة ، قال له : «يا بنيّ ، لقد كبرت ، وانحنى ظهري ، وأحتاج إلى من يُعينني ، والمدرسةُ ليستْ كلّ شيء» . لم يكنْ زياد مستعدًا أنْ يحاور أباه خاصّة في أمر المدرسة ، إنّه يكرهها ، ويتمنّى في كلّ يوم أن تنهدّ على رؤوس الأساتذة والمدير ، وهذه فرصةٌ لا تتكرّر لكي يتخلّص منها ومن تبعاتها الّتي لا تُحتمل ، وافق مباشرةً دون أنْ يُفكّر . لن تكون هناك واجبات مدرسيّة بعد اليوم ، لا حلّ لمسائل الرّياضيّات ، ولا كُرّاسات لإعراب أبيات الشّعر ، ما أجمل أنْ تعيشَ بدون سوطٍ يجلدُ ظهركَ على الدّوام يُسمّى الواجبات المدرسيّة . لكنّه حتّى لا يظهر وكأنّه ينتظر هذه اللّحظة من زمن بعيد ، تصنّع بعضَ الهدوء والرّزانة ، وحكّ ذقنه الّتي بدأتْ تنبز فيها بعضُ الشّعرات ، وقال بصوتٍ رخيم : «هل ترى ذلك حقًا يا أبي؟!» . «نعم ، تُساعِدني ، وأعطيك أجرك ، وننمّي المحلّ أنا وأنت ، وفي النّهاية هو لك بعدَ أنْ أغادر الدّنيا» . «ما زلتَ شابًا يا أبي لا تقلْ

ذلك» . أحسّ أنّه يقولها بتصنّع ، فحاول أنْ يُعيدها ليجيد إلقاءَها ولكنّه أدركَ أنّه سيفشل للمرّة الثّانية فسكت . تابعَ الأب وهو يربّت على كتفِ ابنه ويبتسم : «وسيصبح لديك مالك الخاصّ» . «المهمّ أن تُزوّجني يا أبي ، فأنتَ تعرف . . .» قال ذلك وغمزَ أباه . «أعرف ماذا يا ولد؟!» . ردّ وهو يضحك : «لا يا أبي ؛ كنتُ أمزح معك» . «أعرف إلامَ تلمّح يا خبيث ، ولكنّ الوقتَ لم يحنْ ، اصبر قليلاً يا ولد . . . أنا أعرف ، كلّ ذلك من السّمّ الّذي تأكله ، والحبوب الّتي تتناولها حتّى صار جسمك مثل جسم البغل» . ثُمّ راحا يُقهقِهان بصوتٍ عالٍ .

كانتْ تحبّه بشكلٍ خرافيّ ، لم يكنْ يصعد إلى البيتِ من المتجر إلاّ وفي يده حبّة شوكولاته لها ، لم تكنْ تفارق حضنه حينَ يجلسُ للطّعام ، أو لمشاهدة التّلفاز ، لم تكفّ عن العبث بشعر لحيته الّتي طالتْ وأصبحتْ تُغطّي ثلاثةَ أرباع وجهه ، وهو؟! كانتْ صغيرته المُدلّلة ، يجعلها تمتطي أكتافه ويدور بها في أنحاء البيت ، وفي المساءات بعد أنْ ينتهي من العمل في المتجر ، ويتناول غداءه ، وينامُ ساعةً من الزّمن ، يُركبها على عنقه ، ويخرج بها إلى الشّارع يركض بها حتّى يتعب ، ثُمّ يتابعان سيرهما إلى الحديقة العامّة الّتي تقع في الجهة الغربيّة الجنوبيّة من شارع نزار قبّاني ، وفي الحديقة يبدآن مسيرةً أخرى من الصّداقة والمتعة ، يشتري لها (غزل البنات) ذا اللّون الورديّ من بائع نحيلٍ يلبسُ طربوشًا على الباب ، يأكلان معًا ، ويمشيان الدّروب الضّيّقة المرصوفة للزّوّار في الحديقة ، حتّى يَصِلا إلى المراجيح ، يحملها بين يديه ، يضعها على السّير الجلديّ ، ويهتف : «سيبدأ الوحش بقذفكِ إلى الفضاء» ثُمّ يُصدر صوتًا مثل صوت الوحش ليرعبها ، لكنّها تبدأ موجةً من الضّحك البريء ، وتردّ بصوتٍ طفوليّ

مَـرِح : «أنا أحبّ هذا الوحش . . . هيّـا . . . أريدُ أنْ ألمسَ السّـمـاء بيدي» . ويقهقه هو ؛ لم يدر أحدٌ في العائلة ما سببُ هذا التّعلّق ، بعضُهم قال إنّه لمّا كانَ يحمل أمّه إلى المستشفى دعتْ له بأنْ يحنّن قلبه على أخته ، ويحنّن قلوب النّاس عليه . وبعينَين زرقاوَين ، وشعرٍ أشقر ، وثوب أحمر ينسدل على جِسمها الصّغير كانت الطّفلةُ الطّائرة في الفضاء لا تكفّ عن الصّياح ابتهاجًا .

سارا معًا ، بدا عملاقًا حقيقيًا إلى جانبها ، كان كتفها لا يكاد يصل إلى راحة يده وهي مُسبَلة . أراحتْ كفّها الصّغيرة الطّريّة في راحة يده المتضخّمة فضاعتْ في غضونها ، سألها إنْ كانتْ تريدُ أنْ تُسابقه ، فأجابتْ : «نعم» . أشارَ إلى شارعٍ آخر مرصوف بالحجارة البيضاء في الحديقة : «هناك ، إنّه مستقيم ، ويُمكن ألاّ نصطدم فيه بالنّاس لأنّه واسع» . وقفا . سألها : «هل أنتِ مستعدّة أيّتها الرّياضيّة العظيمة؟!» . «أنا مستعدّة» . صرخ بها : «لم أسمعْ» . أجابتْه بصرخةٍ أكبر حوّلتْ أنظار عددٍ من النّاس إليهم : «أناااا مُستعدّددة» . «هكذا . . . حين أعدّ إلى الثّلاثة ننطلق معًا . . . الغشّ ممنوع . . . هل هذا مفهوم؟!» . «نعم مفهوم» . «واحد . . . اثنان . . . ثلاااثة» .

حمَلها بعنايةٍ كما يحمل وردة ، قرصَها من خدّها ، قال وهو يضحك : «يا شقيّة لقد فزتِ هذه المرّة ، أعدكِ أنّني سأتغلّب عليك في المرّة القادمة . . . سأستعدّ بشكلٍ أفضل» . توقّفا عند كشك صغير يبيع السّندويتشات ، اشترى لها واحدةً بالجبن وعصيرًا وماءً . قال لها وهو يُعطيها لها : «لقد تعبتِ اليوم كثيرًا لا بُدّ أنّك جائعة» . «أنا جائعة . . . هل سنعود إلى البيت؟!» . «ما رأيُكِ؟ ماما ستقلق علينا!» . «لا . . . أريدُ أنْ أبقى هنا . . . أريدُ أنْ أبقى معك» .

الزّمن ليس واحدًا عند كلّ النّاس ، الزّمن مقترنٌ بالقلب ، حينَ يكونُ القلبُ مبتهجًا يتخلّى عن الحبل الّذي يُمسك به الزّمن فيمرّ سريعًا ورقيقًا ، وحينَ يكون مُبتئسًا ، ينجدل الحبل على القلب فيمرّ بطيئًا وخانقًا!

حينَ صارتْ ليلاس في الرّابعة اشترى لها عروسًا مُتجدّدة ، كان مع العروس (باروكات) بأشكال مختلفة ، وثيابٌ بأحجام وألوان متباينة ، كانَ بإمكانها أنْ تُغيّر ثوبَها وتختار لهذا الثوب ما يُناسِبه من الشّعر . في عيد ميلادها الخامس اشترى لها مطبخًا بكامل أدواته وتجهيزاته . في السّادسة أخذها بنفسه إلى المدرسة ، قال لأبيه : «ليلاس صديقتي ، وهي لا تريد لأحدٍ أنْ يسجّلها في المدرسة غيري؟» . في اليوم الّذي سبق افتتاح المدرسة اصطحبها إلى المكتبة واشترى لها الحقيبة الّتي اختارتْها من بين مئات الحقائب المعروضة ، وتركَها تملأ حقيبتَها بكلّ ما تريد من الأقلام والدّفاتر ، في البيت هو الّذي قامَ بتجليد الكتب ، وكتب على الدّفاتر اسمها ، وأعدّ لها كلّ ما يلزمها ، وقبلَ أنْ يخرجا من المكتبة في ذلك اليوم ، قال لها إنّه سيختار هذه المرّة لها القوس الّتي ستلمّ بها شتاتَ شعرها الأشقر الطّويل ، كان قوسًا مزيّنًا بلآلِئ بيضاء تلمع بشكلٍ خلاّب عندَ سقوط الضّوء عليها .

في بداية الفصل الثّاني من الصّفّ الأوّل . . . تغيّر وجه البلد . . . بدا أنّها مُقبِلة ليس على تغيير وجهها فحسب ، بل وتغيير جلدها . جاء آذار ، وآذار سيّد الشّهور ، شهر الخصب ، والبوّابة العالية الّتي يدخل منها الرّبيع إلى القلوب .

كانوا أطفالاً مثلها ؛ يستخدمون حائط المدرسة الّذي يُشبه حائطَ الأحلام بالنّسبة لهم ، الأحلام الّتي لم تتبلور بعد ، حدثٌ ما ربّما لا

قيمة له هو الّذي يقذف بها من اللاوعي إلى الوعي بالكتابة أو بالرّسم فتكتب أو ترسم ، وماذا يُمكن أن يرسموا على الحائط ؛ خارطة الوطن؟! كلا ؛ إنّها محفورةٌ في القلب لا على جدار!!

الوطن روح الإنسان إذا فُقد مات . الوطن كرامته إذا أهين لم يبقَ له منها شيء . الوطن جداره الأخير الّذي يحمي روحه من الانهيار والعبث . قال النّجار لابنه وهو يقطع الخشب ليصنع كُرسيًا : «لقد تعدّد الّذين يجلسون على الكرسيّ في زماننا هذا يا بُنيّ ، كانَ لا يستحقّه إلاّ مَنْ يستحقّه ، واليوم صار كلّ من هبّ ودبّ يجلسُ عليه!!» .

(١٩)
الحبّ لا يُطعمُ خُبزاً!!

«سترقصين في عرسي يا ليلاس . . .؟!» . «بالتّأكيد» . «سأشتري لك فستانًا أبيض أجمل من فستان العروس» .

رآها أوّل مرّة حينَ كانَ في الثانية عشرة ، لم يكنْ يعرف ما معنى أن يتغيّر اتّجاهُ القلب ، أنْ يبدأ القلب بالخَفَقان كلّما وقعتْ عيناه عليها . قال لنفسه : ما الّذي يُميّزها ؛ إنّها مجرّد فتاة ، مثلها مثل العشرات أو المئات في باب هود أو باب سباع أو حتّى في جورة الشيّاح حيثُ يسكنون ، فتاة صامتة وبسيطة وشعرها الأسود يتهدّل على كتفَيها حتّى يكاد يلامس خصرها دون تهذيب . لكنّ شيئًا ما آخر كان يقول : صامتة نعم لكنّ عينيها تتكلّمان ، وبسيطة نعم لكنّها قادرة على أنْ تهزّك ، وماذا في المرأة غير أنْ تحرّك فيكَ ذلك الدّم في القلب لكي تحبّها؟! لا شيء .

عرفَ من زياراتها المتكرّرة مع أمّها إلى أمّه أنّ اسمَها : «حنين» . كانتْ حنطيّة اللّون ، وعسليّة العينَين واسِعتهما في محجرين غائرَين ، ومهذّبة الأنف ، وخفيفةَ الحواجب ، ورقيقة الشّفتَين ، وبريئة النّظرة ، تهب النّاظر إليها وداعة . وكانتْ إلى ذلك تميلُ إلى الطّول بالنّسبة لفتاةٍ في سنّها ، وغالِبًا ما كانتْ تلمّ شعثَ شعرها الطّويل الثّرثار بقوسٍ تنزرع عليها زهرات الياسمين . ولم تكنْ في حضور أمّها أو خالتها تنطق بكلمة ، تجلس صامتةً تحرّك ساقَيها تزجيةً للوقت وتعبيرًا عن الملل في

أحيانٍ أخرى ، وقد تشاركهما شربَ كأسٍ من الشّاي إذا دُعيَتْ لذلك .

كانَ أبوها تاجرَ أدواتٍ منزليّة في سوق جورة الشّيّاح ، وكان صديقًا لأبيه . وحينَ تغوّلَ على أبيه بعضُ تُجّار الخشب والموبيليا والنّجارون ، وحاصروه ، ومنعوا أن يبيعوه أو يُبادلوه البضاعة حتّى لا يسرق رزقهم كما كانوا يقولون لأنّه أصبحَ منافسًا قويًا لهم لجودة عمله نصحه بأنْ يترك جورة الشّياح ويذهب إلى حيّ الوعر ، وقد استمع لنصيحته . في هذه المرحلة من الانتقال انقطعتْ زيارة أمّها إلى أمّه ، فانقبضَ قلبُه . في البداية صار يهربُ من الحصّة الأخيرة من المدرسة ويُرابط أمام مدرستها ينتظرها حتّى يراها وهي تغادر إلى البيت ، ويتبعها في الأزقّة حتّى يوصِلها إلى بيتها بأمان ، وغير مرّةٍ افتعل مُشاجرةً مع صبيان عابرين في الطّريق الّذي تعبره بحجّة الدّفاع عنها وحمايتها ، والحفاظ على ابنة جارهم القديم . وسمعَ الحيّ به ، وصارَ معروفًا لديهم بالعاشق الصّغير الّذي كان مستعدًا أنْ يُجرَح أو يُصاب في مشاجرةٍ غير عادلة لتكاثر أولاد الحارة عليه ، ولكنّه كان يخرج من المشاجرة راضِيًا على كلّ الأحوال سواءٌ أكانت الغلبة له أم عليه ، وكان قلبُه يرقص لمجرّد أنْ يراها تنظر إليه بطرف عينيه وهي تغادر المكان وعلى شفتَيها ترتسمُ ابتِسامةٌ شاحبة .

تطوّر الأمر في نهاية الإعداديّة ، صار يهربُ من نصف الدّوام ، يترك المدرسة ويرابط عندَ مدرستها ، حتّى وصلَ الأمر إلى أبيه ، فضمّه إلى متجره ، وطلبَ منه أنْ يعملَ إلى جانبه . كانَ يلمزُ به بينَ فترةٍ وأخرى ، يقول له الأب ممازِحًا : «الحبّ لا يُطعمُ خبزًا . . . النّجارة هي الّتي ستدفع إيجار البيت في نهاية الشّهر» . فيردّ الابن بشيءٍ من الضّيق : «كُنْ رومانسيًا يا أبي ولو لمرّةٍ واحدةٍ» . «رومانسيّ . . . ماذا

تعني الرّومـانسيّـة يا فـهيم ، هل هي مـوجـودةٌ في عـالَمنا ، على كلّ الأحـوال ، إن كـانتْ مـوجـودةً فلقـد انتـهـتْ بزواجي من أمّك» . «لا تتكلّم عن الّتي عانتْ معك بهذه الطّريقة . . . امنحْها ما تستحقّ . . . شيـئًـا من الحبّ» . «عـدتَ إلى البـلاهة من جـديد . . . الحبّ . . . الحبّ . . . دعنا نرَ ماذا سيصنع لك الحبّ» . فيجيبه زياد مُتحدّيًا : «من أجل الحبّ أعمل معك ، وأتعب . . . لولا الحبّ لما أتقنتُ عملي ، بالحبّ تشرقُ الشّمس» . «تتفلسف أيّها الولد» . «لم أعد ولدًا» .

يوم الأحد الفائت قطع شارع الخراب ركضًا ، كأنّ وعدًا بجنّة من نوعٍ ما ينتظره ، وصل إلى البغطاسيّة ، أحسّ بالتّعب ، نظر في ساعته : «سوف تغادر المدرسة في أقلّ من ربع ساعة» . زادَ من سرعته وهو يتّجه شمالاً عبر شارع الكورنيش تاركًا الغوطةَ عن يمينه إلى أن وصلَ جورة الشّيّاح ، وصار على بعد عشرات الأمتار من مدرستها ، هدّأ من سرعته قليلاً ، أصلح من هندامه ، أخرج المرآة الصّغيرة من جيبه ، نظر إلى شعره ؛ تأكّد من أنّ منظره مقبول ، مسّد على لحيته ، أزال شعرةً ناتئة من شاربَيه ، ودسّ المرآة من جديد في جيبه ، تلمّس جيبَ جاكيته الأيمن ليتأكّد من وجودها ، اطمأنّ ، تنحنح ومشى بخطوات واثقة .

ركزَ جسده الفارغ على عمودٍ ينتصبُ عند ناصية الشّارع أمام المدرسة ، راحَ يراقب الباب وهو يصفر . أرسلَ نظرةً استعجال نحو البوّابة ، كانتْ بوّابةً حديديّة عالية بيضاء قد تقشّر الطّلاء عنها في بعض أجزائها فعلاها الصّدأ ، لم يكدْ نظره يتحوّل عنها حتّى تقدّمَ الحارس إليها وفتحها على مصراعَيها الواسعَين ، ثُمّ راحتْ أسراب الغزلان تتدفّق من هناك ، رأى لَغَطًا ، مجموعة من الألوان الباهتة ، ظلّ يحرّك رأسه ، ويشرئبّ بعنقه حتّى يصيدَ غزالته ، مرّتْ عليه اللّحظات

كأنّها دهور، شعر بأنّ أمواجًا من الطّالبات يتلاطم ويتدافع ليخرج لكنّ فتاته ليستْ من بينهنّ، ظلّتْ عيناه مُعلّقتَين بالمدّ البشريّ السائل، حتّى لَمحها، توقّف قلبُه للحظة، رآها ملاكًا بين مجموعة من الشّياطين، ووردةً بين كُتلٍ من الشّوك، عَمِيَ قلبُه إلاّ عنها، راحَ يتابعها بعينيَه، مشتْ بهدوء، لم تلحظ أنّه يقفُ لها عند العمود، تهادتْ في خطواتها، حتّى إذا مرّت من جانبه همّ بأنْ يقول لها ما في نفسه، لكنّه لم يتمكّن لاكتِظاظ المكان بالطّالبات الحائمات هناك. فتبعها. أمّا هي فشعرتْ بالأمان أكثر حينَ لمحتْه يتبعها ويوليها كلّ هذا الاهتِمام. حتّى إذا خفّت أمواج الطّالبات، وذهبتْ كلّ واحدةٍ من سبيل، وخلتِ الدّرب إلاّ منها ومن بعض المارّين القلائل من هناك، استوقَفها حينَ ناداها بصوتٍ مُضمّخ بالعشق خافت لكنّه مسموع: «حنين... يا حنين». توقّف قلبُها حينَ سمعتْه ينطقُ باسمها وإنْ كانتْ تنتظر منه أنْ يفعل ذلك منذ اللّحظة الأولى الّتي تبعها فيها. وقفتْ دون أنْ تقول كلمةً واحدةً، هي في حالتها الطّبيعيّة قليلة الكلام، فكيف في حالة غير طبيعيّة مثل هذه. سمعتْه مرّة أخرى يقول: «حنين أريدُ أنْ أقول لكِ شيئًا». التفتتْ هذه المرّة، ألقتْ بنظرتها بعيدًا عنه، وضعتْ أصابِعها على فمها، وسحبتْ هواءً عميقًا كي لا تختنق، وبلعتْ ريقَها قبل أنْ تقول بصوت مرتعش، وتسأله سؤالاً لم تكنْ تعنيه أبدًا: «ماذا تريدُ منّي؟». «كلّ ما أريدُ أنْ أقوله لكِ مكتوبًا هنا» مدّ يده إلى جيب جاكيته الأيمن، وناولها مظروفًا وعلبةً صغيرة. «بإمكانك أنْ تفتحيه في البيت إذا أردتِ». أرادتْ أنْ تمدّ يدها، لكنّها لم تتزحزح من جنبها، شعرتْ بشللٍ عارض، وأصابَها خدرٌ سريعٌ في قدَميها. شجّعها وهو ينظر من حوله: «لا

تكوني بلهـاء . . . خـذيهـا منّي قـبل أنْ يرانا أحـد» . «لا . . . لا أستطيع» . «تصـرّفي بذكـاء يا حنين . . . ليس لدينا وقتٌ لنتجادل الآن . . . خذيها وواصلي السّير إلى البيت» . لكنّها جمدتْ مكانها دون أنْ تحرّك ساكِنًا ، تقدّمَ منها ، مَدّهما إلى جيبِها ، وقبلَ أنْ تصل يده إلى هناك ، تناولتهما حنين بحركةٍ خاطِفة لكي تنهي المشهد قبل أنْ يتنامَى إلى مرحلةٍ معقّدة ، دسّتهما في جيب مريولها المدرسيّ وراحتْ تجري نحو البيت .

(٢٠)

كانَ محتاجاً إلى فنجانٍ منَ القهوة يُنهي فيه الزّوبعة الّتي عصفتْ بوجدانه!

تشكّلتْ العلاقة بينهم في ملعب المدرسة ، كانوا اثنَين وهو الثّالث ، تشابهوا في بعض السّجايا وإنْ اختلفوا في الهيئات ، كان شادي أكبر منهما بصفّ ، أمّا ليث فكان في صفّ زياد نفسه . كانوا مولعَين بكرة القدم ، يلعبونها في المدرسة ، وحينَ يعودون من المدرسة يتناولون طعام الغداء ، يرتاحون قليلاً ، ليخرجوا عصرًا إلى ملعب البلديّة ، فتتنافس عليهم الفِرَق الموجودة في الملعب لتضمّهم إليها لمهارتهم ، ثُمّ لّما صاروا في الإعداديّة التحقوا بنادي حمص الرّياضيّ ، ولعبوا في فريق النّاشئين .

شادي وزياد تركا المدرسة بعدَ أنْ أتمّا الإعداديّة ، لكنْ لكلّ واحدٍ منهما أسبابه ، أمّا شادي فلأنّ أباه توفّي في تلك السّنة وتركَ للعائلة المكوّنة من خمس بنات وولدَين ، هو وأخيه الصّغير محلاً لبيع المُخلّلات ، فاضطرّ أنْ يعملَ في المحلّ ويغامر بدراسته حتّى يعيل العائلة الكبيرة الّتي غرقتْ في الحزن والفقد ، وودّعتْ مُعيلَها الوحيد ، الأب الحاني الّذي خطفه الموت دون سابق إنذار . وأمّا زياد فلأنّ فتاةً رآها ذاتَ مرّة في زيارة عابرة مع أمّها في بيتهم فسرقتْ منه قلبه إلى الأبد ، فآثرَ أنْ يجمع المال بالعمل في متجر أبيه لكي يسدّ الثّقب الّذي أحدثتْه تلك الفتاة الصّموت في قلبه!! وأمّا ليث فتابع دراسته ،

وحصّل مجموعًا في البكالوريا يؤهّله دخول كلّيّة الهندسة في جامعة حمص، والتحق بقسم الهندسة المدنيّة في عام ٢٠٠٨م.

حينَ اضطرّ أبو زياد للرّحيل من جورة الشّيّاح إلى الوعر، ظلّ الثّلاثة يلتقون على فترات مُتباعدة، كانَ هنالك شيءٌ روحيٌّ يجمعهم، لربّما تشابهوا في كثيرٍ من الأمور الأخلاقيّة العامّة وإن اختلفوا في التّفاصيل، وهو أمرٌ طبيعيّ بين شبابٍ نشؤوا في عائلاتٍ مختلفةٍ وفي حيٍّ واحدٍ.

كبر شادي بسرعةٍ، رعايته لعائلةٍ كبيرة من أخواته الخمس وأمّه وأخيه الصّغير الّذي كان لا يتجاوز عمره سنةً واحدةً عندَ رحيل الأب جعله يُفكّر كالكبار ويتصرّف مثلهم، مِمّا أضفَى نوعًا من العلاقة المسؤولة بينهم-وإنْ كانوا شبابًا، وأمّا ليث فشغله تحصيله الدّراسيّ عن أنْ يمشي في درب الضّياع والإهمال، وتولاّه أبوه الّذي كان يعملُ إمامًا لمسجد الخالديّة، فيما بعد انتقل مع عائلته للسّكن في حيّ الخالديّة، وهناك نَعِمَ بحياةٍ هادئة، وبصُحبةِ أبيه الّذي عمل على تحفيظه القرآن، فلم يكدْ يخطو خُطوةً واحدةً داخلِ ردهات الهندسة حتّى كان قد أتمّ حفظه، وأمّا زياد فكان أكثرهم تفلُّتًا، ونزوعًا إلى التّحرّر من كلّ قيد، وكان كثير المزاح، واللّهو، كان عمله في النّجارة مسؤوليّةَ أبيه وليسَ مسؤوليّته، فلم يكنْ يحمل همّ عائلة، ولا همّ دراسة، ولا أيّ همّ، فرأى الحياةَ مقبلةً عليه، وأنّ عليه اقتناصَ اللّحظات النّافذات بأسرعَ من البرق في العمر، لكنّه إلى ذلك كان مُحاطًا بصديقَين لم يعرفا غير الجدّ في حياتهما فانسلكتْ أموره معهما، وتطبّع بطِباعهما، وأخذ من صفاتهما الكثير، وصدق من قال: «الصّاحب ساحب». وحينَ غزا العشقُ قلبَه المُتيّم نصحاه بالزّواج مباشرةً، وكان ذلك أحد دوافعه

ليستجيبَ لهما ، ويبدأ أيضًا معهما مشوار البناء .

بعد ثلاث سنين ، بدأت العلاقة بينهم تخفت ، ذهب ليث إلى الجامعة وانشغل بدراسة الهندسة ، وعمل شادي لساعات أطول فقد صارتْ أخواته الخمس جميعهنّ في المدرسة وزادتْ متطلّباتهنّ ، لم يكنْ يعود إلى بيته قبل العاشرة مساءً ، عمل لفترتَين حتّى يغطّي نفقات البيت . وزياد بطبيعة الحال ابتعد عن حيّ جورة الشّياح ، وتركه إلى حيّ الوعر . خفتَ صوتُ الصّداقة خفوتًا حتّى كاد يّمحي ، وظلّ صوتُ الحبّ يعلو ويعلو حتّى أصمى الفؤاد .

قال لأبيه ، وهو يركنُ ألواح الخشب على أحد جدران المحلّ ، وقد امتلأتِ الأرض بالنُّشارة ، وعلقَ بعضُها بلحيته وشعر رأسه : «لقد عزمتُ أمري» . «الوقتُ غير مناسب» . «الوقت عندك دائمًا غير مناسب ، برأيك هل أنتظر حتّى أصبح في الثّلاثين ولا أعودُ قادرًا على فِعل شيء ، ثُمّ إنّها . . .» . وسكت . . . وضعَ أبوه قلمَ الرّصاص خلفَ أذنه بعد أنْ رسم خطوط الشّكل الّذي يريده على قِطعة الخشب ، ونظر إليها بعينَين تستحثّانه أنْ يُكمِل : «ماذا . . .؟!» . «ثُمّ إنّ الخُطّاب قد كثُروا في الفترة الأخيرة» . «كثروا . .؟!» أرجعَ الأب صدره إلى الوراء وضيّق عينَيه ، وقال مُستهزِئًا : «قلتَ لي كَثُروا . .!! مَنْ يطلُب أنْ يقترن بفتاة مثل خيط المصّيص . . . أم هل تريدُ أنْ تُقنعني أنّ أباها مُحافظٌ أو وزيرٌ وأنا لا أدري» . ردّ الابنُ محذرًا وممازحًا : «لا تنسَ أنّه صديقُكَ يا أبي» . قال الأب ليغيّر الموضوع : «هل أتممتَ قصّ ألواح الخزانة؟» . ردّ الابن بلهجة جادّة : «ستزورهم أمّي مطلع الأسبوع القادم» . نظر الأب إلى ابنه رافعًا حاجِبَي عينَيه مستغربًا : «أراكما قد قرّرتما» . «استوت الطّبخة يا أبي» . قال وهو يُعيد تعيين بعضُ النّقاط على لوح الخشب

الّذي بينَ يديه : «قلتَ لي كم عمرها؟!» «سبعةَ عشر عامًا» . «وأنت؟» . «واحدٌ وعشرون عامًا» . أخذ الأبُ الفارة وانتقلَ إلى لوحٍ آخر وراح يبرش حوافّ اللوح بصمتٍ مُطبِق .

كانَ معتادًا أنْ يتسكّع في البلدة القديمة ، يريحُ أذنه من أزيز آلة النّشر الزّاعق ، ويُطلق لرجلَيه العنان في التهام الشّوارع بلا غاية ، وحدثَ أنْ لمحها في إحدى تسكّعاته مع أمّها في ساحة السّاعة القديمة ، كانَ واضِحًا أنّهما قد أنهيا شراء ما يحتاجان من مجمع تشرين ، عرف ذلك من خلال الأكياس الّتي يحملانها ، هُرِعَ إليهما مُتصنّعًا النّخوة ، وبادر الأمّ قائلاً : «كيف حالك خالتي» . نظرتْ إليه الأمّ مندهشةً من هذا الّذي اقتحمَ عليهما المكان ، فعرفتْه : «أهلاً خالتي ، ما الّذي أتى بِكَ إلى هُنا؟!» . لم يدرِ بِمَ يُجيب لكنّ بداهته أنقذتْه : «بعثني أبي إلى محلّ أخشاب في شارع أبو العوف من أجل أنْ أتّفق مع صاحبه لشراء ألواح جديدة . . . هل أساعدكما؟!» . وانحنى يريد أنْ يحملَ الأكياسَ من أيديهما ، لكنّ الأمّ بادرتْ بالقول : «سنأخذ تكسي ونعود إلى البيت لا داعي يا خالتي . . . شكرًا» . فيما راحتْ حنين تراقبُ المشهد بفضولٍ وبسعادة . ودّعهما ، وابتعدَ قليلاً وإنْ ظلاً في دائرة نظره ، غاص في بعض الزّحام ليخفي نفسه عنهما ، وراحَ يراقبهما ، لم تُوقِفا سيّارة أجرة على الفور ، بل مشتا إلى أنْ وصلتا إلى بائع ذرةٍ مشويّة ، ابتاعتا عرنوسَين ، وراقبهما وهما تأكلان . ثُمّ تبعهما وهما تتّجهان شرقًا إلى تقاطع شارعِ خالد بن الوليد ، استراحتا في مكانٍ للباصات العامّة ، شَربتا ماءً من قارورةٍ واحدة ، بدأت الأمّ وتبعتها ابنتُها . ثُمّ أوقفتا سيّارة أجرة واستقلّتاها عائدَتين إلى منزلهما . تمنّى لو أنّهما فعلتا ذلك مشيًا لعلّه يحظى برؤية

الغـزالة زمنًا أطول . راحتْ خُطُواته تذرع الشّـوارع بلا غـاية ، شـعـر بالانتشاء من رؤية الحبيبة ومتابعتها وهي تكاد تتعثّر في مشيتها . قرّر أنْ يتّجه غربًا إلى مقهى الرّوضة ؛ كانَ محتاجًا إلى فنجانٍ من القهوة يُنهي فيه الزّوبعة الّتي عصفتْ بوجدانه!

(٢١)
إنّها عشرُ سنوات من الحبّ

كانتْ تركض كأنّما تهربُ من خطرٍ مُحدِق ، ظلّتْ طوال الطّريق تتلفّتُ خلفَها ، كانَ الشّارع خالِيًا إلاّ منها ، راحت الحقيبة الّتي تستريح على ظهرها تتقافز وهي تهرول نحو البيت ، محاوِلةً أنْ تلتقط أنفاسَها بين حينٍ وآخر بالتّحوّل إلى المشي السّريع . دخلتْ باب العمارة ، قطعت الدّرجات الأولى قفزًا وهي تُمسك بالدّرابزين ، حينَ صارتْ على الباب نقرتِ الجرس ، وتصنّعتْ الهدوء ، وأزالت ما استطاعتْ من لُهاثها ، ودخلتْ .

ألقت التّحيّة على أمّها بصورة آلية ، قصدتْ مباشرةً إلى غرفتها ، تأكّدتْ قبل أنْ تغلق الباب من أنّ أمّها ما زالتْ تجلسُ في الصّالة تُقطّع الفاصولياء استعدادًا لطبخة الغداء . عانتْ وهي تزيح مكتبًا خشبيًا قديمًا ، لتدفعه باتّجاه الباب بهدوء ليستقرّ خلفه حتّى تأخذ راحتها في رؤية ما أهداها زياد . أصدر المكتبُ صوتًا مسموعًا ، انتبهت الأمّ ، شكّتْ في الأمر ، لكنّها قدّرتْ أنّ من الحكمة تجاهله .

مدّتْ يدها بلهفةٍ إلى جيب مريولها ، تناولت المظروف والعلبة ، بدأتْ بالعلبة ، كانت علبةً أرجوانيّة صغيرة ملفوفةً بشريطٍ أحمر ، فرطت الشّريط ، ورفعت الغطاء لتلمع تحت عينَيها دبلةٌ من الذّهب تستقرّ في جوفها ، هجمَ على قلبِها الفرح والخوف معًا ، تزاحما في اللّحظة نفسها على الاستقرار بعيدًا في قلبها . فرحتْ لأنّه يحبّها

ويمتلك هذه الجرأة الّتي لا يمتلكها الشّباب الآخرون ، وخافتْ أنْ يُكتَشفَ أمرها ولا يكون مقبولاً لدى عائلتها ، ولم تدرِ ماذا تفعل بهذه الدّبلة ، إذا أخفتْها ظلّ سرّها يحوك في صدرها فيعذّبها ، وإذا لبستْها فإنّ ألف طعنةٍ من سؤال ستنفذ إلى قلبها ، وفي كلّ طعنةٍ ستتردّد هذه الكلمات : مِنْ أين لكِ هذا؟!

تناستِ الأمر لحينٍ ، حرّكتِ الخاتم أمام عينَيها مرّتَين أو ثلاثًا وهي تُعاينه وطوفانٌ من الحيرة يُغرق قلبَها ، أعادتْه إلى علبته ، ولفّت الشّبر عليها . وقامتْ إلى خزانتها فأودعتها في مكانٍ خفيّ . عادتْ . فتحت المظروف ، كان يحوي رسالةً مكتوبة . عانتْ وهي تقرأ خطّه ، لكنّ قلبها كان يضربُ بقفصها الصّدريّ مع كلّ كلمةٍ تقريبًا . تخيّلتْه يقرؤها بصوته :

حبيبتي حنين ، من سنوات تعلّق قلبي بك ، لم يكنِ الأمر عابِرًا ، مرّ على هذا الحبّ ما يقربُ من عشر سنوات حتّى تعتّق في قلبي . أعرفُ أنّكِ لم تُلاحظي كثيرًا من التّفاصيل الّتي عشتُها ، قد أخبرك ببعضِها ، وقد أؤجّل بعضها الآخَر حين تكون لنا حياتنا الخاصّة .

أمّي تظنّ أنّ بداية حُبّي لك كانَ في ذلك اليوم الّذي زرتِنا فيه أنتِ وأمّك في بيتنا الجديد في حيّ الوعر . لم تكنْ أمّي المسكينة تعرف أنّني أحبّك قبلَها بعام على الأقلّ ، كانَ بيتُكم في آخر الشّارع الّذي نسكنُ فيه ، وبيتُنا في أوّله ، كنتُ أقفُ في دخلةٍ مقابلةٍ لبيتكم ، وكنتُ أعرفُ الموعد الّذي تخرجين فيه إلى الشّرفة لتنشري الغسيل ، لم يكنْ صعبًا ملاحظة ذلك ، كان العابرون الحمقى في الشّارع حينَ يرونك يقولون : فتاة صغيرةٌ مسكينةٌ تساعد أمّها في الغسيل ، أمّا أنا فكنتُ أراكِ أميرةً تخرجُ إلى شرفةِ قصرها لكي تُطلّ

على العُشّاق بفتنتها . كان عمركِ آنذاك سبع سنين . أكان من المنطق أن تُعشَقي وأنتِ في هذا السّنّ؟! لم يكنْ منطقًا بالطّبع في غير حالتك؟!! أتعرفين لماذا؟! لأنّ الحبّ لا يعترفُ بالمنطق ، فاللامنطقُ فيه هو المَنطق ؛ وهكذا تعلّق قلبي بك . ثُمّ حفظتُ اليومَين اللّذين تخرجين فيهما إلى الشّرفة في الأسبوع ، كانا يومَي الجمعة والاثنين بعد العصر ، أمّا يوم الجمعة فكان سهل التّدبير لأنّه يوم عطلة ، وأمّا يوم الاثنين فكنتُ أهربُ من المدرسة في الحصّة الأخيرة وأرابط في الدّخلة اللعينة المقابلة للشّرفة لكي أحظى برؤية ملاكي . أتعرفين يا حنين : من هناك بدأتُ أتسرّب من المدرسة ، كانَ الحبّ فيما يبدو ضدّ الانضِباط والقوانين الصّارمة ، وإذا تعارضَ مع غيره فيُقدَّم هو ويُضحّى بغيره ، وقد ضحّيتُ بالدّراسة كلّها فيما بعد من أجلك ومن أجله!!

لكنْ لا بأس ، صحيحٌ أنّني خسرتُ متابعة تعليمي على ما يبدو ، لكنّ للحبّ فوائد أخرى قد يغفل عنها كثيرٌ من النّاس ؛ أوّلاً ظللتُ متسكّعًا بلا غاية قبلَ أنْ يتمكّن حُبّك من فؤادي ، حتّى إذا استقرّ هناك عملتُ بجدٍّ مع أبي كي أكون لائقًا بأميرةٍ مثلك ؛ وبالمناسبة فهذه الدّبلة الّتي أُهديها لك كي يتزيّن بها إصبعك البرونزيّ هي من مالي الخاصّ ، ولولا أنّني أجتهدُ في العمل ما كانتْ هناك وسيلةٌ أخرى لديّ لكي أتابع محاولتي في الفوز بقلبِك . ثانيًا : رقّق الحبُّ فؤادي بعدَ أنْ كنتُ خَشنَ الطّباع ، لم أتركْ أحدًا في المدرسة إلاّ تشاجرتُ معه . لم يخلُ يومٌ من الأيّام دون أنْ يرى أبي أثر الكدمات على وجهي ، أو يُعاين الآباء الآخرون ذلك الازرِقاق على وجوه أبنائهم . كثيرًا ما تساءلتْ أمّي هي والجارات اللّواتي دأبْنَ على زيارتها عن سبب حُبّي ورعايتي لأختي الصّغيرة ليلاس ذات الأعوام السّتّة ، وقد

قالوا وزادوا في هذه الأسباب ، ولربّما لم يخطرْ ببال أحد أنّك أنتِ السّبب الأوّل . وثالِثًا : دفعني الحبّ إلى أنْ أوسّع مداركي ، وأقرأ . . . تخيّلي ؛ أنا الّذي كنتُ أحسّ بالنّار تلتهم أطرافي حينَ أُمسك كتابًا صرتُ أقرأ . . . وحفظتُ أشعارًا كثيرةً ، حفظتُ نصفَ دواوين نزار قبّاني ، وبشارة الخوري ، وبدر شاكر السّيّاب ، وبالمناسبة أكثر بيتَين أحببتُهما كانا لنزار :

فإذا وقفتُ أمامَ حُسنكِ صامتًا
فالصّمتُ في حَرَم الجَمالِ جَمالُ
كلماتُنا في الحبّ تقتلُ حُبّنا
إنّ الحروفَ تموتُ حينَ تُقالُ

وأنا بطبيعتي ثرثار ، لكنّ نزارًا لم يرني كم كنتُ أقفُ السّاعات الطّوال في تلك الدّخلة الشّهيرة لأقفَ أمام حُسنكِ صامتًا!!

حينَ انتقلنا إلى الوعر انتقلَ جسدي فحسب ، أمّا قلبي فظلّ في جورة الشّيّاح ، وكانتْ تلك أصعب ما عانيتُ في حياتي ؛ أتعرفين معنى أنْ يكون كلّ جزءٍ من جسم الإنسان في مكانٍ؟! إنّه لن يعودَ إنسانًا ، سيكون أشلاءً مبعثرة ، كلّ عضو فيه يُنادي على الآخر ؛ وهكذا كانتْ حالتي ، لم أستطع في البداية النّوم بانتظام ، سهرتُ ليالي طويلة وأنا أرنو إلى قلبي في الحارة الأخرى . ولم أستطعْ أنْ آكُل ؛ إذ كيفَ يستطيبُ الفم طعامًا إذا كانَ القلبُ راجِفًا غير مستقرّ!! ولم أستطعْ أنْ أدرس ، كنتُ أحسّ أنّ السّطور تتداخل فيما بينها وتسيح الكلماتُ فوق بعضها وتُصبح الصّفحة كلّها مليئة بالسّواد . ورأى أبي ذلك ، تراجعتُ كثيرًا في موادّي المدرسيّة ، وقرّر بعدها أنْ أكون معه حتّى يستفيد من هذا الولد بشيء كما كان يصرخ في وجه أمّي .

إنّها عشرُ سنوات من الحبّ ، لو لم يكنْ حقيقيًا إلى درجة الخيال ، ولو لم يكنْ صادقًا إلى درجة الهذيان ، ولو لم يكنْ أكيدًا إلى درجة الشّك ، ولو لم يكنْ صعبًا إلى درجة الموت ما تجرأتُ وقلتُ إنّني أحبّك ، وكلّي لك ، وإنّني أطلبُ يدكِ للزّواج منّي ، فهل ترضَين؟!

لا أريد أنْ تقولي كلمةً واحدةً إجابةً عن سؤالي ، سأعرف بطريقة أخرى ، غدًا سآتي إلى المدرسة في الموعد نفسه ، إذا كنتِ موافقةً فالبسي وشاحًا أبيضَ لُفّيه على عنقك ، إذا رأيتُكِ تلبسينه فمعنى ذلك أنّكِ تقبلين بي ، وإنْ لم أركِ تلبسينه فاحزري ماذا سأفعل؟! سآتي أنا معي بوشاح وأُلبِسك إيّاه . . .!! لا تظنّي أنّني أمزح ؛ سأفعلها حقيقةً ، فأنا مجنون ؛ أشعر بالمتعة في مخالفة السّائد ، الجنون هو الّذي يُتيح لي تلك المتعة ، إنّه يشبه القفز في الهواء دون معرفة الأرض الّتي سأسقط عليها ، متعة القفز دون حساب النّتائج أكبر من التّفكير بما ستجرّه تلك القفزة من ويلات . . . أنا الآن أقفز . . . وأقفزُ عاليًا ؛ عليّ أنْ أحظى بالوصول إلى قلبِ أميرتي . . . أرجوك لا تقتليني أكثر من ذلك ، إنّها عشر سنواتٍ من الذّبح والجرح ينزف ، وقد آنَ لهذا النّزيف أنْ يتوقّف .

مع حبّي للأبد

التوقيع زياد

قامتْ إلى المكان الأوّل ، دسّت المظروف تحت طبقةٍ من ملابسها في الخزانة ، وأعادتْ ترتيبَ الملابس بشكلٍ جيّد ، طرقتْ أمّها الباب في تلك اللحظة . جفلتْ كأنّ البابَ يُطرَق لأوّل مرّة . هُرعت فأزاحت المكتب ، استغرق ذلك وقتًا . طرقتْه مرّةً أخرى ونادتْها : «حنين . .

الغداء جاهز» . فتحت الباب نصفَ فتحة . أطلّتْ بوجهها نصف إطلالة . تظاهرتْ بأنّها مُتعبة : «لا أريد أنْ آكل يا أمّي . . . ربّما فيما بعد . . أنا مرهقة الآن» . «ماذا هنالك يا حنين؟!» . «لا شيء يا أمّي . . . صُداع خفيف ؛ سأنام ، وحينَ أستيقظ سآكل» . «كما تريدين يا بنتي» .

لم تنم . أرجحتْها الحيرة . صارتْ ريشةً خفيفة تلعبُ بها ريح الظّنون . اضطجعتْ . علّقتْ نظراتها بسقف الغرفة . قامت . نظرتْ إلى الخزانة . مشتْ إليها . أخرجت الرّسالة مرّةً أخرى . قرأتْها بشكلٍ مختلف هذه المرّة . صار للكلمات معانٍ أخرى . أعادتْها إلى مكانها . رجعتْ إلى السّرير . حاولتِ النّوم فلم تستطعْ . نظرتْ إلى باب الخزانة من جديد . قرأت الرّسالة في ساعةٍ واحدةٍ أكثر من عشر مرّات . هبطَ المساءُ بطيئًا . قرعتْ أمّها باب الغرفة . سمعت الطّرق بوضوح ؛ لم تغفل عينُها لحظةً واحدة . فتحتِ الباب ، وتمطّتْ أمام أمّها كأنّها استيقظت من النّومِ للتّو . جلستْ إلى مائدة الطّعام . أكلتْ أوّل لقمة ، مضغتْها ، حاصتْ في الفم ، لم تبلعها . شردتْ واللّقمة لم تبرحْ موضعها . ليسَ من الصّعب أنْ تكتشفَ الأمّ ما بها . سألتْها دون مقدّمات : «أهو زياد؟!» . جفلتْ من شرودها ، حاولتْ أن تنكر ، عرفتْ أنّ هيئتها لم تدع مجالاً للإنكار ، أجابتْ وهي مُطرقة : «نعم!» . «وهل هنالك جديد؟» . لم تجدْ مهربًا من أن تقولَ لها كلّ شيءٍ . ضمّتْها إلى صدرها : «لقد صرتِ عروسةً يا حنين . . . زياد لا يَعيبه شيءٌ» . «والوشاح؟!» . «لديّ واحدٌ يفي بالغرض» .

أخذتْ تجهيزات الفرح من العائلتَين ما يقربُ من شهر . اشترطتِ العروس أن يسكنا في منزلٍ مستقلّ . عارض الأبوان ، وسارع العريس

إلى الموافقة ، قال لأبيه : «من مالي ، وهذه حياتي ، ولها الحقّ في ذلك» . اختار بيتًا إلى الجنوب قليلاً من الثّانويّة الفندقيّة في حيّ (بابا عمرو) ، استأجره بنصفِ راتبه .

في ليلة الزّفاف دعا إلى عُرسه كلّ مَنْ عرفه خلال مرحلة الدّراسة وخلال العمل ، ودعا الأبوان أصدقاءَهما وعددًا كبيرًا من الأقارب . اختاروا ساحةً فارغةً بينَ سلسلةٍ من البنايات الممتدّة على شارع الشّهداء ، نصبوا الأضواء والخِيَم ، ورتّبوا الكراسيّ والموائد ، ودارتْ عليهم المشاريب ، واستأجرَ زياد أشهر فرقة عَراضة في حمص ، زفّوه من موقع السّهرة إلى بيت أبيه حيثُ انتظرهم هناك موكبٌ كبيرٌ من سيّارات الأصدقاء ، في الطّريق إلى الموكب تناوبوا على حمله على الأكتاف ، وهم يُنشدون : «**يا صلاتَك يا محمّد . . . والصّلاة صلّوا عليه . . . واعلينا واعليه . . .**» ورافقهم طوال الطّريق شابّان يرقصان رقصة السّيف والتّرس ، وهما يتبارزان ويتفنّنان مع إيقاع الأهازيج . . . وانطلقَ الموكب إلى بابا عمرو على نغمات : «**مِن ها الليلة . . صارلو عِيلة**» .

(٢٢)

الحقل لا يمتلئ بالأشجار الباسقة بينَ عشيّة وضُحاها

مضى النّهر في تدفّقه . يسير مستقيمًا في مواضع ويغيّر اتّجاهه في مواضعَ أخرى؟! نعم . يُسرعُ أحيانًا ويُبطِئ أحيانًا؟! نعم . يضرب الصّخرة الّتي تقفُ في وجهه فيتراشق ماؤه فوقها ، ويحنو على أخرى فيُقبّلها قُبلةً ناعمةً ويلتفّ من حولها؟! نعم . يسقي في سَيره الزّهور النّاضرة والأشواك القاسِية؟ نعم . يحملُ فوق سطحه الثّمرة النّاضجة والورقةَ اليابِسة؟! نعم . إنّما مع كلّ تناقضاته هذه ؛ هل يتوقّف؟! كلاّ . الحياةُ في هذا تُشبه النّهر . لا الفرح يمدّ في عمرها ، ولا الحزن يقتلها . لا الأمل يجعلها تطول ولا اليأس يجعلها تقصُر . نفرح ونحزن ، نأمُل ونيأس ؛ وبهذا وذاك نعيش ونتعايش .

لم يغيّر الزّواجُ كثيرًا من طِباعها ، ظلّتْ على هدوئِها وقلّة كلامِها . وكذلك هو ؛ ظلّ على عنفوانه وثرثرته ، ومِزاحه الدّائم . لكنّ اختِلاف الطّبائع لا يُمكن أنْ يُديم العلاقةَ الّتي بدأتْ تتنافر إلاّ بالتّفهّم والصّبر . ولأنّ زيادًا لا يملك مخزونًا كافِيًا من الصّبر على أخلاق زوجته ، فقد بدأ يضيقُ ذرعًا بهدوئها الذّابح . قال لأمّه : «إنّها أشدّ صمتًا من الحجر المُلقَى على قارعة الطّريق» . «اخترْتَها وعليكَ أنْ تصبرَ على طبائعها» .

كانَ يركبُ السّرفيس أو يستقلّ سيّارة الأجرة بعدَ الظّهر ليقطع المسافة ما بينَ شارِع الشّهداء وحي بابا عمرو من خلال مدخل حمص

الغربيّ. يدخل بيته، فيتمنّى أن تستقبله زوجته على الباب فيرتاح برؤيتها من ضنك يوم طويل خلف الألواح والعوارض، أو تقول له كلمةً فيمحو إيقاعها السّاحر كلّ الزّعيق الّذي عِلَق بأذنه من صوتِ آلات القَطع والتّركيب في المتجر. يدفع الباب وحده بيدَيه، يلمحها - كما هي عادتها - في المطبخ تُعدّ الطّعام. يدخل إلى الحمّام، يغسل وجهه ويدَيه، يراها من خلال نظرة أخرى لم تُبارح مكانها، يدخل إلى غرفة النّوم يغيّر ملابسه ليستعدّ للطّعام وتظلّ هناك. يتّخذ موقعه الّذي اعتاد عليه في غرفة الجلوس وحده ينتظر الفرج بقدوم الغداء. يطول انتظاره، يشعر بالملل، ينظر إليها من خلال الباب الموارب، يثور، يهمّ بأنْ يصرخ. يتراجع. يهتفُ في نفسه: «انتظرتَها عشر سنواتٍ لتحظَى بها ألا يُمكنُ أن تنتظرها عشر دقائق أخرى!!». يهدأ.

سألها وهي تحملُ بينَ يديها طنجرةً صغيرةً: «ماذا طبختِ اليوم؟!». «شاكريّة». كانت قد خفقت اللّبن على النّار، ثُمّ سكبتْه على وعاءٍ يمتلئ نصفه بمرق اللحم المسلوق، مع عظامه، حرّكت المزيجَين، وأضافتْ إليه رشّةً من العُصفر، وعلى طبقٍ آخرَ واسع أعدّت البرغل، ثمّ قدّمتْه إلى زوجها. أكلَ أوّل لقمة فأعجبتْه، عرفَ أنّ زوجته من النّوع الماهر في الطّبخ، نظرَ إليها لم تفعلْ شيئًا غير ابتسامةٍ يتيمة، حدّث نفسه: «لو أنّها ماهرةٌ في الحديث والمعاملة مثلَ مهارتها في الطّبخ لكانتْ مثاليّة... لكنْ مَنْ يستطيع أنْ يحصل على زوجةٍ مثاليّة في هذه الأيّام؟!». نظرَ إليها، رآها بديعةً، بدتْ تمثالاً ينضح بالجمال لكنّه أخرس. أزعجه الأمر. ظنّ أنّها لو كانت من النّوع الثّرثار مثله لاستحال معه العيش، أدركَ أنّ للصّمت فوائد في بعض الأحيان، لكنّه ضاق بهذا الصّمت غير مرّة. قال لها: «لماذا لا

تأكلين؟!» . «سآكل» . لكنّها بقيتْ تنظر إليه دون أنْ تمدّ يدها ولو بلقمةٍ واحدة!!

قال لأبيه بعدَ شهرَين من الزّواج : «عملنا جيّد ، والسّيارة ضروريّةٌ لنا» . ردّ على عبارته بسؤال : «ما أخبارك مع زوجتك؟!» . «تفشلُ في كلّ شيءٍ غير الطّعام؟!» . أقلقتْه العبارة فردّ عليه : «إذا كنتَ تحبّها حقًا فستجعلها تنجح في كلّ شيء» . «إنّها آلةٌ تعمل بصمت» . «صفةٌ جيّدة» . «لقد بدأتُ أضيقُ بها» . «لا تقلْ ذلك يا ولد . . . لقد قاتلْتَنا جميعًا من أجلها ، فلا تنهزم عندَ أوّل مواجهةٍ مع صعوبات الحياة الحقيقيّة ، امرأتُك امرأةٌ رائعة عليكَ أنْ تعرفَ كيف تتعامل معها» . «أنا ما زلتُ عريسًا وهي لا تفهم معنى ذلك تمامًا!!» . «أنتما ما زلتما في بداية حياتكما . . . الحقل لا يمتلئ بالأشجار الباسقة بينَ عشيّة وضُحاها» . «تتفلسف؟!» . «الحياةُ علّمتْني الكثير» .

رافقَ ليلاس إلى مدرستها في منتصف شهر كانون الثّاني من عام ٢٠١١ من أجل الحصول على شهادة منتصف الفصل . كان الجوّ باردًا . حملها على كتفَيه ، تذكّر يوم حمل أمّه قبل ستّ سنين . شعر بقربِ الصّغيرة من قلبه . قال لها : «إنْ حصلتِ على معدّل في التّسعين ، فسأشتري لكِ أيّ هديّة تختارينها ، وسنذهب إلى أكبر سوق في حمص ونطوفُ بها لكي تجدي فيه ما تتمنّين» . حينَ وقّع على استلام الشّهادة ، كانتْ نسبتها ٩٨٪ ، هتفَ بها ، وهو يقبّلها على جبينها : «لقد تغلّبْتِ عليّ من جديد أيّتها الشّقيّة . ما الهديّة الّتي تريدين؟!» .

قضيا أكثر النّهار في الأسواق ، كانَ يريدُ أنْ يعيشَ بعضَ الحرّيّة خارج روتين العمل والزّواج . في المساء وهما يعودان كان قد اشترى لها طائرة تعمل بالريموت كنترول . قضتْ ليلاس على كثيرٍ من مقتنيات

البيت وهي تُطيّرها في أجواء الغرف ، أسقطتْ بعضَ اللّوحات ، وكسرتْ بعضَ اللّمبات ، وتذهبُ هي في نوباتٍ من الضّحك العالي ، والسّعادة الغامرة . ولم يكنْ أحدٌ من الأبوَين يعترضُ على ما تفعل ، لأنّه يحقّ لليلاس ما لا يحقّ لغيرها!!

بعدَ ثلاثة أشهر قالتْ لأمّها : «إنّها حاملٌ» . كانتْ سعادتُها لا توصف ، وإنْ لم تعبّر عن ذلك ، عرفتْ أمّها من خلال تقاسيم وجهها ، شيءٌ من النّور غمر جبهتها ولمع في عينَيها وأشرق على ابتسامتها النّادرة .

قالتْ لها أمّها : «يا بُنيّتي ، تقرّبي إليه بما يُحبّ» . «كيف يا أمّي . . . أنا أطبخُ له كلّ يوم» . «يا ابنتي كلّ البشر محتاجون لأنْ يشعروا بحبّ الآخرين لهمْ . . . نصفُ الحبّ كلمة ، ونصفه الآخر طاعة» . «إنّني لا أرفض له أمرًا يا أمّي» . «صحيح . ولكنّك تنفّذين أوامره كأنّك آلة» .

أوصلَها كما اعتادَ إلى المدرسة في أوّل يوم في الفصل الثّاني ، قال لمديرة المدرسة : «نحنُ مستعدّون لأنْ نفعلَ أيّ شيءٍ من أجل أنْ تُصبح ليلاس أشهرَ طبيبةٍ ليس في حمص وحدها ، بل في سوريّة كلّها . أنا أخوها وسأكونُ سعيدًا إذا تواصلتِ معي في أيّ أمرٍ يخصّها . . . إنّها أختي الوحيدة ، وأنا أحبّها ، وأريدُ أن تعيشَ حياةً غير الّتي يعيشُها أبناء جيلها ، إنّها بالنّسبة لي حلمٌ أحاول أنْ أكملَ فصوله» .

قالتْ له أمّه : «لو أنّكَ تمنح زوجتك نصفَ ما تمنح لأختكَ المُدلّلة من حبّ ورعايةٍ واهتمام ، لربّما تغيّرتْ حالُها» . «إنّها لن تتغيّر يا أمّي ، أنا متأكّدٌ من ذلك ، هذه الطّباع شيءٌ مغروس لا يُمكن أنْ نملكَ

معه شيئًا» . «مثلُ هذا يُقال لك أيضًا ، فلا تلُمْها» . «أنا لا ألومها يا أمّي . . . كلّ ما أريده أنْ أشعر أنّني متزوّج من امرأةٍ مُفعمةٍ لا امرأةٍ باردة . . . امرأةٍ تحسنُ التّصرّف في المواقف ، تحكي ، تقول ، تضحك ، تفرح ، تحزن ، . . . تخيّلي أنّني صرتُ أتمنّى أن ترفعَ صوتَها ولو رفعتْه عليّ بصراخٍ أو شتيمة . . . أريد أنْ أحسّ أنّها بشرٌ من لحم ودم ، تغضب وتثور ، وتعبّر عن مشاعرها ، لا حجرٌ أصمّ مهما قلّبْته لم يحرّكْ ساكنًا!!» .

جلستْ منذ الصّباح الباكر تُعدّ له طبختته المُفضّلة . نقعتْ ورق العنب بالماء السّاخن ، أعدّتِ الحشوة من اللحم المفروم النّيّئ والأرزّ ، مكثتْ أكثر من ثلاث ساعات في لفّ الورق ، رتّبت العصاعيص في قَعر الطّنجرة ، ونضّدتْ حبّات الورق المحشوّة بشكلٍ هندسيّ فيها ، ولم تنسَ أنْ تضع بين كلّ طبقةٍ وأخرى قِطَعًا من اللّيّة والثّوم ، وعلى سطح الطّبقة العليا رشّتْ شيئًا من عصارة اللّيمون ، صارت الطّنجرة جاهزةً تمامًا ، أوقدتْ تحتها نارًا هادئة ، وانتظرتْ خمسَ ساعاتٍ لكي تنضج . صارت طبخة اليَبرق جاهزة ، حينَ قرع الجرس في الثّانية كانتْ قد أتمّتْ مهمّتها على أكمل وجه ، جلستْ معه على المائدة ، لم تقلْ شيئًا ، كلّ ما استطاعت أن تفعله هو أنْ تُقرّب له صحن اليبرق الواسع ، وتضع له الملعقة في زبديّة الشّوربة ، وتهمس بصوت لا يكاد يُسمَع : «بسم الله» . مدّ يده ، تناول أوّل حبّة ، مضغها ، التفتَ إليها ، لم تأكلْ كعادتها ، كانَ يبدو على وجهها بعض الشّحوب ، كان بطنُها قد انتفخ حتّى صار مثل صخرة كبيرة أسفلَ حوضها ، ظلّتْ بقيّة أعضاء جسمها الأخرى نحيلةً لم تواكب انتفاخ البطن ، حينَ أنهى لقمته ، هتف : «إنّه غير ناضج» ، جفلتْ ، أحسّتْ بأنّها أذنبتْ ذنبًا لا

يُغتَفر ، ودّتْ أنْ تعتذر عن شيءٍ لا يُعتذر عنه ، لكنّ الكلمات لم تخرج على نحو كما تريد . ودّ هو أنْ يسمعَ ردّها ، لكنّها سحبتْ شهيقًا عميقًا ووضعتْ باطنَ كفّها على ظهرها ، واستندتْ بباطن كفّها الآخَر على الأرض . غضب لجمودها . صرخ : «ما هذا السّمّ الهاري؟!» . جفلتْ أكثر هذه المرّة . ذُعِرتْ من غضبته . أزعلتْها الكلمات ، حاولتْ أنْ تقول شيئًا ، لكنّها من جديد كتمتْ مشاعرها في نفسِها ولم تنبس ببنتِ شفة . نظر إليها متوقّعًا أن تتحرّك ، أن تردّ على اتّهامه ، أن تثور ، أن تصرخَ في وجهه ، لكنّها حافظتْ على هدوئِها ، مع أنّ تعابير وجهها كانت تشي بحزنٍ عميقٍ في أعماقِها . تنامتْ ثورةُ الغضب عنده ، حمل الطّنجرة بينَ يدَيه وهرول بها إلى المطبخ ، وسكبها في حوض الجلي ، توجّه إلى باب البيت ، صَفَقه خلفه ، وخرج وهو يُرغي : «لا أريدُ أن تطبخي لي شيئًا بعد اليوم» .

(٢٣)

لا بُدّ أنّ لوثة الجنون قد سكنت البلاد !!

سمعوا طرَقات شديدةً على البابِ ، كان اللّيلُ عجوزًا . نظروا في وجوه بعضهم دون أنْ يقوَى أحدٌ على أنْ يقوم من مكانه ، كانت الواحدة بعدَ منتصف اللّيل . تتالت الطّرقات بشكلٍ كبير ، همّ زياد بأنْ يقوم لكنّه لم يكدْ يمضي باتّجاه الباب خطوةً أو اثنتَين حتّى فوجِئ بأحدهم يقتحم المكان بعنف ، كان يلبسُ لِباسًا عسكريًا ، ويحمل بندقيّة خلفَ كتفه ، كسر الباب ، وصرخ في الجالسين : «هيّا . . . هيّا . . . اتبعوني . . . لا يُمكنكم أنْ تظلّوا هنا ، القنّاصة على الأسطح ، وطائرات الميج قادمة ، إنّها على بعد دقائق» . ركض الجميع إلى الباب مذعورين ، تَبِعوا الجنديّ ، نزلوا الدّرج ، التفّ بهم خلفَ العمارة وهو يصيح : «من هنا هيّا بسرعة» . لهثوا خلفه ، كان هناكَ آخرون يفتحون أبواب بيوتهم ويهرعون فَزِعين ، تقدّم المُسلّح إلى أرضٍ خرابٍ لا تبعدُ كثيرًا خلف صفّ العمارات ، كان الشّوك قد غَطّى وجهها ، بدا أنْ هناك جدارًا إسمنيًا منخفضًا على ضوء القمر الشّاحب ، فتح لهم بابًا يكاد يلتصقُ بالأرض لا يرتفع أكثر من متر ، وأشار للجميع : «هيّا من هذا الدّرج» . تدافعَ الجيران وهم ينزلون درج القبو الّذي بدا أنّه أُسّس في حربٍ سابقة مضتْ عليها عقودٌ طويلة ، وأصلحَ سريعًا ليصبح ملاذًا للهاربين من الجحيم . قال لهم : «أسرِعوا ، هناكَ عائلةٌ عالقة عليّ أنْ أعودَ من أجلهم» . لمح زياد ، هتف به : «أنت . . . ساعدْهم على أنْ

يدخلوا . . . سأذهب لأنقذ الآخرين» . كان قد ولج إلى القبو أكثر من عشرةِ أشخاص ، تدثّروا بما استطاعوا أنْ يلفّوه حول أجسادهم من البطّانيات والأغطية على وجه السّرعة . خبطَ بيده على كتف زياد : «مسؤوليّتك أنْ تُدخِلَ الباقين ، احرص على ألاّ تُشعلوا باتّجاه الباب أيّ ضوء ، الطّائرات تقصف كلّ ما هو مضيء ، لن أتأخّر ، سأذهب من أجلِ عائلتي وأعود سريعًا» . قفز من مكانه باتّجاه الشّارع ، كانَ يركض حانِيًا ظهره في حركةٍ أشبه بالزّحف أو بالتّسلّل . لم يبقَ أحدٌ من الّذين أرشدهم إلى المكان في الخارج . كانت الفوضى والرّعب قد سيطرا على وجوه أكثر الدّاخلين . تهامسوا بأصواتٍ مرتجّة : «ما الّذي يحدث؟!» . «قالوا إنّ طائرات الميج تحلّق في الجوّ» . «لم نسمع صوتًا لأيّ طائرة . . . هذا هراء . . . يبدو أنّها خُدعة» . لم يكدْ يُتمّ كلامه حتّى ارتجّتْ جنبات المكان ، كان صراخ الطّائرة قد شقّ الأجواء ، ألقتْ حمولتها في الجهة الشّماليّة من جورة الشّياح ، ومضتْ إلى هدفٍ آخر . أسكتَ الخوف كلّ من في القَبو . لم تكنْ هناك إلاّ بعض النّظرات المذعورة الّتي لاحتْ على وجه الرّجال قبل النّساء على ضوء بعض الهواتف النّقالة . من بعدها توالتْ عدّة انفجارات ، كان أكثرها يُسمَع من بُعد ، انفجاران بدا أنّهما قريبان جداً تساقطتْ على أثرهما حواف جدران القبو المتآكلة .

مضى اللّيل . انتظر المُختبئون أنْ يعود الرّجل الّذي أنقذهم ، لكنّه لم يعد . استمرّ الخوف في تقطيع أوصالهم . حينَ بدأ الفجر يشقّ سُدفة اللّيل كانوا قد بدؤوا يشعرون بالجوع وبالتّعب ، وبعضهم بضرورة الذّهاب إلى الحمّام . لم يكنْ في القبو طعامٌ ولا شرابٌ ولا مكانٌ لقضاء الحاجة ، فقط غرفةٌ محفورةٌ على عمق خمسة أمتار ، مربّعة ،

رطبة الجدران، وخانقة لولا بعضُ الهواء الّذي يدخل من شقوق الباب العلويّ. بدأ التّذمّر ينتشر بينهم، قال أحدهم: «إلى متى سنظلّ محبوسين؟!». «إنّه أدرى، حينَ يعود سيقول لنا متى سنخرج». «وافرضْ أنّه لم يعدْ هل سنبقَى منزرعين في هذا المكان الأشبه بالقبر؟!». «قليلاً من الصّبر يا جماعة». «إلامَ سنصبر؟! هل نصبر إلى نموت؟!». «إذا كُنّا سنموت على كلّ الأحوال فلنمتْ فوق الأرض لا تحتها... لنمتْ بعد أن نستنشق شيئًا من الهواء!!». «المكان في الخارج خَطِر وأنا لا أنصحكم بالخروج الآن لننتظر حتّى تشرق الشّمس على الأقلّ». سُمِعتْ أصواتُ بكاء لم يعرفْ أصحابها، تعالتْ بعض الأنّات، وانفجرَ بعضهم بالنّحيب، كانوا أطفالاً. تشكّلتْ علاقةٌ من نوع غير مألوف بين الّذين أووا إلى الملجأ، إنّها علاقة الأزمة، علاقة المكان الّذي يجمع الخائفين، وعلاقة الهدف الّذي يرنوا إليه الجميع؛ هدف الهرب من الموت والبحث عن خيارات ممكنة للنّجاة.

تسلّلتْ خيوط الشّمس عبر الشّقّ، لم يظهر الرّجل الّذي أنقذهم ووعدهم بالعودة ألبتّة، قال زياد: «سأخرجُ أنا، وأستطلع الأمر، وسأتيكم بالخبر، أعرف أنّكم لن تحتملوا أكثر». تلمّس أكثر مَنْ في القبو أجسادهم، لم يُصدّقوا أنّهم مازالوا على قيد الحياة بعدما كاد القبو ينهار عليهم فيموتوا تحته، بعضهم بحث في وجوه الموجودين عمّنْ يخصّه، الأمّ بحثتْ عن أولادها، والأب عن ابنته، وبعضُهم راح يتصنّع الهدوء ويبحث في جيبه عن شيءٍ يُؤكل ليُسكت به بكاء الأطفال.

فتح زياد الباب، أطلّ برأسه على العالَم الخارجيّ، كانت الشّمس قد أرسلتْ أشعّتها فغمرت المكان، من بعيد في الجهة الشّماليّة لمح

أعمدةً من الدُّخان لم تزلْ تتصاعد ، كان صفّ العمارات يقع في الجهة الشّـرقـيّـة ، أراد أنْ يقطع الأرض الشّـائكة ليـصل إلى الشّـارع ، حينَ اقـتربَ شمّ رائحـة حريق ، قدّر أنّ بعضَ النّيران قـد نشبت في بعضِ الشّقق ، ارتجفتْ ساقاه ، همّ بأنْ يصرخ على أحدٍ ليسمعه ، لم يكنْ في الحيّ حيّ ، كـان سـاكِنًا سكون الموتى ، وهادِئًا هدأة القـبـور! صار على بضع خطوات من الشّارع ، خاف أنْ يكون بعضُ المسلّحين يجوبون فيه فيصيبه أحد القنّاصة ، ليسَ مُستعداً للموتِ الآن ، ولم يكنْ مستعداً له في السّابق . اختبأ خلفَ أحد جدارن العمارات الشّاهقة ، أطلّ برأسه إلى الشّارع ، توقّف قلبُه فجأة ، لم يحتمل ما رأى ، كادَ يُغمَى عليه ، اتّكأ على الجدار بجسده الثّقيل ليتفادى السّقوط من هول المنظر ؛ كـان الرّجل الّذي أنقـذهم مُلقًى على الأرض هو وزوجتـه وطفلاه ، كانوا مُبعثرين في وسط الشّارع أشلاءً ، وحولهم بركةٌ كبيرةٌ من الدّماء قد اختلطت بالتّراب والصّخور الّتي أحدثها انفجار الصّاروخ بهم . ركضَ زياد باتّجاه بيتِ عمّه ، حملَ ما استطاع من البطّانيّات معه ، ونزل عائدًا إلى الجُثث ، لم يعرف وهو يجمع الأيدي المبتورة ، والأرجل المتناثرة لِمَن هذه اليد أو تلك السّاق ، أو ذلك الحذاء . ساعده بعضُ من خرجوا من القبو ، حفروا لهم قبرًا جماعيًا في الأرض الخالية ، ودفنوهم فيها . لم يكنْ أحدٌ من الحيّ بعد الانفجار يعرفُ عن هذا الرّجل الّذي أنقذهم شيئًا ، كانَ يمكن أنْ يتعرّفوا على وجهه قبل أنْ يسقط شهيدًا ، كانَ يُمكن أنْ يقولوا إنّه أحدُ الغرباء الّذين مرّوا بالحيّ ، وأقاموا فيه قبلَ فترةٍ قصرةٍ بحثًا عن الرّزق له ولعائلته الصّغيرة ، لكنّ أحدًا لم يكنْ متأكّدًا من شيءٍ ، كان له هويّة ضائعة قبل أنْ يمزّقه الصّاروخ ، ولم يعد له أيّة هويّة بعد ذلك ، هويّته الوحيدة : رجلٌ

مجهولٌ اقتحمَ عددًا من البيوت بعد منتصف اللّيل في جورة الشّياح وأنقذ أرواح ساكنيها، هويّةٌ أخرى يُمكن أنْ تُعرّف به: عائلةٌ ما في شارع ابن زيدون قُتِلت اللّيلة الفائتة، ودُفِنت في الأرض الفارغة الّتي تقع خلف العمارة المنكوبة!! تكرّر ذلك فيما بعد كثيرًا، هكذا كانوا يُعدّدون القتلى، ويحصون الفائتين!!

قبل شهور من تلك الحادثة كانت قد اجتاحت البلاد مظاهراتٌ عارِمة. خرجَ النّاس بالآلاف إلى الشّوارع، في حمص كان تجمّعهم المشهود في السّاحة التّاريخيّة عند ميدان السّاعة، وفي المكان إيّاه الّذي رأى فيه زياد حنين وأمّها في زمنٍ بعيدٍ يشتريان من بائع الذّرة المشويّة كانت المنصّة تُعقَد للخطابات والأناشيد، وكان بائع الذّرة نفسه هو الّذي يتولّى أمر الهتافات. اتّصل به شادي في إحدى تلك اللّيالي: «العالَم فوق بعضها... تعالَ إلى هنا ننتظرك أنا وليث». أجابه: «لديّ عائلة ومسؤوليّة ولا أستطيع». كان قد تفاجأ ببردّة فِعله: «لم أتوقّع منكَ ذلك، كلّنا لدينا عائلات، الحرّيّة تحتاج بعضَ التّضحيات». فردّ عليه بكلّ برود: «لستُ مستعداً أنْ أُسجَن من أجل المطالَبة بحرّيّة زائفة». «لستُ أصدّق ما أسمع!!». «عن أيّ حرّيّة تتحدّث... النّاس عايشة، لا أحد أكبر من الدّولة». «الدّولة؟! قريبًا ستأكلك كما أكلتْ سواك».

بعد ما يقرب من أسبوع من حادثة القصف، اصطفّتْ أمام الزّاروبة الّتي تنتهي إليها المنجرة وبيتُ أبيه خمسُ سيّارات تابعة لقوّات الأمن الدّاخليّ تحمل عشرين عنصرًا، اقتحم عشرةٌ منهم المنجرة، فيما بقي العشرة الآخرون يغطّون المدخل والزّوايا لإضاعة أيّ فرصةٍ على المطلوب للهرب. كانَ وقتها مع أبيه وعامِلَين آخرَين

يستعدّون لتجميع قطع خزانةٍ من ستّة أبواب ، تركَ الأربعة ما في أيديهم حَذِرين ، تراجع زِياد ، أحسّ أنّ الأمر له علاقةٌ برفيقَيه ، فكّر سريعًا في وسيلةٍ للنّجاة ، لكنّه أدركَ أنّ أيّ محاولةٍ لذلك تعني الموت . في دقائق كانت السّيّارة الّتي تحمله تُطلق بوقَها ، وتغادر المكان مع بقيّة العناصر إلى الفرع .

من زُجاج السّيّارة بدا العالَم ذاهِبًا إلى الجنون الصّامت ، كانت الشّوارع خاليةً كرأسٍ بلا عقل ، أينَ ذهبَ النّاس؟! البردُ؟! لكنّ البرد وحده لا يقتل النّاس ، لا بُدّ أنّ هناكَ بردًا من نوع آخر . شعر بأنّ هبّات الهواء القادمة من أطراف النّافذة تنفذ كالسّكاكين إلى أطرافه ، رجلاه كانتا باردَتَين لدرجة أنّه لم يعدْ يستطيع تحريكهما . ما الّذي جعل البرودة تزور قلبه في تلك اللّحظات ، وتُنهك جسده ، وتقضي على طمأنينته؟! دارتْ برأسه صورة العائلة الّتي سقطتْ قبل أيّام في شارع ابن زيدون ، هتفَ في أعماقه : «العالَم مجنون ، لا بُدّ أنّ لوثة الجنون قد سكنت البلاد ، أنا متأكّد من أنّ فيروسًا في الجوّ الآن اسمه فيروس الجنون والخوف ينتشر في كلّ سوريّة ولا يكاد ينجو منه أحد» . شتمَ اللّحظة الّتي تحوّلتْ فيها البلاد إلى حفنةٍ من المجانين ، وحفنة أخرى من الضّحايا . . . تذكّر الأيّام الورديّة في الحبّ ، كانت سوريّة وقتها غير سوريّة اليوم ؛ ما الّذي تغيّر؟! ما الّذي حدث فجأةً وبهذه السّرعة فقلبَ الأمور إلى ما لا يُمكن توقّعه؟! سمع أنّ البداية كانتْ من أطفال حمقى في درعا ، لعنهم في سِرّه ولعنَ آباءهم ، أيُعقَل أنّ مصير دولةٍ بعظمتها وشعبٍ بأكمله يكون في يد بضعة أطفال معاتيه!! ألم يتربَّ هؤلاء على حبّ سوريّة؟! أينَ ما كانوا يصدحون به في مدارسهم من النّشيد الوطنيّ . . . يا للسّخرية . . . يا للسّخرية . . .!!

قطع عليه حبل أفكاره أحد العناصر وهو يفتح باب السّيارة ويشدّه من شعره، ثُمّ يركله صارخًا فيه: «من هون يا حمار». قال لنفسه وهو يجاهد في أنْ يتغلّب على الألم الفظيع الّذي حزّ رُسغَ يدَيه المُقيّدَتين خلفَ ظهره: «البلد مجنونة والمواطنون حمير».

نزل أكثر من أربعة طوابق تحت الأرض، بدأت العتمة تتنشر بعد عبور الشّاحط الأوّل من الدّرج. أضواء شاحبة جداً لا تحمي النّازل من التّعثر. ظلّ ينزلُ درجًا بعدَ درجٍ حتّى شعر أنّه سيصل إلى الجحيم، وقد كان الجحيم فعلاً بانتظاره.

صرّ باب الزّنزانة المُخيفة، رُكِل على قفاه، ومن جديد صاحَ به الضّابط: «من هون يا حمار». كانت الزّنزانة الّتي لا يزيد طولها عن أربعة أمتار وكذلك عرضها قد انحشر فيها ما يقربُ من خمسين مُعتَقلاً. زجَّ بنفسه بينهم، لم يسمحوا له بأنْ يبتعد إلى الطّرف الآخَر من الزنزانة، كان الطّرف الأبعد هو الطّرف الأدفأ، وهو مُخصّص للقُدامَى. لم يكنْ بعدُ قد استوعب تمامًا ما حدث. لم يكنْ بإمكانٍ أحد أنْ يجلس لضيق الزنزانة وكثرة العدد، نظر في وجوههم، بدوا موتَى لولا صدورهم الّتي تعلو وتهبطُ ببطء، بعضهم من الإرهاق وطول التّعذيب ألقَى بصدره على كتف الواقف إلى جانبه وراح يحاول أنْ يحظى بغفوةٍ ولو خاطِفة، فتفرّ الغفوة من عينيه كلّما نبتَ الوجع من أقدامه المسلوخة أو من أطرافه المشلوخة. ثقبَ الرّعب قلبه وهو يرى نفسَه محاطًا بهذه المجموعة من الهالِكين. رأى بعضم بلا ثياب، آخرين لم يكونوا يلبسون إلاّ ما يستر نصفهم الأسفل. كان البرد يأكلُ يُجمّد كُلّ شيءٍ وما تبقّى من أنفاسٍ في صدورهم، تسلّل من بينِ الأجساد الواقفة حتّى وصل إلى الجدار الأيمن للزّنزانة، كان أحدهم

يلقي رأسه بشكلٍ مائلٍ على الجدار وهو يهذي ، كان عاريًا تمامًا ، فتحَ عينَيه ، رآه ، هتف بصوتٍ ضعيف لا يكاد يُسمَع : «أنا عطشان . . . جوعان . . .» مدّ لسانه بصعوبة يريد قطرةَ ماء ، لكنْ لم يكنْ أحدٌ لينتبه له ، كان كلّ واحدٍ فيه ما يشغله عن الآخَر ، سَمِعه يقول من جديد : «أعطني الكنزة» . نظر إلى نفسه ، كان لا يزال يلبس ملابسَ العمل ، نظر إلى الآخَرين ، فأدركَ مباشرةً أنّه أكثرهم نعمةً وحظًا . سمع صوتًا آخَر من خلفه ، يشير إلى ذراعه كانتْ مكشوطة ، وكانتْ ثياب زياد تحتكّ بها فتزيد من آلامه الفظيعة . نظر إلى الأوّل ، كان يحاول أنْ يكوّر يديه عند بطنه ليشعر بشيءٍ من الدّفء . خلعَ زياد كنزته ، همّ بأنْ يُلبِسها له ، نظرَ في عينَيه كانتا جامدَتَين لا تتحرّكان ، جسّ جسمه ، كان باردًا جدًا ، وضع الكنزة يريد أنْ يدخلها في رأسِه ، نقره الّذي خلفه بإصبعه في ظهره ، التفتَ إليه ، رآه يحرّك إصبعه كأنّما يقول له : «لا» . لم يفهم إشارته ، أدنَى رأسه من أذنَيه ليسمع همساته ، سمعه يقول : «لا تتعب نفسك ، لقد مات!!» .

في الصّباح بدؤوا التّحقيق معه : «نعرف أنّكَ لستَ من المخرّبين ، لا نريد أكثر من أنْ تُخبرنا عن ليث أينَ هو الآن» . «لا أدري ، آخر علمي به يوم زفافي» . «وشادي» . «أينَ سيكون في محلّه بالطّبع» . «هل تتعاون معنا أمْ تريد أن تعود إلى الزنزانة وتبقى فيها إلى أن تموت» . «أموت؟! لا . . . بالطّبع سأتعاون معكم» . «وزوجتك؟!» . «ماذا بالنّسبة لها؟!» . «هل تريدُ أنْ تبقَى في أمان» . «بالطّبع!!» . «سنتّفق إذًا ؛ لدينا خُطّة ، وعليكَ أن تنفّذها بكلّ تفاصيلها» .

(٢٤)
أفظع ما حدث لنا هنا... هو الحرب

رجع إنسانًا آخر لهول ما رأى . قال لأبيه وهو ينظر حوله كمن يخاف أنْ يكشفَ سِرَّهما أحدٌ : «حي الوعر لم يعدْ آمِنًا يا أبي ، عليكَ الانتِقال معي أنتَ وأمّي إلى بابا عمرو» .

كانَ صوتهُ في صلاة التّراويح يأخذ بالألباب ، يُدمع العيون ، ويُبكي القلوب ، كانَ شجيًا بذاته فكيف وقد أضافَ الحزن الّذي غزا البلاد إليه شجنًا جديدًا . لم يتخلّف أبو ليث عن الإمامة في المسجد منذ ثلاثين عامًا ، ولا قبلَها بخمس سنوات حينَ كان مؤذّنًا فيه ، كان يسكنُ آنذاك في الحميديّة ، ويستقلّ سرفيس دير بعلبة الّذي يمرّ شارعه قريبًا من الحيّ ، ويمشي ما تبقّى من مسافةٍ على قدمَيه ، حافظَ على التِزامه هذا طوال حياته ، لم يثنه عن ذلك صيفٌ حارٌّ ولا شِتاءٌ بارد ، كانَ يقرأ القرآن على المقامات ، وفي السّنوات العشر الأخيرة سكن في سَكَنِ الإمام على نفقة وزارة الأوقاف .

كانَ النّاس يتقاطَرون أفواجًا في رمضان من ذلك العام ، الحرب تدفع بالنّاس إلى أقصى طرفٍ في مشاعرهم ، مهما كانت تلك المشاعر ، من دينٍ أو إلحاد ، من حزنٍ أو لا مبالاة . منظر القادمين عبر الشّوارع والأزقّة من الشمالً من شارعً السلّميّة أو من الجنوب من شارع خالد بن الوليد أو من الشّرق من شارع وادي السّايح أو من الغرب من شارع فارس الخوري لا يُنسَى . . . يسيحون في الشّارع إلى المسجد بحثًا

عن الله الّذي سينقذهم من الحرب الّتي لا ترحم . . . بحثًا عن الطّمأنينة ولو كانتْ مؤقّتة في بضع ركعات ، وهربًا من الاحتِمال المُفاجِئ للموت في الشّقق أو في الشّوارع برصاصة قنّاصة أو بانفجار عبوة أو بصاروخ طائش . . . كان بيتُ الله ملاذ العائذين به من الجحيم ، كان كلّ من يدخل المسجد يشعر بالأمان ، ويعتقد أنّ الموتَ يأخذ استراحةً فيه من اللّهاث وراء الأرواح الّتي يلتقطها في كلّ مكانٍ غير هذا . . في الأسواق ، في غرف النّوم ، في عيادات الأطبّاء ، في الملاعب ، في المستشفيات . . . وحتّى في المقابر .

كان أبو ليث يقرأ من سورة الأنبياء ، لم يثنِه عن إتمام الصّلاة أصوات الطّائرات الّتي كانتْ تحلّق في الجوّ في اللّيلة الرّابعة عشرة من رمضان ، واطمأنّ هو والمُصلّون إلى أنّهم في كنف الله ، ولا يتعدّى على بيتِ الله إلاّ مَنْ أرادَ أن يُعلنَ الحربَ على الله ، وأنّى لأيّ قوّة طاقةٌ بذلك!! حتّى إذا وصل في القراءة إلى قوله تعالى : «كُلّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشّرّ والخيرِ فِتنةً وإلينا تُرجَعون» ولم يكدْ يُتمّ المدّ في الكلمة الأخيرة حتّى انفجر صاروخٌ في الجانب الشّمالي من المسجد . أصابَ المئذنة ، والجدار الّذي يليها ، وحفر حفرةً عميقةً هناك . تطايرتْ أجسادُ المصلّين وتناثرت الحجارة المُهدّمة ، وتداعتْ أركان المسجد الأخرى ، وهوت على مَنْ تحتها ، وغطّى الرّكام الأشلاء ، وعلا الصّياح واللغط ، وتدافع مَنْ كُتِبتْ له النّجاة ليهرب من الأبواب ، وقضى كثيرٌ منهم تحت الرّدم ، وراحتْ صرخات المستغيثين تتعالى من تحت الأنقاض ، وارتقى في ذلك نصفُ المُصلّين شهداء ، ومن نجا نجا بجروحٍ بليغةٍ وبآثار نفسيّة لا يُمكن أنْ تُمحَى مع الزّمن .

كانتِ المئذنة في الخارج قد أصيبتْ في ثلثها الأعلى من جذعها

السّامق ، فانحنى الهلال ، وجثا الرّأسُ على الأرض ، وركع الثلث ليتكوّم بحجارته البيضاء إلى جانب الضّحايا الّذين لم يمهلهم الموت ليهربوا فأراحوا أجسادهم المبعثرة حولها .

بعدَ أسبوع قُصِفَ في العشر الأواخر مسجدٌ آخر ، وقبلَ العيد اعتقلوه ، وقالوا له : «الإرهابيّون موجودون في أحياء حمص السّبعة ، وكثيرون منهم من أولئك الّذين درسوا معك في المدرسة ، إذا لم تكنْ صادِقًا في حُبّك لوطنك ؛ فإنّ زوجتك لن تكون بمأمنٍ أبدًا» .

هدأتْ حمص من بعدُ أو هكذا بدتْ ، هربَ كثيرٌ من النّاس إلى الحدود ، عبروا شرقًا باتّجاه لبنان ، وآخرون جنوبًا باتّجاه دمشق ، وبعضهم غادر إلى الأردنّ ، المدينة الّتي كانت تضجّ بالحياة والنّاس بدأتْ تتحوّل تدريجيًا إلى مدينة أشباح ، صارت الأحياء نُسخًا مُتشابهة من الصّمت المُطبِق والوجه الواجم والحزن المتخثّر والبيوت الخاوية والعمارات المنكفئة والشوارع المليئة بالقطط والكلاب ، قليلون هم الّذين ظلّوا في مساكنهم وإنْ ظلّ طيفُ الموتِ يحومُ حولهم يكاد يقتنصهم في أيّة لحظة .

كان رمضان قد بدأ يودّع بما تبقّى من أهل المدينة ، وأطلّ العيد برأسه خَجِلاً من خلف زحمة الأحداث ؛ ماذا يُمكن أنْ يحمل لليتامى والثّكالى والأرامل والمُعتقلين والمُطاردين والمُهجّرين ، وهو لا يملك إلاّ وشاحًا أبيض يقطر حُزنًا ، وعينًا منكسرةً تقطر دمًا!!

إنّها ليلةُ العيد ، وزوجته تنهمك في إعداد المعمول وخَبْز أقراص العيد ، بعضُ المحلاّت اليتيمة الّتي فتحتْ في تلك اللّيلة ، كانت مع الحُزن تبحثُ عن مساحةٍ للفرح ، وتهرب إلى مكانٍ للحياة . . . كانت هذه المحلاّت قد غالبتْ طوفان الموت برائحة المعمول الحمصيّ المميّز ،

أكثر شارع احتفلَ بليلة العيد - كأنّ الموت قد أخذ إجازةً طويلة من نهش المُهيّئين لمغادرة وجه الأرض إلى باطنها أو إلى أيّ مكانٍ آخر - كان شارع الخراب ، كانَ قبلَ الحرب شارعًا عامرًا بالحبّ ومُفعمًا بالحيويّة ، وصار بعد الحرب اسمًا على مُسمًّى . لكنّ صفًا من المحلاّت راحتْ تعرض ما صنعت من المعمول والحلويّات والسّكاكر والمُطبّقات والملبّسات على واجهاتها .

في تلك اللّيلة الأخيرة من رمضان كان زياد قد دعا حماه وحماته إلى أنْ يُفطروا تلك اللّيلة عنده ، وتشجّعتْ أمّ حنين لكي تُساعد ابنتها وتلتقي بأمّ زياد الّتي زادت الحرب أمد البعد والقطيعة فيما بينهما . كان البيت يفتح كوّةً في جدار اليُتم لينفذ إلى البهجة ، شيءٌ ما لم يكنْ طبيعيًا يظهر في مِسحة الوجوه ؛ اصطِناع الفرح أصعب دورٍ يُمكن أنْ يُجبر المحزون عليه نفسه ، قلقٌ وخوفٌ وحذرٌ وترقّب يختبئ خلف قشرةٍ رقيقة من التّظاهر بالانهِماك في الإعداد لليلة العيد البهيّة .

كُنّ يجلسْنَ في المطبخ إلى طاولةٍ قريبةٍ من الفرن الّذي يعمل بالغاز والمُعدّ لمثل هذه المُناسبات ينهمكْن في إعداد العجينة ، وخبزها ، وتهيئة الحشوة من التّمر المعجون بالزّيت والقزحة وبعض الإضافات الأخرى . وإعداد لقن عجينة الأقراص ، وغلي القهوة في دلاّت كبيرة مُهيّئة لهذه الأغراض . اصطفّتْ حبّات المعمول في سدر واسع بشكلٍ مُرتّب ، وأُدخلتْ إلى الفرن الملتهب ، وتُركت دقائق لتخرج حمراء ناضجة شهيّة تفوح منها رائحةٌ زكيّة ، أمّا الرّجال فكانوا يجلسون على الشّرفة يتذاكرون عقودًا من العمر مضتْ ، ويسترجعون أحداثًا مفرحةً وأخرى مُحزِنة . كانتْ حنين قد فرّغتْ القهوة العربيّة السّادة من الدّلاّت وملأتْها في ترمسات خاصّة ، همستْ أمّها في أذنها : «لا أحدَ

أولى بأنْ تُقدّمي له هذه القهوة اللّذيذة الّتي صنعتِها أكثر من عمّك» .
في طريقِها من المطبخ إلى الشّرفة ، كان زياد يقف على باب غرفة النّوم يُتابِعها بنظراته ، استوقفها في منتصف المسافة ، أخذها من ذراعها إلى داخل الغرفة ، هناكَ نظرَ في عينَيها عميقًا ، كانَ يبدو خائفًا . همّتْ بأنْ تسأله عن سبب ارتِجافته ، لكنّها آثرت الصّمتَ على عادتها . قال لها وأنفاسه تتلاحق : «اسمعي يا حنين ، لقد قاتلتُ بالفعل من أجلك عشر سنوات لأحظى بقلبك ، وربحتُ في تلك المعركة ، لكنّني لستُ مستعداً اليوم أنْ أخسركِ في معركةٍ سخيفة لم نُدخلها إلى بيوتنا وحياتنا ، بل دخلتْ رغمًا عنّا» . انتقل ارتِجافُه إليها ، كاد فنجان القهوة يسقط من يدها ، تابع وهو يواصل النّظر في عينَيها : «النّاس خسرتْ في جورة الشّياح بيوتها ، وخسرتْ في الخالديّة ، وخسرتْ في كلّ مكان ، لكنّني لا أستطيع تحمّل خسارتك ولو لحظةً واحدة» . لم تعدْ ارتِجافاتها تحميها من شيء ، سقط الفنجانُ من يدها وانكسر ، أحدث انكِساره صوتًا مسموعًا ، مدّت أمّ زياد عنقها إلى باب المطبخ ، وسألتْ مستطلعةً : «ماذا حدث؟! يا أولاد ماذا هنالك؟!» . ردّ عليها زياد مُطمئِنًا : «لا شيءَ يا أمّي . . . شيءٌ بسيط» . أكمل نظراته الثّاقبة ينفذ بها إلى عَينَي حنين وروحها : «الوطن . . . أعني . . . الوطن . . . نعم . . . أعني يُمكن أنْ أخسر الوطن لكنّني لن أخسرك ، ليذهب الوطن إلى . . . أستغفر الله . . . أعني . . . أعني أنتِ وطني . . . ليُسامحْني الله على كلّ ما فعلت . . . المهمّ أنتِ . . . يرتكب الإنسان في حياته فظائع . . . لكن . . أفظع ما حدث لنا هنا . . . هو الحرب . . .» تلعثمتْ كلماته ، وتعالتْ أنفاسه . ظلّتْ تنظر إليه بخوفٍ وهي تبلع ريقها ، لم تقلْ كلمةً واحدةً ، أطلقَ يدها بضيق ، وهتف وهو

يُشيح برأسه إلى الجهة الأخرى : «اذهبي . . . لن أسمحَ لأحدٍ أنْ يمسّكِ بسوء» .

عادتْ إلى المطبخ ، لتتناول فنجانًا آخر ، كان بطنُها قد تكوّر أمامها بشكلٍ واضح ، ضاق نَفَسُها وهي تنحني لتلتقطَ فنجانًا جديدًا ، استغلّتْ أمّ زياد وجودها قريبةً منها وهمستْ في أذنها : «في السّابع ولا في الثّامن؟» . ردّتْ بخجل : «في الثّامن يا عمّتي» . همستْ من جديد : «هل اتفقتما على تسميته؟!» . «الأمر عند زياد ، هو من سيقرّر» . أخذتْ عددًا من الفناجين ، وعبرتْ باتّجاه الشّرفة . انحنتْ لتسكبَ الفنجان الأوّل لعمّها ، كانَ هناك ضوءٌ لامعٌ في الأفق ، بدأ يقتربُ بسرعة ، ظنّتْه من أضواء الاحتفالات بليلة العيد ، لكنّه كانَ ضخمًا ، ضخمًا إلى الحدّ الّذي يمكن أنْ يُعشي العيون ، ولا يتركُ لك فرصةً لتستمتع بأصواتِ فرقعته!!

(٢٥)

أيّها الموتُ القاسي، قليلاً من الرّحمة

لم يُرَ بعدَ الضّوء اللاّمع شيءٌ، صرخةٌ مدويّة مُشبعةٌ بالهلع كانت آخر ما سُمع ؛ هي صرخة زياد : «اهربووا . . . إنّه صاروووخ» . لم يكنْ أحدٌ من الّذين سمعوه بعد أنْ أكمل صرخته قد ظلّ واعِيًا ، كانوا قد صاروا في عالَم آخر . سقط الصّاروخ في الطّابق الرّابع من البناية ، اخترقها وحرقَ كلّ مَنْ هُناك ، بعضُ شظاياه سقطتْ في الشّارع ، وبعضُها ظلّ في الهَدْم الّذي أحدثه في ذلك الطّابق ، توالتْ انفجاراتٌ أخرى . الشّظايا كانتْ تنفجر هي الأخرى ، استيقظ أكثرهم على أثرها ، كان زيادٌ أوّل من استيقظ ، سُمِعتْ أصواتٌ عالية على الدرّج ، وخطوات عجلى تهبط وأخرى تصعد . نظرَ حوله لم يفهمْ شيئًا ، كانتْ أطباق المعمول قد تناثرتْ على بلاط المطبخ ، وأقراص العيد قد اختلطَت بالدّم والدّخان ، ومياه كثيرة سوداء وحمراء تملأ الأرض . أبوابٌ مُخلّعة ، ونوافذ مكسورة ، وشظايا زُجاج في كلّ مكان . استطاع بصعوبة أنْ يمدّ ساقَيه ويجلس ، كانتْ خطوط الدّم تملأ وجهه كأنّها ينابيع تتفجّر في كلّ اتّجاه ، راحتْ لحيته تقطر بالدّم من أسفلها ، وشعره الكثّ يتلبّد من كثرة الدّم السّائل فوقه . لم يتبيّن أحدًا من الّذين كانوا معه لا زوجته ولا أخته ولا أمّه ولا أباه ولا عَمّيه . كان هناك أناسٌ يصعدون وآخرون يهبِطون . صوّتت سيّارة الإسعاف في أسفل البناية ، نزل منها عددٌ من المُسعفين ، تولّى فريقٌ منهم إخلاء

الطّابق الأوّل والثّاني من الموجودين فيه ، كان زياد والعائلتان يحتلان شقّة من شقق الطّابق الثّاني .

خلال ربع ساعة أخلِي النّاجون إلى قَبو أسفلَ العمارة ، ورُحّلت الجُثث في السّيّارات . كان الهلع يرتسم على الوجوه ، والدّماء تختلطُ مع التّراب والغبار الأبيض الكثيف النّاتج عن تهدّم الجدران والأسقف . كان نصفُ النّاجين الّذين جُمّعوا في القبو يقفون على حافّة الموت ، لم يكنْ معهم من المُسعفين إلاّ اثنان ، راحا يتناوبان بسرعة لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه من الأرواح .

ظلّ زياد ينظر من حوله بعيون فارغة ، كان الظّلام كثيفًا ، والضّوء لا يظهر إلاّ في أيدي المُسعِفين ، ونورٌ آخَر ينصبّ من نافذةِ تهويةٍ عاليةٍ وبعيدةٍ في الطّرف الآخر ، ظلّ يقلّب نظره بذعر ، لم يكنْ يدري ما حدث ، فقد ذاكرته بعد الانفجار ، دارَ بباله ألفُ سؤال عن المكان الّذي هم فيه ، ومن أوصلهم إلى هنا ، كان مُمدّدًا على جنبه يرتكز على مرفقه ، يحاول أنْ يفهم شيئًا ، حاول أنْ يستند فآلَمْته رِجله ، بدأ الألم يستيقظ ؛ تحسّسها بصعوبةٍ بالِغة ، أدركَ أنّها مكسورة ، بدأ الألم يُعيده تدريجيًا إلى اللّحظات الأولى ، كان صوتُ المُسعِفين وأحدهما يُنادي على الآخَر قد تمكّن من إعادته إلى ذاكرته تمامًا ، تخيّل لحظة الضّوء اللامع والصّاروخ القادم نحوهما ، هبطَ الهلع عليه فجأة ، راح يبحثُ بعينَين نَهِمَتَين عن زوجته . . . صاح بالمُسعِفين أعطني الضّوء ، لم يردّ عليه أحدٌ ، تصاعدَ نَهَمُه وهَلَعه ، صرخ بصوتٍ عالٍ : «حنين . . . حنين . . .» . لم يسمع غير أنّاتٍ تتجاوب هُنا وهناك ، انفجر من الغيظ وهو يصرخ : «أضيئوا لنا المكان . . . هيّا . . . لسنا حيوانات» . هُرِعَ إليه أحد المُسعِفين يحاول تهدئته : «ها هم في الطّريق

ومعهم المُولّدات» . «من هؤلاء . . .؟!» . «المُسعِفون ، نقلوا جُثث الموتى إلى المستشفى تمهيدًا لدفنها ، وأنتم سيؤمّنون لكم مأوىً مؤقّتًا هنا ، معهم الضّوء والطّعام والشّراب . . . لا تخفْ لقد نجوتم» . «أريدُ أنْ أسأل عن عائلتي ، مَنْ ظلّ منهم حيًّا؟!» . «لا ندري ، اصبر قليلاً وستتكشّف الأمور» .

ظلّتْ طائرات الميج تذرع السّماء حتّى ساعةٍ متأخّرة من اللّيل ، تتبع كلّ ضوءٍ يتحرّك ، وترصدُ كلّ مَنْ يتنقّل من مكانٍ إلى آخر . كانت صفوفٌ كاملة من البنايات في حيّ بابا عمرو قد سُوّيتْ بأكملها بالأرض . دخلتْ سيّارات الإسعاف الحيّ ، تهادتْ بين الطّرق المحفّرة ، وأنقاض الحجارة كانت قد عادتْ إلى مَنْ تبقّى لكي تنقذهم من الأقبية والشّوارع والبيوت .

توجّهتْ واحدة من السّيّارات إلى القبو الّذي فيه زياد ، ساد الظّلامُ الدّامس ، الكهرباء انقطعتْ عن الحيّ بأكمله ، كان بعضُ المُسعفين يحمل مولّدات سريعة التّشغيل ، ركز ثلاثةُ مصابيح في الزوايا الثّلاث البعيدة عن زاية فتحة التّهوية ، وفي الحال انتشر الضّوء في المكان . كان القبو عبارة عن مساحةٍ مفتوحة كبيرةٍ لم يكتمل بناؤه ترقد تحت إحدى البنايات . اتّكأ زيادٌ على ساقه السّليمة وراح بما استطاع من قدرةٍ على تحمّل الألم يجرّ ساقه المكسورة ، كان يصيح بصوت جنونيّ : «حنين . . . حنين . . . ليلاس . . . ليلاس . . .» . لم يستجبْ لندائه أحدٌ ، كانتْ بعضُ العيون تتطلّع إليه من خلال محاجر غطّاه الدّم والفزع ، جرّ رجله مسافةً أبعد ، لكنّ الألم الّذي عاناه في رجله المكسورة لم يكنْ يُطاق ، لم يحتمل أنْ يسير خطوةً واحدةً أخرى ، فارتمى على الأرض ، مرّتْ دقائق كأنّها سنوات ، كانت طائرة

الميج لا تزال تحلّق في السّماء، صوتُها كانَ يقتربُ أحيانًا ويبتعد أحيانًا أخرى، سمع في النّهاية صوتًا بشريًا مألوفًا، تسلّل الصّوت من يمينه، إنّه يُشبه صوتَ أبيه، لكنّه يبدو مخنوقًا، هل من المعقول أنْ يكون هو؟ نظر جهة الصّوت فرأى أباه بالفعل، كادَ يبكي لكنّه غالبَ دموعه حتّى لا يبدو ضعيفًا في موقفٍ لا يستجلبُ البكاء، بل يستجلب منابع النّحيب أنّ تتفجّر، سمعه مرّة أخرى يقول: «نحن هنا». أدار جذعه، ومن خلال كمّيّة الضّوء استطاع أنْ يلمح أباه وعلى مقربةٍ منه أمّه وليلاس وأمّ حنين وأباها. كانوا مُصابين جميعًا. حاول أنْ يمشي جهتهم لكنّه لم يستطع. سأل أباه وهو يكزّ على أسنانه من الوجع: «وحنين؟!». أشار بيده: «إنّها خلفَنا». مدّ عُنُقَه، فرآها، رجفَ. كانتْ تسبح في الدّماء، وجهها الحنطيّ قد غطّتْه مسامير تفجّرتْ من بعض القنابل الّتي صاحبت القصف. كانتْ صامتة كعادتها، لكنّ عيونها كانتْ تقول ألفَ عبارةٍ وعبارة، لمعتْ من بين الدّماء والأضواء الخافتة كأنّها وجدتْ أخيرًا منقذها الحقيقيّ، ورأتْ جدارَها الحامي، زحفتْ باتّجاهه، كانتْ شظيّة أخرى قد دخلتْ إلى ظهرها فأصابتْها بالشّلل الجزئيّ، حاول أنْ يقرّب المسافة بينهما فانفلتتْ ساقه المكسورة حتّى كادتْ تمزّق شريط اللّحم وتنفصل عن الفخذ، كزّ على أسنانه من جديد، وصرخ رافعًا رأسه إلى الوراء ولم يستطعْ أن يتزحزح خطوة واحدةً، أمّا هي فواصلت الزّحفَ، كانتْ تُصوّب نظرها تُجاهه، وتمدّ أصابعها الهاربة من كفّها نحوه، كلّ إصبع يُسابق الآخَر في الوصول إليه، لم تلتفتْ إلى أبيها ولا إلى أمّها ولا إلى عمّها الّذي أحبّها أكثرَ من زياد، بل ظلّتْ تزحفُ ببطءٍ شديدٍ نحو من قاتلَ عشر سنواتٍ من أجلها، وكأنّها وهي تُصارع طوفانَ الموت القادم نحوها كانتْ تريدُ أنْ

تموتَ بينَ يدَيه فحسب، كانتْ تهتفُ في وجه الموت بصمتها المهيب: «ألا تستطيع أنْ تؤجّل قدومك لحظات أخرى حتّى أصلَ إلى مهجة الرّوح وأرتمي بينَ ذراعَيه، وبعدها افعلْ بي ما شئت... أيّها الموتُ القاسي، قليلاً من الرّحمة، لا في تولّيك عنّي، ولكنْ في إمهالك إيّاي من أجل موتة بين يدي الحبيب».

علا صوتُ الطّائرة المحلّقة، أدركَ زياد أنّ صاروخًا جديدًا سيدكّ البناية، سيّارة الإسعاف الّتي تزعق في الخارج ستكون سببًا في القضاء عليهم. واصلتْ هي زحفَها، تجاوزتْ عائلتها الّتي جاءتْ من صُلبها، وذهبتْ إلى الّذي بدأتْ معه ميلادَها، وتريدُ أنْ تُنهيَ معه أيضًا حياتَها. ظلّتْ عيناها وهي تنظر إليه، وتزحفُ على بطنها المتكوّرة تحتها ترجُوان الموتَ أنْ يتأخّر عشر ثوانٍ أخرى، لكنّه لم يستمع لرجاءِ عينَيها، حملَها بمخالبه الحديديّة ورماها بعيدًا، انفجر المولّد، شبّت النّار في المكان، وشاهدها تحترق هي وخالد طفلهما الّذي كان في بطنها!! وابتدأت المأساة الحقيقيّة!!

مرّ أسبوع، وأسبوع آخر من بعده، شهر، ثُمّ شهران... عُدّ ما شئت، ما الفائدة من عدّ الأيّام والشّهور إذا كانتْ في منطق الحرب سواء. ما الّذي سيتغيّر على الخريطة إنْ صبر النّاس شهرًا أو سنةً أو سنوات على هذه الحرب اللّعينة، لا شيء سيتغيّر ألبتّة، باستثناء أنّ الجثث المتراكمة أمام المستشفيات ستزداد، البنايات المُهدّمة ستتحوّل إلى مأوى للكلاب الضالّة والأفاعي الباحثة في ليالي الشّتاء عن دفءٍ معقول، الشّوارع ستصبح بلا هويّة، لا علامات يُمكن أن تميّز شارعًا عن آخر، الشّوارع في زمن الحرب لا أسماء لها، إنّها متشابهة إلى درجة أنّكَ لو دخلتَ أحدَها، ستجد نفسكَ في الآخر... النّاسُ بلا

وجوه، فقط وجوه الحزن واليأس واللامبالاة والكُفر بكلّ شيء!!

قال لأمّه بعد شهرَين من تلك الحادثة: «لقد صار بإمكاني أنْ أمشي... لم يعدْ بإمكاني أنْ أبقى هنا». «لَمَنْ تتركني أنا وأختك». «لا أدري.. مسؤوليّتي تُجاهها أكبر من أيّ مسؤوليّة أخرى». «نحنُ أيتام، وأنا ضعيفة، وأختك تستيقظُ فَزِعةً في اللّيل كلّما تذكّرتْ أصوات القصف، لمن ستتركنا وسطَ هذا العذاب؟!». «أحبّكما... لكنّني لا يُمكن أنْ أعيشَ في هذا المكان وعيناها تُطاردنانني». «عِشْ معنا في أيّ مكان آخَر». «لا أستطيع، اذهبي مع ليلاس إلى أخيك في دمشق، ما زالتْ دمشق بعيدةً قليلاً عن أشداق الموت». «كلّ هذا من أجلها؛ لقد رحلتْ...». قاطَعها: «لم ترحلْ؛ إنّها موجودةٌ معي في كلّ لحظةٍ، عيناها تقولان لي: كان بإمكانك أنْ تنقذني ولم تفعل، حينَ حملتُها بينَ يدَي كانَ كلّ شيءٍ فيها محترقًا، هل تعرفين ذلك الشّعور حينَ تحمل جسدَ أقرب النّاسِ إليكَ وقد أصبح متفحّمًا بأكمله؟! كلّ ما فيه أسودُ يابس، إلاّ عينَيها، كانتا ما تزالان حيّتَين، تنظران إليّ النّظرة نفسها... تستغيثُ بي... تخيّلي يا أمّي، كانتْ تُحبّني دون أنْ أدري، لماذا لم تقلْ ذلك قبلَ أنْ تموت، لماذا كانتْ خرساء على هذا النّحو الأليم...؟!». «لم يكنْ بإمكانك أن تفعل لها شيئًا يا حبيبي... كلّنا تألّمنا لما حدث... المصيبة واحدة... أرجوك لا تزدْ وجعي، أبوكَ رحل أيضًا، وعمّك وعمّتك، إنّها أقدار الله، وعلينا أن نعيشَ ما تبقّى لنا من عمر». «لم يبقَ لنا وطنٌ لكي نعيشَ فيه ما تبقّى من عمر يا أمّي... أتسمّين هذه الخرابات المبثوثة كالدُّمّل في كلّ مكانٍ وطنًا». «إلى أينَ ستذهب؟!». «إلى أيّ جبهةٍ للقتال... أُريدُ أنْ أقاتل... أريدُ أنْ أنتقمَ لها ولابني الّذي كان

يُمكن أن يكونَ بينَ ذراعيّ الآن لولا أنّ . . .» . ضمّتْه أمّه إلى صدرها : «برضاي عليك لا تتركنا وحدنا ، لم يعدْ لنا في الدُّنيا سواك» . قفزتْ ليلاس ذات الأعوام الثّمانية ، وتعلّقتْ بساقِ أخيها : «هل ستأخذني إلى المدرسة مرّة أخرى؟!» . قتلتْه العبارة ، هبطَ على الأرضَ ، قبّلها على خدّيها ، وضمّها بين ذراعَيها ، وراحَ يبكي . لم يُرَ باكِيًا من قبل مثل هذه المرّة .

منذ سنةٍ لم تذهبْ ليلاس إلى المدرسة ، ولم يذهب الآلاف مثلها إلى مدارسهم ، لم تعدْ هناكَ في حمص مدارس صالحة للتّعليم ، ولا في غيرها . الّذين فرّوا من جحيم القتال ، توجّهوا شمالاً إلى طرسوس ليلتحقوا بأندية مدرسيّة توفّر لهم بعض التّعليم المكثّف . أمّا هُنا فعليكَ أنْ تجتاز أكثر من عشرةِ حواجز لتصل إلى مدرسةٍ بعدَ ساعتين أو ثلاثٍ من التّفتيش والتّحقيق . تغيّر الوجه تمامًا ، رائحة الهواء تغيّرت ، لون السّماء تغيّر هو الآخَر ، وطعم الماء . . . كلّ شيءٍ تغيّر ؛ يا للحرب الغادرة ، سلبتْ من قلوب الأطفال براءتهم ، وسرقتْ من عيون الصّغار فرحتهم!!

«لن أتأخّر كثيرًا يا ليلاس ، سأذهب في بعض المهمّات شمالاً ، وسأعود» . تراجعتْ خطوةً إلى الوراء ونظرتْ في وجهه وقد ضيّقتْ عينَيها ، وقالتْ بغضب : «أنتَ تكذب . . . أنا أعرفُ أنّك لن تعود» . «صدّقيني سأعود . . . حتّى ولو لم يبقَ في البيوت أحدٌ سأعود ، حتّى ولو رحل الجميع إلى السّماء سأعود» . لكنّها هزّتْ رأسَها غير مقتنعة ، ثمّ راحتْ تضرب صدره بكلتا يديها الصّغيرتَين : «أنتَ كاذب . . وعدْتني أن تأخذني كلّ يوم إلى المدرسة وها أنتَ تُخلِف وعدك» . وقف على قدمَيه ، أدار وجهه إلى الجهة الأخرى ، وراح يُداري دموعه

المنهمرة فوقَ خدّه . نظرَ من خلال النّافذة ، تراءتْ له من جديد ، إنّه لا يُمكن أنْ ينسَى نظرةَ عينَيها في تلك اللّيلة المشهودة ، قد ينجح مرّة أو مرّتَين ، لكنّه لا يستطيع ذلك كلّ المرّات ؛ أمّه وأخته لا تفهمان ، ليتهما يُدركان العذاب النّفسيّ الّذي انغرز في قلبه ، جاءه صوتُ أمّه من خلفه حزينًا خافتًا : «اذهبْ يا بنيّ . . . لسنا بحاجتك . . نحن لنا الله» . لم يجرؤ أنْ يلتفتَ ليودّعها ، ركضَ كأنّما يهربُ من نفسه ؛ كانتْ كلماتها الأخيرة طعنةً غائرةً في الظّهر ، ولا يدري إنْ كانَ سيُشفَى منها أم لا!

(٢٦)
أصدقاء الأمس أعداء اليوم

ضمّ المُعسكَر مجاميع من المتطوّعين يستعدّون لتلقّي التّدريب والأسلحة، التحقوا به مُؤخّرًا خلال الأيّام الثّلاثة الفائتة، يحتلّ أرضًا واسعةً تقع في كفر زيتا شمال حماة، وعلى بعد بضعة كيلومترات من خان شيخون، كانَ المُدرِّبون يُعدّون فيه المُهاجِمين، والقنّاصة، والانغماسيّين، ويشمل كذلك التّدريب على فكّ الأسلحة وتركيبها، وصناعة القنابل اليدويّة، والعبوات النّاسفة، وزرع الألغام الأرضيّة. كلّ ذلك كان يتمّ في ساحةٍ خالية أمام بيوتٍ من الطّوب قديمة مُهدّمة تقع خلف تلّة تحجبهم عن جهة الشّرق.

ما يقرب من سبعين متطوّعًا، أغلبهم شبابٌ في عمر الورود، ترى فورةَ الحياة في عيونهم، وإنْ كان الحُزنُ قد أسدلَ على بريقها وشاحًا شفيفًا لا يُرى إلاّ إذا غُصتَ في سحابته، كثيرٌ منهم من أولئك الّذين فقدوا كلّ شيءٍ هناك فجاؤوا ليجدوا أنفسهم هنا.

لمحهما من أوّل التّدريب، لكنّه أجّل السّلام عليهما بعدَ أنْ انتهَت الحصّة التّدريبيّة في عصر يوم من أيّام البرد في شهر كانون الثّاني من عام ٢٠١٣, سأله ليث: «ما الّذي أتي بك إلى هنا؟! توقّعتُ أنّكَ هربتَ إلى الأردنّ». ردّ عليه زياد ببلادة: «وأنا توقّعت أنّك متّ مع أبيك في القصف، لكنْ عمر الشّقي بقي». وضحك ضحكةً ساخرة. تدخّل شادي: «جمَعَتْنا الصّداقة قديمًا، ويجمعنا الآن تحرير سوريّة».

ردّ عليه زياد بسخرية أمرّ: «تحرير سوريّة . .!!! سنحررّها للأشباح الّذين ظلّوا يطوفون بين حواريها المُهدّمة . . . عن أيّ تحريرٍ تتحدّث . . عن أيّ سوريّة تتحدّث . . .!!» . ردّ عليه ليث مُغضبًا : «ولماذا جئتَ إلى هنا إذًا ؟!» . «جئتُ لأنتقم» . «تنتقم؟! مِمّن؟!» . ردّ وهو يمسح بكفّه على قبض البندقيّة ، ويرفعها أمام عينيه : «من الّذين قتلوا زوجتي» . ضيّق شادي عينَيه وهتف به : «افعلْ ذلك من أجل الّذين سيأتون بعدنا» . «أنتَ تعيشُ في الأوهام . . . ليسَ هناك من يأتي بعدنا . . . لقد فقدنا كلّ شيء» . «لم تكنِ الوحيد الّذي فقد عائلته ، إنْ كنتَ قد فقدتَ زوجتك وأباك ، فأنا فقدتُ أخواتي الخمس وأمّي . . . ولم يتبقّ لي شيء» . «لماذا تركتهم يموتون ونجوت بنفسك؟!» «كنتُ في المحلّ وكانوا في البيت» . «أنانيّة ، كان عليكَ ألا تعيشَ بعدهم ، ألا ترى جُثثهم ، ألاّ ترى عيونهم وهي تنظر إليكَ تُذكّرك بالعار مدى الحياة ، ليسَ الموتَ هو الصّعب ، ولا رحيلٌ من تحبّ ؛ ما هو أصعب من الموت ومن الرّحيل معًا هو العيش مع ذكرى الرّاحلين ، إنّها مثل نحلةٍ في الدّماغ لا تجعلك تهدأ لحظة» . «المستقبل أمامنا ، وعلينا أنْ نقاتل من أجلهم» . «هراء . . . غِبْنا عن بعضنا كلّ هذا الزّمن ، والتقينا لأسمع منكَ هذا الهُراء . . . يا صديقي لم يعد لدينا ماضٍ ولا حاضرٌ ولا مستقبل ، لم يعد لدينا شيء باستثناء الذّكرى ، والذّكرى أبشع القتلة الّذين يعيشون فيك» .

قسمهم القائد إلى مجموعات ، عيّن على كلّ مجموعة أميرًا ، وطلب أنْ يتلو عليهم قواعد الاشتباك . توزّعوا إلى غرفهم ، أُعطِيَ كلّ مُقاتلٍ فرشةً وحرامَين ، وسلاحًا ، وزاويةً ينامُ فيها . كان البناء المُهدّم جزئيًا ، والّذي يبدو أنّه مرّ عليه زمنٌ قبلَ أنْ تمسّه يد الحرب اللّعينة

فتضطرّ ساكنيه إلى الرّحيل هو مقرّ قيادتهم ومنامهم. حُفرٌ كثيرةٌ انتشرتْ فيما تبقّى من الجدران بشكلٍ عشوائيّ، كانتْ تُشبه قُبلاً لعاشقٍ مُستعجلٍ طبَعها على صدر الجدار ورحل بسرعة.

في صبيحة اليوم التّالي استيقظوا جميعًا، طلبَ أمير المعسكر من القادة أنْ يتوزّعوا إلى مجموعاتهم من أجل جولةٍ تعريفيّة على المنطقة الّتي سيحدث فيها الاشتباك. لدى الأمير من الغنائم ما يكفيه لنقل ضعف العدد الّذي عنده، لكنّ سبعة بكبات تفي بالغرض، كانت الحافلات تصطفّ في خندق خلفَ البناء المُهدّم حُفِر خصّيصًا لإخفائها، وتُغطّى بساترٍ ترابيّ يُشبه السّاتر الّذي تُغطّى به الدّبابات.

اتّجهوا شرقًا نحو مطار تفتناز العسكريّ، لم تعد الدّولةُ تُسيطر عليه، كانَ آمنًا بالنّسبة لهم، حدثت فيه معركة قبل أكثر من شهر، حُوصر لأسبوعَين من قبل المُقاتلين من جهة طعوم وتفتناز والصّالحيّة ومناطق السّهل والجهة الجنوبيّة للمطار، وقُطِعتْ عنه كلّ سبل الإمدادات، واقتحموا سوره بعد ذلك، وفجّروا بعض الطّائرات العموديّة الّتي لم تستطع أنْ تغادره، وملؤوا شاحناته بالذّخيرة المُكدّسة على أرضه، ونقلوها إلى أماكن أخرى لم يعد أحدٌ اليوم يدري على وجه الدّقّة لمن تتبع. كان بإمكانكَ أن ترى من بعيد بعض الطّائرات المحترقة الّتي لم يبقَ منها إلاّ هيكلها الأسود، وفراشات مراوحها وقد نُكّستْ في التّراب كأنّها أرجلٌ لعقربٍ مُنتحرة، وذيلُها الّذي يلوح من بعيد كذيل غراب مقطوع. قال ليث: «لقد كانتْ ضربةً رائعةً من المُجاهِدين، إنّها فرصةٌ لحرمان النّظام من أحد قواعد ارتكازه لانطلاق طائراته الّتي تضربُ في كلّ مكان، وحرمانهم كذلك من الإمدادات الغذائيّة الّتي كانتْ تنطلق قواعده على الأطراف من هنا». ردّ زياد

بسخرية : «أنا أصدّقك فأنتَ تحفظ القرآن ، لكنّ عينيّ تُكذّبان كلّ ذلك ؛ ما زالت قوّات النّظام تضربُ في كلّ مكان ، ولم أسمع يومًا أنّ جنديًا عندهم مات من الجوع ، وحدنا نحن المساكين نموتُ جوعًا وبردًا» . أجابه ليث وقد امتعض منه : «أنتَ لا تتقن غير النّكد يا زياد» . «أنا فقط أريدُكَ ألا تُخدَع كما خُدِعنا جميعًا . . . الحقيقة ليستْ ملكًا لأحد ، وليستْ عدوّةً لأحد . . . دعْنا نكنْ موضوعيّين» . «الحقيقة الوحيدة الّتي أفهمهما أنّني أريد لوطني الحرّيّة ، ولشعبي غدًا أفضل» . «هذه حقيقتك الخاصّة بك ، أمّا حقيقتي فهي أنّني أريدُ أنْ أتخلّص بشكلٍ نهائيّ من الكذبة الكبيرة الّتي عشتُها ، ومن نظراتِ امرأتي في نَزعها الأخير . . . ولديّ وسائلي» . تدخّل شادي ليغيّر اللّهجة الحادّة الّتي دائمًا ما تعلو في النّقاش بينهما : «خرجْنا لنتعرّف أكثر على مناطق الاشتِباك من بلدنا الحبيب ، في أيّ لحظةٍ قد يُطلَب منّا أنْ نكون في الصّفوف الأولى ، وسنكون معًا ، نحن محتاجون إلى أنْ يشدّ بعضُنا أزر بعض ، فاتركوا هذه النّقاشات الحادّة أو أجّلوها» . تجاهل زياد عبارته الأخيرة ، ليوجّه سؤالاً إلى ليث : «ألم يكنْ هذا المطار يُستَخدم لإلقاء البراميل المتفجّرة على حلب وإدلب وحماة وقراها؟!» . ردّ ليث بصوت خافض : «بلى» . «والآن صار في يد المُجاهدين؟!» . «بلى» . «إذًا فلماذا لم ينتهِ إلقاء البراميل حتّى الآن» . «لكنّه خفّ» . «لم يخفّ ، ولم ينتهِ . . . سينتهي في حالةٍ واحدة» . «ما هي يا فصيح؟!» . «إذا انتهتْ . . . بمعنى إذا ألقى النّظام كلّ ما عنده من براميل . . . الأمر ليس متعلّقًا بالسيطرة على مطارٍ هنا أو قاعدةٍ هناك . . . هذه أمور ثانويّة . . أنا فقط أطلبُ منكم ألاّ تقعوا مثل الكثيرين ضحيّة تضخيم الحدث . . . بعضُ الّذين تحدّثوا عن السّيطرة

على هذا المطار ظنّوا أنّهم في اليـوم التّـالي سـيكونون في القـصـر الجمهوريّ . . . أتعرفون كم برميلاً سقط منذ التّبشير بسقوط القصر الجـمـهـوريّ حـتّى هذه اللّحظة . . . وها نحن ؛ سـقطْنا وظلّ القـصـر الجمهوريّ واقِفًا . . . مِتنا وعاش . . . يا للمفارقة المُرّة . . .» . وانفلتتْ منه قهقهةٌ عالِية . نظر إليه ليث محتداً ، وقال وهو يزفر : «أنتَ صاحب سوء . . لو أنّك انضممتَ إلى مقاتلي النّظام لكان ذلك أفضل . . . ما هذه الدّناءة التي أنتَ فيها» . «لا بأس يا ليث . . . سَنبدأ الشّتائم من الآن؟! أرحْ نفسك من غضبةٍ بلا وعي ، ربّما سنضطرّ إلى مثلها حين تبدأ المواجهة الحقيقيّة . . . سأقول لكَ شيئًا آخَر . . . أعرفُ أنّني ثرثار وأنّكم تعرفون ذلك عنّي . . . لكنّني سأقوله على أيّة حال : كم فصيلاً ادّعى أنّه اقتحم المطار وحقّق الانتِصار . . . لو افترضنا أنّ هناك أربعة فصائل . . . تمام . . بعد أسبوع ستسمع أنّهم تقاتلوا فيما بينهم» . ردّ عليه ليث : «يا طير النّحس . . .» لم يولِ زياد اهتمامًا لما قاله ليث ، وتابع : «وستنشب بينهم حربٌ طاحِنة . . وسيدّعي كلّ فصيلٌ أنّه الأقـوى والأشـجع والأكـثـر عـدداً وأنّه له الفـضل الأوّل في هذا التّحرير . . . وستتعالى الأصوات والاتّهامات . . . و . . . والرّشّاشات الّتي كانتْ تُصوّب للعدوّ سيبدؤون بتصويبها إلى صدورهم . . .» . ندّتْ منه قـهـقـهـةٌ عـالـيـة قبلَ أن يُكمل : «أصدقاء الأمس أعـداء اليوم . . . سيكون هذا عنوان الفلم الّذي سيُخرجه مخرج هوليوديّ عن المجاهدين في سوريّة ، وإنْ عشنا معًا سأذكّرك بذلك» . «أرجوك لا تُفسِد علينا طلعتنا» قال له شادي . ردّ عليه وهو يبصقُ بعيدًا : «أنتم اخترتم أنْ أكونَ في مجموعتكم . . . ومع ذلك . . . سأخرس . . . إنْ كانَ ذلك سيُساعد على حفظ صداقتنا القديمة» .

عادت القافلة بعد ذلك إلى سراقب ، ثُمّ جنوبًا إلى خان السّبل ، وعبر طريق طويلة ومنبسطة كانتْ تتراءى لهم القُرى المُهدّمة والمهجورة ، كأنّ واحدًا من أفراد يأجوج ومأجوج مرّ من هنا فقال بعد أنْ عبرها وهي خاويةٌ على عروشها : « لقد كان بها بشر» . ثُمّ اتّجهوا شرقًا إلى قرية معصران ، ثُمّ إلى المعسكر الجديد الّذي سيتّخذونه قاعدةً في الأيّام القليلة القادمة . نُقلت كثيرٌ من المُعدّات والأسلحة إلى هنا من كفر زيتا من أجل استخدامها في الهجمات القتاليّة الّتي يُعدّ لها القادة الميدانيّون .

قضوا ليلةً باردة في معسكر معصران ، كانوا قد تلقّوا التّعليمات كلّها في اللّيل ، رافقوا القائد (أبو دجانة) في الصباح إلى قرية معرشورين ، كانتْ ميّتة عند طلوع فجرٍ يحاول أنْ يبعثَ فيها الحياة ، القرية الّتي تقع على امتداد معسكر وادي الضّيف ، واصلوا توجّههم نحو الجنوب الغربيّ ، مرّوا بقرية معرشمشة المهجورة كذلك ، بيوت مُهدّمة ، أنقاض متراكمة ، والموتُ والخراب يفرضُ هدوءه التّامّ على كلّ شيء ، لم يكنْ من نَفَسٍ ليقطع الصّمت السّائد إلاّ وشوشات الجهاز في يد القائد (أبو دجانة) وهو يتلقّى المعلومات من القائد الآخَر المرابط مع مقاتليه في معسكر النّيرب شمالاً ، كانتْ بينَ الفينة والأخرى تُسمَع على الجهاز أصوات طلقات القَنّاصة ، تعريف القنّاصة في الحروب أنّهم حينَ يقنصون روح عابرٍ في الطّريق فإنّهم يُضيفون ريشة إلى كفّة الميزان من أجل أن ترجح على صاحبتها . دخلت السّيارة الّتي تُقلّهم جميعًا إلى داخل القرية ، تعرفُ طريقها تمامًا ، إلى بيت مُهدّم في وسطها ، تلفّه أشجارٌ عالية ، من الصّعبِ جداً أنْ تميّزه الطّائرات المُحلّقة من بين مئات البيوت المُهدّمة الأخرى والّتي ودّعت الحياة منذ زمنٍ بعيد .

أراحت القافلة المكوّنة من ثلاث سيّارات بكب في البيت المُختار، كان فيه عددٌ آخر من المقاتلين، اتّخذوه منذ هجرة السّكان إلى الشّمال أو الجنوب قاعدةً لانطلاق هجماتهم، لم يكنِ البيت الوحيد الّذي استُخدِمَ لهذا الغرض، على امتداده استُخدمت بيوتٌ أخرى خاوية ثكنات عسكريّة للتّخطيط للهجمات أو الانطلاق لتنفيذها.

كانت غرفة العمليّات المُشتركة قد تحصّنتْ في بيتٍ يقع على نزلةٍ تُرابيّة تُخفيه من الجهة الشّرقيّة، أمّا من الجهة الغربيّة فكانتْ هناك تلّة تحميه من مدفعيّة الجيش الثّقيلة الّتي تتسلّى يوميًا بِدَكِّ القرية حتّى ولو لم يعدْ فيها من سُكّانها أحد!!

دخل أبو دجانة، تَبِعه مباشرةً زياد، ومن خلفهما ليث وشادي وآخَرون، سلّموا على الّذين استقبلوهم بحفاوةٍ كبيرة، كانتِ الحفاوة في زمن الحرب تتمثّل في غرفةٍ مربّعة كاملة الجدران، وحصيرة، وفرشات على الأطراف ملقاة بإهمال، وصوبّة حطب في الوسط. على ضوء الغرفة الشّاحب كان بإمكانكَ أنْ تميّز عشرةً من المُقاتلين يتمدّدون على هذه الفُرش في الدّاخل، ومثلهم من الحرس يتوزّعون على الباب، وعلى أوّل النزلة، وفوق التّلّة من الجهة الغربيّة.

اجتمعَ أبو دجانة في زاويةٍ في الغرفة مع أربعةٍ من المُقاتلين، كان معهم جهازا (لابتوب)، طلبَ وهو يُميل جذعه إلى الآخرين: «أغلقوا اللاسلكيّات يا شباب». وفردَ أمامهم خريطةً كبيرةً يبدو أنّها تُعيّن جبهات القتال. قال بعد أنْ أنهى حديثه معهم، وصار يخاطب كلّ من في الغرفة: «حيّا الله الشّباب... أودّ أنْ أعرّفكم على طبيعة المعركة، وآخر ما حقّقناه، والأماكن التّابعة لسيطرتنا، والأماكن التّابعة لسيطرتهم، والأماكن المتنازَع عليه والّتي يحدثُ فيها

الاشتباك» . أصغى الجميع باهتِمام ، فالأمر يحتاج إلى تركيز إن كان يتعلّق بطلعة قتاليّة ، قطع عليهم سيلَ الحديث دخول أحد الحرس ومعه صينيّة حلوى يبدو أنّه أعدّها بنفسه بشكلٍ عشوائيّ ، هتفَ بحبور : «والله من صنع إيدي يا شباب ، لن تتذوّقوا أطيب منه!!» . ردّ زياد ضاحكًا : «ربّما لأنّنا لن نتذوّق بعدها شيئًا» . نظرَ شادي وليث إليه كي لَا يتابع سخريته ، وهمّ الحارس أنْ يسأله ماذا يقصد لولا أنّه سارعَ بوضعها على صوبّة الحطب ، وهو يصفر طَرِبًا ، لم تكد الصّينيّة تُتشتش على الصّوبة ، حتّى سقطتْ قذيفةٌ على بعد عشرة أمتار من الغرفة قربَ التلّة الغربيّة ، فارتجّ البيتُ بأكمله ، ارتبكَ الجميع ، لم يبدأ أحدٌ أنْ يتكهّن بمصدرَ القذيفة ، حتّى سقطت قذيفةٌ أخرى بدا أنّها أقرب من سابِقتها لأنّها حطّمتْ زجاج النّوافذ ، وانقلبتِ المدفأة مع صينيّة الحلوى ، وتشكّلتْ سحابةٌ كثيفةٌ من الغبار في الدّاخل . وانبطح الجميعُ على الأرض باستثناء زياد الّذي كان ينظر حوله ببلاهة ، جذبه ليث من كتفه وصاح به مُغضَبا : «ستُقتَل ، خُذِ الأرض» . بعدها جاءهم صوتُ أبو دجانةَ عالِيًا : «يا شباب فيه حدا تأذّى؟!» . لم يُسمَع لأحدٍ صوت ، كان الذّهول المُسيطر عليهم قد شكّل حاجِزًا بين السّؤال والإجابة ، تكرّر صوتُ أبو دجانة من جديد : «فيه إصابات؟!» . سُمِعَ صوتٌ لم يُعرَف صاحبه يقول : «الجميع بخير . . . الجميع بخير» . نهضَ زياد ، ونفضَ الغبار الّذي تراكم على البذلة العسكريّة الّتي يلبسَها ، وخاطبَ نفسه باستياء : «لم آتِ إلى هنا لأموت مثل الكلاب تحتَ الرّكام . . .!!» . عاد الحارس إلى صينيّة الحلوى ، أصلحَ ما استطاع من شأنها ، وأوقد النّار في صوبّة الحطب من جديد ، ووضع الصّينيّة فوقها ، بعدَ فترةٍ قصيرةٍ قام بتقطيعها ، وقدّمها

للجميع وهو يضحك : «إنّها حلوى أبو اصطيف ، ماركة مُسجّلة ، لا يُمكن أن تجد مثلها في أيّ مكانٍ آخَر» .

في اللّيل ، في منتصفه ، كانَ على الجميع أنْ يخلدوا للنّوم باستثناء من عليهم نوبةُ الحراسة ، توجه شادي قبل ذلك إلى (أبو دجانة) ، وطلبَ منه أنْ يخلو به لحظاتٍ خارجَ الغرفة على تخوم المُعسكر ، قال له : «كنتُ قد جمعتُ خلال عملي في المحلّ مبالغ من المال خبّأتُها من أجل تعليم أخواتي ، تمنّيت لولا قدر الله أنْ أراهنّ قد تخرّجن من الجامعات وتزوّجن أحسنَ الرّجال ، تمنيّتُ أنْ أرعاهنّ كما يجب بعدَ موت أبي ، لكنّ الموتَ لم يُمهل أيّ واحدةٍ منهنّ ، وأمّي الّتي كانتْ تتطلّع لأنْ تفرح بهنّ ، وُئِدتْ فرحتُها مُبكّراً . .» صمتَ وهو يبلع ريقه ، ويمسح دمعةً طفرتْ من عينِه : «لكنْ من كان يستطيع أنْ يقفَ في وجه ما أراده الله . . هنّ الآن عنده ، ربّما انتقلْن إلى حالٍ أفضل ، لا بُدّ أنّ الله اختار لهنّ جواره أفضل من جواري . . . اعذرني لأنّني أتكلّم عن شيءٍ خاصٍّ بي ، قد لا يكون مهمًّا عندك أنْ تسمع هذا الكلام منّي . . . وقد تكونُ لديكَ قصّة أكثر وجعًا من قصّتي . . . ما أردتُ قوله فقط يا سيّدي ، أنّ المالَ الّذي جمعته عبر هذه السّنوات من أجلهنّ أنا أتبرّع به للثّورة عن أرواحهنّ ، أرجو أنْ يغفرنَ لي تقصيري ، وانْ يُسامحْنني إذا التقيتهنّ في حياةٍ أخرى . . . يشهدُ الله أنّي كنتُ أقدّمهنّ على نفسي ، وأنّني عشتُ من أجلهنّ ، ولم أتزوّج من أجل أنْ أرعاهنّ . . . خُذْ هذا المال يا سيّدي لعلّ أرواحهنّ الّتي احترقت في القصف تبرد بهذه الصّدقة . . .» ثُمّ أجهشَ بالبكاء . احتضنه القائد أبو دجانة : «لا بأس يا بنيّ ، لا بأس . . . إنّه زمنُ غربتنا ، وزمن منفانا ، ولا يضيعُ عند الله شيء» .

(٢٧)
ها هو يهوي كشجرةٍ مَجثوثة

شقّ الفجر سُدفةَ اللّيل ، أيقظَ القادةُ أفرادهم للصّلاة ، كان ليث أوّل المستيقظين ، هَزّ شادي من كتفَيه ، تململ . توجّه إلى زياد هزّه هو الآخَر : «قُم . . . هيّا» . عبس . لم ينمْ جيّدًا أمس . ظلّتْ روحه قلقلة ، إنّه ينتظر لحظة التّصويب ، كانَ يبدو أنّه سيصوّب بُندقيّته إلى أيّ أحدٍ إذا طال الأمر . هتفَ بليث : «متى ستبدأ المعركة يا رجل . . . مللت» .

جاءهم الحرس بالفطور ، كان أرغفةً من خُبز التّنّور تُخبَز هنا في المعسكر - كان لديهم طبّاخون جيّدون يبدو أنّهم كانوا كذلك قبل أنْ يلتحقوا بالمجموعات المُقاتِلة - وبيض مقليّ ، وجبن ، وبندورة ، وزيتون رصيع ، وشاي على الحطب . أكلوا بسعادةٍ غامرة ، تذكّرها وهو يرفع اللّقمةَ إلى فمه : «لم يكنْ أمهر منها في إعداد الطّعام» . تذكّر في تلك اللحظة الكُبّة المشويّة . . . تراءتْ له عيناها ، رآهما باسِمَتَين لا مذعورتَين ، أتمّ فطوره ، ونهضَ بحماسةٍ كأنّ بندقيّته المحشوّة ستبدأ زغردتها الآن . تأكّد الجميع من أنّ القنابل مركوزة على الحِزام في وسط كلّ مقاتل ، وكذلك المسدّس ، والبندقيّة على الكتف ، وجنّاد الرّصاصات ، والباغات الاحتياطيّة .

دخلوا إلى الباص المُصفَّح ، يتّسع لعشرة مقاتلين ، يجلس اثنان إلى جانب السّائق ، والبقيّة في كراسيّ متقابلة ، يُفتَح بابُ جرّار لتجد نفسك في القمرة الخلفيّة للباص ، مضَوا في الطّريق إلى المُعسكر الّذي

يجتمع فيه المبعوثون من كلّ فصيل من أجل الانضِمام تحت قيادةٍ واحدةٍ يكون عليها الدّور في القِتال والمواجهة هذه المرّة ، ربّما خمس أو ستّ فصائل تجتمع في معسكر بينيّ على الطّريق بين معرشمشة ومعرشورين ، يحدث الخلاف غالبًا على اختيار القائد الّذي ستأتمر به الفصائل المنضوية ، أحيانًا لا يتمّ الاتّفاق مع الجميع فيعود بعضهم إلى معسكراتهم الخاصّة . بدأ شادي وليث يفهمان بعضَ ما كان يسخر منه زياد . أمّا زياد ففي تلك المرّة لم يلتفتْ إلى أمر الخلاف كثيرًا ، ولم يعلّق عليه ، ولم يحدّث رفيقَي دربه : «ألم أقلْ لكم . . . سنبدأ التّقاتل على من يقود الفصائل . . . سيتطوّر الأمر فلن يكتفي بعضهم بالعودة غاضبين دون أنْ يشتركوا في معركة التّحرير ، بل إنّ بنادقهم ستُصوّب إلى رفقائهم في النّضال . . وأين؟! في الظّهر» . لم يقلْ شيئًا من ذلك ، كان يتطلّع إلى قاتلٍ خفيّ ، ومجرمٍ غامض يريد أن ينتقم لزوجته منه!!

كانَ زياد ينظرُ ساهِمًا عبر نوافذ الباص ، في الصّعود من معرشمشة إلى معرشورين ، على بعدٍ غير كبير من الطّريق الّتي تربط بين دمشق وحلب فيرى وجه سوريّة اليوم ، دمارٌ يُصيب كلّ البيوت تقريبًا ، كأنّ الطّائرات لم تكنْ لتكتفي بتسوية بعضِ البيوت بالأرض فأقسمتْ أنْ تُسوّي قرًى ومُدنًا بأكملها كذلك . كانت هناك حركةٌ تشي بالحياة في أفقٍ يضجّ بالموت ، رأى عبر المنظار عددًا من المُقاتلين يُسلّمون على آخرين في بعض المُعسكرات ، ها هو أحدهم يطوف بالماء على العطشى ، ها هو آخَر يُعالج اللاسلكي يردّ على صوتٍ غير معروفٍ على الطّرف الآخَر ، وهها هو ثالثٌ يراقبُ نقاط التّماس عبر منظاره اللّيلي . . . كانتْ هناك ألوانٌ متعدّدة في اللّوحة السّورياليّة تُعطيها

بعضَ الحركة ، لكنّ المُشتَرك الأعظم في اللّوحة ذاته كان الدّمار ، الدّمار كانَ كأنّما هو غطاءٌ كبير سحبتْه يدٌ جبّارة على وجه الأرض فأصاب كلّ شيءٍ فوقَها .

وصل الباص المُصفّح إلى مغارةٍ صغيرة ، في زمن الحرب تكثر المغارات ، تكتشف أنّ الوطن الّذي كان خالِيًا منها من قبل صار يكتظّ بها الآن ، مغارات قديمة أزيلَ النّسيان عن فمها ، ومغارات جديدة حُفِرت اضطرارًا من أجل أنْ تقي من بعض الموت المُتعجّل في كلّ حين . كان أمامها نارٌ متّقدة ، تبعثُ الدّفء في جوٍّ شديد البرودة ، وقد تحلّق حولها عددٌ من المقاتلين كما لو كانوا مريدين يتحلّقون حول قُطبهم يلتمسون البركة والدّفء ، كانوا قد أعدّوا إبريقًا من الشّاي فوق حطب النّار . . . تجاوز الباص المغارة السّاحرة ، رأى زياد من خلال التِماع النّار على وجوههم أنّ مبتغاه في الحياة لو أراد أنْ يعيشَ لن يكونَ أكثرَ من هذا!!

على خطوط المواجهة الأماميّة يتكثّف وجود القنّاصة ، كلّ قنّاص يتّخذ موقعه خلف (طلاّقة) ؛ وهي عبارة عن ثقب صغير أو منفرج ضيّق في جدار إسمنتيّ قويّ ، يُخرج القنّاص من خلالها فوهة البندقيّة الّتي لا تُرى من قبل المقنوصين ، ويُضيّق إحدى عينيه من خلال ناظور البندقيّة ليلتقطَ فريسته أو صيده ، كان أكثر ما يكرهه زياد في هذه المعادلة هم هؤلاء القنّاصة ، لأكثر من سبب ؛ أنّهم يقتلون غدرًا ، وأنّهم يقتلون مرّاري الطّريق ، وأكثرهم أبرياء ، وأنّهم يتسلّون أحيانًا بذلك ؛ فمعظمهم - كما يرى - لديهم شهوة القتل لا أكثر ، ترقص قلوبهم طربًا لمنظر حيّ كان يمشي معتدلاً قبلَ لحظات ثُمّ ها هو يهوي كشجرةٍ مجثوثة .

أكثر القنّاصة يتّخذون مواقعهم في مناطق متقدّمة أو حسّاسة ، حتّى تكون الرّصاصة فعّالة ، وإلاّ فما قيمة أنْ يطلقها فلا تصيبُ إلاّ الفراغ لأنّها لا تصلُ إلى هدفها ، ولذلك تراهم عادةً ما يتمركزون في أماكن مُطلّة على تجمّع الآليّات أو المدافع أو الدّبّابات أو ثكنات العدوّ .

في هذه السّنة من عمر الحرب كان وادي الضّيف يعجّ بالمعسكرات التّابعة لجيش النّظام ، والّتي تصبّ الرّصاص صبًا على كلّ تجمّع تعتقد أنّ به نسبةً من المُقاتلين ، ومن الطّبيعيّ أنْ تكون القُرى الّتي تنام على هذا الشّريط من الوادي كلّها قد تعرّضتْ للاستهداف ، ومن أجل النّجاة بالحياة ، ولو كانت حياةً لا كالحياة لم تكنْ لتجدَ فيها إنسيًا واحِدًا يعيشُ فيها ، باستثناء الحيوانات والمقاتلين والمُنتفعين من وجود الحرب!!

لوادي الضّيف موقعٌ استراتيجيّ ، ولذلك غالبًا ما تدور المعارك فيه أو حوله من أجل السّيطرة عليه من الطّرفَين ؛ شرقيّ وادي الضّيف يقع السّهل الممتدّ الّذي يخلبُ الألباب في الرّبيع ، وعلى هذا السّهل تنتشر عشرات القُرى والضِّيَع الصّغيرة والمزارع ، أمّا من جهة الغرب فتقع معرّة النّعمان وجبل الزّاوية وحولهما تنتشر عشرات القُرى كذلك ؛ على هذا النّحو يتمدّد ريف إدلب الأخضر من حدود تركيّا شمالاً إلى حلب شرقًا وإلى حماة جنوبًا . وهذا الوادي الّذي يفصل بين هذه المدن الكبرى وتمرّ عبره طريق دمشق حلب يحوي خمسة معسكرات على الأقلّ هي من الشّمال اتّجاهًا إلى الجنوب ؛ معسكر النّيرب ، ومعسكر المسطومة ، ومعسكر حاجز الزّعلانة ، ومعسكر وادي الضّيف ، ومعسكر الحامديّة بالإضافة إلى عشرات الحواجز الّتي تُقطّع المنطقة حتّى يسهل السّيطرة عليها من قِبَل النّظام .

توقّف الباص عند إحدى النّقاط التّابعة للمُقاتِلين ، ترجّل في البداية أبو دجانة ، وتبعه الباقون ، رأى زياد الأمور بشكلٍ أوضح الآن ، كان المُقاتِلون في هذه النّقطة يمتلكون عددًا كبيرًا من مضادّات الطّائرات ، تذكّر اقتحام مطار تفتناز العسكريّ ، فكّر أنّهم لا بُدّ نقلوها إلى هُنا من ذلك الموقع ، كان هناك أيضًا بحوزتهم رشّاشات الدّوشكا ، ورشّاشات عيار ١٤ عيار ٢٣ ، مُعظَمها كان مخفيًا حول ستارٍ من القماش المُثقّب بلون التّراب أو الأشجار ، ولا يُكشَف عنه السّتار إلاّ عند تحليق طائرات الميج أو الطّائرات المروحيّة ، وغالبًا ما تحلّق هذه الطّائرات على ارتفاعٍ منخفضٍ من أجل أنْ تلقِي بالطّعام والشّراب لمعسكرات النّظام ، وحينئذٍ تكون الفرصة مواتيةً لِقَنْصها والاشتِباك معها .

ترجّل الجميع ، واتّجهوا إلى أحد المخابِئ ، لم يكنْ أكثرَ من جدران نصف مهدّمة ، وأخرى ثقبَ الرّصاص معظم أجزائها فحوّلها إلى شبكةٍ إسمنتيّة . قال أبو دجانة : «بحذر يا شباب . . . أنتم في خطوط التّماس وأيّ انكشاف لكم قد يكلّفكم حياتكم ، ولا تنسوا أنّ الأرض قد تكون فيها قنابل لم تنفجر بعد» .

في الدّاخل التَقوا بأحد خبراء المنطقة ، شابٌّ في أواخر العشرينيّات من عمره تركَ أطفاله وزوجته المُهجّرين بسبب الحرب وجاء ليُقاتِل مع المُجاهِدين ، كان هذا الشّابّ خبيرًا بجغرافيّة المكان يحفظ كلّ شبرٍ فيه عن ظهر قلب ، ويعتمد عليه المُقاتلون هنا ليبنوا الطّلاّقات ويتّخذوا مواقعها خلفها فهي أقربُ النّقاط إلى جيش النّظام .

سارَ أمام المجموعة ، ودفعَ زياد بشادي ليسير خلفه مباشرة ، ثمّ سار من بعدهما ليث ، وتبعهم هو أخيرًا . الآخَرون زاروا المكان من قبل

وتعرّفوا على مواضع الطّلاّقات ، واليوم هو دور هؤلاء الثّلاثة في التّمركز على الخطوط الأماميّة .

صعدوا في طرق متعرّجة حتّى وصلوا إلى موقع الطّلاّقة ، تراجع الشّباب ، وكانَ على أحدهم أنْ يتقدّم إلى البندقيّة ويتّخذ موقع القنّاص ، تقدّم شادي ، ونزل أسفلَ منه زياد وليث ، راح زياد يُدخّن ، وليث يقرأ القرآن بصوتٍ مُنغَّم . هتفَ به : «لماذا الدّخان؟!» . أجابه وهو ينفثُ ما ملأ به صدره : «لكي أرى بصورةٍ أوضح» . مرّتْ لحظات صمت بطيئة . حبس شادي أنفاسه . فجأةً دوّى صوتُ رصاصة ، قفز إليه ليثٌ : «هل أصبْته؟!» . أشار له بيده أنْ يصمت ، ثُمّ لقّم البندقيّة ، وأطلق الثّانية . ترنّح قبل أنْ يسقط ، ثُمّ هوى كجدارٍ ميّت . هتفَ شادي : «الله أكبر» . تبعه ليث : «الله أكبر . . الله أكبر» . عانقَ أحدهما الآخَر ، فيما جاءهم صوتُ زياد : «ليستْ طريقةً مناسبةً للقتال . . . إنّها أباسُ الطّرق ، إنّها خديعة . . . ومَنْ يدري إنْ كان بريئًا أم لا؟!» . همّ ليث بأنْ يتعارَك معه . تركهما وغادر عائدًا ، وهو يلوّح ببندقيّته : «هذه ليستْ طريقتي . . . اصطادا مزيدًا من العابرين . . واهتِفا كما تشاءان» .

ظلّ شادي متمركزًا مكانه ، كان يبدو أنّه مستمتعٌ بما يفعل ، شيءٌ ما في داخله كان يُشعره بأنّه يُعيدُ الاعتِبار لذاته ولأخواته ، عاودته الذّكرى في لحظةِ القصف ، ثلاثٌ من أخواته مُتْنَ تحت الرّدم ، خرجْنَ جُثثًا بيضاء من غبار الرّدم والانهِيارات ، لم يتعرّف عليهنّ إلاّ من خلال ملابسهنّ ، كانَ قد اشترى لهنّ تلك الملابس ابتِهاجًا بعيد الفطر ، فلم يُمهلهنّ الموت ليعشْنَ الفرحة الّتي كُنّ ينتظرنها ، الرّابعة ماتتْ في سيّارة الإسعاف على الطّريق ، هكذا قالوا له ، لم يكنْ معها

لحظَتها ، أخبره المُسعف بعد ليلَتين أنّها كانتْ دائِمًا تنادي عليه ، وتهتف باسمه ، وتصرخ وهي تسأل عنه ، ولا تجدُ مجيبًا . أصغرهنّ لم تكنْ قد فارقتِ الحياة حينَ وصل إليها ، كان الدّم يُغطّي كنزتها بالكامل مع بقعة مركّزة عند القلب ، قالتْ له حينَ رأته : «الحمدُ لله أنّكَ جئت» . حملُها وهو يبكي ، سألْته عن أخواتها الباقِيات ، لم يكنْ يملكُ جوابًا ، لم يكنْ يملك شيئًا غير الدّموع ، مدّتْ يدها المليئة بالأتربة ومسحتْ دموعه ، وقالتْ له : «أشعر بالعطش ، بدّي مي» . كان الدّم لا يزال يشعبُ من صدرها ، ركضَ بها كالمجنون يبحثُ عن الماء لكنّ القصف لم يترك شيئًا إلاّ الموت ، رآها وهي تمدّ طرف لسانها وتمسح به شفتَيها المُشقّقَتين ، وتطلب منه مرّة أخرى بصوتٍ أضعف : «شوية مي يا خوي» . انفجر بالبكاء ، جلسَ بها على الأرض ، حضنها ، دفنَ رأسه ، صرخ . لكنّها ابتسمتْ . أغمضتْ عينَيها ، فانخلع قلبه ، فتحتْهما مرّة أخيرةً ثُمّ شخصَ بصرها إلى السّماء!!

(٢٨)
سننتصر حينَ ينتهي الخَبَث من الصّفوف

مرّتْ قافِلة من النّاقِلات تحمل جنودًا وعتادًا قادمةً من معسكر النّيرب باتّجاه معسكر وادي الضّيف كونه الأكثر سخونةً والتِهابًا في المواجهات، وأفراد النّظام هناك بحاجةٍ دائمة إلى الدّعم والإسناد، وكان حاجز الزّعلانة، أهمّ حاجز يحمي ذلك المعسكر. كانتِ القافلة متّجهة جنوبًا حينَ رصَدها القنّاصة وحاملو النّواظير، أعطوا إشارةً خاصّة فانطلقت قذائف الآر بي جي، نجتِ الأولى، أخطأها القاذف، وأُصيبت الثّانية والثّالثة، وأفلتَ جنود الرّابعة، على عدسَتَي المنظار كان بإمكانك أنْ تُشاهد العشرات منهم يهربون فرارًا بحياتهم من الموت والحريق الّذي أخذ يبتلع النّاقِلَتَين، كانوا مثلَ غرقَى يهربون من طوفانٍ طاغ!!

لم تهدأ المنطقة بعدها، صبّت الطّائرات جامّ غضبها، فأطلقت الصّواريخ بلا حِساب. تحوّلت المنطقة إلي بركان، اشتعلت النّيران في كلّ مكان، ركضَ الموتُ يحصُدُ الأرواح عَجِلاً على طول الجبهة. لم يكنْ ممكنًا سماع حتّى أصوات الضّحايا، وحدها طائرات الميج كانتْ سيّدة الصّوت والموقف. راح ليث يقرأ القرآن بصوتٍ مرتفع، همّ أنْ يلتصق به زياد ليسأله: «خائف..؟! أعرفُ أنّكَ خائف...» لكنّه راح ينشغل بهدفه هو الآخَر، أمّا شادي فكان يُنشِدُ وهو سائِرٌ أمام الرّكب وهم عائدون وفوقهم الطّائرات ما زال أزيزها يشقّ فضاء سوريّة:

دُكّي يا جِـبـالْ . . . نحنُ في القِـمَـمْ
اصنعي الرّجـالْ . . . أيقظي الهِـمَـمْ

وحينَ تعبَ صوته من الغناء ، تولّى ليث المهمّة عنه :

يا رامي على الميم ط لا تخلّي طيّارْ
صهيوني جوّك يعلى كلّه يصفّي نار

كان واضحًا أنّ الغناء تعويذةٌ تحمي من الوقوع في شَرَك الخوف ، وتسمح للمُعايِن بالهروب من أهوال المشاهد . ظلّ العشرة يمشون حتّى وصلوا موقع سيّارتهم المُصفّحة ، استقلّوها عائدين إلى معصران ، في الطّريق حينَ أوغلوا باتّجاه المعسكر بدا عددٌ من الثّوّار من خلال زجاج النّافذة يتّكئون في قاع صخرة ضخمة ، وهم يُهيّئون بعضَ الحطب النّاشف ويُجاهدون لإيقاد النّار من أجل إبريق شاي ، قال أبو دجانة : «لم نشربْ شايًا كفاية هذا اليوم ، والجوّ بارد ، ما رأيكم أنْ نشاركهم» . رحّبوا بنا ، استلقَى ليث على ظهره من التّعب ، انزوى زياد بعيدًا يدّخن ، هدّده أبو دجانة أنْ يتّخذ مع إجراءً قاسيًا إذا رآه يفعل ذلك مرّة أخرى ، لم يكترثْ بتهديده ، بدا أنّه كان ينوي أنْ يتعارك معه ، «لكنّ بعضًا من الحكمة مطلوبةٌ في موقف كهذا» حدّث نفسه ، كانَ يدري أنّه لو تفاقم الأمر فمن غير المستبعد أنْ يُنهي أحد أتباعه حياته بطلقةٍ في رأسه ، وقد كان تكون الرّصاصة قادمةً من أعزّ أصدقائه ؛ ليث أو شادي . فسكت .

قبلَ أنْ يغلي الشّاي ، تعالَى صوتُ أحد المُجاهِدين الّذين استقبلوا العشرة يُنشد :

في سبيل الله قمنا نبتغي رَفْع اللّواء
ما لجاهٍ قد خرجنا نحنُ للدّين فِداء

فليعدْ للدّين مجدُهْ أَوْ تُرَقْ منّا الدّماء

ثُمّ يردف، بنبرةٍ أشدّ على المقطع الأخير:

ولْتُرَقْ منهم دِمـاءْ ولْتُرَقْ منهم دِماءْ

كان من بين القابعين في ظلّ الصّخرة شابٌّ طويلٌ جَهْم، أشقر اللّحية، قَدِمَ من الشّيشان إلى هُنا لينضمّ إلى صُفوف المُجاهدين، سأله أبو دجانة: «ما الّذي أتى بك من الشّيشان إلى هنا، ألم تكونوا تُقاتلون الرّوس في بلادكم، أليسَ الدّفاع عن بلادكم أولى من الدّفاع عن بلاد الآخرين؟! إذا كانَ الأمر متعلّقًا بالأجر؛ أليسَ الأقربون أولى بالمعروف؟!!». ردّ عليه: «لا... الجهادُ هنا أولى؛ إنّها أرضُ الصّحابة، والأرض الّتي رويتْ بدماء جُند النّبيّ، هنا المعركة الحقيقيّة، والمعركة الفاصلة، هناك مجرّد مناوشات قد تنتهي باتّفاقيّات سلام أو ما شابه... هنا لا شيءَ ينتهي إلاّ ببنادق المناضلين الشّرفاء».

كان صوتُ الرّصاص، وقذائف الآر بي جي، ما زال يأتي من الجهة الشّماليّة بعيدًا لكنّه واضح، كأنّه يقول إنّ الموت لا يأخذ هدنة، ولا يعرفُ النّوم... كان الشّاي قد جهز، وبدأ أحدهم يسكبُه في أكواب قديمة وصَدئة حينَ مرّ طفلٌ في الثّانية عشرة من عمره على درّاجة هوائيّة، كانَ يحمل في مقدّمة الدّرّاجة سلّة بلاستيكيّة مليئة بالسّاندويتشات الملفوفة بالورق الرّماديّ الخشن، كانَ صوتُ الحياةِ في روحه أعلى من صوتِ الموت، إرادته أقوى من الرّصاص المنهمر في الفضاء بلا غاية كسحابةٍ ضلّتِ الطّريق فأمطرتْ في غير أرضِها. أوقفَ درّاجته حينَ رأى المُقاتلين، ونادي وهو يُمسِكُ مقبضَي القِيادة ويستند على رجله اليُسرى: «ساندويتشات يا شباب؟!». سأله أبو دجانة:

«شو معك؟!» . «فلافل ، بطاطا مسلوقة ، بيض ، فول» . عدّ أبو دجانة المجتمعين تحت الصّخرة ، قال له : «هات ثماني عشرة ساندويتشة . . . شكّلهم» . حاسبه القائد ، ومضى الطّفل يبحثُ عن الرّزق من فم نسر آخر في غابةٍ أخرى . الحرب لا توقفُ الحياة ، ربّما تغيّر اتّجاهها ، ربّماً تضطرّ الأحياء إلى القَبول بشروطها ، ربّما تظلّ عدوّتها الأولى ، ويظلّ المُحبّون للحياة في حربٍ مع الحرب . . . لا تقل لي : مَنْ ينتصر في النّهاية؟! قُلْ لي : مَنْ يملك نَفَسًا أطول!!

أصدر جهاز اللاّسلكي وشوشاته ، كان أبو دجانة يتحدّث مع أحد القادة الميدانيّين في المعسكر الغربي ، أخبره بأنّ هناكَ رتلاً عسكريًا محمّلاً بالعتاد الثقيل والإمدادات الغذائيّة سيتّجه في الغد من حماة جنوبًا نحو معسكر الحامديّة التّابع للنّظام ، وأنّ صدّه والاشتباك معه والاستيلاء عليه يُعدّ ضربةً عسكريّةً قويّة .

بعد نصف ساعة اجتمع أبو دجانة مع كلّ أفراد القُوّة التّابعة له ، شرح لهم الأمر بسرعة ، وبيّن لهم تفاصيل الخُطّة : «نحن في معصران في المعسكر الشّرقيّ ، وإخوتنا في معرّة النّعمان في المعسكر الغربيّ ، وسيمرّ الرّتل في طريق دمشق حلب قادِمًا من حماة عبر خان شيخون ليوصل إمداداته إلى معسكر الحامديّة ، إذا دخل منطقة وادي الضّيف فمعنى ذلك أنّه صار بين فَكّي الكمّاشة ، الكمّاشة ستقضمه بسهولة إذا لم يكنْ هناك إسناد جوّي له . . . والآن نحتاج إلى عشرةٍ من معسكرنا عل الأقلّ ؛ مَنْ سيتطوّع لهذا الأمر؟!» . رفع معظم المقاتلين أيديهم . اختار عشرةً لم يكنْ من بينهم ليث . حَزِنَ لذلك . بعد انتهاء الاجتِماع ، طلبَ من أبي دجانة أنْ ينفردَ به للحظات . قال له : «لن أقعدَ مع الخالفين» . «ليس الأمر على هذا النّحو ، اخترتُ عشرةً ،

وسنختارك في العمليّة القادمة» . «أريدُ أنْ أشتركَ فيها ، لا أريد أنْ تفوتني عمليّة واحدة» . «يعني هل أُرجع أحد أصدقائك مكانك؟!» . «كلاّ ، لنكنْ أحدَ عشرَ كوكبًا» . «لا بأس» قالها وهو يبتسم .

بعدَ منتصف اللّيل خرج العشرة ، كان ليث نائمًا ، فجأةً فتحَ عينَيه ، بحث عن أبي دجانة فلم يجده ، سأل أحد الباقين : «أين هم؟!» . «لقد خرجوا إلى الموقع من حوالي ساعة» . ردّ بلهفةٍ مَشوبةٍ بالحنق : «خرجوا؟! كان من المفروض أنْ أكون بينهم ، لماذا لم توقظوني؟!» . «حاول زياد أنْ يفعل ذلك ، لكنّك كنتَ تغطّ في نومٍ عميق» . «لا . . . لا . . .» . قامَ ليث ، هتفَ في نفسه : «أنا أعرفه ، لم يُوقِظني ، ربّما نادى عليّ بكلمةٍ واحدة ولم يُتبِعْها بأخرى ، وغادر» . خرج حزينًا ، لقيه أحدُ الحرس خارجَ المعسكر : «إلى أينَ يا ليث؟!» . «فقط أريد أنْ أرى شيئًا هناك» . تركه . كان صدره يزدادُ ضيقًا ، هبطَ الهمّ عليه فجأة حتّى شكّل دخانًا أسود كثيفًا في رئتَيه ، راح يهذي مع نفسه : «ذهبوا وتركوني وحيدًا . . . يا للَخسارة» . حشرجتِ الدّمعةُ في عينيه ، واختنقَ الهواء في مجرى تنفّسه . ركضَ . . . أسرعَ في ركضه . . . ظلّ يركضُ خارج المعسكر دون حذرٍ ودون غايةٍ . . . قطع مسافةً بعيدةً ، لاحتْ له من بعيدٍ شجرةً عالية ، تسلّقها بخفّة ، وهو ينقل ذراعه من جذع لآخَر ، ركز ظهره على أحد جذوعها القويّة ، وراح يكسر أغصانًا صغيرةً حوله ويرميها بعيدًا وهو يكرّر السّؤال : «لماذا لم تأخذوني معكم؟!» كان الظّلام يُغلّف كلّ شيء ، كفّ عن تكسير الأغصان ، أرسلَ طرفه إلى البعيد ، وراح يبكي بكاءً مريرًا .

عاد بعدَ أن أفرغ حمولةَ الهمّ بالبكاء والركض ، لم يكدْ يرتاح في الغرفة ، حتّى وصل العشرة الّذين ذهبوا ، تلقّى أبا دُجانة على الباب :

«لماذا لم تأخذوني معكم؟! ألم تعدْني بذلك» . حضنه أبو دجانة ، قال وهو يعتذر له : «عمليّة اليوم فَشِلتْ ، لقد جاءتْ للعدوّ إخباريّة بأنّنا نترصّد الرّتل ، فلم يخرجْ من حماة . . . لكنّنا غدًا سنعاود الكرّة ، ولن نذهب حينَها بدونك ، اطمئنّ» .

في اليوم الثّاني ، قال لهم أبو دجانة : «الانطِلاق السّاعة الواحدة بعد منتصف اللّيل ، ليكن الجميع على أهبة الاستِعداد ، أرجو أنْ نُوفّق هذه المرّة في العمليّة» .

ركب المُقاتلون السّيّارة المُصفّحة ، جلسَ الثّلاثة ليث وشادي وزياد في الكراسيّ الخلفيّة متجاورين ، وجلس قُبالتهم عددٌ من المُقاتِلين الآخَرين ، كان أحدهم الشّابّ الشّيشاني وآخر ضخم الجثّة يحمل ثلاث قاذفات آر بي جي بالإضافة إلى القاذف الخاصّ بها . في سيّارة البكب أب ركبَ أربعةٌ ، وفي سيّارة أخرى ركب ثلاثة ، كان أحدهم خبيرًا بزرع الألغام ، وكان أبو دجانة يعتمد عليه كثيرًا في هذه العمليّة ، كانَ مطلوبًا منه أنْ يُلغّم جزءًا من الطّريق الّذي سيمرّ فيه الرّتل قبل أنْ يبدأ دخوله إلى وادي الضّيف ، فإذا مرّ بالألغام ، وانفجر أحدها بسيّارة عسكريّة أو اثنتَين سينشغل جنود النّظام حينئذ بتدبّر الأمر ، وستدبّ الفوضَى بين صفوفهم لمعرفة السّبب ، وحينها تكون قاذفات الآر بي جي مُلقّمة ، ورشاشات الدّوشكا جاهزة ، والانغماسيّون مستعدّين ، هذا بالنّسبة للمُقاتِلين من جهة الشّرق ، أمّا المُقاتِلون المُتربّصون جهةَ الغرب فيكونون قد فعلوا الشّيء ذاته أيضًا ، وحينئذٍ يكون الرّتل قد وقع بالفعل بين فَكّي الكمّاشة وقُضِي على جنوده ، وأُخِذ ما ظلّ صالحًا من آليّاته وأسلحته وإمداداته غنائم . تهادتْ سيّاراتهم وهي تشقّ الطّريق المتّجهة إلى معرشمشة جنوبًا

ليكمنوا في الجهة الشّرقيّة من وادي الضّيف ، الطّريق شديدةُ السّواد لا ضوء فيها غير ضوء السّيّارات الثّلاث ، والجوّ شديد البرودة ، يكاد يقترب من درجة التّجمّد .

وصلوا إلى مواقعهم من الكمين على الجهة الشّرقيّة ، وتوقّعوا أنْ يكون أصدقاؤهم قد اتّخذوا هم بدورهم مواقعهم على الجهة الغربيّة . أُطفِئتْ أضواء السّيّارات ، ورُكِنَتْ تحت الأشجار بعيدًا عن الطّريق . توزّع الفريق على مسافة مئة متر تقريبًا طولاً ، قال لهم أبو دجانة : «لا رصاصةَ واحدة تُطلَق إلاّ بإشارةٍ منّي» . مرّ الوقتُ بطيئًا ، لم يظهر على الطّريق أحدٌ ، كانَ خاليًا كأنّها الطّريق الذّاهبة إلى وادي الموتى . كان البرد يجرح فوهات البنادق ، ويخدش سبطانة الآر بي جي ، وكان بُخار الأنفاس يتصاعد من الآناف والأفواه . كان القائد يُدرك أنّ النّصر صبرُ ساعة ، وأنّ الأهداف العالية تحتاج إلى احتِمال أشدّ وأكبر ، فقرّر أنْ يستمرّ في الانتظار والمراقبة ، لعلّ ضوءَ سيّارة يُلمَح قادِمًا من الجنوب ، أو صوتَ بشريّ يُسمَع من أيّ جهة ، لكنّ أيًا من ذلك لم يحدث . بعد ثلاث ساعات من الانتظار جاءتْ إشارةٌ إلى اللاسلكي الّذي يحمله أبو دجانة . أشار لفريقه أنْ يعودوا إلى سيّاراتهم ، قال لهم وهم يركبون : «إنّها خيانةٌ جديدةٌ ، هناك مَنْ أخبر جنود النّظام بوجود كمينٍ يتربّصهم في فم الوادي» . «المُخبِر منّا أو منهم؟!» سأله زياد . أجابه وهو يعضّ على شفتَيه من الحسرة : «بل منّا ، والأدهى من ذلك أنّ بعضَ هذه الإخباريّات لا تكتفي بتحذير جيش النّظام ، بل تدلّ على مواقعنا ، وكثيرٌ من جُنودنا وقعوا في أيدي النّظام وذهبوا ضحيّة هذه الخيانة» . لمعتْ عينا زِياد ، أراد أنْ يقول شيئًا لرفيقَيه ، لكنّه اكتفى بالتّربيت على كتف ليث .

في طريق العودة ، كانتْ هناك بركسات عملاقة ، ومستودعات كبيرة يصطفّ تحتها عددٌ كبيرٌ من الدّبّابات ، كانتْ تقف واجمة مدافعها منصوبة باتّجاه الشّرق كأنّها تنتظر مَنْ يُشغّلها ، لكنّ المستودعات خاوية ، ليسَ هناك جنودٌ ، ولا مُقاتِلون ، ولا سائقون ، باستثناء حارسان أو ثلاثة يتمشّون على أطراف المستودعات والرّشّاشات تعتلي ظهورهم . سأل ليث أبا دُجانة : «لمن هذه الدّبّابات ، لماذا تصطفّ هنا بلا فائدة ، إذا كانتْ للثّوّار كما هو واضِحٌ فلماذا لا يستخدمونها في الحرب ، وهم الآن بأمسّ الحاجة إليها» . من جديد كانتِ الحسرةُ تعلو وجه القائد أبي دجانة ، خفضَ بصره ، ثُمّ نظر عن يمينه جهة النّافذة ، وأطلق زفرةً وهو يقول : «هذه الدّبّابات تتبع لقوّات أبي القعقاع غَنِمَها بعد تحرير معرّة النّعمان قبل بضعة أشهر ، ويتركها هنا بلا استخدام ، بل ويُحرّم على أحدٍ أنْ يستخدمها ، وكم حاولَ القادةُ الآخرون إقناعه إلاّ أنّه أبى» . «الحَرب لمن غلب» ردّ زياد . انتبه أبو دجانة لما قال ، أدار رأسه إلى الوراء ، قال له : «ولكنّنا إخوة ، نصرنا واحدٌ وهزيمتنا واحدة» . «واهم» . «ماذا؟!» . «الحرب مثل يوم القيامة» . «ماذا تقصد؟!» . «اللهمّ نفسي» . قطّب أبو دجانة جبينه ، تدخّل ليث حينَ وجد وتيرة الكلام تتصاعد ، قال : «لو كانت هذه الدّبّابات معنا لانقلبت الموازنين» .أجابه زياد بهدوء : «لا تتفاءل كثيرًا ، لو كانتْ معك لربّما فعلتَ أسوأ مِمّا فعله أبو القعقاع ، الحرب تغيّر الطّبائع يا صديقي» . «لا بُدّ أنّكَ تهذي ، لن نتغيّر لأنّ عدوّنا مُشترَك ، سننتصر في الحرب ، وسنهزم الشّرّ» . « ليسَ في هذه الحرب طرفٌ فائز ؛ لعنة الخسارة ستُطارد الجميع!!» . قرّب أبو دجانة وجهه من وجه زياد : «سننتصر حينَ ينتهي الخبث من الصّفوف» . «في المنظور الّذي أراه ،

لن ينتهي ، إنّه يتزايد يومًا بعد يوم ، هذه الحرب أشعلها الشّيطان ، ولن تتوقّف إلاّ في الجحيم أيّها القائد» . «أنتَ تبالغ يا . . . قلتَ لي ما اسمك . .» . «زياد» . «نعم . . . أنتَ تبالغ يا زياد . . أنا بنفسي شاركتُ في معركتَين حاسِمَتَين وانتصرنا فيهما» . سأله زياد : «أيّ معركتَين؟!» . «معركة مطار أبو الظّهور العسكريّ في الصّيف الفائت ، ومعركة مطار تفتناز قبل شهر» . «وَهمٌ آخَر ؛ يُضافُ إلى بقيّة الأوهام» .

انتبه إليه القائد اكثر هذه المرّة ، كانتْ ملامح الغضب ترتسمُ على وجهه ، قال له بصرخةٍ فاجأت الجميع : «قلتُ لكَ شاركتُ بنفسي في المعركَتين» . ردّ عليه زياد بهدوء : «وأنا أقول لك كم من الشّباب المُندفع المُتحمّس مات حول مطار أبو الظّهور دون أنْ يُطلِقَ رصاصةً واحدةً ، أنتَ واحدٌ من الّذين يتحمّلون دماءهم الّتي أريقتْ هناك ، لقد اصطادتهم بنادق القنّاصة كالذّباب ، في يوم واحدٍ قضى المئات منهم دون أنْ يعرف إلى أينَ هو متّجه ، هذه الحرب غادرة ، أنتم تغدرون بالشّباب في عمر الورود وتزجّون بهم في حربٍ غير متكافئة ؛ هذه الحربُ عمياء حينَ تفتحَ شِدقَيها لا تعرف من الّذي ابتلعتْه بينهما ، لا تفرّق بينَ شابٍّ وعجوز ، ولا بينَ رجلٍ وامرأة . أكثرُ وقودُ هذه الحرب من الأبرياء» . صمتَ زياد . بحثَ أبو دجانة عن رَدٍّ في جعبته فلم يجد ، أفحمه القول الجريء الذي لم يتعوّده من أحدٍ في السّابق ، تحرّكتْ شفتاه ابتغاء جملةٍ واحدةٍ يُطفِئ بها نار الغضب الّتي تستعر في أعماقه ، أو حتّى كلمة واحدة ، فلم يجدْ غيرَها ، قالها بعدَ أن اهتزّ جسده غيظًا : «اخرسْ» . لكنّ زياد تجاهل شتيمته ، وتابع بهدوءٍ كالسّابق : «أتعرف شيئًا آخَر أيّها القائد ، أنتَ لا تدري كم عائلةً يُتّمتْ ، أو رُمّلتْ ، أو هُجّرتْ يوم انقضاضكم الأعمى على المطار ، لقد

رحلتْ مدينة أبي الظّهور عن بكرةِ أبيها بمنْ ظلّ من أحيائِها هربًا من الجحيم الّذي رأوه منكم . . . أرأيت المدينة كم هي خاوية . . . تكادُ تسمعُ فيها نفسَكَ إذا دخلتَ حواريها المُهدّمة ، وبقايا صرخات الهاربين للظّفر بعمرٍ آخَر في مكانٍ آخَر . . . أتعرفُ من اضطرّهم لكلّ ذلك؟! أنتم!!» . صرخ أبو دجانة وهو يخبط على كتف زياد : «بل حرّرناهم من بطش النّظام» . تجاهل زياد غضبته : «بل زدتم نقمة النّظام عليهم . . .! وكنتم عشرة قادة بعشرة فصائل كلّ قائدٍ يقول إنّه من المبشّرين بالجنّة ، وكلّ فصيل يدّعي أنّه في الفردوس الأعلى» . «لا أريدُكَ ضمنَ جنودي» . التفتَ إلى رفيقه ليث وهو يبتسم : «قلتم لي هذه الدّبّابات تتبعُ مَن؟!» .

(٢٩)
الجهل بالخصم عدوّك الأوّل

في اللّيل ، تسلّل من فراشه ، تلقّاه أحد الحرس ، طلبَ منه أنْ يقول له كلمة السّرّ ، قالَها فأخلى له الطّريق ، توجّه بكامل سِلاحه ، كان رسيس الظّلام مسموعًا ، دروب وعرة ، وصخور ، وحُفر ، وأشجار مجثوثة ، وأصواتُ كلاب بعيدةٍ تنبحُ بشكلٍ مستمرّ ، يبدو أنّها جُنّتْ من لحوم الجثث البشريّة الّتي صارتْ تأكلها منذ أنِ اندلعت الحرب . كانَ لحمُ البشر بالنّسبة لها شهيًا ، ولذيذًا ، وجاهِزًا ، وموجودًا في كلّ مكان ، إلاّ أنّه مع كلّ هذه المميّزات كان يُصيبُها بالجنون ، لقد أصيبت الكلاب بالفعل بجنون البشر!!

قضى أكثر من ثلاث ساعات حتّى كاد يذهبُ سواد اللّيل ليستطيع الوصول إلى المعسكر الشّماليّ . كان قد دخل في حمى المعسكر منذ أكثر من ربع ساعة ، راقبه الحارس منذ أنْ وطَئتْ قدماه المكان ، تركه يمضي حتّى وصل إلى الشّجرة المعروفة ، كانَ أحدهم فوقها يُصوّب بندقيّته نحو جمجمته مباشرة ، بدا ذلك من خلال النّقطة الخضراء الّتي استقرّتْ في منتصفِ جبينه ، توقّف حينَ سمع حركةً غير اعتياديّة ، هتفَ به صوتٌ في تلك اللّحظة من خلفِه : «اركعْ بسرعة» . كان ضوء اللّيزر في هذه المرّة يتمركز في مؤخّرة يافوخه . ركع . «ارفعْ يدَيك» . رفع يدَيه . باغته الّذي من خلفه فيما استمرّ الّذي فوق الشّجرة بتصويب بندقيّته إلى رأسه .

اقتيدَ إلى سجنٍ في المُعسكَر ، كتمَ شهقةً امتلأ بها صدره حينَ اكتشف أنّ أبا القعقاع يمتلك سجنًا داخل معسكره ، وسجنًا يضمّ عشرات الأسرى كما هُيّئ إليه من أصواتهم ومن اتّساع المكان ، ولربّما كانوا بالمئات ، إذ لم تسمح له العتمة أنْ يعرفَ بالضّبط عدد المهاجع في هذا الصّفّ الطّويل منها .

في الصّباح اقتادوه مُكبَّل اليدَين من الخلف إلى القائد ، في الطّريق تعجّب من الدّبّابات الّتي تنامُ وادِعةً في المكان ، وفي صفٍّ آخر على مسافة ليستْ بعيدة استطاع أنْ يميّز ستّ مروحياتٍ جاثمة ناعسة . كشفتْ له نظراته الفضوليّة عن أصواتٍ نسائيّة في الجهة الغربيّة من المُعسكَر ، شاهدَ ثلاثًا أو أربعًا يتبادلن الإشارات من مسافاتٍ بعيدة ، فكّر ربّما هُنّ أسيرات أو زوجاتٍ للقادة أو الجنود هنا . بعد أنْ سارَ مع الحرس مسافةً كافِية بدا أنّهم مُقبِلون على مقرّ القيادة ، لكنّ القيادة هنا تتمتّع بميزاتٍ ملكيّةٍ من نوع خاصّ ؛ فجأةً ظهرت طريق مرصوفة بطريقةٍ هندسيّة مُتقنة ، وكانتْ الأشجار العالية تُظلّل الطّريق وتستدعي النّسمات اللّطيفة الهانِئة . تحتَ كلّ شجرةٍ كانَ هناك حارسٌ يقفُ مستعداً بشكلٍ تامّ . وبجانب كلّ حارس كان بإمكانك أنْ ترى عريشةً من الورد أو الياسمين تتسلّق الجذع الكبيرة ، أو تتدلّى من أعلى غصونها ، ويبدو أنّه كانَ يُعتنَى بها يوميًا حتّى تظلّ بهذه الإطلالة السّاحرة .

في الدّاخل كان أبو القعقاع يجلسُ إلى كرسيّ العرش وبطانته من الحرس والخدم والمستشارين يتحلّقون حوله في أماكن مخصّصة لكلّ واحدٍ منهم . أشارَ للحرسِ بأنْ يتركوه ، وقف أمامه مثلَ تلميذٍ نسي الكلامَ ، قال له أبو القعقاع بصوتٍ رخيم وهادئٍ وعميق ، وكأنّه تدرّب

عليه منذ فترة : «أعرفُ عنكَ كلّ شيءٍ يا زياد» كان حتّى هذه اللّحظة يخفضُ رأسه ناظِرًا في الأرض ، شجّعه الصّوتُ الملائكيّ على أنْ يرفع رأسه ، ويقول بخشوع : «جئتُ لأكون خادِمًا في كتيبتك» . «أعرف» . «وسأُخلِص لك إنْ ساعدْتني في تحقيق هدفي : «أعرف» . «أنا مقاتلٌ جيّد» . «أعرف» . فاجأتْه سلسلة الأشياء الّتي يعرفها عنه ، لكنّه للحظةٍ شكّ في الأمر ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ أنّه يحلم ، أراد أنْ يختبر جرأته من جديد ، فسأله بثقةٍ وهو ينظر في عينيه مُباشرة ، ويهزّ كتفَيه : «تعرفُ هدفي» . «تُعجبني هذه النّظرة ، أحببتُها فيكَ منذُ أكثرَ من عشر سنين» . زادتْ إجابته من حيرته ، فتجرّأ على أنْ يسأله من جديد : «دعكَ من نظرتي ، كيفَ تعرفُ هدفي؟!» . «أنا مَنْ صنعتُه لك؟!» . لم يتمالَكْ نفسَه ، ذهبتْ جرأتُه وثقته بنفسِه أدراج الأرياح ، راح يصرخ : «ماذا تعرفُ عنّي؟! من أنت؟!» . هُرِعَ إليه بعضُ الحرس ، أشار إليهم أنْ يتركوه ، تابع معه : «أنْ تنتقم لزوجتك ؛ أليسَ هذا ما تسعَى إليه؟!» . «بلى» . «هدفٌ وضيعٌ» . خمدتْ ثائرة زياد ، أدركَ أنّ عليه أنْ يكون أكثرَ هدوءاً ليواجه ما لا يعرف ، هتفَ في نفسه : «الجهل بالخصم عدوّك الأوّل» . خفضَ بصره ، صمت ، راح يحاول أنْ يتذكّر ، غاصَ عميقًا في الأحداث ، حفر في الذّاكرة ما استطاع لكنّه اصطدم بجدرانٍ سميكة تمنعه من أنْ يقبضَ على اللّحظة المناسبة الّتي يُمكن أنْ يستعيدَ فيها هذا الوجه : «أين رآه؟! في ساحة السّاعة بحمص؟! في المعتقل الأوّل؟! في القبو يوم أنْ هربوا من الصّواريخ المنهمرة كالنّيازك على بابا عمرو؟!» ، كانَ يقتربُ أحيانًا من الإمساك بهذا الوجه لكنّه يُفلت منه قبلَ أنْ يقبضَ عليه بلحظة . شيءٌ ما فيه قد شوّه الصّورة المطبوعة في الذّاكرة فجعل الرّبط بينها

وبين هذا الوجه الّذي أمامه صعبًا ؛ ربّما اللّحية الكثّة السّوداء الّتي تملأ وجهه ، ربّما العمامة البيضاء الملفوفة حول رأسه ، هناك أشياء كثيرة تغيّرتْ في الهيئة ، لكنّ شيئًا ما لم يتغيّر فيه ؛ صوته . راحَ يبحثُ في الأصوات البعيدة الغائرة ، لكنّ أصواتَ القصف كانتْ تبعثرها ، وأصوات المعذّبين في المعتقلات كانتْ تُشتّتها ، لم يكن الصّوتُ صافيًا بما يكفي لالتقاطه ، شعرَ بأسىً عميق ، كفّ عن ذلك ليقضي على الألم الّذي أصابه لفشله في محاولة التّذكّر هذه ، سالتْ حبّات العرق على جبينه ، أيقظه من كلّ هيمانه صوت أبي القعقاع : «لماذا تريدُ الالتحاق بمعسكري» . ردّ عليه زياد ساخرًا : «سمعتُ أنّ معسكرك يحفل بالجواري ، وهناك الأمور جفاف وقحط» . ندّتْ ضحكةٌ مجلجلةٌ من أبي القعقاع ، ثُمّ أتبعها بضحكة أخرى ، وأشار إليه بإصبعه وهو يقول : «أنتَ لعين ، أنتَ تُشبهني في أمورٍ كثيرة . . . حدسي فيكَ لم يخبْ . . . لدينا من الأطايب ما ليسَ لدى كسرى يا . . . يا زياد» .

مكثَ شهرًا في المُعسكَر ، كانوا قد أعادوا إليه أغراضه الّتي استَولوا عليها يومَ أنْ اقتادوه إلى هنا ، رافقه منذ أنْ خرج من حمص أحد الدّفاتر الّتي كان يُسجّل عليها طلبات الزّبائن من المنجورات ، كان الدّفتر عدد مئة ورقة ذا جلدة زرقاء كثيرة الثّنيات ، ولم تشغل الحِسابات غير الصّفحات العشر الأولى منه ، فطواها على أمل أنْ يعود يومًا ما فيستوفي نقوده من الّذين صنع لهم ما طلبوه . في الورقات الخالية من الدّفتر حرص على أنْ يُسجّل مشاهداته اليوميّة . مع الزّمن صار من المُقرّبين من أبي القعقاع ، قال له ذات مرّة : «لا تُجهدْ نفسكَ في معرفةِ من أكون ، دعكَ من الماضي ، لكَ اليوم ، وما يأتيك في غدك من رزق . . . يكفي أنّني أثقُ فيك وأعرفُ من تكون . . . لدينا

جميعًا أهدافٌ مشتركة . . . لو لم تكن الحرب قائمة لما كانَ بيننا أيّ شيءٍ مُشتَرك ، انظر إلى الحرب من هذه الزّاوية ، إنّها سوقٌ رائجةٌ في كلّ شيء ، ستعرفُ ما لدينا من البضائع قريبًا ، سندخِلك في بعضِ الاختبارات . . .» توقّف ، أرجع رأسه إلى الوراء ، وضحك بصوتٍ عالٍ ، ثمّ تابع : «تخيّلْ أنّني أُخبِرك بأنّنا سنختبرك قبلَ أنْ نُدخلِكَ إلى التّجربة ، لعنةُ الله على الحرب الّتي تتعامل مع الثّقة بشكلٍ جنونيّ ، فإمّا أنْ تكون مُطلَقة ، وإمّا أن تنتفي تمامًا ، أتعرفُ يا زياد ما معنى أن تنتفي تمامًا ، معناه أنْ أذبحكَ بيديّ وأتلذّذ بمنظر دمائك تسيل من رقبتك الطّريّة على أصابعي» . ثُمّ سكتْ . سكنَ الرّعبُ في عينَي زياد للحظة ، تخيّل المشهد ، يتمّ على يدي هذه الآلة المُوكّلة بالموت ، بلع ريقه ، عرفَ أبو القعقاع ذلك في عينَيه ، نظر إليه وهو يبتسم ابتسامةً لا تكاد تظهر ، ويغمز بعينه اليُسرَى : «لا تخف . أنا أعطيتُكَ ثقتي المُطلَقة» .

نهضا ، تبعهما عددٌ من الحُرّاس ، مشوا وراءهم في هيئةٍ منظّمة ، قال له : «تعالَ ، أريدُ أنْ أريك بعضَ المُفاجآت» .

(٣٠)

الحياة والموت لا يجتمعان في جسدٍ واحد معًا

بعدَ عشرة صباحات من ذلك الصّباح الّذي تلا هروبه ، وقفَ أبو دجانة ، قال لهم إنه سيقتحم حاجز الزعلانة . سأله ليث : «وماذا عن زياد؟!» . فردّ عليه أبو دجانة : «ماذا عنه؟!» . «إذا قابلْناه في معركةٍ ما» . «اقتلْه دون تردّد» . «كيف؟!» . «خائنٌ ؛ اقتلْه وعليّ دمه» .

تشكّلتِ القُوّة الّتي ستُهاجم حاجز الزّعلانة ، كان الاستِيلاء على هذا الحاجز يُمهّد لقوّات الثّوّار من أنْ تتمكّن من تطهير وادي الضّيف كاملاً من معسكرات العدوّ ، كان جنود أبي دُجانة حوالي سبعة عشر مُقاتلاً ، وتولّى مساعدته في القيادة ضابطٌ منشقّ عن الجيش ، وكانت الخُطّة تقضي مشاركة ثلاثة فصائل في العمليّة ، مُعسكَر (معرشمشة) حيثُ يتمثّل دوره في إعارة مدفع الهاون لمعسكر (معرشورين) ، بالإضافة إلى عددٍ من الصّواريخ المُضادّة للدّروع . وكانتْ قد وصلتْ بالفعل إلى المعسكر في السّاعة الخامسة من ليلة الهجوم أربعة صواريخ مضادّة للدّروع مع مدفع الهاون ، لكنّ المدفع لم يكنْ معه إلاّ قذيفتَان ، وعلى الجانبِ الآخر ، فإنّ مُعسكر الكتيبة السّادسة في الشّمال سوف يلتقيهم عند نقطة الصّفر من هذا الهجوم ، وستكون مهمّته بالتّنسيق مع المعسكر الشرقيّ هي تلقيم مدافع الهاون الّتي بحوزتهم بالقذائف وقصف الحاجز من تلك الجهة ، معسكر أبي القعقاع يحتوي على مئات قذائف الهاون والصّواريخ المُضادّة للدّروع . وتمّ الاتّفاق معهم على ذلك .

انطلق المُقاتِلون من المعسكر باتّجاه حاجز الزّعلانة الّذي يقع إلى الغرب منه. قال أبو دجانة لجنوده قبلَ أنْ يلفّ خريطة المكان ويضعها في جيبٍ بزّته العسكريّة: «سنجتمع مرّة أخرى في مغارةٍ قريبةٍ من الحاجز، لقد تمّ استطلاع المغارة وتأمين المكان حولها قبل يومَين. أمّا الكتيبة السّادسة كتيبة أبي القعقاع فستقتحم الحاجز من الجهة الشّماليّة وستقوم بدكّه بقذائف الهاون الّتي يملكونها وقد وافقوا على ذلك وعلى المشاركة في العمليّة بكلّ تفاصيلها. نحن معنا مدفع هاون ولدينا قذيفتان سنستخدمهما، سيكون استخدامهما علامةً للكتيبة السّادسة ببدء استخدام ما لديها من قذائف. سيكون ثلاثةٌ منّا على التّلّة الجنوبيّة من الحاجز بين الأحراش وبحوزتهم الرّشّاشات وفي السّاعة المُتّفق عليها سيبدؤون بإطلاق النّار على الدُّشَم الرّابضة أمام الدّبّابتَين الجاثمتين عند المُعسكر. سنخرج من المغارة في السّاعة الرّابعة فجرًا، وستكون الدّبّابتان أمامنا مباشرة، قاذِفو الآر بي جي سيكونون مستعدّين بانتظار إشارةٍ منّي، وكذلك قاذِفو الهاون، قنّاصو الرّشّاشات يعملون على استهداف الحاجز طوال الوقت، ويتوقّفون فقط حينَ نقتحمه، سنكون أربعةً في الاقتحام أنا ومُساعدي وليث وشادي، وخلفنا أربعةٌ للمُساندة.

عبّأ ليث مخزن الكلاشينكوف الّذي يتّسع لثلاثة وثلاثين رصاصة، وعبأ أربع باغات أخرى، ووضع في جيوبه مئة رصاصة مفردة وأربع قنابل يدويّة ذات مؤقّت، وسُجّلتْ في عهدته. مشى خارج المُعسكر قليلاً، مدّ يده إلى الجيبِ العلوي للبزّة العسكريّة، تناول وصيّته، قرأها بصوتٍ مرتفع، أحسّ بالطّمأنينة، نادى على شادي، وقرأها على مسامعه مرّةً أخرى، قال له: «الحياة تبدو عبثيّة». ردّ عليه

شادي : «الموت يبدو أكثرَ عبثيّة» . «نحن نُقاتِل عن عقيدة» . «وهم يقاتِلون كذلك عن عقيدةٍ ، ما من مقاتلٍ يخرج من بيته ولا تُخرجه عقيدةٌ من نوعٍ ما» . «يتساوى الخروج وتختلف العقائد» . «في الموت فائدةٌ يُمكن أنْ تخفّف الرّهبة من لقائه ؛ إنّه يجمعك بالحبيب الّذي طال بِعاده» . مرّتْ سريعًا في خاطرهما صُور الرّاحلين ، تنهّدا ، تأكّدا من جاهزيّتهما تمامًا ، ومضيا مع الرّكب .

خرجوا من فم المغارة كما لو كانوا أسودًا تخرج من غابها ، مشَوا في خطّ مُستقيم كالحزن الّذي يقصدُ القلب ، كان ليلاً عميقًا وقاتِمًا ، بردٌ قارسٌ جدًا ، والنّدى يملأ هواء الفضاء ، والغيوم تحجبُ ما تبقّى من نور ضئيلٍ عبر قمرٍ في نَزْعِه الأخير ، والسّماء تحبسُ بكاءً يكادُ ينطلق ، خُيِّل للمجموعة أنّها لو بكت في تلك اللّيلة على نصفِ مَنْ ماتوا دون أنْ يدروا لماذا ماتوا لأغرقتِ الأرض ، ولابتلع الطّوفان كلّ مَنْ فوقها . كانَ أبو دجانة يمشي في المقدّمة ، وخلفه السّرب العسكريّ . عند نقطةٍ مُعيّنة قال لهم بصوتٍ خفيضٍ لكنّه واضح : «تذكّروا الشّهداء والجرحى ، تذكّروا المُعتقلين الّذين يُعايشون الموت في كلّ لحظة ، تذكّروا صرخات المُغتصَبات ؛ إنّهنّ أخواتُنا وبناتنا . . . حينَ تضربون لا ترقبوا فيهم إلاّ ولا ذمّة كما لا يرقبون فينا إلاّ ولا ذمّة ، استحضروا النّيّة ، وتوكّلوا على الله» . أشار بعد كلماته هذه إشارتَين متفقٍ عليهما ، فانطلقَ عددٌ باتّجاه التّلّة الجنوبيّة برشّاشاتهم ، واتّخذ عددٌ المسار الشّماليّ بعتادهم ، ومضى البقيّة بخطّهم المستقيم .

في الطّريق بدأ دبيبُ الخوف يسري كالنّمل في أقدام ليث ، فكّر للحظة أنّ حياته واقفةٌ على حدّ جرف عالٍ ، وهو يدفعها بيدَيه لتسقط في قاع الجرف . حدّث نفسه : «أمجنونٌ أنا . . . أأقتُلُ نفسي بيدي . .

أُلقي بها إلى التّهلكة ، إذا كانَ ذلك انتقامًا لأبي ، أليسَ هذا هدفًا دنيويًا شيطانيًا دنيئًا يخالف ما تربّيتُ عليه من الإخلاص واستحضار النّيّة . . . ألمْ يقضِ أبي وصار إلى جِوار الله ، فما بالي أُتبع نفسي له؟! أليسَ من الأولى أنْ أبقى حيًا من أجل من تبقّى من عائلتي . . .؟! وشهادتي في الهندسة ألا يُمكن أنْ توفّر لي عملاً يُخرجني من هذا الجنون الّذي نُقدِم عليه ، مَنْ سيلومني إذا غادرتُ المعركةَ الآن؟! سيقولون جبان؟! ليكنْ ؛ جبان من أجل عائلتي وهذا عذرٌ مقبولٌ وغايةٌ شريفةٌ ، يكفي فقد الأب الموجع ، لماذا أجمع عليهم وجعَين لا يُطاقان؟! دَعكَ من كلّ هذا ؛ من أجلِ مَنْ تموت؟! من أجل القضاء على النّظام؟! النّظام لا يُمكن القضاء عليه بتكتّلات عسكريّة تتألّف من العشرات مبعثرة على مساحة الوطن الكبير ؛ حقًا ما نفعله هُراء؟! وأنا؟! فرد ، فردٌ واحدٌ ، لن يُؤثّر انسحابي من المكان على أحدٍ ، لا على الثّورة ولا على النّظام . . . ما أسهل المقارنة» . ظلّتْ عشراتٌ الأسئلة تنقر رأسه في تلك اللّحظات الفاصِلة ، كان الموتُ يرقصُ أمامه في الظّلام ، رآه على الحقيقة ، له عينان متوقّدتان ، وأشداقٌ كبيرة ، ومخالب حادّة ، والطّريق الّتي يسيرون فيها في خطّ مستقيم تمرّ عبر فمه ، كلّ مَنْ يُتابع سيره فيها سيضطرّ أنْ يدخل ذلك الفم ، ولا يخرج من الجهة الأخرى إلاّ أشلاءً وبقايا جسد . كم همّ في كلّ خطوةٍ ، أنْ يهرب ، أنْ يركض إلى أيّ جهة أخرى ، غير جهة هذا الخطّ الماضي إلى الحتف ، وقُبَيل لحظة الهروب والانِهيار ، تذكّر أباه ، تذكّر آخر أيةٍ قرأها في التّراويح ، سمعها بصوتِ أبيه الشّجيّ كأنّما يردّدها من أجله فحسب ، ها هو صوتُه آتيًا عبر الظّلام والغمام : «كُلّ نفسٍ ذائقة الموت» . غمره الصوتُ بالطّمأنينة ، أعادتْ إليه الآيةُ اتّزانه ، انقشعتْ

سحابة الخوف عن قلبه ، تعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم ، ومضى خلفَ رفقائه في الخطّ المستقيم ذاته!!

غطستْ أقدامهم في ظلمة اللّيل البهيم في الوحل ، مضوا . واجهتهم مصطبةٌ بارتفاع مترين ، اعتلاها أبو دجانة بخفّة ، تبعه ليث ، انحنى شادي وشبّك بينَ يدَيه ، اتّخذها ليث رِكابًا واعتلى المصطبة ، وهكذا فعل البقيّة . بعدَ المصطبة ربطوا على رؤوسهم شرائط حمراء ، قال أبو دجانة وهو يربطها لهم : «لباسنا كلباس العدوّ ، هذه ستميّزنا عنهم» . كانت الشّارة الحمراء بلا شعار ولا هُويّة ، فكّر ليث هذه المرّة : «هكذا هي الثّورة للأسف!!» . صلّوا الفجر فرادى . ومضوا .

تقدّموا في مجموعتَين ، كان أبو دجانة يُعطيهم الأوامر بإشارات دون أنْ ينبسَ بحرف . صار بينهم وبين الدّبابة الأولى ما يقرب من عشرين مترًا ، جثا على الأرض عددٌ منهم ، وصوّبوا باتّجاهها ، ليث وشادي وقفا خلف صخرةٍ ، جهّزا رَشّاشَيهما . كان المُعسكَر يبدو خالِيًا من الجنود كما يبدو ، أو أنّهم يغطّون في سباتٍ عميق . بدا المبنى الّذي من المفترض أنْ يناموا فيه هادِئًا تمامًا ، وإلى جانبه كذلك بدت بركسات الدّجاج صامتة دون بقبقةٍ واحدةٍ لدجاجةٍ يتيمة!! تقدّم أحدهم واتّخذ زاويةً مُقابلةً تمامًا للدّبّابة الأولى ولقّم قاذف الصّواريخ ، فيما ابتعدَ عنه الآخَر مسافةً بسيطة وراح يفعل فِعل صاحبه ، رفع أبو دجانة إشارته لهما لتبدأ المعركة ، أطلقَ الأول صاروخه ، وهو يهتف : «الله أكبر . . . الله أكبر . . .» دوّى انفجارٌ كبيرٌ في الدّبّابة يُوقظُ الموتى ، شبّ حريقٌ هائلٌ فيها ، وتصاعدَ فوقها لهبٌ حوّل المكان إلى نهار شديد الإضاءة ، علتْ أصواتُ التّكبير ، استيقظ الجنود في المبنى ، وبدأ الرّصاص يُلعلعُ من التّلّة الجنوبيّة ، بدأ الجنود يخرجون ويتّخذون

مواقعهم من نوافذ المبني ، وبعضهم ينزل إلى السّاحة حيثُ الدّبّابة المحترقة والأخرى السّليمة . كان ليث وشادي خلفَ الصّخرة يُطلِقون صَلْياتهم باتّجاه كلّ ما يتحرّك أمامهم في مجال الرّؤية . تحصّنَ عددٌ داخل الدُّشَم ، وراح الرّصاص يُجيبُ الرّصاص . أطلقَ القاذف الثّاني صاروخه ، كانتْ هذه إشارةٌ للكتيبة السّادسة بأنْ تبدأ بإطلاق قذائف الهاون باتّجاه الحاجز ، انتظر أبو دجانة أنْ يسمع أصوات تلك القذائف لكنّ ذلك لم يحدث . صوّب ليث وشادي رصاصاتهما في كلّ اتّجاه ، كانت الدّبّابة المحترقة قد بدأتْ تتآكل ، وصوت احتراقها ورائحته يصل إليهما ، كانت السّاعة السّادسة فجرًا حينَ أطلقَ أحد أفراد الإسناد قذيفة هاون باتّجاه الدُّشَم ، تطايرت الأكياس في الفضاء ، اختلطتْ أجزاؤها بالأشلاء والدّماء ، وتناثرت الرّمال والأتربة ، وقُتِلَ مَنْ خلفها . كان أبو دجانة ما زال ينتظر من الكتيبة السّادسة أنْ تبدأ عملها ، لكنّ أمرًا ما قد حدث ، بدأ يشكّ ، ارتقى الشّكّ ليُعانق اليقين ، لقد صار الأمر مكشوفًا ، لا بُدّ أنّ هناك خيانةً ما ، أراد أنْ يشتمَ أبا القعقاع ، ويشتم اللّحظة الّتي فكّر فيها بالتعاونَ معه .

انتظر ليث وشادي وخلفهما اثنان إشارةً من أبي دجانة للانغماس في المواجهة ، لكنّ الخوف من أنْ يكون المعسكر ما زال مليئًا بالجنود وأنْ يُبادَ جنوده ، جعله يتريّثُ أكثر وينتظر أملاً ضئيلاً في قيام الكتيبة السّادسة بدكّ الحاجز بقذائف الهاون . بدأ صوتُ الدّبّابة الثّانية يأتيهم من هناك . لا بُدّ أنّ جنود العدوّ قد تمكّنوا من الوصول إليها وتشغيلها ، إذا تحرّكت وبدأتْ بإطلاق قذائفها فسيُقضَى على مجموعة أبي دجانة في دقائق معدودة ، شدّ أبو دجانة على أسنانه : «أينَ أنتَ يا أبا القعقاع ، أين قذائفك ، سنُسحَق تحت جنازير الدّبّابة الثّانية إنْ لم

تُسارِعِ بإنقاذنا» . مرّتْ دقائق كأنّها عقودٌ طويلة ، عاد أبو دجانة يُحدّثُ نفسه : «لقد بدأت الكفّة تميل لصالح جنود العدوّ ، لا بُدّ أن نتصرّف ، هل نهرب؟! هل ننغمس ، حتّى آخر قطرة منّا؟! هل نكتفي بما حقّقناه وننسحب» . جاءه الرّدّ على تساؤلاته سريعًا ، استدارتْ سبطانة الدّبّابة الأولى باتّجاه الجنوب أولاً ، أطلقتْ قذيفة ، فبعثرتِ التّلّة وقتلتْ جنوده الثّلاثة المتمركزين فوقها ، ثُمّ راحت تمسح الدّائرة عن يسارها متّجهة نحو الشّرق ، بدأ الرّعب يدبّ في أوصال الجميع ، صار الأمل في أنْ يأتي من جهة الشّمال شيء ، جنديّ ، أو قذيفة ، أو حتّى صوت ، صار مستحيلاً أو شبه مُستحيل ، عادَ أبو دجانة إلى التّفكير في مواجهة الأمر ، حينَ فكّر كيفَ سيتعامل مع أبي القعقاع بعد انتهاء هذه المعركة ، جاءتْه رصاصةٌ في الرّأس فسقطَ مُضرّجًا بدمائه . الثّلاثة الّذين كانوا خلفه ولّوا هارِبين لا يلوون على شيء . نظر ليث وشادي إلى قائدهما ، قال شادي : «اثبتْ مكانَك يا ليث» . توجّه نحو أبي دجانة ، أرادَ أنْ يسحبه بعيدًا عن المكان ، لكنّ زخّات الرّصاص راحتْ تئزّ في أذنيه ، وهي تخترق الهواء وتُخطِئه ، تركَ القائد ، انبطحَ على الأرض ، وزحفَ باتّجاه ليث ، سأله : «ما العمل؟!» . «ننسحب ، كلّ من معنا إمّا قُتِلوا أو انسحبوا» ردّ عليه : «سيأتينا الرّصاص في الظّهر ، إنّه أصعبُ ما يُمكن أنْ تعيشَ معه ؛ موتٌ ذليل ، أو عيشٌ جبان» . «فما رأيُك؟!» . «نقاتل حتّى نموت» . كانت الدّبّابة الثّانية في هذه الأثناء قد أطلقتْ قذيفتها الثّانية ، تفتّت الصّخرة الّتي يحتمون خلفها ، دخلت شظايا الصّخر والحجارة في صدورهم ووجوههم وعيونهم ، انبطحوا تحتَ الرّكام ، حاولوا أنْ يُبصِروا فلم يستطيعوا . نجحوا في التقاط أنفاسهم بعد حين واستعادةِ رباطةِ جأشِهم عبر الدّماء الّتي

تسيلُ على وجوههم . «الدّبّابة هي الّتي تفرض المعادلة الّتي تريدها ، إنْ ظلّتْ تُطلق جحيمها هُزمنا ، وإنِ استطعنا أنْ نُعطِبها فلدينا فرصةٌ في مواجهة جنودهم والتّغلّب عليهم ، وتطهير الحاجز منهم . استدار مدفع الدّبّابة نحو اليسار قليلاً ، لربّما شاهد قائد الدّبّابة بعضًا من مقاتلينا في تلك الزّاوية ، أطلقَ جحيمَه ، انفجرت القذيفة بالقرب من مُقاتلَين آخَرَين ، سَمِعَا صوتَ أحدهما وهو يصرخ : «رجلي . . . رجلي . . .» أمّا الثّاني فقد تحوّل في لحظاتٍ إلى أشلاءٍ تساقطَتْ على مسافات متباعدة ، إحدى رِجلَيه علقتْ على شجرةٍ تبعدُ عنهما عشرة أمتار . ركضَ شادي نحوهما ، كان الأوّل قد انشطر نصفَين ، لم يلحق إلاّ بنصفه الثّاني ، سَجّى عينَيه ، وعاد إلى المُصاب الثّاني ، كان ينطق الشّهادَتَين ، تركه يُتمّهما ، ثمّ أسبلَ عينَيه ، في تلك اللّحظة استدار مدفع الدّبابةِ عائدً إلى اليمين قليلاً ، لقد كشفَ حركة شادي فاستدلّ على موقع ليث ، أطلقَ جحيمه في غياب قذائف الكتيبة السّادسة فانفجرتْ في ظهر ليث الّذي كان يحتمي بما تبقّى من الصّخرة ملتصقًا بها ، في لحظة الانفجار كان قد تناول من جيبه قنبلةً يدويّة ، سحبَ مسمارها ورماها باتّجاه الدّبّابة ، أحسّتِ الدّبّابة بدغدغة التّراب تحت جنازيرها لحظةَ انفجار القنبلة!! الكفّة تميل لصالح العدوّ بشكلٍ مُتسارِع ، هربَ آخَرون من جنود أبي دُجانة ، نادى عليهم شادي : «توقّفوا . . . قاتِلوا يا جُبناء . . . عودوا يا نساء» لكنّ صوتَ الموت في قذائف الدّبّابة كان يزيدُ من سرعةِ هروبهم .

سقطَ ليث ، كانَ البردُ شديدًا ، العرق يتصبّب داخله ، نيران تشتعل في ظهره ، سخونةُ جهنّم كلّها تلتفّ على عنقه وكتفَيه ، وبردُ الأقطاب المتجمّدة يسري في بقيّة جوارحه ، تكثّفَ الهواء أكثر ، الغيوم

راحتْ تتلبّدُ في السّماء وتتركُ القمر في ضوئه الشّاحب خلفَها، بدا أنّها ستُمطِرُ خلالَ لحظات، مع شقشقة الضّوء، انهمرَ المطر. مزيدٌ من الوخزات في ظهر ليث. كانَ ملقًى على جانبه لا يستطيع الحراك، بدأتِ الحياة تنسربُ من جسده الجريح، دماؤه جبلتِ التّراب، ولوّنت الحجارة المتناثرةِ تحته، مسألة الموت مسألة وقتيّة، الحياة والموت لا يجتمعان في جسد واحد معًا، إذا نجح الموتُ في هدم الحاجز الّذي تبنيه الرّوح، فسيبدأ بالانتشار مثل الغاز خفيفًا دون أنْ يُرى، لكنّه سريع الانتشار، عندها ستوقن الحياة أنّه لم يعد لها مكانٌ هنا، فتنسحب راضيةً بتبدّل الأشياء، وبقوانين القدر المحتوم.

سماءٌ بيضاء، لم يعد يرى ليث غير البياض في الأفق، قفزَ شادي إليه، لقّنه الشّهادَتين، لكنّه لم ينطقْ بهما، هزّه من كتفه، لم يحرّكْ ساكنًا ولم يُصدر همسةً واحدة، أيقنَ أنّه غادر الحياة، لم يكنْ غيرهُ في المكان بعد أنْ هرب الآخرون، قدّر من تلقاء نفسه أنّ إنقاذ الجرحى أهمّ من سحبِ جثث الشّهداء، سحبَ أوّل جريح، حمله بينَ يدَيه، وسارَ به مسافةً كافية آمنة، وفعل الشّيءَ ذاته مع جريحٍ آخر، كان مُتعبًا، مفجوعًا، حزينًا كأنّ كلّ بؤس الأرض قد اعتلى كتِفَيه، نظر إلى الجثث المتبقيّة المتوزّعة على أرضِ المعركة، أيقنَ أنّهم استُشهِدوا باستثناء هذين الجريحَين، فكّر في أن يتدبّر أمرهما ويُعيدهما إلى المُعسكر، نظرَ إلى صاحبه على بعدِ عشرةِ أمتار منه، كان مُسجًى على جانبه بدون حراك، بكى، ارتجّ جسده وهو يبكي، مشى مبتعدًا عن الجثث باتّجاه الجريحَين، رمقه ليث من خلال المطر والضّباب والضّوء الّذي بدأ يغمر المكان، لم يكنْ قد مات لكنّه لم يكنْ قادرًا على الحراك أو الحديث، همّ بأنْ يفتح فمه ويصرخ بكلّ ما

أوتي من قوّة : «أنا هنا يا شادي لم أمتْ ، عُدْ إليّ وأنقذْني» لكنّه لم يقوَ على أنْ يفوهَ بحرفٍ واحدٍ ، راقبَ من خلال عينَيه الزّائغتَين حركة رجلَيه ، كادَ قلبُه يسقطُ ميّتًا حينَ رآهما تولّيان مُبتعدَتَين عنه ، أراد أنْ يحرّكَ يده من أجل أنْ يراها شادي ، لكنّه كان مشلولاً تمامًا . وقفَ العجز حائلاً بينه وبين الظّفر بفرصةٍ ممكنةٍ للحياة ، راحتْ خطوات شادي تبتعد أكثر ، وراحتَ الحياة مع خطواته تفعل الشّيء ذاته . في لحظةٍ فارقة لا يدري غير الله كيف تجيء ، توقفتْ قدماه ؛ ما الّذي يحدث ، لقد أرادَ أنْ يودّعَ رفيقه بقبلةٍ يفرّغ فيها كلّ ما يُكنّه له من محبّة ، لقد عاد بالفعل ، ها هي خُطواته تقترب منه ، ها هي شمسُ الحياة قابلةٌ لأنْ تُشرِقَ من جديد . . . ما أعظم الشّعور بعودة الحياة متمثّلةً في خطواتٍ صديقٍ بعد أنْ قضى عليها الموت!! تابع شادي اقترابه من جسد صديقه ، حين وقفَ على رأسه ، نظر إلى فمه فأصابتْه دهشةٌ مُفاجِئة ، جثا على رُكبتَيه ليتأكّد ، بلى ، لقد رأى زبدًا يخرج من فم ليث ، وبعض البخار من برودة الجوّ ، كادَ يصرخُ من الفرحة ؛ إنّه حيّ ، كانتْ عيناه تتشبّثان بآخر خيطٍ من خيوط الحياة في الثّوب الّذي لم يبقَ فيه خيطٌ واحدٌ تقريبًا . جسَّ بيده عرقَه ، فلم يتأكّد أنّه على قيد الحياة ، لكنّ البخار الّذي يخرج من فمه يؤكّد له ذلك . . . كانت الدّبّابة ما زالتْ تُزمجر بقذائفها ، أمسكَ جذعه بكلتا يديه ، تمنّى لو أنّ أحدًا ما زال حيًّا وقادرًا على أنْ يُساعده في إنقاذ رفيقه ، لكنّهما كانا وحدهما ، سحب ذراعه اليُمنى فوقَ كتفه الأيسر ، واستعان بما يملك من قوّة ونهض على هيئة الرّكوع كي لا تُصيبهما قذائف الدّبّابة ، ومضى بصاحبه نحو النّجاة . ظلّ يهتفُ طوال الطّريق في أعماق نفسه : «ليث لا تمتْ . . . أرجوك يا صديقي . . . لا

تمتْ . . . لم يبقَ لي في هذه الدُّنيا سواك ، أتعرفُ معنى أن أفقدَ كلّ أخواتي وأمّي دفعةً واحدةً ؛ إنّها مأساةٌ لا يُمكن أنْ أتصوّرها ، لا يُمكن أنْ أتخيّلها حتّى لا أهلكَ بسببها ، لكنّك جئت . . . فكنتَ عائلتي الجديدة ، وشعرتُ معك بأنْ جرح الحُزن الأبديّ يُمكن أنْ يلتئم إذا مسحَ صديقٌ وفيٌّ مثلكَ بيده عليه ، أيّ قلب يُمكنه أنْ يفقد عائلته مرّتين؟! أنا لا أستطيع ؛ ها أنذا أقول لك ؛ أنا لا أستطيع ؛ إذا أردتَ أن تموت ، فلنمتْ معًا ، وليكنْ ذلك احتِفال موتنا وانتقالنا إلى عالَم آخر ، ربّما يكون أفضل ، وربّما يكون غير ذلك ، لكنّه على كلّ الأحوال لنْ يكونَ أكثرَ سأمةً وضجرًا وكآبةً مِمّا نحنُ فيه» .

نُقلَ بعدها ليث إلى طرسوس ، وعُولج في مستشفياتٍ ميدانيّة ، ثُمّ نُقلَ إلى أخرى ، لكنّ نصفه الأسفل تخلّى عن الحركة إلى الأبد . وظلّ شاهدًا على لحظاتِ الخيانة الّتي لا تأتيك إلاّ مِمّن كنتَ أشدّ النّاسِ ثقةً بهم!!

(٣١)
الحرب لا تعترف بالحُبّ!!

في اللّيلة نفسِها الّتي اجتمعوا فيها عند الرّابعة فجرًا في المغارة كان أبو القعقاع قد ولّى (زياد) على سجن النّساء في المعسكر، كانَ السّجن يضمّ حوالي خمسين امرأةً أسيرةً متفاوتات في الأعمار، وهو ما تبقّى من عدد كبيرٍ منهنّ وُجِدن في معارك الشّمال يُقاتِلْنَ ضدّ زحف جيشه، أو أُلقِي القبضُ عليهنّ بتهم نقل المعلومات إلى جهاتٍ عدوّة. كان العدد الأكبر قد تحوّل إلى زوجات لجنوده، قاموا باختيارهنّ اختيارًا بعدَ مرور الجنود عليهنّ واحدةً احدةً. الأربعون اللّواتي بقين صرنَ تحت حراسة (زياد) ومعه اثنان آخَران، حدثَ ذلك في تلك اللّيلة، قال له أبو القعقاع: «الحربُ خدعة، لن نُطلق قذيفة هاون واحدة باتّجاه حاجز الزّعلانة، ولن يتقدّم جنودنا باتّجاهه خُطوةً واحدة، إذا قُضي على أبي دُجانة وكتيبته فستُصبح المنطقة الشّرقيّة جاهزةً لسيطرتنا، دَعهم يتقاتلون ونحن نأخذ الغنائم. سأتوجّه للشّمال في بعضِ المهمّات القتالية، النّساء تحتَ قيادتك، سأنظر مع مجلس الشّورى في أمرهنّ حين أعود، وستُطبّق عليهنّ أحكام الحرب، فإمّا أنْ يُبَعن أو يتحوّلن إلى سبايا وإماء، ولكن احذر من جمالهنّ فهنّ يلسعنَ بشكلٍ جيّد». قال له العبارة الأخيرة وضحك.

تناهتْ إليه أصواتهنّ من خلف البوّابة المغلقةِ على بَركسٍ عالٍ من الطّوب المُتهالك، كُنّ أشبه بدجاجاتٍ محبوساتٍ في قفصٍ كبيرٍ،

أو نعاج في حظيرةٍ قذرة . راحَ يتمشّى على طول البركس ، كان الحارِسان الآخَران يُرابطان أمام البوّابة . طرقتْ إحداهنّ الباب الحديديّ ، وصرخت : «أريدُ أنْ أذهب إلى الحمّام» . تجاهلها الحارسان ، لكنّ (سَمَر) استمرّتْ بالطّرق على الباب ، ركضَ أحدهم إلى زياد : «هُناكَ امرأةٌ تريدُ الذّهاب إلى الحمام» . تذكّر كلمة أبي القعقاع له عنهنّ فابتسم ، مشى إلى البوّابة ، أمر أحد الحارسَين أنْ يفتحها ، كانت الدّجاجات بالفعل يتكوّمْن في مساحةٍ ضيّقة أمام البوّابة ، لم يرَ من قبلُ هذا الكمّ من النّساء دُفعةً واحدة ، منذ رحيل زوجته ، لم ينظر في عينَي امرأةٍ قطّ . صرخ بصوتٍ غاضبٍ مُصطَنع : «مين؟!» . تقدّمتْ إحداهنّ : «أنا» . «اطلعي» . خرجت سمر ، أمر الحارسَين أنْ يُغلقا البوّابة ، وتَبِعها ، في الطّريق لَبِسَها الشّيطان ، قفزَ أوّلاً إلى ردفَيها ، ثُمّ تمثّل في مشيتها ، ثُمّ تهيّأ في كلّ شيءٍ ماثلٍ أو مُتخيَّل . لعنَ الشّيطان ، لكنّه نزل عن أردافها ليجاوره في الطّريق ، ويحادثه كصديق : «قليلٌ من الخمر لا يُسكر» . أعجبتْه عبارة الشّيطان ؛ إنّه طريّ القلب ، وإنْ كان موجوعًا ، الأوجاع يُغرقها الشّراب . ردّ على الشّيطان : «إنّها أمانة» . «ومن قال لك أنْ تخون الأمانة ، أنتَ ظمِئ ، وقبلةٌ واحدةٌ تُطفِئ العطش ولا تقضي على الماء» . «إنّ لها حرمة» . «إنّها جارية ، ومِلكُ يمين ، ولكَ ما تشاءُ منهنّ في الدّين» . أقنعه هذه المرّة ، هزّ رأسه ، ولمعتْ عيناه وهو يُتابع مشيتها الفاتنة ، خطر بباله أنْ يسأل صاحبه : «كم عمرها؟!» . فأجابه دون أنْ يسأل : «اكتشفْ بنفسك» . مشى مُسرعًا ليسبقها ، صار أمامها ، التفتَ خلفه فرآها حوريّة تدعوه إليها ، أنطقها الشّيطان وإنْ لم تنطق : «هيتَ لك» . كانت في أوائل العشرين من عمرها ، وردةٌ جميلةٌ لم تُمسّ ، وثمرةٌ ناضجةٌ

لم تُقطَف . تراجع الشّيطان إلى الوراء قبل أنْ يصلا إلى الحمّام ، قال له : «هي لك ، ومن حقّك ، تستحقّ جائزةً على كلّ هذه اللّيالي الّتي قضيتَها في جبهات القتال محرومًا ؛ إنّها جائزتك» .

فتحتِ الباب ، لم تكدْ تُكمِل إغلاقه حتّى دخل خلفها وحشر نفسه في الجزء المتبقّي من انفتاح الباب ، أغلقه هو . نظرتْ إليه مرعوبة : «ماذا تفعل؟!» . «أريدُ قبلةً واحدةً» . تراجعتْ في المساحة الممكنة ، انخلع قلبُها ، راحتْ أنفاسُها تتلاحق ، جفّ ريقُها ، تمنّت أنّها لم تطلب هذا الطّلب المُميت ، فكّرتْ بالهرب ، لكنّ الباب كان مُغلَقا ، فتحت فمها مرّة أو اثنتَين ، ثُمّ أطلقتْ صرخةً مدوّيّة ، سارعَ إليها ، وضع يدها على فمها ، ونظر إليها بغضبٍ شديد : «أنتِ مجنونة ، إذا صرختِ مرّة أخرى فسأفرّغ كلّ الرّصاصات في رأسِك» ازداد هلعُها واستسلامها معًا ، أدار وجهها إلى الحائط ، صار ظهرها ملاصِقًا لصدره ، كان لا يزالُ يُحكم يده اليُمنى على فمها ، قال له الشّيطان : «أسرعْ ، الوقتُ ليسَ في صالحك ، وهي من حقّك الآن ، إنّها جاريتك ، تستطيع أنْ تفعل بها ما تشاء» . لمعتْ عيناه ، كانتا تنضحان بالشّهوة ، صدّقَ مقولة رفيقه : «إنّها جاريتك» . مزّقَ ثوبَها بيسراه ، فبان له كتفها ، أبيض ، ناعمًا ، قال له الشّيطان : «يا لَها من جائزة» . فردّ عليه : «يا لَها من جائزة» . واصلَ تمزيقَ ثوبها حتّى بانَ جسدها كاملاً ، رآه يدعوه إليه بكلّ تفاصيله ، صدّق من قال : «الشّيطان يكمن في التّفاصيل» . ضحكتْ غريزته ، وتدفّقَ فيه ماء الفحولة ، انحنى ليبدأ ، فظهرتْ له عينا زوجته ، ذات العينَين الذّبيحتَين ، كانتا ترجوانه أنْ يكفّ ، نفضَ رأسه ليُبعد صورتها عنه . ورآها من جديدٍ قنبلةً من اللّذّة تكاد تنفجر به ، مالَ بصدره الثّقيل على ظهرها ، كاد يسحقها ، شهقتْ

تستجلب الهواء العزيز في لحظة اختِناق ، كانتْ أنفاسُه تتلاحق كأنّها وحوشٌ بريّة تجري في مدىً فسيح ، سمعتْ صوتَ شهقاته المتفجّرة ورائحة الزّبد الكريهة الّذي يسيل من زوايا فمه ؛ زكمتِ الرّائحةُ أنفَها فأصابتْها حالةُ غثيان . جاءه صوتُها مكتومًا من تحته : «أرجوك لا تفعل» ، كان صوتًا ذليلاً مُستسلِمًا جعله يتفجّر بالشّهوة أكثر من ذي قبل ، تمنّى أنْ ترجوه مرّة أخرى لتدفعه أكثر إلى ما يريد ، وبالفعل جاءتْه كلماتها الجريحة من جديد : «أرجوك لا تُلحق بي العار ، أتوسّل إليك بكلّ من تحبّ» فاستعرت فيه الشّهوة ، راح يُباعد بينَ رجلَيها إذ ذاك ظهرتْ له عينا زوجته ، كانتا غاضبَتين هذه المرّة ، وسمعها تتحدّث ، هذه الّتي نادرًا ما كانتْ تتحدّث إليه في حياتها ، ها هي تخاطبه في مماتها : «لا تهدم ما بنيتُه لكَ في الجنّة» . جاءه صوتُ الشّيطان هذه المرّة : «الجنّةُ اختراع الواهمين ، هذه جنّتك» . «لا تُصدّقه ، إنّه يخدعني ويخدعك ، أنا أحبّك ، أتفعل ذلك بي وأنا متّ على حُبّك!!» . أجابها وهو يخفض طرفه : «الحرب لا تعترف بالحُبّ يا حنين ، هذا ما اكتشفْتُه ، ولديّ حاجاتٌ إنسانيّةٌ لا يُمكنني تخطّيها» . انحنى ثانِية ، رهز جسمُه ، سقطتْ قطراتٌ من الدّم على أرضيّة الحمّام ، رهزتْ إليتَاه أكثر ، وكانتْ صرخات الألم من تحته تشقّ الفضاء!!

عادتْ كسيرةً ذبيحةً إلى البركس ، كانت قد فقدتْ إنسانيّتها ، كلّ أنواع الألم الممكنة والمُتخيّلة في الدّنيا لا يُمكن أنْ توازي هذا النّوع الفريد من الألم . إنْ كانت كلّ الجراح في الجسد ، فهذا الجرح في الرّوح ، لقد حفر عميقًا هناك ، إنّه لا يُمكن البرء منه أبدًا ، شعرتْ أنّها مجموعةٌ من ورقٍ أصفر قديم مُزّق في لحظة ، وأنّها عمودٌ من

الخشب المنخور أُضرِمت فيه النّار في غمرةٍ وذهول. تلقّتْها بقيّة الأسيرات، رأينَ ما حدثَ في وجهها الشّاحب، وخطوط الدّموع الّتي لم تجفّ على خدودها، ونظرتها الذّاهلة، وخطواتها المتباعِدة، رمتْ نفسَها على الأرض، وراحتْ تنشجُ بصمت، التفّتْ عليها مجموعة من الأسيرات، رُحْنَ يمسحْنَ دموعها، ويُصبّرْنها، ظلّ جسدُها متكوّرًا كقطّة أصابها بردٌ شديدٌ فراحتْ ترتعش بلا توقّف.

في اللّيل، بعد أنّ نامَ الجميع، كان ألُمها يزداد، ظلّ جرحُها ينزف، وروحُها تتردّد في أعماقها مثل عصفور ضعيف حُبِس في بئرٍ مُغلَقة، قامتْ إلى الزّاوية تجرّ رجلَيها، كان الألم في أسفل البطن، وضعتْ يدَيها على بطنها لكي تحاول التّخفيف من أمعائها الّتي تتقطّع وتعذّبها، لكنّ الوجع لم يكفّ عن الصّراخ، بحثت عن كأس ماءٍ تُطفِئ به اللّهيب، وجدتْ بقايا في كأس مُهمَل، شربتْه، كان صديدًا، مُرًا لم تستمرِئه في المجرى.

تذكّرتْ يومَ أنْ وقعتْ في الأسر، كانتْ آمنةً في القرية، حينَ دخلتْها مجموعة أبو جُريج المُسلّحة المشؤومة في ذلك اليوم، كانتْ تدّعي أنّها دخلت القريةَ من أجلِ حمايتها، وفرضتْ قوانينَها عليهم بقوّة السّلاح، صاروا يأكلون ويشربون على حسابِ أهل القرية الفقراء، بل إنّهم اختاروا أحسنَ بيوت القرية، واضطرّوا أصحابَها أنْ يُغادِروها ليتّخذوها مقرّاتٍ لهم بحجّة حماية الباقين. بعدَ أسبوعَين من تلك الحادثة بدأ أهل القرية يتذمّرون، كان مصيرُ كلّ من يعترض أو يتذمّر طلقةً في الرّأس تأتيه من الخلف. سكنَ مَنْ تبقّى خوفًا. لكنّ ذلك لم يكن الأسوأ، ما حدث بعد ذلك لا يُمكن أنْ يُقارن بطلقاتٍ معدودةٍ في الرّأس.

استيقظَ أهل القرية الوادعة ذات صباح على حربٍ حقيقيّة، كانتْ أصوات الرّشّاشات وقاذفات الصّواريخ ومدافع الهاون تدوّي في كلّ مكان، لقد تحوّلت القرية إلى ساحةِ نزاع بينَ مجموعتَين مُسلّحَتَين، دخل أبو القعقاع طرفًا جديدًا في النّزاع، قاومه أبو جريج ومجموعته المُسلّحة، وغرقتِ القرية في أتونِ الموت، كانتْ مثلَ طائرٍ جريح يتنازع على اصطياده ألفُ رام بسهم، استمرّ النّزاع بينَ الطّرفين ثلاثة أيّام، ماتَ خلالها العشرات، وهُدّمتَ البيوت، وهربَ الكثيرون من الجحيم، ولم ينتهِ النّزاع إلاّ حينَ تدخّلت طائرات الميج لصالح أبي القعقاع فحرثت مواقع أبي جريج حراثةً، وأبادتهم عن بكرةِ أبيهم!!

كانت القرية بعد ذلك قد أصبحتْ خرابًا، قُتل مَنْ قُتل، وأُسِر مَنْ أُسِر، وأخذت النّساء سبايا، لا زالتْ تتذكّر كيفَ لجأت هي ومجموعة من نساء القرية إلى بيت سلم من وحشيّة الصّواريخ، وأغلقْنَ الباب بالمتاريس خوفًا من النّزاع المُحتدم بين الفصائل، لكنّه تطاير في لحظةِ اقتحام سريعة، ووقفَ شخصٌ ما ضخم الجُثّة على بابه المُحطّم كان يبدو أنّه الأمير، كانَ يحمل قاذفات الآر بي جي بشكلٍ متقاطع خلفَ ظهره، ويعتمر قبّعة سوداء من الصّوف تُغطّي وجهه، وتنزل من تحتها لحيته الطّويلة، ويلبسُ لباسًا عسكريًا تامًا، وخلفه عددٌ آخر من المُقاتلين، لو كان للموت تعريفٌ جيّدٌ لكان هذا هو المنظر الّذي رأته يومَها، ولو كان للكره أنْ يحتلّ مكانًا، فلن يكون في مكانٍ أكثرَ وضوحًا منه في وجوههم. ضحك حينَ رأى مجموعةً من الخائفات تحتمي الواحدة منهنّ بالأخرى، قال لحرسه من خلفه: «إنّهنّ نساء؛ غنيمةٌ من النّوع النّاعم، لكن احذروا فهنّ يلسَعن بشكلٍ جيّد».

في الصّباح ربّت أبو القعقاع على كتفه: «حسنًا فعلت». رجف

قلبه ، حدّث نفسه : «هل عرف بما حدث؟!» . استعاد هدوء القلب ، وسأل قائده : «ماذا تقصد؟» . نظر إليه أبو القعقاع بعنَين مُحدّقتَين ، ورأسٍ مائل ، ثُمّ حنى جذعه ، وهمس في أذنه : «عملك أمس» . عاد إليه ارتجافُ القلب ، سأله كمن يريد أنْ يُطمْئن نفسه ولو آنيًا : «حراستي؟!» . ردّ عليه وهو يغمزه : «نعم ، وهل هناك شيءٌ آخر!!» .

(٣٢)
إنّ منافع الحرب تُضاهي ويلاتها

ليس للمأساة وجهٌ واحدٌ ، كان المجلس يُعقَد كلّ يوم جمعة ، بعدَ العصر يجلسُ أبو القعقاع تحت شجرةٍ عتيقة ، يُمَدّ من تحتها بِساطٌ أحمر يصل إلى ثلاثين مترًا ، وفوقه تُوضَع طاولةٌ من خشبٍ بُنّيّ غامقٍ يلمع تحت أشعّة الشّمس ، وفوقها عددٌ من الشّراب الفاخر والفواكه المتنوّعة ، يجلسُ هو في مقدّمتها ، وعن يمينه يجلس ما بين ثلاثةٍ إلى خمسة .

ليلةَ الموعد ، تقوم زوجةُ أحد الجنود بمساعدة اثنتَين أُخرَيَين ، بتحميم من يقع عليهنّ الدّور ، يتركنهنّ يغتسلنَ جيّدًا ، ويأتيهنّ أمير المعسكر بأثوابٍ مزركشةٍ من مناطق الأكراد في الشّمال ، ويُزيَّنّ بالحليّ ، وتُمشَّط شعورهنّ وتُدهَن بزيتٍ لتظهر لمعةٌ خفيفةٌ له . بعضُ اللّواتي وقع عليهنّ الدّور كُنّ يشعرنَ برائحة الحرّيّة تقتربُ من مكانٍ بعيدٍ وإنْ كانتْ ملوّثة ، لم يكنّ يشعرْنَ بالعار أبدًا ، ولا بالإثم ، كان كلّ شيءٍ لديهنّ ممكنًا إلاّ أنْ يبقَين تحتَ رحمة الجنود في الأسر يتعرّضنَ للاغتصاب في أيّة لحظة!! لكنْ أكانَ الهربُ ممكنًا من ذلك الجحيم؟! كان مُمكنًا بالفعل ، ولكنّه باتّجاه الجحيم نفسه ، إذ إنّ الهاربة تُعاقَب بالموت بأبشع الوسائل والطّرق!!

حينَ يتناول الأميرُ كأسه ، ويقضم قَضَماتٍ مدروسةً من الفاكهة الحمراء الّتي أمامه ، يبدأ إذ ذاك المهرجان ؛ يُشيرُ إلى أعوانه ، فيُفتَح

باب المُعتَقل، وتتدفّق النّساء من البركس إلى المكان، يمشينَ في صفٍّ منتظم، عشرٌ منهنّ في كلّ مرّة، ثُمّ يُستَعرَضْن أمام الجالسين عن يمين القائدِ، ولدى كلّ واحدٍ منهم خياران: إما الشّراء لتُتّخذَ المرأةُ جاريةً، وإمّا زواج المتعة. وغالِبًا ما يفضّل هؤلاء الأثرياء الخيار الثّاني.

عُقِد في ذلك اليوم على فتاتَين لا تتجاوز الواحدة منهن الخامسة عشرة من عمرها، كانَ على منْ اختار زواج المتعة أنْ يُعيدها إلى المعسكر في غضون اثنتين وسبعين ساعةً، ومَنْ كان يتخلّف عن ذلك تُقطَع يده لأنّه يُعدّ سارِقًا للمتعة والجسد دونَ حقّ!! وكان أمير المعسكر أبو القعقاع يبعث مع المتزوّجين بالمتعة أربعةً من الحرس والعسس يتتبّعون موقعه من أجل أنْ يوقِعوا به العقوبة المقرّرة في الشّرع إذا ما أخلفَ موعده!!

ازدهر سوقُ الجواري من بعد بسبب ما تمتّع به أبو القعقاع من نوعيّة المعروض عنده، وتجدّده، وما تميّز به كذلك من صِدقٍ في المواعيد، وتنفيذٍ حرفيّ للاتّفاق. جاءه باحِثون عن المتعة من كلّ أرجاء سوريّة والدّول المُجاورة، وتوسّع الأمر حتّى اكتظّ المُعسكر بالمُشترين، وسافر إليه الحالِمون من الدّول المُجاورة، فقرّر أبو القعقاع أنْ يخصّص مكانًا للسّوق جهةَ الشّمال في المناطق الخاضِعة لسيطرته. وازداد نفوذه وتراكمتْ لديه الأموال، فاشترى بما فاضَ لديه منه سلاحًا، وكان السّلاح يومئذٍ يُباع في الطّرقات، ويُشتَرى من على الأرصفة. وكان تكدّس اللّحم عند أبي القعقاع إشارةً على تكدّس الحديد عنده، وبدا أنّه يتّجه نحو الغلبة ومزيدٍ من النّفوذ لأنّه يُقاتِل بالاثنين معًا!!

كان زِياد يده اليُمنَى، أشرفَ بعد عصر تلك الجمعة من ذلك

اليوم على تنفيذ جميع حركاته الماليّة في بيع الإماء، ولم يَمُدّ فاكهةً إلى سواه إلاّ ذاقها قبل أنْ يمدّها. وانحصرتْ مهمّته القتاليّة في هذه النّوع من القتال!! وبدا أنّ هدف الانتقام لزوجته صار يحلّق بعيدًا، وأنّ عينَيها بدأتا تذوبان وتبتعدان، وتُصبحان غائمتَين لا تكادان تُلمَحان. وضحك حتّى كأنّه لم يبكِ في حياته ولو مرّة واحدةً!!

لم يعدْ بينه وبين أبي القعقاع من حجابٍ، كان يفعل معه ذلك بعد كلّ تحرير لجبهة، أو موقع، أو حاجز في مناطق النّزاع، مناطق النّزاع الّتي تقسّمتْها الفصائل؛ كأنّ بلادَ الله قَصْعَةُ آكِلٍ... إذا جاءَها سَمّى وَحمّدَ ثانيا... تِرَى شِدْقَهُ مِن طُولِ ما خاضَ في الدِّما... تَخضَّبَ حتّى عادَ أحمرَ قانِيَا... وَيَقتُلُ بِاسمِ الله في كلّ غزوةٍ... وما الله قتّالاً وما اللهُ غازِيا!!

قال له: «أتيتُكَ به من أفخر الأنواع من أفغانستان، هُم السّابقون ونحن اللّاحِقون..» توقّف قليلاً قبل أنْ يتمّ ضاحكًا: «زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون... لا تدري مَن يأكل من بعدنا، دُولٌ كثيرةٌ مرشّحةٌ للحصاد، والطّوفان لن يُبقي أحدًا». ردّ عليه وهو يُلقمها فمه، ويُشعل القدّاحة من تحتها: «إنّ منافع الحرب تُضاهي ويلاتها، لماذا لا تكون لكَ مزارعكَ الخاصّة؟!». أجابه متجاهلاً سُؤاله: «الحرب لعبةُ حظّ، والحظّ يقف إلى جانبنا». «النّساء أهمّ لاعب فيها». «النّساء لاعبٌ مهمّ، لكنّ الغريزة تسبقهنّ، كلّ حربٍ مرتعٌ خصبٌ للغرائز؛ غريزةُ الجنس، وغريزة القتل، وغريزة السّلطة». «في الحرب لا خيار مَنْ لا يَقتُل يُقتَل». «القتل ضرورة الحرب، أتعتقد أنّ حربًا ستقوم دون أنْ يكون لها ضحايا، مَن لا يريد النّجاة من الموت؟! جميعنا يبحثُ عن ذلك، أحيانًا لا تكون أمامك من وسيلةٍ للنّجاة إلاّ القتل، نحن نقتُل

لنحيا ؛ والحرب مثل المجاعة ستطوف بالجميع» . أيُّ حياةٍ هذه الّتي يتحدّث عنها الأمير ، نقرت العبارةُ طمأنينته ، طافَ برأسه خُمار اللّفافة الّتي أعطاها له ، فتذكّر زوجته ، قال وهو يضحك : «كانت تحبّني ، لكنّها لم تقلْ لي ذلك ، ليتَها قالتْ ؛ لكنّها فيما يبدو كانتْ صغيرةً على أنْ تقول ؛ الحبُّ سذاجةُ مُراهَقَين في أوّل زواجهما» . سأله القائد من بين ضبابةٍ من الدّخان تشكّلتْ أمام وجهه من نُفاث لفافته : «تقصد حنين؟!» . قفزَ قلبُ زياد من أعماقه إلى حنجرته ، همّ أنْ يقف ، لكنّ الحشيشة كانتْ قد فعلتْ فِعلها فأرختْ مفاصله ، اعتدل ، نظر بعينَين زائغَتين إلى أميره ؛ سأله : «تعرفها؟!» . «قُتلَت بصاروخ في حيّ الوعر قبل عامَين» . ضربتِ الكلماتُ دِماغه ، حاول أنْ يقف ، وقف ، لكنّه تمايل ، خافَ أنْ يقع ، فاتّكأ من جديد ، سمع صوت أبي القعقاع يأتيه كأنّه رجْع صدى وهو ينفثُ ضُبابةً جديدة : «لقد قتلها الصّاروخ الخطأ ؛ من الأفضل أنْ تنساها» . هذه المرّة رأى كفّها الممتدّة نحوه تستغيثُ به ، كان وجهها مُضرّجًا بالدّم لا يكادُ يظهر من تقاسيمه شيءٌ ، رأى أصابعها الّتي تستبقي الحياة وهي ترجفُ من انسحاب الرّوح من بينها ، رأى زحفها المستمرّ جهته تاركةً كلّ أحدٍ من عائلتها لأجله ، ثُمّ . . . ثُمّ رأى عينَيها وهما تنظران إلى أبي القعقاع ، تنظران بذعرٍ شديد . . . ضَحك ؛ علتْ ضحكته ، قهقه بشكلٍ هيستيريّ ، شايعه أبو القعقاع ، ارتجّ هواء الغرفة الباردة ، وقفَ ، قال وهو يتمايل ، ويُشير بإصبعه الخالية من اللّفافة إلى أميره : «أنتَ تمزح . . . أنا أعرف أنّكَ تمزح» ثُمّ انفجر من الضّحك حتّى بكى . مسحَ دموعَ عينَيه ، وعادَ إلى مجلسه من جديد ، راح يهذي ، لم يكنِ الأمر حقيقيًا ، إنّها هلوسات هذه الحشائش اللّعينة ، يبدو أنّها من النّوع

الفاخر كما قال ، لا بُدّ أنّها حوّلتّهما إلى أحمقَين في دقائق ، سمع النّصيحة الأخيرة تتضخّم في أذنَيه كأنّها قرع طبولٌ بعيدةٍ تقترب : «من الأفضل أنْ تنساها . . . من الأفضل أنْ تنساها» .

(٣٣)
يلبس لباس الرّهبان
ليغطي الشّيطان الّذي يسكنه

حدث ذلك في صيف العام الرّابع للحرب ، كان العثور على النّساء أهمّ عند الأمير من العثور على السّلاح أو الغنائم الأخرى ، إنّهنّ مادّة الحرب الأولى ، والتّجارة الرّابحة فيها على أيّ وجهٍ قلّبْتَها ، قرّرتْ نساء بعض القرى المُتاخمة للحدود التّركيّة أن تقاتل طلائع الأمير ، حينَ هربَ الرّجال خوفًا من الذّبح ، وذُعرًا من السّكّين الّتي كانتْ تلمع على وهج الشّمس في رمال الشّمال ، قرّرت هذه المجموعة أنْ تشكّل فرقةً مُسلحّة تدافع بها عن نفسِها ، إنْ كان موتٌ فليكنْ بشرف!!

كانتْ خارطة سوريّة قريةً قريةً ومدينةً مدينةً وحيًا حيًا تحت تصرّفه ، إنّه يعيد ترتيب كلّ شيء . توجّه عبر الطّريق الّذي يمرّ بالرّيف نحو قرية البياضة برتلٍ عسكريّ كبير ، كان يسير في قافلةٍ من السّيّارات المُصفّحة محمّلةً بمئات القواذف والرّشّاشات والصّواريخ ، كان يبدو أنّه جهّز نِصف ترسانته العسكريّة من أجل الحصول على أكبر عددٍ من الغنائم من هذا النّوع ؛ إنّها بئر نفطه الّتي يجب عليه أنْ يحافظ عليه من النّضوب .

على أطراف البيّاضة ، نصبتْ له المُقاتِلات كمينًا ، في الطّريق التّرابيّة الّتي تنتشر عن يسارها جهة الغرب مزارع الزّيتون ، وخاليةً من

جهة الغرب ، كانت الطّريق قد زُرعت بألغام تُفجّر آليًا ، حينَ عبر ثلثا الرّتل الطّريق ، أمرتْ (شيرمين) بالبدء بتفجيرها ، تطايرت الأشلاء مع كتل التّراب والحجارة ، بدأ الصّراخ يعلو ، وراحت الفوضى تدبّ في الجيش ، كان الأمير في المقدّمة فأُصيبتْ سيّارته المُصفّحة وانقلبتْ ، جاءتْ يده تحت جسده الضّخم في التّدهور فانكسرتْ ، لم تندّ عنه آهةٌ واحدةٌ ، هُرِع الحرس يُغطّونه ، نقلوه في لمحة عينٍ إلى الجهة الخالية ، حملتْه كاسِحة ألغام إلى جهة آمنة ، فيما راحت الألغام تنفجر تباعًا ، مَنْ هرب نحو المساحة الخالية كانتْ لديه فرصةٌ أكبر للنّجاة من أولئك الّذين فرّوا باتّجاه مزارع الزّيتون حيثُ تلقّتهم المُقاتِلات بقُبَلٍ من نوعٍ خاصّ ، أفرغتِ الرّشّاشات صَلْياتها في أجسادهم ، فتحوّلوا إلى مصاف معطوبة في لحظات ، وسقطوا ما بين جريح وقتيل ، استعادَ الثّلث الأخير من الرّتل صوابه الّذي طار من المُفاجأة ، وأعاد تنظيم صفوفه ، وقاتل هو ومَنْ تبقّى من الرّتل ، حتّى أمّنوا الانسِحاب بعد ثلاث ساعاتٍ من القِتال المتواصل ، كان أبو القعقاع في نهاية ذلك اليوم قد فقد أكثر من مئةٍ من مُقاتليه ، حينَ صحا من سكرة المُباغتة أقسمَ أنْ يحرث الأرض بصواريخ لم يسمعْ بها أحدٌ من قبل .

بعد منتصف اللّيل حلّقت الطّائرات في السّماء ، أرسلتْ نيرانَها إلى قرية البياضة ، فبعثت نصفَ سُكّان القرية في غضون عشرين دقيقةٍ إلى العالَم الآخَر ، في الثّالثة فجرًا ، دخلها بقوّاتٍ جديدة ، كانتْ لديه استراتيجيّة جديدة بعد ذلك الموت الّذي زرعه في منتصف اللّيل ، وضع في المُقدّمة الأسرى المحكوم عليهم بالإعدام في مَحاكِمه ، وربطَ على رؤوسهم أطواق الإضاءة ، وأجهزة التّنصّت اللّيليّة الّتي تنقل الصّوت والصّورة في جزء من الثّانية ، كان التّخلّص منهم – إن حدث

- يكشف مواقع المقاومين . نجحتْ خطّته إلى حدّ بعيد .

دخل القرية ، واجه فريقًا مُنظّمًا من المُقاتلات اللّواتي حوّلنَ وجوده في القرية إلى حرب شوارع ، قُنِصَ عددٌ من رجاله كما لو كانوا ذبابًا يتطاير في فضاء القرية ، سأل بعضَ الأسيرات عمّن تقود الحرب في القرية ، انتزع منهنّ اسمها بالتّعذيب المُريع . أصرّ على أنْ يقبض عليها ولو لم يبقَ معه إلاّ جنديٌّ واحد . حاصر مداخل القرية ، وحصّن مُقاتليه على تلك المداخل ، وأعطاهم تفويضًا في قَتْل كلّ من يحاول مساعدة القرية أو فكّ الحِصار عنها ، بعدَ أربعةِ أيّام بدأ الجوع والإنهاك يضرب خطّ الدّفاع عندهنّ ، نفد الطّعام ، وبقيتْ جرعاتٌ قليلةٌ من الماء ، كان القنّاصةُ ينتشرون في الشّوارع الرّئيسيّة ، وعلى أسطح الدّور حولها ، ويقتلون كلّ من يرون دون إبطاء . بعد أسبوع نفد الماء . صار العطش يضرب عصبَ الرّؤية ، ولئن كان الجوع حتّى الآن قد يكون محتملاً ، إلاّ أنّ العطش لا يحتمل ، كان الماء حياة والطّعامُ ترفًا . وبدأ أوّل الانهيار ، استسلمَ بعضهنّ ، وانتحرَ قسمٌ آخَر ، وَقاتلتِ البقيّة حتّى آخر رمق ، لم يكنْ من رجالٍ في القرية غيرهنّ باستثناء رجلٍ عجوزٍ في الثّمانين من عمره تمترسَ وراء أكمةٍ على إحدى الطّرق وراح يصوّب رصاص بندقيّته القديمة باتّجاه مَن يراه منهم ، وأُعدِمَ في الرّأس بعدَ ساعتَين من جثومه هناك!! لم يحمِ شرفَ المكانِ والتّاريخ سواهنّ ، لم يعرفْ معنى أن تموت من أجل وطنك وعرضك ومبدئك عداهنّ .

بعد أسبوع كان أبو القعقاع قد بسط سيطرته على القرية بأكملها ، جمع العشرات من الأسيرات في مكانٍ واحد في معسكره ، استخرجَ من بينهنّ (شيرمين) ، كانتْ يده ما تزال معلّقةً إلى كتفه . طلبَ من حرسه أنْ يعتنوا بها في غرفته الخاصّة .

كانَ قد أعدّ المشهدَ كما لو كان سينقله إلى العالَم مُصوّرًا كما فعلتْ بعض الأشرطة المُسجّلة الأخرى، سلاح التّشريد بمن خلفهم، لكنْ بطريقةٍ تلائم العصر، وتتناسب مع فِقه الواقع. الجسدُ سلاح؛ أخطر سلاحٍ يُمكن به أنْ تقتلَ الضّحيّة قتلاً دائمًا، تنكسر الضّحيّة، تنهزم، ديمومة الهزيمة في حياةٍ ضبابيّة أقوى تأثيرًا على الضّحيّة من موتٍ عاجل، في الموت راحة، راحةٌ من نوعٍ فريد لا تتمثّل في مقدورٍ آخَر.

صفّ (زياد) كلّ عشرينَ منهنّ مُقيّدات إلى أعمدةٍ من أيديهنّ، وحسرَ عن رؤوسهنّ، وجهّز كاميرات الدّيجيتال الّتي تُصوّر بحِرفيّة عالية، وأوقفَ خلفهنّ عشرين مُقاتلاً متعطّشًا، كانَ قد طلبَ منهم ألاّ يقربوا الاستِحمام لخمس ليال، وأعطَى إشارةَ البدء، كان على كلّ مُقاتِلٍ أنْ ينزع بطريقةٍ وحشيّة اللّباس السّفليّ لكلّ ضحيّة، ويضع يديه علَى كتِفها لمزيدٍ من الشّعور بالمتعة، ويهتزّ من خلفها حتّى تسكن حركته. طلبَ الأمير من زياد طلبًا واحِدًا في المشهد الّذي سيقترحه من أجل ذلك: «لا تضع على أفواههنّ شيئًا». كان يريدُ أنْ يستمتع بصرخاتهنّ، ويُبرّد قلبه مِمّا فعلتْ به المقاتلة الأولى فيهنّ. راحَ المشهد العبثيّ يُمعنُ في عبثيّته؛ أيّ قلبٍ يُمكنه أنْ يحتمل ذلك؟! أيّ روحٍ تلك الّتي تسكنُ جسدًا يدّعي أنّه إنسانٌ ويستمتع بهذه الوحشيّة المُطلَقة. كانَ بعض الدّم ينزّ من الأفخاذ، كتمتْ بعض الضّحايا أصواتهنّ، وأرسلْنَ رؤوسهنّ في الأرض بنظراتٍ زائغة يحاولنَ أنْ يفهمْنَ ما لا يُفهم ويحتملْنَ ما لا يُحتَمل، ولم تستطعْ أن تحتمل أخريات، فكان الفضاء يضجّ باستِغاثاتٍ لا تجدُ قلبًا يرقّ ولا أذنًا تسمع.

بُدّلتِ العشرون بأخرى وبأخرى وبأخرى . . . وبُدّلَ المتعطّشون بآخرين وآخرين وآخرين . . . واستمرّ أصحاب الكاميرات المُتطوّرة يُصوّرون لأكثر من ساعتَين ، كانتَا أفضلَ ساعتَين يحتفلُ بهما قائدٌ انتصر في معركةٍ انتِصارًا فحوليًا .

أيّ مجتمع هذا الّذي يُقرّر خلق العلاقات فيه بناءً على تصوّره المريض الخاصّ!! كان الجرح الّذي أُصِبْنَ به في تلك اللّيلة يشكّل ندبةً في العقل أشدّ وطأةً من النّدبة في الجسد!! هل يستخدم الرّجال فحولتهم كرصاصٍ لإخضاع طرفٍ أو آخَر لما يريدون ، ويُقرّرون له مصيره ومُستقبَله وعلاقاته المجتمعيّة!! رصاصةٌ واحدةٌ في الرّأس قد تكونُ مريحةً ، بكاءٌ على الميّت من أقرب النّاس إليه وينتهي الأمر ، أو قد لا يجد الميّت حتّى قريبًا له من أجل أنْ يبكيه ، إذْ إنّ كلّ هؤلاء الأقارب كانوا قد سبقوه إلى العالَم الآخر ولم يبقَ سِواه ، لكنّ الاغتِصاب رصاصةٌ في الرّوح والعقل ، لا تتركُ تأثيرها على الضّحيّة فحسب ؛ إنّها تمتدّ مثل السّرطان لتتفشّى خلاياه في المجتمع لكنْ على الضّفّة الأخرى ، حيثُ ينهدمُ كلّ شيء ، وينبذ كلّ طرفٍ الطّرّفَ الآخَر ، ويتّهم الجميع الجميع!!

قال للفرقة الخاصّة الّتي تُشاركه المشهد الأجمل عندهم : «أريدهنّ أنْ يتذكّرنَ ما حدث في كلّ حين ، الّتي تُباع منهنّ فيما بعد أعطوها نسخةً من الفلم للذّكرى» . قال له زياد : «ربّما من الأحسن ألاّ تُباع هذه الفرقة أيّها الأمير» . نظر إليه وهو يرفع الشّراب إلى فمه : «ولماذا؟!» . «قد يحمِلْن» . «وما شأننا ، فليذهبْنَ هُنّ وأولادهنّ إلى الهونولولو!» . «دعهنّ يلدْنَ هنا ، والمواليد الذّكور يُدرَّبون على القتال ، وينضمّون إلى جيشنا في المستقبل» . «ياه يا رجل!! أتريدُ أن تُديمَ أمدَ

الحرب عشرين عامًا!!» . «وهل أحدٌ يعرفُ متى ستنتهي؟!» . «الحرب ستستمرّ عشر سنوات . . . نعم عشر سنوات» . «وكيفَ عرفتَ؟!» . «الحروب الّتي تكون لغاية ، أمدها في هذه الحدود ؛ عشر سنوات» . «وهل هذه الحرب لغاية؟!» . «ألم تتعلّمْ بعد؟! حينَ تكثر الأطراف في حربٍ فاعلمْ أنّها ليستْ نزهة ، طرفان في الغالب قويّان يتناوبان على أداء الأدوار ، الطّرف الأوّل يُشعلها والثّاني يتّهمه بأنّه فاقدٌ للشّرعيّة يُذبّح الأطفال ويقضي على المجتمعات ، فيتدخّل هذا الطّرف الثّاني من أجل هؤلاء الأطفال المساكين المُذبَّحين ، يلبس لباس الرّهبان ليغطّي الشّيطان الّذي يسكنه ، ويدّعي أنّه يُدافع عن الحقوق المدنيّة وعن الأرامل واليتامى ، ويبدأ ردّه المُزلزل على الطّرف الأوّل ، وتنحرث الأرضُ بين الطّرفين ، وتنحرق حتّى لا يعودَ لها وجه ، وكلاهما مستفيد ؛ كلّ إنتاجهما من الأسلحة يُجرَّب هنا ، ثمّ يتبادلان الأدوار في الاتّهامات ، فيصبح الطّرف الأوّل هو المُدافع عن حقوق الإنسان ضدّ الطّرف الثّاني المتوحّش ، وتستمرّ المسرحيّة المُضحكة المُبكية على هذا النّحو حتّى لا يعود للدّولة الضّحيّة منها شيءٌ لها!!» . كان زياد يستمع إليه وهو يغرق في بحرٍ من الذّهول ، همس لنفسه : «الأمير يعرفُ كلّ شيء» . كانَ صوتُه يُعيدُه إلى الوراء ، حفرَ من جديدٍ في ذاكرته ، إنّه يوقن تمامًا أنّه سمع صوته هذا من قبل ، منذ ما يقرب من أربعة أعوام ، كان يُمسكُ بطرف الخيط يتتبّعه في طريق الذّاكرة ليقبض على الصّورة مربوطةً في نهايته ، ولكنّ الخيطَ ينقطع في منعرجات الطّريق . أوشكَ مرّةً أنْ يتذكّر ، ضربَ رأسه بطاولة المُحقق في الشعبة قبل أربعة أعوام في لحظةٍ خاطفة ، لكنّ الصّورةَ أفلتتْ في أقلّ من ثانيةٍ من خيطِ الذّاكرة!!

قال له قبلَ أنْ ينفضّ السّامر ويشبعَ النّاهمون : «أريدُكَ اللّيلةَ في مقرّ قيادتي ، لديكَ مهمّةٌ أخيرة أريدُكَ أنْ تقومَ بها» . خفضَ رأسه طاعةً ، ولكنّ الجزء الأخير من عبارته فتح سبيلاً جارحةً للشّكّ في قلبه ، همّ أنْ يسأله ماذا يقصد بها لكنّه فضّل ألاّ يعرف ؛ بعضُ الأسئلةُ تصفعكَ فجأةً بما لا تريدُ أنْ تسمعه ، فمن الخير أنْ تتركها نائمةً على أن توقظها فتنشبَ في قلبك أنيابَها الحادّة!!

كانتْ قد زُيّنتْ بأبهى زينة ، وأُلبِستْ لباسًا شفّافًا يكشفُ أكثر ممّا يُغطّي ، ويُظهر أعظمَ ممّا يُخفي ، وعُطّرتْ ، وزُيّنَتْ ، وهُيّئتْ ، وأُجلستْ في سريرٍ وثير ، وقُدّمتْ بأشهى ما يُقدّم . دخل (زياد) ، قال له الأمير : «لقد كنتَ أقربَ الجنود إلى قلبي ، استطعتَ أن تفعل ما عجزتُ أنا عنه ، وقد كافأتُك بأحسنِ ما يُكافأ به إنسان ، فرتعتَ بين النّساء رتوع الذّئب بين النّعاج ، وتركتُ لكَ الدّرب إليهنّ مفتوحةً ، وجعلتُكَ تستمتع بصرخاتهنّ كما تريد ، ولي إليكَ طلبٌ أخير» . بلع زياد ريقه ، تحسّس عنقه ، إنّه يعرفُ أنّ الأمر يحملُ تهديدًا ووداعًا ، هتف في نفسه المرتجفة : «إنّه غدر بأبي دُجانة الّذي كان نِدًا له ؛ ألا يغدرُ بصعلوكٍ حقيرٍ مثلي ؛ أنا أعرفُ أنّني لا أساوي عنده أكثر من حشرةٍ يسحقها وقتما يشاء» . بلع ريقه مرّةً أخرى ، أصلح من وقفته ، وضع يديه خلفَ ظهره : «أنا في خدمة أميري» . «بالطّبع أنتَ كذلك ، انظر إليها» . التفتَ عن يساره ، كانتْ (شيرمين) . قال له : «إنّها لك» . أجابه بخشوع : «لا أتعدّى على حَرَم الأمير» . ردّ عليه وهو يطحن الكلمات بين أسنانه : «إنّها لك ، وأريدُكَ أنْ تفعل ذلك أمامي» . ارتختْ ركبتاه ، ردّ بكلمات متقطّعة : «أنا . . . أنا . . .» . نظر إليه بسخرية ، وهزّ رأسه : «أنتَ ماذا؟! هل أصبحتَ شريفًا بين عشيّةٍ

وضُحاها؟! أنتَ عبارة عن جبانٍ سقطَ في أوّل امتحان ، فاستخدمتُه لتنفيذ بعضِ رغباتي ، لقد فعلتَ ذلك بشكلٍ جيّد ؛ عليّ أنْ أشكرك ، ليسَ قبلَ أنْ تنفّذ الخُطوةَ الأخيرة . . . هيّا» . «ولماذا لا تفعلها أنتَ يا سيّدي» . «أتخالفني أيّها الصّرصور . . . تناقشني فيما آمرك» . «أنا أعرف لماذا لا تريدُ أنْ تفعلها أنتَ!! لأنّك عاجز ؛ نعم أنتَ عاجز ، تستمتع بأنْ ترى النّساء يفقدْن شرفهنّ أمامك لأنّكَ لا تستطيع أنْ تفعلَ أنتَ ذلك بنفسك ، أنتَ تفعل ما تفعل لتثأر لفحولتك ، رجولتك النّاقصة ، رجولتك الّتي تعوّضها بصرخاتٍ لبائساتٍ لا يملكن من أمرهنّ شيئًا ، أنتَ تدفعهنّ إلى البغاء ليسَ من أجلِ المال ، ولا من أجل النّفوذ ، ولا من أجلِ موازين القُوى كما كنتَ تدّعي ؛ بل من أجل الثّأر لما كانَ عزيزًا عليكَ كرجلٍ وفقدته!!» . كانتْ عينا الأمير قد جحظتا ، والتهبتا حتّى كادتا تُفارقان المحجرين : «أتجرؤ أنْ تقول عنّي هذا الكلام أيّها الفأر الضّخم ، وأنتَ؟! يا من خرجتَ لتثأر لحبيبةٍ كنتَ تُطاردها في الحارات وعلى أبواب المدرسة ماذا لديك؟! ليسَ لديكَ سوى جسدك ؛ فقط جسدك أيّها البغل الغبيّ» . «أعرف ؛ وأعرف أنّكَ تعرفُ كلّ شيء ، أعرفُ أينَ قابلتُك ، وأعرف ماذا قلتَ لي يومَها» . «اتّفقنا إذًا ، أخيرًا قليلاً من الذّكاء من أجل أن نتفاهم ولو للمرّة الأخيرة ، خياراتك محصورةٌ جدًا ، الموت أو هي» . «لن أدّعي الشّرف في مواجهة الموت ، لقد فعلتُها سابقًا ومن السّهولة عليّ أنْ أفعلها الآن» . «ها نحنُ إذًا . . .» تابع زعيقه بمعاونيه : «أعدّوا الكاميرا ، وسلّطوها على الكادر ، أريدُ أنْ يظلّ المشهدُ حيًا بالنّسبة لي . . . واخرجوا من هنا ، لا أريدُ غيرنا نحن الثّلاثة» .

(٣٤)
معظم النّاس يملكون وجوهَ بشر وقلوب ذئاب

قُبيل طلوع الفجر ، مشى باتّجاه سجن النّساء بخطواتٍ سريعة ، كان ينظر وراءه كمن يتوقّع في أيّ لحظة أنْ يُقتَل ، فتح له الحارسان الباب ، دخل ، حين رأينه أجفلْنَ منه ، وتراجعْنَ خوفًا ، أشار لهنّ بيده مُسالمًا ، سألهنّ : «أينَ سمر؟!» . لم تُجبْ أيّ واحدةٍ منهنّ ، سادَ الصّمتَ ، سارَ بينهنّ ، ينظر في وجوههنّ ، لم يهتدِ إلى وجه سمر بينهنّ ، سأل من جديد : «أينَ سمر . . لا تخافوا . . قولوا لي أين هي ، فقط أريدُ أنْ اعتذر لها . . . أريدُ أنْ أطلبَ منها أنْ تُسامحني» . ورَعَشَ صوتُه في الكلمات الأخيرة ، كانَ على حافّة البكاء كطفل ، تقدّمتْ منه واحدةٌ ، كان يبدو أنّها أسيرةٌ جديدةٌ لم يرها من قبلُ : «أنا أعرف» . «هيّا قولي» . «لقد بيعتْ!!» . «بيعتْ؟! منذ متى تمّ ذلك؟!» . «منذ سبعة أشهر ، قابلْتُها في القصير . . . أنتَ زياد الّذي اغتصبها؟!» . «نعم» . «أنتَ حقير» . «أعرف ذلك . . . لكنّني جئتُ أطلبُ منها أنْ تُسامحني» . «تُسامحك؟! على ماذا؟! هل ما فعلته يُمكن أنْ يُغتَفَر ، هل تظنّون أيّها الرّجال الحقراء أنّكم تفعلون الخطيئة بأبشع صورها ثُمّ تتوقّعون من الطّرف الآخَر أنْ يُسامحكم لمجرّد أنْ تطلبوا منه ذلك . . . ما أبأسكم!!» . «لقد ندمتُ على كلّ ما فعلت . . . لم أفعل في حياتي شيئًا واحدًا باختياري . . . أنا نادمٌ بالفعل» . «كاذبٌ ،

أكثر شيءٌ يُتقنه القتلة هو الكذب ، على كلّ حال ، لقد حملتْ سمرُ منك» . «حملتْ منّي!! حقًا؟!» . «وماذا يهمّك ، قاتلٌ حملتْ منه ضحيّةٌ في غفلةٍ من الزّمن ، ماذا يهمّك!!» . «إنّه لي» . «لقد ولدتْ بنتًا ، وسمّتْها أملَ ، ورفضَ الّذي اشتراها أنْ تبقَى معهما فأودعتْ في دار للأيتام» . لم يعدْ يحتمل أنْ يسمع أكثر ، كان قلبُه قد فاض حسرةً ، اعتذر للأسيرات كلّهنّ ، هتف : «أنتنّ أشرفُ منّا جميعًا ، ولكنّني لا أملك لكنّ شيئًا . . . كان الله بعونكنّ» . وخرج .

عادَ إلى الثّكنة ، طافتْ برأسه كلّ الذّكريات ، سمع مئات الأصوات تتراكض في عقله ، وتتداخل في روحه كأنّها وحوشٌ تتناهشه ، هُزِم ، اخترمه اليأس ، رأى الحياة حلمًا كاذبًا ، يستمرّ في الخديعة ، إلى أنْ تصحو منه على الحقيقة المُرعِبة ، الحقيقة الّتي لا يمكن أنْ تكون إلاّ مُدمّرة!!

تذكّر صرخات سمر من تحته ، بصقَ على نفسه ، تذكّر حنين حينَ لم يستطع أنْ يُنقذها ، بصقَ على نفسه أكثر ، تذكّر أمّه الّتي ترجوه وعينَي ليلاس الّتي تتشبّث به فازداد احتقاره لنفسه ، تذكّر صرخات المُغتَصبات وهنّ يقعنَ تحت رحمة قتلةٍ بلا قلوب ، فلعنَ نفسه ؛ لقد كانَ أحدهم ، بل لقد كان نموذجًا بشعًا منهم . . . طافتْ برأسه ذكريات المدرسة الأولى ، خطر بباله أعزّ صديقَين له ؛ ليث وشادي ، لقد كانا طاهِرَين وهو نَجس ، كانا صادِقَين وهو كاذب ، كانتْ نواياهما طيّبة ونواياه خبيثة ؛ أينَ هما الآن؟! ماذا حدث لهما بعد الخيانة في اقتحام حاجز الزّعلانة؟! هل ماتا؟! هل ظلاّ على قيد الحياة؟! تحتَ إمرةِ أيّ فصيلٍ يُقاتِلون اليوم ، أم أنّهم اكتشفوا أنّ الحرب أيضًا تقع ضمن دائرة الخديعة الكبرى فاعتزلوها!! وعرفوا أنّهم وكلّ من

تحمّسوا لتحرير وطنهم ، كانوا لا يملكون شيئًا سوى الحماسة ليُدركوا فيما بعدُ بعدَ أنْ كشّرت الحربُ عن أنيابها أنّهم ليسوا إلاّ حجرًا في الرّحى يُطحن به كلّ شيء!!

قرّر أنْ يكتبَ لأمّه رسالته الأخيرة ، إنّها الوحيدة الّتي تملك قلبًا يمكن أن يُسامحه من بين كلّ القلوب ، معظم النّاس يملكون وجوهَ بشر وقلوب ذئاب ، ويلبسون لباس الآدميّين ليخفوا الوحوش الّتي خلقوا على طِباعها من تحت!! أمّه هي الوحيدة الّتي ربّما تملك القدرة على الغفران رغم الأهوال الّتي واجهتْها .

على الصّفحات الأخيرة من دفتره ذي الجلدة الزّرقاء كثرة الثّنيات ، راح يخطّ رسالته ، وفي أعماقه ألف باكية : «أمّي الحبيبة ؛ أقبّل يديك وقدَميك ؛ أعرف أنّ ما مرّ على سوريّة قد قتلَنا جميعًا ، كلّ أبناء سوريّة اليوم يتامى ، كلّنا ضحايا ، ضحايا لجهاتٍ نعرفها أو نجهلها لا ندري ، الحقيقة الوحيدة في اختِلاط الأوراق وانكسار البوصلة أنّنا ضحيّة على نحوٍ مميّز ؛ وماذا يفيد الضّحيّة أنْ تعرف؟! هل نبحث عن الانتِقام؟! هراء . إذًا كان القاتل كلّ أحدٍ ولا أحد فممّن سننتقم؟! من أنفسنا؟ ربّما ، فهي القاتل الواضح الوحيد في هذه المعادلة العبثيّة .

أمّي الحبيبة ؛ ارتكبتُ خطايا كثيرة في حياتي ، لكنّ أعظم خطيئة هي أنّني تركْتكما أنتِ وليلاس وحيدتَين تُواجِهان صراعًا لم يكنْ لأيّ واحدٍ منّا يدٌ في نشوئه ولا كنّا ننوي ذلك ، ولكنّه حدث فإلى أينَ المفرّ؟! هل تسامحينني على خطيئتي هذه!! لقد قتلتُ ؛ قتلتُ نفوسًا ظلّتْ حيّةً مع جريمتي البشعة ، سمعتُ صرخاتِ استغاثة ولم أحرّكْ ساكنًا ، أعلى هذا ربّيتِني يا أمّاه!! حاشاك ؛ فلقد علّمْتِنا كيفَ نأسو جراح الضّعيف ، ويرقّ قلبنا لأنين الموجوع .

أمّي الحبيبة ، لا أدري أينَ حطّتْ بك الرّحال ، هل ذهبتِ إلى خالي في دمشق ، كيفَ هي الأوضاع هناك؟! يبدو سؤالي هذا ساذجًا أو غير منطقيّ ؛ فأنا أعرف أنّ سوريّة كلّها اليوم ليس فيها شبرٌ واحدٌ آمن . . . أريدُ أنْ أعترفَ لكِ بشيءٍ آخَر ، لا تزعلي منّي يا أمّي ، فأنا بعد أنْ فقدتُ حنين فقدتُ كلّ شيء ، حتّى عقلي ومنطقي ونظرتي للأمور كلّها تشوّهت ، هنا في المعسكر حملتْ منّي إحدى المغتصبات ، وعلمتُ بعد أنْ بيعتْ أنّها ولدتْ بنتًا لي اسمها (أمل) وهي في دارٍ للأيتام في لبنان ؛ هل أكون وقحًا وأطلبُ منكِ أنْ تبحثي عنها ، وترعَيها فهي حفيدتك أيضًا ، قد لا أستطيع أنا أنْ أفعلَ ذلك لأنّني لا أريدُ أنْ أعيشَ أكثر ممّا عشت .

أمّي الحبيبة ، ما أجملَ أيّام جورة الشّيّاح ، ما أجمل أيّام الملعب البلديّ حين كانت الفِرق تتسابق على ضمّنا إليها أنا وليث وشادي ؛ كُنّا أطفالاً محبوبين ، حالمين ، لم أدرِ أنّ الحلم سيصبح اليوم كابوسًا لا يُمكن الاستيقاظ منه ، ما أجمل ذكريات الصّبا ، ما أجمل ما كنتِ تفعلينه لكي أظلّ الأثير لديك ، كنتُ الوحيد في حياتكما أنتِ وأبي حتّى جاءت الحبيبةُ ليلاس بعد خمسةَ عشر عامًا ، أشهدُ أنّني كنتُ مُدلّلاً على نحوٍ مُطلَق من قبلك ، أتذكّر ألعاب الطّفولة ، وحلوى العيد ، ولمسات الحنان ، ونظرات الرّضى ، و . . . كلّ ذلك أصبح الآنَ في مهبّ الرّيح ، الحرب لم تبقِ لنا ذكرى جميلة نستظلّ بفيئها من هجير الموت الّذي يخرج لنا من تحت كلّ حجرٍ في أرضنا الحبيبة . . . سوريّة اليوم يتيمة يا أمّي . . . مذبوحة . . . مُغتَصبة . . . تكاثر ذابِحوها وناهِشو لحمها . . . كلّ فتاةٍ شريفةٍ سُقناها إلى الاغتصاب في المعسكر كانت تصرخ ونحن نستمتع بصرخاتها فضلاً عن أن ننقذها هي تمامًا

مثل سوريّة ؛ تغتصب ويتلذّذ المُغتصِبون والمُتفرّجون على حدّ سواء ، فإلى أيّ جحيم سيقتْ بلادنا يا أمّاه . . . لقد شاهدتُ في الحرب من الأهوال ما يجعل الحياة نكتةً سخيفةً ؛ فهل نحن نحيا حقًا ، أم أنّ الموت يؤجّلنا من أجل أنْ يزيدَ فجيعتنا ويُمعنَ في تعذيبنا!!

أنادي وطني ، أنادي سوريّة المُدمّاة : لا تتذكّري منّا أحدًا يا أمّاه . . . لقد كنّا عاقّين لك ، جميعنا عقّك بشكلٍ أو بآخر ، لا تحرصي على حياةِ واحدٍ منّا ، افتحي ترابك الطّاهر وابتلعي قذارتنا جميعًا ، وتخلّصي من هذا الخبث الّذي يتحرّك كالسّرطان فوقَ جسدك الطّيّب .

أمّي الحبيبة ، إذا وصلتْكِ رسالتي فاعلمي أنّني صرتُ في العالَم الآخر ، ليسَ هناك ما يُحزن ، تخلّصتُ من قذارتي بيدي ، حاولتُ أنْ أنهي عقوقي لكِ أوّلاً ولبلدي ثانيًا . . . قبّلي ليلاس عنّي ، اطبعي على جبينها قبلةً عميقة ، لُفّي ذراعَيك حولَ خصرها النّحيل ، وادفني وجهك في شعرها الأشقر الطّويل ، وقولي لها إنّني سآتي يومًا ما ، ربّما ليسَ في هذه الحياة ، ربّما في حياةٍ أخرى من أجل أنْ أوصلها بنفسي في الصّباح إلى مدرستها .

إلى اللّقاء

زياد – آب ٢٠١٤

قال لخلدون أحد الجنود التّابعين له : «أريدُ منكَ خدمةً بسيطة ، وسأعطيك مقابلها كلّ ما أملك من المال ، أوصِلْ هذا الدّفتر إلى صديق عتيق اسمه ليث سليمان كان قبلَ عامَين ضمن فصيل أبي دجانة في معسكر معصران ، إذا كان ما زال حيًا ، أو إلى شادي أيضًا ضمن الفصيل نفسه ، ليوصله أحدهما إلى أمّي أو أختي ليلاس

الموجودتَين في دمشق على الأرجح بطريقته» . نظر خلدون في عينَيه : «كم تدفع؟!» . «قلتَ لكَ أيّها الأحمق كلّ ما أملك» .

انتظرَ حتّى هبط اللّيل ، سارَ حتّى أطراف المعسكر ، أحسّ بحركته أحد الحُرّاس شهر السّلاح بوجهه ، وطلبَ منه كلمةَ السّرّ ، أعطاها له ، حين مرّ من جنبه عرفه الحارس ، فانحنى واعتذر ، تركه يردّد اعتذاراته ومضى ، مشى كثيرًا ، صار المعسكر خلفه ، كان السّهل الّذي وصل إليه فسيحًا ممتدًا ، بدا أنّه خارج معادلة الحرب ؛ كانَ السّهل يضجّ بالحياة ، على ضوء القمر رأى فيه بهجةَ الحياة الّتي عاشَها حينَ كان طفلاً ، لعن في سرّه الحرب الّتي شوّهتْ كلّ شيء ، همس : «ماذا كان يُضير الحرب لو تركتْ لنا بلدنا خاليًا من الطّاعون!!» . مشى أكثر ، بدتْ مزارِع البطّيخ تموج على مدى النّظر عن يساره ، وعن يمينه مزارع القمح والذّرة . يعرف الشّجرةَ العتيقة الّتي تقع على تلّة مرتفعةٍ في آخر هذه الحقول ، موعده مع الحياة هناك ، راحت نفسه تحاوره : «لم تفعلْ ما فعلتَ بإرادتك ، لم يكنْ أحدٌ يملكُ إرادته في شيء ، الحرب ، والحبّ ، والحياة ، والموت ، والقتل ، والهرب ، والهزيمة ، والنّصر ، والفشل ، والنّجاح ، والأمل ، واليأس ، والوقوع ، والنّجاة . . . كلّ شيءٍ كان يتمّ بقدَر» . أجابها : «وأنا قدَر نفسي» .

وصل إلى الشّجرة ، كانتْ عتيقةً إلى الحدّ الّذي شهدتْ فيه أكثر من عشرين حربًا في عشرة قرون وما زالتْ صامِدة ، يبدو أنّها تحبّ الحياةَ كثيرًا ، تساءل . اضطجع تحتها ، ومن خلال فجوات غُصونها بدا القمر باسِمًا ، والهواء عليلاً ، والأرض من تحته طريّة ، همس لنفسه : «ظروفٌ للموت لا تتوافر لأحد . . . ما أجمل طقوسي!» . سحبَ باغة الطّلقات ، صارت الطّلقة في المخزن جاهزة ، صوّب المُسدّس إلى رأسه

ويده على الزّناد ، لكنّه توقّفَ فجأةً عن أنْ يُتمّ مهمّته ، لم يكنْ يريدُ للمشهد أنْ يكون بهذا الجَمال ؛ «إنّني لا أستحقّه» . نهضَ من تحتِ الشّجرة ، أكمل طريقه صعودًا باتّجاه قمّة التّلّة ، على سفح منسيٍّ منها بدا باب الكهف الّذي اختبأ فيه ذات مرّة يدعوه إليه من جديدٍ ، مشى خطواته الأخيرة إليه ، دخله ، شمّ رائحة الرّطوبة والعفن ، وتاريخًا من الذّكريات اليائسة ، سمع رفرفة وطواط ، قالتْ له الرّفرفة : «إنّها النّهاية» . تمدّد في قلبه ، نظر إلى أعلى ، اصطدم نظره بسقف الكهف الّذي تسبح فيه العناكب والحشرات ، هتف : «هذه تليقُ بي أكثر ، لم أكنْ يومًا شريفًا بالقدْر الّذي يُعينني على أنْ يكون القمر آخرَ ما أراه قبل أنْ أودّع هذه الفانية» . استعدّ من جديدٍ للخطوات الّتي تدرّب عليها كثيرًا من قبلُ ، ركز فوه المُسدّس على رأسه ، قال بصوتٍ خفيضٍ لا يكادُ يُسمَع : «سامحيني يا . . .» ولم تُمهله الرّصاصة لكي يكمل!!

بعد عام مرّ به رتلٌ عسكريّ كان قد حوّل مزارع القمح إلى مزارع للحشيش ، رأوه مُسجّىً على هيئته ، وقد أصبح هيكلاً عظميًا ، كان الهيكل سليمًا تمامًا باستثناء فجوة صغيرةٍ في الجمجمة من الجهة اليُمنى شكلتْ ثُقبًا لم يستطع الموت أنْ يُخفيه!!

القسم الثّالث

(٣٥)
للحرب ذاكرةٌ أعندُ من ذاكرة النّقش العميق على صخرةٍ صلدة!

إنّها الحرب ، ولأنّها كذلك فلا أحد يسأل عن المنطق والقانون فيها ، ها هم لم يبلغوا الثّانية عشرة من أعمارهم ، يحملون بنادق تتدلّى خلف ظهورهم حتّى تكاد تمسّ التّراب الّذي يمشون فوقه حُفاةً ، وها هي قاماتهم تأبى أنْ تكبر في زمن الموت ، ها هي تنحني لطول ما أصابها من لوعة الحلم الهارب قسرًا من عيونهم ، لقد حملتْ كواهلهم أحزان الدّهور بكامل ثقلها القاتم في بلدٍ ينوح منذ نوح على خطيئةٍ لم يرتكبْها ، بينما يضحك الرّصاصُ في كلّ جزءٍ عزيزٍ من جسده المذبوح .

يقولون : «سيكبرون وينسَون» . كذبوا ، نحن لا ننسَى ، للحرب ذاكرةٌ أعندُ من ذاكرة النّقش العميق على صخرةٍ صلدة! يقولون : «الجرح يندمل ، والزمن طبيب» . كذبوا ؛ ها نحن كلّماً كبر عمر الحرب ازداد الجرح إيغارًا ، وكلّما ضحك الزّمن بكينا . يقولون : «إنّها أرضُ الملاحم» . كذبوا ، إنّها أرض المراحم لو شئتم ، ولو كففتُم أياديَكم الغادرة عنّا ، ولكنّكم أردتم أن نغرق في الدّماء ، ونهذي بالوجع ، ونُدمن الحزن ، ونصبح ألفَ أمّة فيها ألفُ أسًى .

كان السهل الفسيح ممتدًا على مساحةٍ شاسعة جنوب البلاد ، سهوبٌ مترامية الأطراف ، تقطع امتداداتها الأفقيّة بعضُ القرى المتناثرة

المتباعدة فيما بينها ، كانتْ آمنةً كأنّ الله نثرَ رِضاه في كلّ ذرّة من ذرّاتها المشرِقة . حينَ بدأ بركان الحرب يرمي بحممه المنصهرة في كلّ مكان ، قذفَ بكثيرينٍ منهم هنا ، هنا لطفُ الله الخفيّ يتمثّل في كلّ شيءٍ ظاهر!

في تلّة ترابيّة تمتدّ عشرات الأمتار ، وتشكّل ساتِرًا طبيعيًا ، كمن تحتها مئات الهاربين من الطّائرات الّتي تلاحق حتّى الذّبابَ في النُّفايات . كانوا ينتظرون لحظة العبور بين الموت الّذي خلفهم والحياة الّتي أمامهم . ظلّت الشّمسُ تضربُ رؤوسهم حتّى دوّختْهم ، انشغلت النّساء بإسكات الأطفال ، وتلقيمهم رضّاعات استُنقذتْ في آخر لحظةٍ من الهدم الّذي سحق تحته كلّ شيء . وتحاول أمّهات أخريَات البحث عن ماءٍ شحيح صار أعزّ مطلوبٍ من أجل تنظيفِ بقايا أطفالهنّ الرُّضَّع وهنّ يغيّرنْ لهم ملابسهم!! كانوا أكثر من سبعمئةٍ يتضاغَون تحت السّاتر ، وهم ينتظرون اللّحظةَ الّتي يسمح لهم الجيشُ الأردنيّ فيها بالعبور . قالوا لهم إنّ عبور المنطقة الحدوديّة في وضح النّهار يعني أنْ يتعرّض الجميع لخطر القصف ممّا يعني ضحايا بالجملة . على المرضى أنْ يحتملوا ، على المُصابين أنْ يُداروا جروحهم حتّى يحين الوقت المناسب ، أمّا المُشرِفون على الموت من ذوي الإصابات البليغة فلم يكنْ أمامهم خيارٌ سِوى المخاطرة ، كان الموتُ أقربَ إليهم من قطرات الدّم العالقة بجروحهم المفتوحة على أوجاع تبدأ ولا تنتهي . اختار أكثرُ المصابين الانتظار ولو أدّى الانتظار إلى أنْ يحفر له الآخرون قبورهم هنا تحت هذا السّاتر على أنْ يُخاطروا ، لكنّ عددًا قليلاً آخر رأى الأمر يستحقّ المُخاطرة في ظلّ خياراتٍ شبْه معدومة . اتّفقوا أنْ يسيروا على شكلِ قاطرة ، يفصل بين الواحد والثّاني مسافة ثلاثة أمتارٍ على الأقلّ

حتّى لا يكونوا لقمةً واحدةً سائغةً للموتِ إذا جاءهم على هيئةٍ ما قادمة من الشّمال! شدّوا على الجرح بأسنانٍ تكزّ من الألم، ووضعوا في أفواههم حجر الصّبر، ومَضَوا، انكشفوا في لحظةٍ مصيريّة، المناظير، وكاميرات المراقبة والرّادارات تكشف حركة النّملِ والسّحالي والجراذين فكيف بهؤلاء البشر المساكين، كانوا خمسةً؛ شابّين، أحدهما مُصاب، والثّاني يحملُ أباه المُصاب فوق ظهره، وطِفلَين في الثّانية عشرة من أعمارهم، أحدهما فقد عينَه وجانبًا من وجهه ولم يتلقّ أيّ نوع من العناية، والآخر يده ولم تُلفّ بغير كنزةٍ قطنيّة خفيفة زرقاء بدا أنّها تشرّبتْ بالدّم تمامًا حتّى تحوّلت إلى اللّون الأرجوانيّ. ومضَوا. حاولوا أنْ يُخفوا تحرّكاتهم عبر سيقان الأعشاب الطّويلة الجافّة، والأشواك المنتشرة في السّهل، لكنّهم لم ينجحوا تمامًا فيما يبدو. انطلقَ الصّاروخ الأوّل، سمعوا أصوات صرخات الباقين من بعيد، لم يكنْ أمامهم من فرصةٍ للنّجاة إلاّ الهرب إلى الأمام، ركضوا بأكثرِ ما يستطيعون، كان في المقدّمة الطّفلان لأنّهما كانا أسرع من الآخرين، سقطتِ القذيفة خلفهم على الأب والابن معًا فحوّلتْهما إلى أشلاء، بدا أنّ عقال الأب وشورته البيضاء قد سبقاه إلى الفضاء بسبب خفّتهما، ثمّ من بعده رأوا أشلاءً لم يستطيعوا أنْ يميّزوا فيما كانتْ أرجُلاً أم سيقانًا، الطّفلان، وقع الثّاني، لكنّه نظر خلفه مذعورًا من خلال الأتربة الّتيى تُغطّي وجهه، أزاحها بحركاتٍ سريعة، ونهض، وركضَ مع زميله، ونَجوَا، أمّا الشّابّان اللّذان كانا خلف الابن وأبيه، فأسقطتهم القذيفة في الحفرة الغائرة الّتي حدثت بسببها، وغابا عن النّظر، لم يكنْ أحدٌ يدري فيما إذا ظلاّ على قيد الحياة أم لا في تلك اللّحظة، لكنْ فيما بعد سيكتشف البقيّة حينَ يُسمَح لهم بالعبور

أنّهما على الأغلب فارقا الحياة ودُفِنا تحت انهيال الأتربة بحيثُ لم يُرَ لهما أثرٌ باستثناء فردة حذاءٍ واحدة تطايرتْ فاستراحتْ على كثيب من الرّمل شاهدةً على بقايا بشريٍّ مرّ من هنا فمرّ به الموت من هنا كذلك!!

في المساء، حينَ يكون اللّيلُ رحمةً، ويُسبغ أجنحةَ الظّلّ على الأرض فيرتاح البشر من لُهاثهم بإرسال الموت إلى الآخرين والكيد بهم، في لحظاتٍ كهذه يُمكن للخير أنْ يتنفّس. كانت الشّمسُ قد غربتْ، وكان غروبها - بخلاف كثيرين آخرين - علامة قدوم الأمن والفرج بالنّسبة للّذين ظلّوا طوال أكثر من عشر ساعات محبوسين في الحرّ والعطش والخوف والتّرقّب، لقد بدأ الخلاف يدبّ بينهم مُبكّرًا، قال أحدُ الشُّبّان نَصّب فيما يبدو نفسَه زعيمًا على المُتكوّمين هنا من تلقاء نفسه: «من الأفضل أنْ نسير على شكل قاطرة حين يحينُ الموعد، وكلّ قاطرة فيها عشرون أو ثلاثون شخصًا يقودهم أحدنا في المقدّمة، حتّى إذا تأكّدْنا من أنّ حرس الحدود قد تلقّوهم نبعثُ بمجموعةٍ أخرى». ردّ عليه صوتٌ لم يُعجِبه أنْ يأتي دوره في المجموعة السّادسةَ مثلاً: «هذا هراء، ولو فعلنا ذلك، فسيطلع علينا الصّباح ونحن نبعثُ بمجموعاتك!!». «لكنّ الطّريق غير آمنة، ولربّما تحدث مفاجآت، وبهذه الطّريقة سنحاول أنْ نخفّف عدد الضّحايا لا سمح الله». ردّ عليه بلا مبالاة: «أنا بالنّسبة لي، سأركضُ باتّجاه الحدود أوّل ما أسمع صوت الجنود الأردنيّين عبر مكبّرات الصّوت». صرخَ ثانٍ: «وأنا كذلك». قال ثالث: «وأنا وأنا . . . يا روح ما بعدك روح». وتعالتِ الأصوات، ودبّتِ الفوضى، قال الّذي اقترحَ الفكرة: «فوضويّون، همج، . . . ستعرّضوننا للقتل بسبب أنانيّتكم». ردّ عليه

أحدهم : «وما شأنك أنت ، ابحث عن فرصتك في النّجاة واتركِ النّاس وشأنهم» . هتف وهو مستاء ، ويرفع يديه منسحبًا من المشهد : «كما تشاؤون . . . أنا أتراجع . .» كان يُمكن للشّجار أنْ يتطوّر إلى عراك ، والعراك ربّما إلى ضحايا جديدة . عرفَ الشّابّ الّذي اقترح الفكرة ؛ أنّ الضّحيّة تكون هي القاتل في الوقت نفسه ، وأنّ مشهدًا من مشاهد يوم الفزع الأكبر سيحدث هذه الليلة!!

كان قرص الشّمس في ذلك المساء الصّيفيّ قد تخلّى لحظةَ الغروب عن لونه الاعتيادي واستحال إلى حمرةٍ متوهّجة ، وراحَ يهبطُ مختفيًا ببطء خلف التّلال البعيدة ، كانتِ الأرضُ ما تزال تستعير من الشّمسَ حرارتَها وإنْ خفتتْ لصالح نسماتٍ تعبر السّهوب مختالةً كأنّها غانيةٌ تضنّ على العاشقين بالبقاء طويلاً .

بدا الشّفق قرمزيًا بديعًا ، حينَ سمعتِ المجاميع البشريّة بعد طول انتظار الآمر العسكريّ عبر مكبّر صوتٍ يَدويّ يخبرهم أنّ لحظةَ العبور قد حانتْ . ما إنْ تلقّفتِ الآذان ما طال ترقّبه حتّى هُرِعَ الجميع إلى الشّيك الّذي يقفُ من خلفه عددٌ من الجنود الأردنيّين في حالة تأهّب ، كانوا كأنّهم في المحشر ، فَزِعين ، يركضون لا يلوون على شيء ، يتسابقون إلى الحوض ، لا يسأل أحدهم عن الآخَر ؛ تقدّم الشّبابُ الأفواج البشريّة المرتاعةَ مُسرِعين ، أغلبهم لم يكنْ يُساعِد أحدًا سِواه ، كأنّهم موتَى يجدون في الضّفّة الأخرى حياتهم ، ولسانُ حال كلّ واحد فيهم يهتف : «اللهمّ نفسي» .

على الجُروف الصّغيرة المتوزّعة على مساحاتٍ ترابيّة فسيحة كانت الأمّهات يجررْنَ أطفالهنّ القادرين على المشي ويستحثثْنهم للجري بأسرع ما يُمكن ، وهنّ يصحنَ فيهم ، فيما راحتْ أمّهاتٌ أخريات

يحملنَ أطفالهنّ بينَ أيديهنّ ، وأخريات على رؤوسهنّ ويُطلقْنَ سيقانهنّ للرّيح . فيما كانت الكبيرات في السّنّ من العجائز يستجْمِعن ما في أجسادهنّ من قوّة ويُنفقْنها في سبيل الرّكض بأقصى ما يستطعْن . لقد نجوا هذه المرّة جميعًا .

تلقّى الجنود الرّتل الكبير من النّاس بالتّرحاب ، كانوا يوزّعون عليهم الماء ، لا أسوأ من العطش في بلدٍ يعجّ بالأنهار وتقف الحرب بقدمَين من رصاص على ضِفافه تمنع الواردين من الاقتراب!! حملَ الجنود الأطفال ، وساعدوا الأمّهات ، وأشاروا للجميع أنْ يتوجّهوا إلى الخيمة الّتي أقيمتْ لأغراض الفحص الطّبّيّ الأوّليّ ، بالإضافة إلى تسجيل الأسماء .

كان جلال ، بوجهه المشرق ولحيته الخفيفة في مقدّمة الفريق الطّبّيّ ، كان يبتسم بهدوء على عادته ، ويفحص كلّ حالةٍ بدقّة وعلى حدة . لديه هنا فريقٌ صغيرٌ مُهيّأٌ للطّوارئ اختاره بنفسه من الوزارة يتألّف من خمسة أصدقاء ، أعطَى كلّ من دخلوا الإبر اللازمة ، والأدوية ، ووجبات طعام جاهزة ، وطلب منهم بلطفٍ أنْ يستعدّوا للتّوجّه نحو الباصات ريثما يتمّ التّأكّد من أنّ الجميع سجّلوا أسماءهم في سجلّات هيئة الأمم .

قال لأحد معاونيه في آخر اللّيل : «شيءٌ مرعبٌ أنْ تكتشف أنّ البشر يقتلون أنفسهم بهذه الوحشيّة ، ويعذّبون إخوتهم بهذه الفَظاعة . . . لا يُمكن لعقلي أنْ يُصدّق ما يحدث» . ردّ عليه المعاون بأسف : «نحن لا نملكُ إلاّ أنْ نُساعدهم بما نستطيع» . «أحيانًا يُصيبني الذّعر وأنا أتخيّلهم يهربون عبر المناطق المكشوفة الفاصلة بين الحدود والموتُ يقتنصهم واحِدًا واحِدًا كما لو كانوا مجرّد حشرات ، هل نحن

موبوؤون إلى هذا الحدّ!!» .

أقلّتْهم حوالي عشر حافِلات باتّجاه مخيّم الزّعتري ، صعد جلال إلى إحداها ، وطلبَ من فريقه أنْ يتوزّعوا على البقيّة من أجل بعضِ الإرشادات الصّحّيّة . كان الباص الّذي استقلّه مكتظًا بحمولةٍ أكبر من طاقته ، طلبَ الجنديّ الّذي يحمل السّلاح من أحد الجالسين أنْ يقوم ليُجلس الطّبيب مكانه ، لكنّ جلال رفض ، قال للجنديّ : «سأبقَى واقِفًا من أجل أنْ يروني ويسمعوني ، لديّ ما أقوله لهم» . حينَ أمسكَ بسمّاعة الحافلة ، أرادَ أنْ يبدأ الحديث ، لكنّ المشهد خانه ، توقّفت العباراتُ جامِدةً على لسانه ، سمع صوتَ طفلٍ يبكي ، أراد أنْ يبكي مثله ، لكنّه لم يشأ أنْ يظهر المنقذُ العظيم في نظرهم ضعيفًا في لحظةٍ غادرة . مَشى باتّجاه الصّوت ، كان اللّغطُ عاليًا ، رآه في أحضان أمّه ، قالتْ له : «إنّه جائع» . أجابها : «نعم ، دعيني أنظر ؛ لعلّ هناك شيئًا آخر» . اقتربَ منه أكثر ، لم يستطعْ هذه المرّة أنْ يمنع نفسه من البكاء ، تذكّر ابنه بدرًا عندما كان في مثل سنّه ، كان له نفسُ العينَين ، وذات الجبهة ، وانتفاخ الخدَّين المُخمليَّين . هدأ الطّفل حين رأى الطّبيب يمسحُ على رأسه ، كفّ عن البكاء ، مدّ يده وراحَ يعبثُ بلحية جلال ، أمسكَ جلال يده الصّغيرة ، فَتَنه لطيفُ خلقِ الله فيها ، قبّلها ، شكر الله على ما وهبه ، ثُمّ أخذتْ دموعه تنهمر بغزارةٍ على خدّيه .

(٣٦)

مَنْ يعرف أيّ جحيمٍ شاهدوه وهم هاربون!!

كانتْ عُيونهم ما تزال تحمل الرّهبة العميقة في أغوارها ، بعضُ الفزع يلتصق بالعيون التصاق الأهداب بها ، ينظرون من خلال النّوافذ إلى الطّريق الصّحراويّة الخالية من كلّ شيء والمُعتمة مثل الحياة الّتي فرضتْها عليهم الحرب فيرون أنّها الطّريق ذاتُها الّتي ستحملهم إلى الجِنان . وليسَ في المُستقبَل من عالِم به يُخبرك ما يُمكن أنْ يحدث ، وفي الغيب ما يُغني الحاضر عن السّؤال .

فجأةً وقفَتْ طفلةٌ لا تتجاوز التّاسعة في منتصف الباص ، كانتْ نحيلةً ، وذات شعر أشقر طويل مربوط في شتلتَين من شلاّلٍ ذهبيّ ، وعينَين تختصرانِ تاريخ البكاء ، وكان الجانب الأيمن من وجهها متجعّدًا كأنّه لا ينتمي لطفلة وإنّما لعجوزٍ هَرِمة ، يبدأ بموازاة أذنها نازلاً عبر رقبتها المرمريّة المُصابة . كانتْ نظرة واحدة إلى هذا الجانب تُصيبك بالفزع الآنيّ ، ولا يُمكنك أنْ تصدّق أنّه للطّفلة ذاتها الّتي تملك وجهًا ملائكيًا قادمًا من الجنّة!! صرختْ بأعلى صوتها : «لوين رايحين؟!» لكنّها لم تجد جوابًا من أحدٍ ، رمقها مَنْ حولها بشيءٍ من التّأفّف كأنّهم يريدون أنْ يقولوا لها : «مش ناقصين» . كانت تبدو مذعورةً بشكلٍ استثنائيّ ، كانتْ عيناها جاحِظتَين تدوران في المحجرين بسرعة ، قبضَتْ بكلتا يدَيها على ثوبِها الوسخ ، وراحت تشدّ عليه وهي تُكرّر السّؤال بصراخٍ أعلى : «لوين رايحين» . وحينَ لم يُجِبْها أحدٌ راحتْ

تستغيث: «والله ما عملنا شي . . . حرام عليكُنْ . . . لوين مودّينّا . . . للموت مو هيك . . . صواريخ . . . صواريخ . . اهتزّ البيت . . . وقعت الخزاين . . . متنا . . . والله متنا؟!» . واستمرّتْ في الصّراخ بشكلٍ هيستيريّ ، حاولَ بعضهم أنْ يُهدِّئها فلم يستطع ، سُمعَ أحدهم يقول : «مَنْ يعرفُ هذه الفتاة ، أينَ أهلُها؟!» . لكنّ أحدًا لم يُجِب . اقتربَ آخَر يسألها : «ايش اسمك؟!» لكنّهم لم يَجِدوا منها غير الصّراخ والذّعر المنسكب في عينَيها . تقدّم منها الطّبيب أحد زملاء جلال الّذي ركبَ معهم لكي يُهدِّئها فلم يُفلِح ، ظلّتْ تقفز وتنحب ، وتضرب بيديها على صدرها ، وتُمزّق ثيابها . . . تقدّم نحوها الجنديّ الأردنيّ يريدُ أنْ يُهدّئها فلمّا رأتِ البندقيّة تتدلّى على جانبه ازداد فزعها فعلا صُراخها ، تراجع الجنديّ ، واتّصل بالطّبيب جلال الّذي كان قد استقلّ أحد الباصات الأخرى . طلب منهم جلال أنْ يتوقّفوا ، ونزلَ من الباص الّذي هو فيه وتوجّه إليهم ، كانَ صوتُها ما يزال يصلُ إليه وهو يهمّ بصعود الدّرجات الأولى إلى باصهم ، طلبَ من زميله أنْ يتبعه ، ومِن كلّ مَنْ حولها أنْ يتراجع عنها ، تقدّم إليها بهدوء ، راسِمًا ابتسامةً مُضيئةً على وجهه السّمح ، حينَ لم يبقَ إلاّ خطواتٍ بينهما جثا على رُكبتَيه ، وراح ينظر في عينَيها عميقًا وبسمته تزداد ، كانتْ لا تزال ترتعش وتُزبِد ، هدأتْ قليلاً بعد أنْ شاهدَته ، زحفَ على رُكبتَيه قليلاً ، حين صار على بعد خطوةٍ واحدةٍ منها فتح ذراعَيه لها فألقتْ بنفسِها بينَ أحضانه ، ظلّ يربّتُ على ظهرها دون أنْ يقول كلمةً واحدِة ، وغمز زميله الطّبيب ، كشفَ ذراعها وجلال مستمرّ في التّربيت على ظهرها وهو يغنّي : «حبيبتي الصّغيرة . . . جميلةٌ أميرة . . .» مدّ ذراعها الأخرى ليستقبلَ الإبرة من زميله ، ودون أنْ تُحسّ أو تنتبه غاصت الإبرة في ذراعها ،

وحين سحبها بعد أنْ أفرغ ما بها من مصل كان زميله يأخذ الإبرة ويذهب بها بعيدًا . كانتْ قد توقّفتْ عن الصّراخ بعد الضّمّة الأولى ، سألها : «ما اسمك يا أميرتي؟!» . لكنّها لم تُجب ، كانت عيناها ذاهلتَين ، قال لزميله : «ستهدأ خلال دقائق ، إنّها مُصابةٌ بالفزع اللّيلي ، الذّاكرة المُتخَمة بصور الحرب والدّمار والدّماء لا ترحم ، حينَ نصل إلى المخيّم سأتدبّر أمرها ، علينا كذلك أنْ نتأكّد من تسجيل المُلاحَظات الطّبيّة عن كلّ لاجِئ في الكشوفات حين نصل ، هل تعرف ما اسمها» . «إنّه موجودٌ في الكشوفات الّتي لديك» . «في الحافلة الأخرى ، مَنْ معها؟!» . «لا أدري» . «لا بأس ، سنعرفُ كلّ ذلك لاحِقًا» . ونزل . شقّ الباصُ طريقه في الظّلمة الصّحراويّة ماضِيًا إلى قدرٍ جديد .

كان ذلك في شهر آب من عام ٢٠١٢ ، حينَ أُنشِئ المُخيّم على بعد عشرين كيلو مترًا من المفرق في شمال شرق الأردنّ ، لا أحدَ يعرفُ ماذا يُمكن أنْ تخبّئه الصّحراء لمن كان غريبًا عنها ، عشراتُ الآلاف من اللاّجئين من مناطق مختلفةٍ من سوريّة جاؤوا من السّهل والجبل والوادي والبوادي والرّيف لينصهروا في بوتقةٍ لا تعترفُ إلاّ بالصّحراء ، على كلّ تضاريس الأرض أنْ تتخلّى لهذه الصّحراء العنيدة ، ولكنْ مَنْ يدري ، لقد قالوا : إنّ الصّحراء تُشبه ابنَها ، وكانوا يقصدون الجَمَل ؛ صبورةٌ ودودة ، تُبادِل مُحبَّها وفاءً بوفاء ، ولكنّها لا تنسى من أساءَ إليها ، يظلّ الحقد يغلي في أعماقها حتّى تأتي لحظة القصاص ، وإذا أتتْ فإنّ الماضي الجميل كلّه لا تغفره إساءةٌ واحدةٌ جاءتْ غادرةً في الظّهر!!

وصلوا إلى المُخيّم السّاعة الثّالثة فجرًا ، تلقّاهم مرتّب الأمن

المُكلَّف مع الهيئات الإغاثيّة بتوزيعهم على الخيم ، كان عليهم أنْ ينتظروا في خيمة كبيرة للتّأكّد من السّجلاّت قبل أنْ يُصار بهم إلى موطنهم الجديد . طلب جلال من الكادر أنْ يطمئنّ على الطّفلة الّتي عالجَها مُؤقّتًا في الطّريق ، تنقّل بين المجاميع حتّى عثر عليها ، ها هي ، كانتْ تبدو وادعةً ، كأنّ ما مرّ كانَ عرضًا عابرًا ، لا تتذكّر منه شيئًا ، شعرها الأشقر الطّويل كان ينسدل في جدائل مُفكّكة خلفَ ظهرها ، وعيناها بدتا غير عابِئتَين بشيء . وضعَ يده في يدها ، وساروا باتّجاه خيمة الأطبّاء . قال لأحد زملائه وهو يُجلس الصّغيرة إلى جانبه ويمدّ لها بقطعةٍ من البسكويت المُحلّى : «الفزع اللّيلي لا يعرفُ وقتًا ، أظنّ أنّها بحاجةٍ إلى معالجةٍ خارج هذا المخيّم» ردّ عليه زميله : «أينَ عائلتُها ، لو كان أحدٌ من عائلتها معها ألا يُخفّف ذلك عنها» . «بلى ، لكنّنا لا نعرفُ حتّى الآن اسمها ، هاتِ الكشوفات حسب رقم الباص ، عليّ أنّ أعرفَ ما سجّلناه من معلوماتٍ عنها» . لحظات وآتيك بها ، قال له وهو ينظر في الأسماء سريعًا : «اسمُها ليلاس جمعة ، قادمة من دمشق من الغوطة ، ويبدو أنّنا سجّلنا معها واحِدًا من عائلتها . . . انظر هنا . . . أُمّها هي الوحيدة من عائلتها الّتي ترافقها» . «لكنْ أينَ هي؟!» . «لا ندري» . قامَ سريعًا ، توجّه إلى المسؤول الأمنيّ عن المخيّم ، قال له : «أريد ألاّ توزّع هؤلاء اللاجئين على الخِيم قبل أنْ أتأكّد من شيء» . «ماذا هنالك» . «لدينا طفلة وأمّها مفقودة . . . أرجو أنْ تطلبَ من النّساء أنْ يتوجّهن إلى النّاحية الشّماليّة من الخيمة لكي أتعرّف على أمّ الطّفلة» . «سنفعل ذلك حالاً أيّها الطّبيب ، لا تهتمّ» . قال لزميله : «أمّها مُصابة بشيءٍ ما هي الأخرى ، لأنّه لا يُمكن أنْ تتركَ ابنتها ، لم تقطع كلّ هذه المسافات المحفورة بالموت وتحافظ على ابنتها

خلالها ، ثُمّ تتخلّى عنها هنا بعدما صارتْ في أمان ، لا بدّ أنْ في الأمر خطبًا ما ، عليّ أنْ أعرفَ اللّيلة قبل أنْ نغادر» .

وضع يده في يد الطّفلة ومَشوا إلى الخيمة ، كانت الطّفلةُ قد هدأتْ تمامًا ، صامتةً ، مُطيعةً ، إلاّ أنّ حزنًا غامِضًا في عينَيها لا يُمكن أنْ يُدرك سرّه أحدٌ ؛ هل الأطفال يحزنون إلى هذا الحدّ المُذهل!! قال لزميله : «حينَ نُصبح في خيمة اللاّجِئات ، يُمكننا أنْ نعرفَ أمّها بطريقتَين ، إمّا أن ننادي على اسمِها ، اسمها حسب الكشوفات الّتي لديّ : نادية . وهي طريقةٌ لا تُجدي إذا كان الّذي أفكّر فيه هو ما حدث معها بالفعل» . ردّ عليه زميله متعجّبًا : «أو؟!» . «أو نسير بهذه الطّفلة الرّائعة بينهنّ ، فتتعرّف عينا الأمّ على البنت أو العكس ؛ ذاكرة الصّورة أدْوم» . هزّ رأسه ومَضَيا معًا . في الطّريق القصيرة بين الخيمتَين ، سألها : «ليلاس ؛ ما اسمُ ماما؟!» . لكنّها شدّتْ على يده ولم تُجبْ

سار بها بين المُنتظِرات مصيرهنّ حتّى هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل ، كان الأفق الأسود الّذي يبدو من خلال نوافذ الخيمة قد بدأ ينشقّ لصالح الأبيض المتحفّز للقدوم ، لا عرشَ لأحدهما يدوم ، إذا أطال النّهار المُكوث هَمَزه الصّبح من خلفه أنْ قد حانَ دوري ، وإنْ تربّع اللّيل على العرش ، قال له الفجر : أما آنَ لكَ أنْ ترحل .

هتفَ بصوت عالٍ : «نادية . . . نادية . . . مَنْ هنا اسمُها نادية عبد الله» . لكنّ العشَرات اللّواتي ظللْنَ متكوّمات وساهِمات كأنّهن في بيتِ عزاء لم تقلْ واحدةٌ منهنّ شيئًا ، مال نحو زميله : «فقدان الذّاكرة . . . نعم ، الحرب تصنع العجائب ، تخلّتْ خليّة الذّاكرة الموكّلة بحفظ الأسماء عن دورها» . «هل هو فُقدان مؤقّت؟!» . «بالطّبع ،

السّبب في الأساس صدمةٌ حادّةٌ لمشهدٍ مُروّع ؛ مَنْ يدري ماذا حدث لهم في الطّريق؟! مَنْ يعرف أيّ جحيم شاهدوه وهم هاربون ، على أيّة حال في أيّ لحظة قد تعود لها الذّاكرة ، لَكنّني أودّ أنْ أعرف الآن أمّها ، الذّاكرة البصريّة ستنقذنا في هذا ، سنطوف بالطّفلة عليهنّ جميعًا» .

كنتَ تسمع بعض الأنين الخافت يصدر هنا أو هناك . أسئلة حائرة تحاول أنْ تدركِ ماذا يُمكن انْ يحدث بعدَ قليل ، وكثيرٌ من الحسرة والدّموع . قالتْ له إحداهنّ : «نعم ، هذه ليلاس ، إنّها قدمتْ معنا ، أمّها نادية ، أنا أعرفها» . طلبَ منها جلال أنْ ترافقهم لتساعدهم في التّعرّف إليها ، تحاملتْ على نفسِها ، وهي ترفع جسدها من تحت العُكّاز ، نظر جلال إليها ؛ كانتْ إحدى ساقَيها قد تخلّتْ عنها ، اعتذر لها جلال في الحال : «أنا آسف ، استريحي . . . استريحي . . . أنا سأتولّى الأمر . . . ليلاس ستتعرّف إلى أمّها» . ومشيا .

كانوا قد بدؤوا ييأسون من إكمال الطّريق ، أكل التّعب صبرَهم ، واستنفد التّدقيق إيمانهم ، آنذاك في لحظةٍ مُفاجِئة سحبتْ ليلاس يدها من يد جلال ، وركضتْ وهي تصرخ : «ماما . . . ماما» . كان الصّوتُ يحملُ شيئًا مختلِفًا عمّا لو قالها أيّ بشريّ آخَر ، قلبُ الأمّ لا يُخطِئ الصّوت الّذي أخذ نبرته من دمها ولحمها ، وكأنّها كانتْ نائمةً فاستيقظَت ، أو مُلقاةً في بئر عميقةً فأُخرجَتْ منه . فزّتْ واقفةً على قدَمَيها كأنّ شيئًا لسعها ، واحتضنتْ ابنَتها بذراعَين من شغف كأنّها لا تريدُ أنْ تفقدها مرّةً أخرى : «ليلاس . . . أينَ كنتِ يا حبيبتي . . . لا تتكريني وحدي . . . لم يعدْ لي في الدّنيا سِواكِ . . . لِمَ تفعلينَ ذلك بأمّك يا صغيرتي؟!» .

(٣٧)

كان الوقوف عزيزًا في زمن السّقوط والانهيار

الشّمس تُبدّل أحوال النّاس ، تُخبرهم أنّ الماضي يُمكن أنْ يتغيّر حينَ تطلع من جديد ، مَن قال إنّ الأيّام تتشابه ، وإنّ النّهارات واحدة!! كلّ لحظةٍ في حياة البشر مختلفةٌ تمامًا عن اللّحظةِ الّتي سبقتْها وهي بالضّرورة مختلفةٌ عن اللّحظةِ الّتي تليها ، ما من شمسٍ تطلع بذات الوجه في كلّ يوم . ما من قمرٍ يضحك بذات الضّحكة في كلّ ليلة . ما من نسمةٍ تختال بذات الاختيال في كلّ مساء . وما من ماءٍ يُشرَب بذات العذوبة في كلّ كأس!!

مساحات الفرح والحزن هي عوالم داخليّة تعيش في الروح البشريّة ، وكلّ إنسانٍ يستطيع أنْ يُغلّب مساحةً على أخرى بأسلوبه الخاصّ في النّظر إلى الأشياء . يُمكنك هنا أنْ تُلاحظ ذلك جليًا ، في هذا المُخيّم الّذي يشقّه شارعٌ رئيسيّ هو شارع (الشّانزليزيه) ، يُمكنك أنْ تُدرك حجم الإقبال على الحياة في صحراء تلتهم المكانَ من كلّ جهة!! هل كان ذلك تعويضًا عن الجحيم الّذي كانوا قد خرجوا منه للتّو؟! ربّما . هل كان ذلك هربًا من براثن الموت للعَوم في بركة الحياة؟! ربّما . هل كان ذلك محاولةً لنسيان الماضي المُظلم من أجل البحث عن فُسحة للنّور في المستقبَل المأمول منه أنْ يكون مُشرِقًا؟! ربّما . ولكنّهم في كلّ الأحوال يستنهضون الفرح ولو كان هذا الفرح إبرةً في كومة قشٍ من البُؤس!

المخيّم الّذي يبدو من الأعلى كما لو كان أحدهم قد نثرَ عُلبًا من الكبريت في أرضيّة ملعبٍ مدرسيّ ترابيّ فسيح يُشكّل الحياة اليوميّة لأكثر من مئة ألفِ لاجئٍ اكتشف بعد أنْ رأى من الأهوال ما رأى، وخالطَ من الأمراض والأوجاع ما خالَط، أنّ كلّ مرضٍ إلى شفاء، وأنّ كلّ ألم إلى نهاية، وأنّ كلّ وجع إلى رحيل، لكنّه في المُقابل اكتشفَ كذلكً أنّ الحنين هو المرض الوحيد الّذي لن يُشفَى منه، فكتبَ على جدران قلبِه: «ساعِدوني لأعود إلى وطني».

في شارِع الشّانزليزيه الشّهير هذا يُمكنك أنْ ترى ما لا يُرى؛ عالَمٌ أخضر ينقلك إلى قدرة الإنسان الهائلة على التّحكّم بآلامه، كأنّ حُبّ الحياة أقوى من الاستسلام للموت، وكأنّ رؤية السّنبلة المُثقلة بالعَطاء ممكنٌ في هذه الصّحراء!! هنا إنْ بدأتَ بالجزء البعيد من هذا الشّارع ستجد أزهار الحمزة، في متجرٍ صغيرٍ من الصّفيح يتشابه في هيئته مع عشرات المحلاّت الأخرى المنتشرة على جانبَي الشّارع، كان ينضّد الزّهور ذات الألوان البهيجة في شتلاتٍ خلاّبة بيدَين فقد أحدهما، قال للّذي بتر يُمناه: «بقيتْ عندي يدٌ أخرى أستطيع أنْ أرسم بها الجمال لأهزم القبح الّذي يتخثّر في قلبك». إلى جانبه محلّ بوستن للاتّصالات يعرضُ مكالماتٍ إلى أيّ جزءٍ من العالَم حتّى مع إخوة السّلاح أولئك الّذين ما زال بعضُهم يرفع البنادق في وجوه الآخَرين في معركةٍ لا يبدو أنّها ستنتهي عمّا قريب. فإذا تابعتَ سيرَك قابلك معرض عروس الشّام إذ يفد إليه المُقبِلون على الزّواج من أجل استئجار فساتين السّهرة، حيثُ لا تدفع العروس أكثر من خمسةَ عشر دينارًا من أجل أنْ ترفلَ في الثّوبِ الأبيض لليلةٍ واحدةٍ تُزَفّ بها إلى مَن سيعيشُ معها حياةً جديدةً في هذا المكانِ الطّارئ الّذي تحوّل إلى رابع

أكبر تجمّع سكّاني في الأردنّ ، معًا سيقاتلان الفناء ، وسيجاريان ذكرى الرّاحلين الخمسة الّذين قضى عليهم القصفُ في رُكن الدّين بدمشق ، ومَنْ يدري فقد لا يُغادِران هذا المكان قبل أنْ يعوّضا مَنْ فقدا .

إنّها حياةٌ وَلود ، ليسَ للموت قدرةٌ مهما تفشّى كدخانٍ رماديّ أنْ يقضيَ عليها أو حتّى أنْ يُوقِفَها . إنّها تبدو في بسمةِ طفلةٍ تلبسُ ثوبًا أحمر ، ذات شعرٍ منكوش ، تتدلّى خُصله الفوضويّة على وجهها المقشوب ، تُمسك بيدها صحنًا فارِغًا تنتظر أنْ تملأه يدٌ كريمةٌ ما بشيءٍ يسدّ الرّمق ، وتُبقِي على الحياة في جسدٍ راوده الموتُ عن نفسه أكثر من سبعين مرّةً!!

إنّها تبدو في أكياس الباذنجان الشّفّافة ، تنتظر شاريًا يُمكن أنْ يصنع مقدوسًا بالزّيت لتخفيف آثار الشّتاء القاسِية . إنّها تبدو في الحديقة المُلوّنة من التّفّاح والبرتقال واللّيمون والموز والجزر المنضدّة في صحفات بشكلٍ دائريّ هَرَميّ ، يبعثُ على رؤية الحياة فيما أخرجتْه الأرضُ من بدائعِ خالقها ؛ أليستْ الأرض في عطائها حجةً على المنسحبين إلى ذواتهم ، والجالِسين على قوارع الأسى!!

هُنا ؛ عطورات باريس ، وإنْ كانتْ باريس بعيدةً جدًا . هنا حقائب الملكة إليزابيث ، وإنْ كانت الملكة لم تسمع بهذا المكان من قبل ولم تسمع به من بعد . هُنا الباشا للخياطة ، وإنْ كان الباشا هو من أمرَ أنْ تبدأ فاتورة الدّماء ، وجعلها أرخص من الماء . هنا الإخوة للبناشر وتصليح الدّرّاجات ، وإنْ كان الإخوة قد صاروا أعداءً مذ اختلفوا على توزيع الغنائم والتّسابق على الظّهور في الفضائيّات . هنا الفصول الأربعة للملابس وإنْ كان الفصل الّذي يُخيّم على المكان هنا واحِدًا

يستمدّ ليله ونهاره من البؤس والتّشرّد . هُنا أحذية تولين ، وإنْ كانت تولين لم تعد بحاجةٍ إلى حذاء مُذ فقدتْ قدمَيها في الخريف الماضي . هُنا معرض ضوء القمر ، وإنْ كان ضوء القمر يتسلّل في ليل المُخيّم خجولاً مِمّا فعله الإنسانُ بالإنسان . هُنا سهل حوران للخُضار والفواكه ، وإنْ كان سهل حوران قد تحوّل إلى مصائد للهاربين من النّيران الّتي تلتهم كلّ شيءٍ خلفهم . هنا كهرباء القيصر ، وإنْ كان القيصر ماتَ قبل أنْ يشهد عصر الكهرباء . هنا مُعجّنات وَقِّفْ تَقُلّك ، وإنْ كان الوقوف عزيزًا في زمن السّقوط والانهيار . وهنا يُشير إليك صاحب محلّ فطايرع الطّاير أنْ تعرّج على محلّه ؛ لأنّكَ - فعلاً - لن تتذوّق مثلها في أيّ مكانٍ آخر مهما امتدّ بك العمر ، واتّسعتْ بك التّجربة!!

أمام الخِيم الّتي تمتدّ في خطوط طوليّة وعرضيّة على مسافاتٍ بعيدة ، يُمكنك أنْ تُشاهد الجالسينَ على حافّة الذّكرى يستعيدون صورَ أحبابهم ، لولا الذّكرى لكانت الحياة أقلّ أسىً ، ولكانت لعنة الحرب أخفّ وطأة . ولكنْ ماذا يفعلون ؛ إنّها أحيانًا تكون فرصتهم من السّقوط في وادي الكآبة السّحيق الّذي لا يرحم ، يقتاتون على محطّاتٍ جميلةٍ منها فيستعيدونَ شيئًا من الرّغبة المُلحّة في الحياة . وعلى مصاطب إسمنتيّة سمحت لهم الدّولة ببنائها تدور حكايا لا يعرفُ حجم الألم فيها إلاّ مَنْ عايَشَها .

يحتوي المُخيّم على اثنتي عشرةَ قطعةً سكنيّة ، لم تُوزّع المدارس التّابعة لليونيسيف فيها إلاّ على ثلاثٍ منها ، كما أنّ المراكز الصّحّيّة حظيتْ بنقصٍ مُماثِلٍ . دأبَ جلال ، وبروحه المُشبَعة بالإنسانيّة على أنْ يزورها زياراتٍ دوريّة ، على رأسِ كلّ شهرٍ ، وبتصريحٍ من وزارة

الصّحّة ، وبرئاسته لموقعه الطّبّيّ الرّفيع ، كان يتفقّد أحوال المُصابين في المخيّم بشكلٍ مُستمرّ ، ما زالت صرخات الطّفلة ليلة التّرحيل إلى هنا ترنّ في أذنَيه ، سأل الطّبيب المُقيم في القطعة السّابعة حيثُ تسكن عنها ، لم يتذكّرها بادئ الأمر ، لكنّه بعد أنْ دقّق في السّجلاّت اكتشفَ أنّها ما زالتْ تعاني من الفزع اللّيلي .

كانتْ قد دأبتْ منذ خمسةِ شهور على إخفاء سكّين تحتَ مخدّتها ، وبالرّغم من محاولات الأمّ بإبعاد السّكّين عن متناول اليد ، إلاّ أنّها كانتْ تجد دائمًا وسيلةً للاهتِداء إلى مكانه . تتسلّل في اللّيل الدّاجي ، تعثر عليه ، تمشي على رؤوس أصابعها في خيمتها الصّغيرة الّتي تؤويها مع أمّها ، وتضعه بهدوء تحتَ رأسها ، وتنامُ نومًا عميقًا . سأله جلال : «هل آذتْ أحدًا به . . . هل استخدمتْه؟!» . «كلاّ» أجابه الطّبيب المُقيم . وتابع : «يبدو أنّها كانتْ تشعر بالاطمئنان فقط لوجوده تحت رأسها» . «هل عرفتم عن حياتها وعمّا شاهدتْه شيئًا؟!» . «كلاّ» . «هل سألتم أمّها عن ذلك؟!» . «كلاّ» . «إذًا أريدُ أنْ أراهما معًا» . «الآن؟!» . «نعم» .

(٣٨)
حُرِّيّتي... لا تُشتَرى بالذّهبِ

عبَر الطّريق الوحيدة من الإسفلت المُضطجع على رمل الصّحراء ليهبها لونًا جديدًا ولو كانَ هذا اللّون أسود ، ثُمّ انفتل يسارًا في طريقٍ ترابيّة مفروشة بالحصى البيضاء الصّغيرة تُؤدّي إلى المدرسة ، كانت المدرسة المكوّنة من كرافانَين مُتقابِلَين يُوصَل إليها عبر بوّابةٍ من القُضبان الحديديّة الزرقاء قد أقامَتْها اليونيسيف واستغلّتْ الواجهة الصّفيحيّة لإحدى المحلاّت من أجل أن تنقشَ عليها اسمَ منظّمتها العاملة في معظم مناطق النّزاع في العالَم ، السّاحة الصّغيرة خاليةٌ تمامًا ، صمتٌ مُطبِقٌ في الخارج ، ورملٌ ساكنٌ ، وحرارةٌ مُلتهبة ، وقليلٌ من الأطفال في الدّاخل يتلقّون دروسًا على أيدي معلّمين يلتحقون بالمهنة لأوّل مرّة!!

وقفَ المُعلّم صبري أمام خليطٍ من الطُّلاّب لا يدري ماذا يفعل ؛ قيلَ له إنّه يستطيع أن يكسبَ بعضَ المال مقابل بعض الدّروس الّتي سيُعطيها لهؤلاء الطّلاّب في هذا المُخيّم ، لم يكنْ قد مضى على تخرّجه بضعة أشهر حين طُلِبَ إليه ذلك . عيونٌ انصبّتْ نحوه من كلّ جهة ، ليسَ للبؤس تعريفٌ أوضح من هذا الّذي يسكنُ في هذه العيون المُحملِقة باتّجاهه ، اضطربَ ، لم يعتدْ على نظراتٍ كهذه ، لعنَ الحاجة . كان يُمكنه أنْ يعمل (كاشير) في المفرق كما طلبَ منه ابنُ عمّه الّذي يملكُ مخبزًا ، عزّتْ عليه نفسُه ، لم يتعبْ في تحصيل

الشّهادة اللّامعة أربع سنوات من أجل أنْ ينتهي به المطاف للمّ أرباع الدّنانير من الزّبائن!! خُيّل إليه أنّ ما رفضه في السّابق يفعله الآن. طمأنَ نفسَه آنيًا: «إنّهم أطفال، ويحتاجون إلى معاملةٍ حسنَة أكثر من معلومةٍ حقيقيّة». كان معظمهم ما بينَ سنّ الثّامنة والعاشرة. أولادًا وبناتٍ. شعور منكوشة، وثياب متّسخة، وأقدام حافية، و... فقط هناك مقاعد مستطيلة يجلسون إليها بلا اتّفاق، وقد وفّرت لهم المنظّمة الدّوليّة أوراقًا وأقلامًا.

تلعثم حينَ أرادَ أن ينطق بالكلمة الأولى في اليوم الأوّل. خفضَ نظره في الكتاب الّذي بينَ يديه؛ إنّها مناهج تجميعيّة أُلّفتْ على عَجَل، لا من أجل أنْ تُعلّم تعليمًا مُنتَظمًا؛ بل من أجل أنْ تحافظ على مستوى مَن يتعلّم حتّى لا ينسَى القراءةَ والكتابة، وإلاّ فما معنى هذا الخليط من الأعمار والأجناس والألوان الّذي يجتمع في غرفةٍ بيضاء مُصمَتة في وقتٍ واحد!!

بدا أنّ الأولاد راغبون في التّعلّم، وشى بذلك صمتُهم الطّويل، وعيونهم المُعلّقة بأستاذهم تنتظر أنْ يبدأ، وانضباطهم على مقاعدهم كما لو كانوا رُهبانًا في ديرٍ مَنسيّ. منذُ أنْ أُنشئتْ هذه المدرسة وأخرَيان مثلها لتخدم اثنتي عشرة منطقةً سكنيّة في المُخيّم لم يلتحقْ بها أكثر من عُشر الّذين يحقّ لهم ذلك؛ كانوا - البقيّة - قد فقدوا هم أو ذووهم الإيمان بجدوى أنْ يتعلّم أبناؤهم في زمن الضّياع في بلدٍ غريب، جُلّ ما كانوا يطمحون إليه أنْ تنتهي هذه الحرب اللّعينة ويعودون إلى أوطانهم، ليست الطّيور أفضل منهم، إنّها تهتدي إلى موطنها ولو في الظّلام، وتعود إليه بالرّغم من طلقات الصّيّاد الطّائشة الّتي تتربّص بها في كلّ حين!

قرأ الأبيات بصوتٍ مهزوز ، يعرف أنّه يدرّس العربيّة وهو خرِيج علم اجتِماع ، ولكنْ مَنْ يدري ، قد يكون ذلك مقصودًا ، ثمّ إنّ أساتذة العربيّة ليسوا بأحسنَ حالاً منه ، أراد أنْ يُغطّي اهتزاز الصّوت الخفيض ، ففجّر صوته ، قال لهم ، ردّدوا خلفي :

«قَدْ كانَ عِنْدي بُلبُلٌ» . . . فيهتفون من بعده وقد اعتراهم الخجل : «قَدْ كانَ عِنْدي بُلبُلٌ» . فيصرخ بهم : ما هذا ، أريد صوتًا عالِيًا ، أريدكم أنْ تُحرّروا حناجركم هيّا : «قَدْ كانَ عِنْدي بُلبُلٌ» فيرفعون عقائرهم ، وشيئًا فشيئًا تنمو الحروف في الأعماق كما لو كانتْ عرائش من الورد ، ثمّ تفيء إلى ظلّ الرّوح فتُطرِبها ، فيُتابعُ الأستاذ وقد أمسكَ بعنان القلوب : «حُلوٌ طَويلُ الذّنبِ» . ويهتزّ على الإيقاع ، فيردّدون خلفه طَروبين ، فيعيد ، فيُعيدون ، ويظلّ الياسمين يعبَق بشذى الحروف ، فينتقل إلى مستوىً عاطفيّ وهو يضمّ يدَيه إلى صدره ، ويَحني عُنقَه ، ويُغمِضُ عينَيه ، ويسيل منه اللّحن حانيًا : «أَسْكَنْتُهُ في حُجرتي . . . في قَفَصٍ مِنْ ذَهَبِ» . وتلمع عيون الأطفال ، وتهتزّ جوارحهم ، وهم يردّدون البيت ، فيتلقّاهم الصّوت من جديد : «كانَ يُغنّي دائمًا . . . بكلّ لحنٍ مُطرِبِ» فيطربون مثلَه ، ويُعيدها مرّتَين ، ثُمّ يُخلِي طاولته ، ويتقدّم يمشي بين المقاعد ، ويبدو في نبرته الرّجاء الصّادق ، حينَ يأتيهم من الخلفُ نشيجُه : «ولَمْ أَكُنْ أَمْنَعُهُ . . . مِنْ مَطْعَم أو مَشْرَبِ» . فردّدوا البيتَ خلفه مُترقّبين حَذِرين ، صمتَ الأستاذُ قليلاً ، فاشرأبّتْ إليه الأعناق ، وتعلّقتْ به العيون ، ورجتْه أنْ يُكمِل ، تحيّن الأستاذ لحظةَ السّكون العميق ، ليُغضّنَ وجهه ، ويهتف بصوت يجرحه بكاءٌ مصنوعٌ : «فراحَ مِنّي هارِبًا . . . بدونِ أدنَى سببِ» . فقلّدَ الطّلابُ صوتَه المجروح ، وراحوا

يتساءَلون في أنفسهم عن سبب ذلك ، وتاهوا في خيالاتهم وهم يبحثون عن سببٍ وجيه ، إلى أن وجدوا سببًا مُقنِعًا في البيتِ الأخير : «وقال لي : **حُرِّيَّتي . . . لا تُشترَى بالذّهبِ**» . كان عُصفورًا صادقًا مع نفسه ، مُنسجِمًا مع فِطرته ، توّاقًا إلى ما خلقه الله عليه ، أنْ يكونَ حُرًّا ، فهل الحرّيّة تُشترَى ، وهل للحرّيّة ثمن؟! إنّه الدّرسُ الأوّل فهل وعى الأستاذُ قبلَ الطُّلاّبِ ذلك؟!

ثلاث ساعاتٍ في اليوم ، هو غاية ما يتلقاه الطلبة في هذه المدارس ، قليلون يأتون ، وقليلٌ من الوقت يُنفَق في فائدةٍ حقيقيّة . اقتربَ من أحد الصّغار ، سأله : «ما اسمُك؟!» . «نبيل» . أجابَ دون أنْ ينظرَ في وجه أستاذه ، وأصابعه تلهو بالقلم . «لماذا جِئتَ إلى المدرسة؟!» . «لكي لا يسخرَ منّي أحدٌ» . «وماذا تريدُ أنْ تُصبَح في المستقبل» . سكتَ الولد ، هَمّ بأنْ يتكلّم ، لكنّ شيئًا ما في حلقه مثل كرةٍ صافرةٍ صغيرة كان يقف فيسدّ مجرى الكلام ، أعاد الأستاذ عليه السّؤال ، كانت الكرة الصّغيرة قد هبطتْ إلى الأسفل ، ردّ عليه : «طيّارًا» . «طيّارًا؟!» هتف الأستاذ متعجبًا ، وتابع : «لماذا؟!» في هذه المرّة كانت الكرة الصّغيرة تُسبّب له ألمًا في أسفل المعدة ، إنْ كانت في الحلق ممكنةَ البلع فكيف يُمكن التّخلّص منها وهي تضرب جدار المعدة فتسبّب آلامًا شديدة . ظلّ صامتًا ، سأله الأستاذ السّؤال للمرّة الثّالثة لكنّه ظلّ صامتًا . تركه إلى طفلةٍ يبدو أنّها في العاشرة ، أعادَ عليها السّؤال : «ماذا ستفعلين حينَ تكبرين؟!» . رمشتْ عيناها بصمْت . كانتْ يدها ترتجّ على نحو خفيف ، سألها من جديدٍ السّؤال ذاته ، فتابعتْ خفضَ بصرِها ، وراحتْ يدها تهتزّ بشكلٍ أكبر ، أدركتْ على نحوٍ غير متوقّع أنّها يُمكن أنْ تتخلّص من هذه الرّجفة الغادرة بالإجابة

الحقيقيّة عن السّؤال : «أنْ أعود إلى سوريّة» . «لماذا تريدين العودة إلى سوريّة يا صغيرتي؟» . التفتَتْ نحوه هذه المرّة ، وقفت واستدارتْ نِصفَ دورة ، ظهر له رقبتُها المتغضّنة الشّوهاء ، جفل قليلاً ، نهض ، رشقتْه بالإجابة الجديدة وهي ترمقه بعينَيها الزّرقاوَين بتحدٍّ فظيع : «لكي أثأر ممّن قتلَ خالي» . كفّ عن سؤال بقيّة الطّلبة ، كانتْ إجابتُها كافيةً لكي تُحيل حلقه إلى صحراءَ جافّة ، تراجَعَ إلى الوراء ، وقف عند الطّاولة ، وهتف كما لو كان سيُتابع الدّرس : «**حرّيّتي لا تُشترى بالذّهب**» . نظر في وجوه طلبته ، لم يكنْ هناك من شيءٍ ليُقال . طلبَ منهم وهو يطوي الكتاب ويهمّ بالمُغادَرة : «لا تنسَوا أنْ تحفظوا القصيدة . . . في الحصّة القادمة سأطلبُ من كلّ واحدٍ منكم أنْ يقفَ هنا لكي يقرأها غيبًا» .

في السّاحة حينَ يستريح الطّلبة بعد أوّل ساعتَين يُمكنكَ أنْ ترى الأطفال على النّحو الّذي خُلِقوا عليه أو من أجله . يلعبون ، يلهون ، يُحاولون أنْ ينسَوا جُزءًا من الماضي الرّهيب الّذي عاشوه ، هل تستطيع الأحلامُ أنْ تُقاوم؟! ربّما . هل يستطيع الأمل أنْ يهزم الألم؟! ربما . هل يُمكن للوجع أنْ يتفتّح كبرعم فيُنبِت وردةً؟! ربّما . لكنّ ذلك ليسَ سهلاً . مَنْ قال إنّ الحُلم المجروح يُمكن أنْ يجفّ نزيفه بسهولة ، بعضُ الأحلام تظلّ تنزفُ حتّى بعد موتِ أصحابها!!

خرجَ صبري من الكرافان الأوّل ، حانتْ منه التِفاتةٌ إلى الأطفال المنثورين على السّاحة كالحصى ، فكّر ؛ لكلّ واحدٍ منهم حكاية ، تأكّد أنّ الحربَ تحوّل البشر بشكلٍ تدريجيٍّ إلى أرقام ، الرّقم في عدّ المأساة يتضخّم لكنْ لا قيمةَ له ، يأخذ شكلاً فجائعيًا لكنْ ما من أحدٍ يهتمّ ، تذكّر العبارة الّتي درسها في علم الاجتماع : «لا حضارة دون إنسانيّة ،

ولا إنسانيّة دون أخلاق» . وللحربِ أخلاقُها الخاصّة ، إنّها نِتاج الإنسان الوحش!!

شعرَ بالخجل من نفسه وهو يُغادر السّاحة ، متأبطًا حقيبته الصّغيرة ، ضامًا في داخلها الحرّيّة الّتي لا تُشتَرى بالذّهبِ ، كانتْ دمعةٌ متردّدة قد استقرّتْ أسفل جفنه . تلقّاه المدى المحزون ، لم يكنْ قادرًا على أنْ يألفَ المشهدَ من أوّل صدمة . مشى ، كان الشّارع يضجّ بالحياة ، لكنّها الحياة الّتي خلّفتْها الحربُ وراءَها دون أنْ تُلقِي لضحاياها بالاً . تلقّتْه في أوّل انعطافته طِفلةٌ لا تتجاوز السّابعة تحملُ أخاها الرّضيع ذا الشّهرَين ، كان وجهها مُحمراً من الشّمسِ الّتي لا ترحم ، حضنتْه بينَ يدَيها وهي بالكاد قادرةٌ على حمله ، سقطتِ الشّمسُ في عينَيه فأدار وجهه يتحاشاها ، ودفنه في صدر أخته وراح يبكي ؛ إنّه الجيلُ الّذي وُلِدَ في الحرب ، كانَ قدره أنْ يتربّى على صرخات الموجوعين الّذين يهبّون من مناماتهم فَزِعين بدل أنْ يتربّى على هَدهدات الأمّهات ، وأصواتِ الألعاب المُوسيقيّة الّتي تظلّ تصدح له نغمًا خافتًا حتّى ينام ، لقد مات هذا النّوع من الموسيقى ، وحلّ محلّه صوتُ الانفجارات وطائرات السّيخوي الّتي تكسر جدار الصّوت مُعلنةً تفرّدها في السّيطرة على سماء شعبٍ يُباد!!

وضع يده على جانب عينِه كأنّه يتحاشَى أنْ ينظر في وجه الطّفلة البائس ، كانَ ينطقُ بكلّ معنًى في قاموس البؤس الواسع ، نظرةٌ ساهِمة ، وفَمٌ مُشقّق ، وشفتان يابِستان ، وجبهةٌ تتقشّر ، وشعرٌ مُلبّد ، وحذاء مشقوق ، وحلم مشروخ يبرز من أسفله إصبع الذّلّ .

تركَ الشّارع هربًا من نظرات الأطفال البريئة ، مشى بينَ صفّين من الخِيام البيضاء الموشومة بوشم المنظّمة الأزرق ، رأى حِبال الغسيل

المتقاطعة خلفَها تتدلّى من تحتها ثيابٌ ممزّقة ، طرقَ سمعَه صوتُ طفلة تقول لأخيها : «تشبّث بي ، لا يُمكنني أنْ أساعدك ما لم تشدّ جسمك قليلاً» ، رآهما ؛ كانَ هيكلاً عظميًا على الحقيقة ، وجمجمةٌ تُبحلق في وسطها عينان ، وفمٌ تمنع سِنّان من انطباقه انطباقًا كاملاً ، جرّته ؛ جرّتْ ما تبقّى منه ، لم يكنْ قادرًا على الوقوف ، ولا أنْ يستوي بجذعه ، فاضطرّت إلى أنْ تسحبه سحبًا لكي يقضي حاجته بعيدًا .

شعرَ بأنّ طعمًا مالحًا يسدّ مجرى تنفّسه ، أسرعَ أكثرَ في خُطاه ، لم يعدْ يدري إلى أينَ يمضي ، كان يمضي فحسب ، أحسّ بحاجة إلى أنْ يُغادرِ المخيّم دونَ أنْ يُفكّر في مجرّد العودة ، هرولَ وهو يشدّ قبضته على الحرّيّة الّتي لا تُشتَرى بالذّهبِ ، استوقفه طفلٌ يجلسُ القرفصاء ، ويشبّك بين يدَيه ، وينظر في الفراغ ، تقاطعتْ نظراتهما حينَ صار قبالته ، كانَ يضع أمامه كيسًا يحوي عددًا من الأحجار ، همّ بأنْ يسأله عن ذلك ، لكنّه لم يقوَ على نظرات الطّفل الثّاقبة ، فتركه ومشى .

في الحارة الخامسة من صفّ الخيام الممتدّ كطعنة لا تتوقّف ، وتظلّ تغوص عميقًا ، رأى طفلةً تدلّتْ خُصلةٌ من الشّعر ما بينَ حاجبَيها واستقرّتْ فوقَ أنفِها ، ابتسمتْ حينَ رأتْه ، تحفّزتْ لتُسلّمَ عليه ، تركتْ طفلاً آخر شعره الكثّ يتوزّع في قُمع رأسه كخوذة بدا أنّه أخوها ، وتوجّهتْ نحوه ، مدّتْ يُمناها إليه مُسلّمة ، انفطر قلبُه ، ركع ، جثَا على رُكبتَيه لتصيرَ عيناه في مستوى عينَيها ، همّ أنْ يسألها عن اسمِها لولا أنه شاهدَ في يدها اليُسرى كيسًا شفّافًا يحمل قِطعًا بلاستيكيّة ظنّ أنّها صافرات ، ولها اسطوانةٌ نحاسيّة في آخرها ، عدل عن سؤاله الأوّل للثاني : «ماذا تحملينَ يا صغيرتي؟!» . «هذه؟!» سألته وهي تُشيرُ إلى الكيس الّذي تحمله . أجابها : «نعم» . «إنّها لعبتي» .

«لعبةٌ جميلةٌ . . . لكنْ هل هذه صافرات؟!» . «لا ، هذه فوارغ طلقات الرّصاص والمقذوفات حملْتُها معي من القصير إلى هنا» . صُدِم ، تبيّنتْ له سذاجته على الفور ، شعر باختناق سريع يحلّ على رئتيه ويضغطُ عليهما ، وقفَ على قدمَيه ، وأسرعَ نحو البوّابة كأنّه يهربُ من شيءٍ ما . هذى قليلاً ، تساءَل في سِرّه : «كيفَ سيكبرُ جيلٌ كهذا جعل من الرّصاص لعبته!!» .

عادَ إلى الشّارع ، بدتِ البوّابة الأولى الّتي تُفضي إلى المخرج الثّاني قريبةً ، عندَ فسحةٍ من الأرض شاهدَ مجاميع من الصّغار يلعبون داخل سِياج شبكيٍّ أحمر ، وقد مُلِئتْ بالرّمل ، ودّ لو أنّه يدخل فيلعب معهم من أجْلِ أن يزرعَ ابتِسامةً ولو مؤقّتةً على وجوههم ، لكنّه يعرفُ أنّه لا يستطيع ، فهو أجبن من أنْ يُواجه نظرات الأطفال الّتي تنفذُ كخنجرٍ إلى الفؤاد لتطرح سؤالاً عدميًا : «ما الخطيئة الّتي ارتكبها الإنسان ليقذف بكلّ هؤلاء الأبرياء إلى هنا؟!!» . عنّ له أنْ يتوقّف لبرهة ، أرسلَ نظره إليهم ، رأى طِفلاً في الثّالثة تقريبًا يُمسِكُ بكعبِ بُسطارٍ عتيق ، ويدفعه على الرّمل النّاعم ، ويُصدر أصواتًا من ذاكرة الحرب : «وي . . . وي . . . وي . . .» . إنّه يقود سيّارةَ إسعافٍ من أجل أنْ يُنقِذ أصدقاءه الّذين تحوّلوا إلى أشلاء!!

(٣٩)

«يا مال الشّام يمّا يا مالي...»!!

«أليسَ للموتِ بطنٌ يشبع؟! ألم يُتخَم بعد أنْ أكل كلّ شيء؟!»
قال جلال ذلك لأحد أصدقائه الأطبّاء وهم يُغادِرون كرافان المركز الصّحّي الّذي يقع في المنطقة الخامسة إلى ساحة تقع بينَ مجموعةٍ من الخِيم أُعِدَّتْ على عَجَلٍ من أجل حفل زفافٍ لِعروسَين من المخيّم ، كانوا قد جمعوا بعضَ الكراسيّ من المدرسة على أنْ تُعادَ بعد انتهاء الحفلة ، وزيّنوا السّياج الّذي يُحيطُ بالسّاحة بالبالونات الملوّنة ، وصنعوا من بعضِ الطّوب والحجارة منصّة يقفُ عليها عددٌ من اللاّجئين يصدحونَ بألحان الشّام العتيقة ، كان اللّحنُ حزينًا وقادمًا من تحت الرّكام ، لكنّه كان كذلك شَجِيًا ، ومُعلِنًا عن أنّ الحُزن يُمكن أنْ يُغنّي أيضًا ، وأنّ المواجع يُمكن أنْ تُنسَى ولو إلى حين ، من أجل أنْ تحتفي الحياةُ بزوجَين يتطلّعان إلى حقّهما في بناء عُشٍّ جديد!!

على الباب السّياجي تلقّى الطّبيب جلال ترحابًا خاصًا ، كلّ من في المخيّم تقريبًا يعرفه ، معظمهم يتذكّر اللّيلة الأولى الّتي وفد فيها هنا إلى المُخيّم ، لقد كانَ هذا الملاك الحارس يرافقهم طوال الرّحلة المُؤلمة ، ويمسح على جراحهم النّازفة بيده الحانية وابتِسامته المُطمئنة قبلَ الدّواء والأمصال ، من خلال عينَيه اللّتَين تُشعّان مودّة وصفاءً كانوا يشعرون بأنّهم يمتلكون صديقًا عزيزًا ، ومن وراء زُجاج نظّارته كانوا متيقّنين من طهارة القلب الّذي يضمّ هذا الجسدُ عليهِ جوارحه . بسطَ لهم إنسانيّته

ففتحوا له قلوبهم ، واستمع إلى مواجعهم فبرئتْ ؛ وهو؟! عرفَ أنّ جرح الجسد أهون بكثيرٍ من جرح الرّوح ، فزرع ما استطاع من الورود في حديقة الرّوح لتقوى على مواجهة صدمات الحياة الّتي لا تنتهي .

سأل الأبَ وهو يشدّ على يدَيه مُباركًا : «كم عمرها؟!» خفض الأبُ نظره ، وخفتت ابتسامته ، وزمّ شفتَيه كأنّه يمنعهما من الكلام ، فأدركَ جلال فداحةَ الأمر ، همسَ رفيقُه الّذي من ورائه : «إنّها لم تتجاوز الثّالثة عشرة» . دارَى الطّعنة الّتي غاصتْ في روحه بالصّمت . تركه ، ومضى ، تابعَ الطّبيبُ الّذي يرافقه : «وهو أربعون عامًا» . حينَها قطّبَ حاجبَيه ، قال وهو يشعر بضيقٍ لم يشعر به من قبل : «سوريّان؟!» . أجابه رفيقه : «هي نعم ، أمّا هو فلا» . انتفض . شعر بأنّه يُصادق على عَقدٍ باطلٍ . تسمّر مكانه ، كانت الفرقة الجريحة تصدحُ على المسرح الطوبيّ المصنوع : «**يا مال الشّام يمّه يا مالي . . . طال المطاف يا حُلوة تعالِي . . .**» تداخلتْ في أذنَيه طلقات الرّصاص في أنغولا ، شعرَ أنّ الصّوتَ قادمٌ من مجزرةٍ على وشكِ أنْ تُرتكب ، كان رفيقُه ينظر إليه مُستغربًا . همسَ جلال في أذنه : «أريدُ أنْ أرى الأبَ على انفِراد» . «أين؟!» . «في إحدى خيم المنظّمة الفارغة» . «أقربُ خيمةٍ تبعد ما يزيدُ عن ثلاثمئة متر» . «دَعه يُوافِني عندها» .

في الطّريق كان أب العروس يعرفُ أنّه يرتكبُ خطأً فادحًا في حقّ ابنته ، لكنّه يُدركُ أيضًا أنّ بعضَ الأخطاء في ظروفٍ استثنائيّة تبدو صوابًا اضطراريًا ، وأنّ بعضَ الأطبّاء يُنظّرون من مواقعهم المرفّهة بعيدًا عن الواقع الزّريّ الّذي لا يُحسّ بفداحته غير من عايَشَه ، تدرّب وهو ينهبُ الخطوات مُغضَبًا باتّجاه الخيمة الموعودة على بعضِ الإجابات عن بعضِ الأسئلة المتوقّعة .

تلقّاه الطّبيبُ جلال بابتسامته المعهودة، رآها فنسيَ نصفَ القول، طلبَ منه أنْ يجلسَ على دكّةٍ خشبيّة طويلة، وجلسَ هو قُبالَته على دكّة أخرى مواجهةٍ لها، نظَر في عينَيه مُباشرةً، كانتا مهزوزتَين، العيون أبلغُ اللّغات في التّعبير، أرسلَ جلال نحوه نظرةَ وُدٍّ لتُهدّئ اهتِزازه، قال له وهو يحني جذعه إلى الأمام ويضع باطنَ كفَّيه على رُكبتَي الأب: «هل ابنتُكَ غاليةٌ عليك؟» أحسّ أنّه هُوجِمَ من أوّلها، يكره مثل هذه الأسئلة المُباشرة الّتي توقع في الفخّ بسرعة، لم يُجِب. تجاهل جلال سؤاله الأوّل، وتابع: «أنا أخوك فصارِحني... لو كنتَ في الشّام فهل ترضَى بأنْ تُزوّجها في هذه السّن؟!». ردّ بسرعةٍ وكأنّه وجد مهربًا من حدّة السّؤال: «لو كنتُ في الشّام... ولكنّني الآن...». قاطعه جلال: «ابنتُكَ هي ابنتُكَ هنا أو في الشّام أو في جبال الهمالايا أو في أدغال الأمازون». «لكنّ الظّروفَ أقوى منّي». «أعرفُ ولكنّكَ رضختَ لها بُسرعة... دعْني أسألك: هل تعرف هذا الرّجل الّذي تقدّم لها؟! هل قابلْته هل تعاملْتَ معه؟! من أينَ لكَ أن تعرفه وأنتَ لا يحقّ لكَ أنْ تُغادرَ المخيّم؟!!». ظلّ الأب ساكتًا، ومُلقيًا رأسه على صدره خجلاً. تابعَ الطّبيب: «أعرفُ أنّه وعد بأنْ يُعطيكَ مالاً، وأنْ تعيشَ ابنتُكَ معه في شقّة منفصلة، ومنّاك بالشّهد والعسل، وزرعَ لكَ الصّحراء ورودًا، وقال لك إنّه سيحصّل لك ولابنتك ولعائلتك إقامةً بحيثُ تتنقّلون بحرّيّة، ومن يدري ربّما وعدكم بالحصول على جنسيّة والاستقرار في هذا البلد، والحصول على عملٍ يدرّ ذهبًا... يا أخي... أنا أعرفُ هؤلاء... أكثرهم كَذَبة، وليسَ عندهم إنسانيّة، هُم يتطلّعون إلى جسدِ فتاةٍ صغيرةٍ في عمر أحفادهم، هم ينظرون إلى حاجاتِ جسدهم القذرة لا إلى روحِ أشقّائهم الفارّين من الموت، إنّهم يقتاتون على مصائبكم، صدّقِني أنتَ

ترمي ابنتكَ على أرجح حـال إلى ذئبٍ لا يهـمّـه إلاّ نهشَ جسـد ضحيّته . . . اليومَ سيُشبِعك ويُشبِعها بالكلام المعسول ، وغدًا يضربها حتّى تعودَ إليكَ مهشّمةً بلا روح . . . أتريدُ أنْ تُكرّر مأساة الشّام هنا . . .؟!» . حاول أنْ يدافع عن نفسه أمام هذا الهجوم الواضح ، التفتَ إلى الجهة الأخرى ، أمال رأسه ، قال كأنّه يتحدّث من أسفل حنجرته : «إنّه إنسانٌ جيّدٌ ، فكيفَ حكمْتَ عليه هذا الحُكمَ ولم تره!!» . «أنا أتحدّث من خبرتي . . . ومن الحالات الّتي مرّتْ عليّ ، حالةُ ابنتِكَ ليست الأولى الّتي أعرفها . . . أغلبُ الّذين تزوّجوا بهذه الطّريقة ، انتهى بهم الحال إلى أنْ يُلقوا ضحاياهم مثل الجِيَف على قوارع الطّريق . . . أنا فقط من حُبّي لك ، ومن حرصي على أنْ نتساعَدَ معًا لتنظيفِ المجتمع من بعضِ أوساخِه . . . المجتمع يا أخي مليءٌ بالخَبَث ، لا تُساعِد أنتَ في انتشاره ، كُنْ أحدَ الواقفين في وجهه . . . ليسَ من أجل أحدٍ ، بل من أجل ابنتِك» . ردّ عليه وهو يمضغُ حروفه بمرارة : «لا أستطيع؟!» . «ولماذا؟!» . «لقد أعطيتُ كلمةً» . «تراجَعْ عنها» . «لقد أخذتُ منه مقابلَها نقودًا» . «ألم أقلْ لك . . . إنّها الحاجة ؛ لعنة الله على الحاجة ، وسُحقًا للّذين يرضخون لها» . شعرَ بأنّه أُهينَ بشكلٍ جارح ، رفع رأسه ، تدفّق الدّم إلى صُدغَيه ، هتفَ بصوتٍ عالٍ : «أنتَ تقول ذلك لأنّك لم تعشِ المأساة الّتي عِشناها ، ماذا يُمكن أنْ تكون أيّها الطّبيب الجميل؟! أنتَ تتحدّث من مكتبك الفاره ومن كرسيّك الهزّاز ومن منصبك الرّفيع ، ولم تَعِش عُشر المأساة الّتي عشناها . . . مأساة!! أنتَ لم تعشْ شيئًا منها ، تعرفها بالأرقام فقط ، أنتَ وُلِدت على ريشٍ من نعام ، ودرسْتَ على مقعدٍ من فضّة ، وتناولتَ شهادتك على طبقٍ من ذهب . . . نحن الّذين لسنا من هذا العالَم» . «يا أخي ؛ أنا لستُ موضوعًا

للنّقاش، اعتبرْني كما قلتَ، كلّ ما أريده أنْ تُفكّر في العمل الشّنيع الّذي أنتَ مُقدم عليه». «ليسَ أشنع من الفقر والحاجة». «سأطلبُ من المنظّمة أن توفّر لكَ حاجتك». «المنظّمة أكذبُ من الأنظمة، تعدُ وتُخلِف، ما تسمعه على شاشات التّلفزة وما يكتب في تقارير الأخبار ليسَ هو الحقيقة، نحن نموتُ ببطء، والدّول هي الّتي تشحدُ علينا، وحينَ تصل إليها المعونات تسرقُ نصفَ رغيفنا، وترمي إلينا النّصفَ الآخَر بعدَ أنْ يتعفّن!!». «وهل هذا يبرّر لك أنْ تبيعَ جسد ابنتك؟!». «المسألة أكبر من هذا التبسيط أيّها الطّبيبُ الفهمان، وأنتَ لا تتقن غير مهاجمة الآخرين، لو كنتَ مكاننا لربّما بِعتَ ابنتكَ بأقلّ مِمّا نبيعهنّ نحن». نفذت الطّعنةُ الأخيرةُ إلى أحشائه، مزّقتْه على الفور، شعرَ بأنّ لهجة الإنكار والتّبرير الّتي يعيشُها الأب أعطتْه نوعًا من المصداقيّة، أحسّ أنّ الواقع أبذأ بكثيرٍ من مجرّد مواعظ تُلقَى على مسامع المحرومين، وأنّه أشدّ من الخيال في بشاعته. ظلّ صامتًا. انتظره الأب لكي يردّ أو يبدأ موعظةً جديدةً لكنّه ظلّ صامتًا. بدا أنّه يترنّح من الدّاخل، استغلّ الأب ذلك، نظر من حوله نظرة المُستريب قبلَ أنْ يقول له بصوتٍ أقربَ إلى الهمس: «هناك شيءٌ لم أقلْه لك». صحا جلال من الصّدمة العارضة، هتفَ به بصوتٍ خفيضٍ: «قُلْ». «ليسَ لكَ علاقةٌ بنا، ولا تتدخّلْ في حياتي الخاصّة». «معكَ حقّ، فقط أردتُ أنْ أنصحك؛ هذا كلّ ما في الأمر». «هناك شيءٌ آخَر لا تعرفه، ولو أنّكَ تعرفه لاختصرتَ عليكَ وعليّ كثيرًا من هذه النّصائح الجوفاء الّتي بلا معنى». «قُلْ». «لقد نامَ معها». نزلت العبارة الأخيرةُ كالصّاعقةِ على رأسه، مرّةً أخرى يُباغته الأب، شعر بدوخةٍ خفيفة، تمايل وهو جالسٌ، كادَ يسقطُ عن الدّكّة لولا أنّه تمالكَ نفسه، ليسأل بصوتٍ مبحوح: «كيفَ حدثَ

ذلك؟!» . «لقد حدث وانتهى» . قال له جلال هذه المرّة بلهجة التّأكيد : «أنتَ مجرم» . ردّ عليه كأنّه قد سمع هذه الكلمة مرارًا : «كلّهم قالوا لنا ذلك ، أنتَ لا تختلف عنهم في شيء ، مثلك مثل أمراء الحرب ، تُجرّمون كلّ أحد» . «هل فعلها في المخيّم أم في مكانٍ آخر؟!» . لم يجبْ ، وقفَ على قدَمَيه ، نظرَ إليه جلال من الأسفل : «أريدُ أنْ أعرفَ» . «هذا ليسَ من شأنك» . تركه بسؤالٍ معلّقٍ في الفراغ مثل عنكبوتٍ يكاد يسقط ، ثُمّ خرج ، على بابِ الخيمة ، هتفَ به جلال : «سأصطفُّ إلى جانبك إذا حدثَ لها مكروه ، في النّهاية أنا طبيب ، عليّ أنْ أؤدّي رسالتي الإنسانيّة ليسَ أكثر من ذلك» . قال له الأب كأنّه يرفضُ عَرْضه : «بالضّبط ، أنتَ لستَ مُصلِحًا اجتماعيًا ، انتبه إلى مرضاك بشكلٍ أكبر . . . أنا أنصحك أيضًا» . وغابَ في أجمة الظّلام!

ظلّ للحظاتٍ مذهولاً ، شعرَ أنّ كلّ خبرته السّابقة في أزمات الحروب تبخّرت اليوم في لحظاتٍ بعد حواره مع هذا الأب ، قام وهو يحسّ أنّه تحوّل الآن إلى إنسانٍ بدائيّ أعزل يتحرّك في غابةٍ كثيفةٍ مليئةٍ بالمُفاجآت ، مشى في الطّريق قاصدًا المركز الصّحّي ، هاتفَ صديقَه لكي يُقابِله هناك ، كانَ قد عزم على أنْ يبيتَ هذه اللّيلةَ في المُخيّم ، آلاف الأفكار راحتْ تطحنُ رأسَه للتّوّ ، وضعَ يدَيه في جيوب بنطاله ، وسار يتهدّى الطّريق ، كان اللّيل يتباهى بظلمته المُخيفة ، في حين كانت الخيم المزروعة في كلّ مكانٍ على امتداد البصر تبدو كأنّها مشاعل في الدّجى تُقاوم طوفانه الطّاغي ، ظلّ يمشي وقلبه يتأرجح في ضلوعه كبندولٍ فقد اتّزانه ، ومن بعيد كانت أصوات الفرقة الجريحة تصله في سكونِ اللّيل : «**يا مال الشّام يمّا يا مالي . . .**»!!

(٤٠)
الأثمان تتساوى أمام الموت وإنْ بدا أنّها باهظة

كانت المرارة تملأ حجرةَ قلبه ، «من أينَ للحرب هذه القدرة على قتلِ كلّ شيءٍ في الإنسان!!» . فكّر للحظة أنْ يخطّ كتابًا عن الآثار النّفسيّة التي تزرعها الحرب في خرائبِ الأرواح ، راح يهذي في الطّريق ، وهو ساهمٌ في الأفق البعيد اللامُنتهي : «كان يُمكن تفادي الحرب لولا حماقة الّذين أشعلوها وعجرفتهم وأناهم المُتضخّمة ؛ ما من شيءٍ يُسوّغ جريمةً كهذه أبدًا» . توقّفَ في الطّريق ، فحصَ الرّمل المُظلِم برجلَيه ، أخرجَ يده اليُمنَى من جيبه ، ولفّ بها فمه ، وسحبَ هواءً عميقًا وكادَ يبكي ، ارتفعتْ كفّه حتّى عينَيه ، رفع النّظارة عنهما ومنعهما من الانهمال ، فركَ جبهته ، وشدّ على جانبَي رأسه ، ألقاه على صدره ، كان يبدو في الظّلام على هذه الهيئة قدّيسًا تلتفّ من حوله مُستنقعات الخطيئة والوهم . مرّتْ لحظاتٌ بدتْ دهورًا في عالَم الطُّهر عليه وهو واقفٌ على هذه الهيئة ، قبلَ أنْ يمسحَ عينَيه مرّة أخرى ، ويركزَ فوقهما نظّارته ، ويمضي ، كانت المسافة تتقلّص باتّجاه المركز الصّحّي ، ألفُ فكرةٍ نقرتْ رأسه في الطّريق ، أوقفتْه مشاهد الأطفال الّذين يُولدَون من تحت الرّكام ، ويشبّون خلفَ الدُّخان : «نار الحرب لن تلتهم الجيل الّذي عايَشها فحسب ، بل ستمتدّ إلى أجيالٍ من بعد أنْ تنتهي ؛ لأنّ الّذين سيُولَدون من رَحِم المُعاصرين لها سيكونُ قَدَرُهم أنْ

يعيشوا حريقًا في القلب والرّوح وإنْ لم يعيشوه في الجسد، ليست الحرب مرعبة بحدّ ذاتها أكثر من الرّعب النّاجم عن مُخرَجاتها؛ الحرب يُمكن أنْ تنتهي في سنوات، ولكنّ نتائجها لن تنتهي في قرون!!» دلف إلى المركز الصّحّيّ عبر الممرّ الحصويّ، كرافان يمتدّ على طول السّاحة المُخصّصة، في حجرة الطّبيب المسؤول تلقّاه صديقُه الّذي سبقه إلى هناك، قال له: «أريدُ أنْ أطّلع على ملفّات المرضى». كانت الملفّات تتوزّع على رفوف حديدية بشكلٍ عشوائيّ، استرعَى انتباهه القسم المُخصّص للعلاج النّفسيّ، كانَ ضخمًا يوازي القسم المُخصّص للعلاج العضويّ؛ «إنّها آثار الحربِ الأطول» هتف.

أرادَ أنْ ينزع الطّعنة الغائصة في حلقه جرّاء محاورته مع أب العروس، فغطسَ في الملفّات يراجعُ ما فيها، تعرّف إلى شهاداتٍ حقيقيّة كُتبتْ بأيدي اللاّجئين أنفسهم، يُدرك أنّ ثقل الفاجِعة يُمكن التّخفّف منه بالحكي، بالاعتِراف، بالكتابة، بالرّسم... يساعد التّفريغ المأزومين على التّخلّص من أوجاعهم ولو بالتّدريج. استوقفتْه عبارةٌ من بين عشرات العبارات المخطوطة باليد: «لقد اضطُرِرتُ أنْ أبيعَ ابنتي الّتي تبلغ من العمر اثنتَي عشرة سنةً من أجل لقمة العيش، لقد كان زواجًا، كنتُ أعرفه لأوّل مرّة؛ يُسمّى زواج المتعة». رفع بصره إلى صديقه سأله وهو مكتظّ بالدّهشة، بعد أنْ قرأ الاعتراف على مسامع صديقه: «هذا حدث عندنا؟!». «كلاّ، إنّها تتحدّث عن مأساتها في لبنان قبل أنْ تأتي إلى هنا». أغلقَ الملفّ، وراحَ يقرأ من جديد؛ «أنا أرسلتُ طفلَيّ إلى العمل، أحدهما في مزارع البطاطا والبطّيخ والبندورة، والآخَر لجمع البلاستيك والعُلَب المعدنيّة من القمامة. إنّهما يكسبانِ، كلّ واحدٍ يكسب دينارَين في اليوم، نستطيع أنْ نتدبّر

أمرنا ، المساعدات قليلةٌ جدًا ، أنا فقط حزينةٌ من أجل الّذين لا أطفال يعملون عندهم ، كيفَ يتدبّرون أمر معيشتهم» . «عمري أربعة عشر عامًا مُستعدةٌ أنْ أعود من جديدٍ إلى سوريّة وسط القنابل والتّفجيرات على أنْ أُجبَر على الزّواج من خمسينيّ» . «أنا أمّها ، أنا دفعتُها إلى الزّواج في هذه السّنّ المُبكّرة ، كنتُ بين أمرَين صعبَين ، إمّا أنْ تتزوّج ، وإمّا أنْ تكونَ عُرضةً للتّحرّش الجنسيّ والاستِغلال من قِبَل معدومي الضّمير ، فاخترتُ أهون الشّرّين كما يقولون» . «أعيشُ وحدي ، رجلاي مقطوعتان ، وأجلسُ إلى كرسيّ ، ولا أحدَ لي هنا ، ما تبقّى من عائلتي لا أعرفُ عنهم شيئًا ، منذ سنتَين وأنا لا أدري إنْ كانوا مازالوا أحياءً أم أنّهم ماتوا مثل الآخرين» . «سأنتقم ولو بعد خمسين عامًا ، سأنتقم ولو انتهت الحرب ، لقد ذبحوا أبي أمامي ، لا أستطيع أنْ أنسى ، أراه في كلّ ليلةٍ والدّم يخرج من رقبته ، كنتُ أختبئ منهم وأشاهد ، بعد أنْ رحلوا تمنّيتُ لو أنّهم ذبحوني معه ، لكنّني أقسم أنّني سأنتقم له مهما طال الزّمن ، ومهما كلّف الثّمن» . «حدث ذلك في فصل الشّتاء ، كان القصف متواصلاً ، كُنّا نركضُ نحو المباني المُدمَّرة من أجل البحثِ عن الأثاث المُحطَّم ، لاستخدامه في إضرام النّار والطّبخ في مخابئنا ، كنا أمام شبح الموت من كلّ جهة ، ما دفعنا هو الموتُ نفسه لنواجهه في مكانٍ آخَر ، كنّا سنموتُ من البرد لو بقينا في مخابئنا ، احتمالات الموت كثيرة في كلّ سوريّة ، ليسَ في حيّ بابا عمرو وحده ، لم نعد نخاف كما في السّابق ، نحتاج إلى الدّفء ، وعلينا أنْ نحاول مهما كلّف الثّمن ، الأثمان تتساوى أمام الموت وإنْ بدا أنّها باهظة . . . مع ذلك ماتَ عددٌ منّا في عمليّة البحثِ هذه عن الحطب ، ثقبتْهم بقايا قذيفةٍ دمّرتْ ما كان مُدمّرًا ، تمامًا مثلما ماتَ

عـددٌ منّا في السّابق من البرد ، ثقبَ أفئـدتنا بسكّينه ، وحزّ أطرافنا بمُديته ، إنّه الموت على الطّرفَين ، يبدو ثمنهما متساويًا وسَهلاً ، لكنّنا كسبْنا المحاولة ؛ محاولة الإفلات منه!!» . أغلقَ ملفّه ، قرأ على الصّفحة الأولى منه اسمَ صاحبه ، سأل صديقَه عنه ، قال له إنّه مُحام عاشَ أيّام عزٍّ في حمص . كانتْ روحه تثقلُ شيئًا فشيئًا ، مع كلّ قصّةٍ شعر بسوداويّة العالَم ، وبتفاهة الحياة ، وبوحشيّة الكائن البشريّ . تنهدّ كأنّما يريدُ أنْ يُزيحَ أثقالاً جثمتْ على صدره ، تركَ خزانة الملفّات ومشى باتّجاه المطبخ ، في الطّريق تذكّر ابنه (بدر) ؛ إنّه مستعدٌّ أنْ يموتَ هو في سبيل ألاّ تمسّه شوكةٌ تُؤذيه ، هذا الّذي ما زال غيرَ قادرٍ على أنْ يعبّر عن ما يشعر به بشكلٍ صريح . توقّف للحظة ، تساءل : «لكنْ أليسَ لكلّ هؤلاء آباء كذلك ، أفكان له قلبٌ يختلفُ عن قلوبهم ، ومحبّةٌ تقلّ عن محبّتهم هم لأبنائهم؟!» . «كلاّ» . أجاب نفسه . هزّته من الأعماقِ فكرة أنّهم يرون أطفالهم يُقتَلون أمامهم ولا يملكون لهم شيئًا وهو يضع نفسه مكانهم ؛ تُرى ماذا كان سيفعل؟! وأيّ فاجعةٍ تلك الّتي ستحلّ بكيانه إنْ هو عاشَ ما عاشوه ، وقاسَى ما قاسوه . نفضَ رأسه ليُبعِدَ تلك التّخيّلات عن ذهنه ؛ فهو لم يعدْ قادِرًا على مجرّد تخيّل ذلك تخيُّلاً ؛ فكيفَ لو أمسى حقيقةً ، تفلَ عن يمينه ، بصقَ على الحرب ، تراجع ، ما علاقة الحربِ بكلّ هذا؟! بصق على كلّ الّذين يتلذّذون بإشعالها ، ويجلسون من بعيدٍ يستمتعون بألسنتها وهي تلتهم كلّ شيءٍ في طريقها .

في المطبخ المكوّن من غرفةٍ صغيرة في الكرفان تتّسع لحوضٍ وشخصٍ يقفُ أمامه ، وبجانب الحوض غازٌ صغيرٌ مُسطّحٌ موجودٌ على رَفعةٍ خشبيّة ، راحَ يُعدّ له ولزميله فُنجانَين من القهوة ، لكي يتسنّى له

مواصلة اللّيل في قراءة بقيّة الملفّات . نظر في دلّة القهوة وهي تستعدّ لتفور ، خطر بباله الأرض ، إنّها مثلها تتهيأ لكي تفور ، للحظةٍ رأى الأرض كلّها تثور بالبراكين ، كانتْ تغلي في كلّ مكان ، وتقذف بحممها في كلّ اتّجاه ، والنّاسَ يتراكضون صائحين يهربون من الحجارة والحمم المتساقطة وهم ينسحقون تحت الرّكام بعد أنْ يركضوا لمسافاتٍ قصيرةٍ تُمكّنهم من الصّرخات الأخيرة اليائسة فحسب . خُيّل إليه أنّه لن ينجو أحدٌ ، وأنّ هذا البلاء سيعمّ الأرض بأكملها ، وأنّه سيطاله هو وسلوى ، ثُمّ سيقضي كذلك على بدر ، رآه ينسحق تحتَ كومةٍ من الصّخور دون أنْ يقوَى على قول كلمةٍ واحدةً ، جفل ، انتفض ، هزّ رأسه ، استعادَ وعيه ، كانت الدّلّة قدً أتّمتْ غَلَيانها وسكبتْ بعضَ القهوة على الغاز . استرجع . حمد الله . رأى المسافة الشّاسعة بين الخيال والواقع ، بدا له حجم المأساة المكتنز بين حَدَّيهما ، فرح فرحًا غامضًا ، شعر كأنّه نجا من المُصيبة ، وأنّ عمرًا جديدًا كُتبَ له ولعائلته . تناول فنجانَين من الفناجين المركونة مع بقيّة الأكواب الأخرى على المجلى ، سكبَ فيهما القهوة الهامدة . عادَ بهما إلى زميله ، قال له وهو يمدّ له الصّينيّة : «أريد أنْ أطّلع على ملفّات الأطفال دون الثّانية عشرة» . أشار له زميله إلى رفٍّ يقع خلفه مباشرة ، تناولَ فنجانه ، استدار ، وراح يُخرِج الملفّ الأوّل ويقرأ ما فيه وهو يرشفُ بتلذّذٍ من فنجانه . قفزت عبارة الأب الّذي حاوره ليلةَ أمس : «انتبه إلى مرضاك بشكل أكبر» في وجهه ، وجدَ أنّها نصيحةٌ صادقة وإنْ غُلّفت بستارٍ من الشّك والغضب .

راح يقرأ شهاداتهم ؛ «اضطُرِرتُ أنْ آكلَ أعلاف الحيوانات وأوراق الشجر ؛ لم يكنْ لدينا طعام ، استمرّ حصارنا لأكثر من أربعة أشهر ،

أبي قال : هذا العلف يُقوّي الجسم ، شعرتُ بأنّني أصبحتُ قويًا كما قال أبي» . «بقيتُ أنا وعائلتي أكثر من شهرٍ تحتَ الأرض ، لم يهدأ القصفُ يومًا واحدًا ، فقدتُ مدرستي ، وبيتنا الذي دمّرْته الصّواريخ ، كلّ بيوت الحيّ دُمّرتْ . حزينٌ لأنّني فقدتُ ألعابي في القصف ، وحزينٌ لأنّني خسرتُ الصّفّ الرّابع وها أنذا أخسر الصّفّ الخامس» . «كان أبي يقرأ كلّ يوم لي قصّة ، كُنّا عند بيتِ عمّتي في الحيّ الثّاني ، قالوا لي إنّ بيتنا قد قُصِف ومات أبي ، هنا في المخيّم لا يوجد أحدٌ يقرأ القصص لي ، كم أشتاقُ إلى أبي» . «أنا لا أعرفُ ماذا حدث ، لا أعرفُ أينَ أبي ، ولا أينَ ذهبتْ أمّي ، ولا ماذا صار مع إخوتي ، هربتُ مع الّذين هربوا ، أنا هنا لا أعرفُ أحدًا ، أتعلّم في المدرسة لكنّها لا تُشبه مدرستي القديمة ، أصدقائي كلّهم ماتوا» . مرّتْ ساعاتٌ من اللّيل الرّاشح بالأسى . ظلّ ينظر في الملفّات دون ملل . «أستيقظُ في اللّيل كثيرًا ، أشعر أنّني يجب أنْ أمشي ومعي سكّين ، لا أدري ماذا أفعل به» . تذكّرها ؛ إنّها صاحبة متلازمة السّكّين ، قلبَ الصّفحة الأولى من الملفّ ليتأكّد من أنّها هي ، قرأ عليها اسمَها ، أعاد ما بينَ يديه من الملفّات ، وأخذ ملفّها بيده ، قال لزميله : «تذكر ليلاس ، قبلَ حوالي عشرة أشهر دخلتْ إلى هنا ، رأيتُها مرّتَين ربّما قبل هذه المرّة ، هل تحسّنَ وضعُها؟!» . «على أيّ مستوى» . «على كلّ المستويات» . «بالنّسبة للسّكّين ، فما زالتْ تضعه تحت مخدّتها ، وبالنّسبة للفزع اللّيليّ فما زالتْ تُعاني منه» . «هذا يعني أنّها لم تتحسّن؟!» . «كلّا» . «كنتُ قد طلبتُ منكم أنْ تنقلوها إلى أخصّائيّ خارج المخيّم ، فهل فعلتم؟!» . «لا نستطيع ، القوانين لا تسمح ، ولا يوجد في أطبّاء المخيّم من يستطيع الاهتمام بها بشكلٍ خاصّ ، هناك العشرات مثلها» .

«لكنْ ليسَ بهذه الحدّة» . «الحكومة لا تسمح بخروج أيّ مريضٍ من هنا إلاّ بتكفيلٍ من السّلطات الأمنيّة ، وطلبٍ من الجهة الصّحّيّة المعنيّة الّتي ستخرج إليها» . «لا بُدّ من طريقة ، لكنّني أريدُ أنْ أراها مُجدّدًا» . نظر زميله في السّاعة ، وقال وهو يثاءب : «اللّيل قد انتصف» . «سأراها هي وأمّها غدًا في الصّباح» .

(٤١)
في الحرب لا مكانَ لا يعرفه الموت

لم يغمض له جفن حتى بعد أنْ ترك قراءة الملفّات ، وألقى بجسده المُنهَك على السّرير في منامات الأطبّاء ، أكثر من مئة مشهد تزاحمتْ على خياله لتبرز أمامه كأنّه يعيشُها ، أصابتْه نوبةٌ عميقةٌ من الحزن ، شعرَ بأنّه وحيدٌ في هذا العالَم ، وبأنّه مسؤول عن كلّ مآسيه ، وبأنّه لو عمل بكلّ طاقته فبإمكانه أنْ ينقذه من البلايا الّتي تعشّش في أنحائه . ظلّ يسترجع عشرات اللّيالي الّتي قضاها في مناطق النّزاع ، لم يستذكر حتّى وهو يستعيد أيّام أنغولا أيّ وحش دمويّ أو حيوانٍ مُفتَرس مثلَ الإنسان ، أنياب بشريّة تبرز كالسّحر الأسود في كلّ مكان ، والموت الّذي يختال بين الضّحايا يُقدّم لهم على أيدي إخوانهم في الإنسانيّة . إنّه عصر البهيميّة الدّونية ، الّتي يستشري فيها القتل ، ويستفحل بعدَ كلّ مجزرةٍ ؛ كأنّ رؤية الدّم تدفع للمزيد من الدّم!!

غفا قُبيلَ شروق الشّمس بدقائق ، ظهر له ابنه (بدر) يرسمه من جديد ، هذه المرّة رآه يرسمه في غابة كثيفة تكتظّ بالأشجار العملاقة ، وهو مربوطٌ من قدمَيه ورجلَيه إلى ساقٍ غليظة لإحدى الأشجار ، ومن حوله تجتمع وحوشٌ بأقدام حيوانيّة ووجوه بشريّة ، وهي تهمّ للفتك به ، كانت الصّورة قد اكتملتْ ، حاول أنْ يتخلّص من قيوده ، لكنّها كانتْ ثقيلةً ومربوطةً إلى جذعٍ راسخٍ في الأرض ، صرخ ، استنجدَ بابنه ،

ابتسم بدر له ، رأى في عينَيه أمانًا عفويًا ، أمسكَ فرشاته ، صبغ القيود باللّون الأبيض ومحاها ، ثُمّ رسمها من جديدٍ وهي مقطوعة ، كأنّما يريد أنْ يقول لأبيه : تستطيع الآن أنْ تهرب! نظر الأب إلى قدَمَيه ويدَيه ، وأدركَ أنّ بإمكانه النّجاة ، ألقى نظرةً أخيرةً على الوجوه البشريّة المُفزِعة ، كانتْ تفتح أشداقَها بأقصى ما تستطيع تهمّ بالتِهامه ، دفعه ذلك إلى أنْ يُسرِع في الهرب ، أطلقَ لساقَيه الرّيح ، كانت القيود ثقيلةً تعوقه عن الرّكض بسرعة ، جرجرها وهو مدفوعٌ بنداء النّجاة ، ونجا . . . كانت الشّمس المتسلّلة من النّافذة قد سقطتْ على وجهه فاستيقظ ، استوى جالِسًا وهو ينظر حوالَيه ، تلمّس وجهه ، ويدَيه ، ألقى نظرةَ شكٍّ على قدَمَيه ، ومن جديد شعر بفرحة الخلاص ، جاءه صوتُ زميله من الغرفة الأخرى : «هل أعملُ لك قهوةً يا جلال؟» . أجابه بعد تلكُّؤ : «نعم» . ثُمّ تابع : «هل بعثتَ إلى ليلاس وأمّها كي يراجعنَ العيادة؟!» . «نعم» .

استخرجَ ملفّهما ، لم يطلِ انتظاره كثيرًا قبلَ أن تدخلا مع الممرّض ، رحّبَ بهما : «كيف أنتِ يا ليلاس ، مضتْ شهورٌ طويلةٌ دون أنْ أراكِ ، هل أنتِ بخير؟» . أجابتْ بشيءٍ من العصبيّة : «أنا بخير» . نظر إلى الجهة اليُسرى من وجهها ؛ كانَ ينتمي إلى عالَم آخَر ، لا يُشبِه وجه بشريٍّ أبدًا ، كانا نِصفَين في طرفَين مُتباينَين أشدّ التّبايُن ؛ بشرةٌ ناعِمةٌ بيضاء تنضج بالحيويّة والجَمال على الجانب الأيمن ، وبشرةٌ متجعّدة ، مكشوطةٌ يكادُ يظهر بروز الخدّ والعِظام من تحتها وتنفرُ منها العينُ لأوّل وهلةٍ في الجهة اليُسرَى . قال لها بودٍّ عتّقه الإشفاق : «دعيني أُعاين الحروق الّتي في العنق» . جلستْ كأنّها غير راغِبة ، كانتْ عيناها الزّرقاوان حادّتَين ، تحملان كثيرًا من التّرقّب والحذر ،

وكذلك كثيرًا من الغضب ، لم تكنْ تصرّفاتها تُجاه أيّ غريب يقتربُ منها طبيعيًا ، لكنّ (جلال) ليسَ غريبًا بالنّسبة لها على كلّ حالٍ ، إنّه الوحيد الّذي استطاع أنْ يُهدّئ من رَوعها قبلَ ما يقربُ من عامٍ في تلك الحادثة المشؤومة ليلة التّهجير القسريّ .

كان الحرق يستمرّ من فروة الرّأس على الجهة اليُسرى ، وينزل حتّى الرّكبة . هَمّ أنْ يسألها عن قصّة الحَرق لكنّه أجّل ذلك ، تفحّصه عند منطقة الرّقبة ، سأل الممرّض الّذي يقف خلفه إنْ كانتْ قد أُعطيتْ عِلاجات له خلال إقامتها بالمخيّم كما كان يطلبُ في المرّتَين اللّتَين رآها فيهما سابقًا ، فأجابه بالنّفي . توجّه إلى زميله الطّبيب ، حاول أنْ يشرح له الأمر : «وجهها ورقبتُها مُصابان بحروق من الدّرجة الثالثة ، جذعها ورِجلها تكشّطتا نتيجة التِصاق الملابس المحروقة على جسدها ، جِلدُها ضعيف ، واضحٌ أنّ كثيرًا من البكتيريا السّامة كانتْ قد دخلتْ إلى الجسم نتيجة قلّة العناية ، أكاد أجزم أنّها تلقّتْ علاجًا بدائيًا وقتَ حدوث الأمر معها ، حرقٌ مثلَ هذا يُسبّب الغيبوبة ليوم أو يومَين على الأقلّ ، لا ندري كيفَ تشكّلت الأنسجة الحيّة محلّ الأنسجة المُتآكلة ، ولا كيفَ نُظّفتْ مواضع الحرق من تراكم البكتيريا ، ومن الخمج الّذي تنمو عليه الفِطريّات ، إذا كانتْ لم توضَع تحتَ تبريدٍ اصطناعيّ ، وجهاز لسحبِ الغازات السّامّة الّتي استنشقتْها فمعنى ذلك أنّ جهازها التّنفّسيّ يُعاني من مشاكل كذلك ، لا ندري حجمها الآن ، لكنّه واضح أنّ كثيرًا من الأمور كان يُمكن تفاديها لتخفيف الإصابة ونتائجها لو تلقّتْ عنايةً حقيقيّة ، يبدو أنّها عانتْ أكثرَ من عمرها وفوقَ احتمالِها» . الجملةُ الأخيرةُ جعلتْه يشعر بالرّغبة في البكاء ، لكنّه سحبَ نَفسًا عميقًا ليتجنّب ذلك . توقّف قليلاً ، قبل أنْ

يُتابع : «إنّها بحاجةٍ إلى عنايةٍ في مستشفًى متخصّص» . لم يقلْ صديقه شيئًا ، ظلّ صامتًا ، كانتْ عيناه تقولان له : «نحن لا نملك هنا لها شيئًا» . «آه . . .» هتف كأنّما تذكّر شيئًا : «كُنّا قد تحدّثْنا عن السّكّين الّذي تضعه تحتَ رأسِها كلّما نامت ، هل ما زالتْ تقوم بذلك إلى اليوم؟!» . «لم تكفّ عن ذلك ليلةً واحدةً» . انتابه الفزع بشكلٍ مُفاجِئ كأنّه يسمع المعلومة لأوّل مرّة ، سأل صديقه من جديد : «هل آذتْ أحدًا؟!» . «ليسَ ، باستثناء أمّها الّتي قالتْ إنّها استيقظتْ ذاتَ ليلةٍ من نومَها ، لتجد ابنتَها تجلسُ عندَ رأسِها وهي تطوّح بالسّكين في الظّلام» . «الأمر خطير يا صديقي ، عليّ أنْ أجدَ وسيلةً لإخراجها من المخيّم ، ومعالجتها في الخارج» . «أنا معك ، الإمكانيّات هنا معدومة» . تركَ صديقه في الغرفةِ وعادَ إليهما ، كانت العيادة قد بدأتْ تمتلئ بالمُراجِعين . طلبَ منهما أنْ يتبعاه . رَكِبَا في سيّارته في المقعد الخلفي ، وانطلقَ بهما إلى خيمتهما .

ماذا يُمكن أنْ تكونَ خيمةٌ؟! إنّها خيمة ؛ هذا أدقّ وصف لها ، ماذا يزيدُ إلى الحقيقة لو قال قائلٌ إنّها خرقةٌ مُثبّتةٌ في الأرض بدلاً من أنْ تطيرَ في الهواء ، وإنّها تجعل سقفًا ولو من خيش للّذين يحلمون بسقفٍ يُظلّهم بعد أن انهارت جميع السّقوف!! «اعذرنا يا دكتور لو كان لدينا غازٌ لغلَينا لكَ شايًا» قالت الأمّ له . ردّ : «لن أطيل ، أريدُ فقط أنْ أعرفَ القصّة . لعلّي أستطيع المُساعدة» .

«قال لنا إنّ الغوطة لم تعدْ آمنةً ، وإنّ كلّ الرّجال قد تركوها ، وعلينا أنْ نخرج اليوم قبلَ أنْ تُقصَف ونندفن تحت الرّكام ، استطاعَ أنْ يُدبّر لنا سَيّارتَين ، كُنّا ثلاث عائلات . هربْنا باتّجاه دمشق ، كُنّا قد سلكْنا أوّل الطّريق الزّراعيّة ، شيءٌ ما في أعماقي أخبرني أنّ القصفَ

سيكونُ أمامنا وليسَ خلفَنا ، وأنّنا بهذا نمشي إلى الموتِ بأنفسنا ، لم يقتنعْ ، ظلّ على عِناده بالهروب بأسرعِ ما يُمكن ، قال إنّ أصدقاءَه في الجيش الحرّ أخبروه بهذه الحقيقةَ ، وأنّ الغوطة لم تعدْ آمنةً أبدًا . صارتِ الغوطةُ بمزارعها الغنّاء ، وأشجارها الظّليلة خلْفنا ، بدتْ دمشق تسحبنا باتّجاهها كأنّما تُقدّمنا لمأتم كبيرٍ ، لا عزاء للمنفيّين في أوطانهم ، إنّنا نُذبَح في كلّ مكان . كانتْ قذيفة عمياء تبصرنا دون سوانا ، مزّقت السّيّارة الأولى . وماتَ كلّ من فيها على الفور ، كُنّا في السّيّارة الثّانية ، طِرْنا في الهواء ، لا أدري إنْ كانت السّماء احتضنتْنا لوهلةٍ بينَ غيومها أم لا . لأنّني شعرتُ أنّني أحلّقُ بعيدًا بعيدًا ، وأنّ السّحب تمدّ لنا فِراشَها ، ارتفعنا كثيرًا ، سبحنا في السّماء في البداية بسرعةٍ كبيرة ، ثمّ تباطأتْ سرعتُنا ، ووقْعنا بالسّرعة الّتي حلّقْنا فيها ، أنا على بعدِ مئةِ متر من الانفجار على قارعة الطّريق فوقَ أكوامٍ من الحجارة ، متُّ يومها ألفَ مرّة ، وأعادتْني الحياةُ إليها بستّة كسورٍ في مواضع مختلفة من جسدي ، لكنّني في النّهاية نجوت . ليلاس سقطتْ إلى جانبِ السّيّارة الثّانية الّتي كانتْ تحترق ، كانتْ تأخذُ غفوةً بسيطةً على جانبِها الأيسر فوقَ بُقعةٍ من النّار على الإسفلت المحفور . بعد نصف ساعة جاءتْ سيّارة بكبٍ تابعة للجيش الحرّ ، حملتِ الأشلاء ، ظنّوا أنّنا جميعًا قد متنا ، في الحقيقة نعم ، لكنّ الموتَ تركنا لأجلٍ آخَر ، عولِجنا في مركزٍ صحّيٍّ تابع لهم . حينَ استيقظت ليلاس من الغيبوبة ، كانتْ تصرخُ مناديةً على أمّها ، ظلّتْ على هذه الحال شهرًا كاملاً» . قاطَعها جلال مستغربًا وهو يهزّ رأسه ، ويغمضُ عينَيه ويفتحهما : «لحظة لحظة . . . لم أفهم . . . ولكنْ ألستِ أمّها؟!!» . «كلاّ» . «وأينَ أمّها؟!» . «ماتت في تلك الحادثة لم ينجُ غيري أنا

وهي» . «ومن تكونين إذًا؟!» . «زوجةُ خالِها» . «ماتَ أيضًا؟!» . «نعم ، عناده هو الّذي سحبه إلى الموت ، لو استمع إليّ لظلّ معي» . نزلَ خطّان من الدّمع على خَدّيها ، تابعتْ وهي تنشج : «لا أدري لماذا لم يستمعْ لي ، كنتُ أعرفُ أنّه سيموت ، هل كان يعرفُ هو أيضًا وأراد أنْ يتخلّص من الحياة بطريقته» . حاول جلال تهدئتها . «عُدْنا بعدَ شهرَين من البقاء في حماية الجيش الحرّ إلى بيتِنا ، قلتُ لليلاس أنا أمّك ، اقتعنتْ بعد أنْ ظلّت تنادي عليها مئات المرّات . لم أكنْ أعرف كثيرًا عن أمّها ، أعرف أنّها هربتْ من حمص إلى زوجي ، لم يكنْ لها من ملاذٍ سِواه ، كانَ أخاها الوحيد ، عرفتُ بعد شهورٍ من محاولة التّقرّب إليها ، أنّ لها ابنًا آخَر التحق بجبهات القتال ، كانتْ تنظر في السّماء طويلاً وهي تجلسُ في الفناء ، تقول إنّها ترى وجه ابنها هناك ، وأنّها تريدُ أنْ تُحادِثه . كادتْ تُجنّ من طول انتِظارها له ، رأيتُها مرّاتٍ لا حصرَ لها ، تجلسُ أمام البابِ المُغلَق تنتظره ، تضعُ أُذُنَها على ظرفة الباب ، وتُرهِف السّمع ، تتخيّل وقع أقدامه يخطو في الفناء ، وحينَ تملّ تعودُ إلى فراشها ، فإذا سمعتْ قرعًا على الباب قفزتْ من مكانها كأنّها على يقينٍ من أنّه هو . زوجها هو الآخر مات . فقدتْ كلّ شيءٍ . وجاءتْ هنا لتموتَ أيضًا . لماذا نهربُ من الموت!! في الحرب لا مكانَ لا يعرفه الموت ، إنّه منزرعٌ في ذرّات الهواء ، وفي حبّات الرّمل ، وفي كلّ شيء ، من الأفضل ألاّ تهرب منه ، من الأفضل أنْ تنتظره فهو يعرفُ الطّريق إليك ، وسيصلك بكلّ سهولة فما جدوى الهرب إذًا!!» . توقّفتْ عن الكلام ، هذه المرّة كانتْ عينا جلال هما اللّتَين تسحّان دموعًا حارّة ، سألها وهو يمسحُ دموعه بباطن كفّه : «وكيفَ اقتنعتْ ليلاس بأنّكِ أمّها؟!» . «لم تجدْ مفراً من ذلك ، عاشتْ حالة نُكران

شـديدة ، ولم تعـترف بأنّ الموت أخذ مـلاذها الأخـير إلاّ حينَ هربتْ إليّ ، عاملْتُها كابنتي تمامًا وأكثر ، لم نكنْ قدْ رُزقنا أطفالاً أنا وزوجي ، وحينَ فقدتْ هي أمّها ، وفقدتُ أنا زوجي ، هربتْ كلّ واحدةٍ منّا إلى الأخرى ، تعرف ؛ الموتُ إذا وُزّعَ على أكثرَ من واحدٍ خفّ» . قال لها جلال : «ولكنْ أنتِ مُسجّلة في السّجلاّت على أنّكِ أمّها ؛ هل غيّرتِ اسمكِ؟!» . «وما الفرق؟! هل الأسماء في الحرب لها قيمة ، كلّنا للمطحنة ، ما الفرق في أنْ أكون هذا الاسم أو ذاك ، الأسماء حبرٌ يُخطّ على ورقٍ زائف ، ما هو مهمّ الآن . . .» سكتتْ ، ثُمّ قالتْ بصوتٍ خفيض لكنّه حادٌّ : «المهمّ أنّني أنا أيضًا مُقتنعةٌ أنّها ابنتي ، وهي مقتنعةٌ أنّني أمّها ، بهذا نحتال على المصائب حتّى يأتينا قدرنا نحنُ أيضًا» . «لا بأس . . . لكنْ ما قصّة ليلاس والسّكّين» . «حدث ذلك حينَ عُدنا إلى الغوطة لنجد سقفًا ننامُ تحته ، كانَ بيتُنا لا يزال صامدًا نسبيًا ، وكان الحيّ الّذي نقطنه لا يوجد فيه غير النّساء والأطفال ، وبعضُ العجائز ، كان قد خلا من الرّجال تمامًا ، يندر أنْ ترى رجلاً واحدًا يمرّ في أيّ شارع ، قدرهم أسرعُ من قدرنا ، هم يرحلون إمّا مُقاتلين أو مقتولين أو مأسورين أو فارّين ، ونحن الّذين نتجرّع المصيبة بعدهم ، دخلوا علينا . . .» أصابها الخَرَسُ فجأة ، لم تَفُهْ بعدها بحرفٍ ، نظرَ في عينَيها يسألها أنْ تُكمِل ، لكنّها بقيتْ واجِمة . «مَن هم الّذين دخلوا عليكم؟!» سأل جلال . قامتْ . مشتْ إلى خارج الخيمة ، لوّحتْ بقبضتها في الفراغ ، وأطلقتْ صرخةً عالية . لحق بها جلال ، سمعها تتوعّد بكلماتٍ غير مفهومة ، تركها تُكمل هذيانها إلى أنْ هدأت ، سألها إنْ كانتْ بخيرٍ فلم تجب ، عادت إلى الخيمة ، وعاد معها . «ثُمّ ماذا حدث بعد ذلك؟!» . حركتْ جذعها إلى الأمام وإلى

الخلف مرّتين في حركةٍ بندوليّة قبل أنْ تتابع : «لقد كانوا مُلثّمين ، يُغطّون وجوهم بأقنعة سوداء لا تُظهِر إلاّ عُيونَهم ، كانتْ عُيونهم جمرًا كعيون الشّيطان ، راحوا يشتمون ، ويصرخون ، ويدخلون البيوت ، ويُخرِجون الأطفال منها ، ثمّ جمعوهم في ساحةٍ على الطّرف الآخَر من الشّارع أمام بيتنا . كان الخوف يملؤني كلّي ، كُنتُ أرتجف ، لم أدرِ ماذا أفعل ، طلبتُ من ليلاس أنْ تختبِئ بسرعةٍ تحت حوض الجلي في المطبخ وتُغلِقَ على نفسِها الخِزانة ، أطاعتْني ، ركضتْ إلى هناك ، وحشرتْ نفسَها في الأسفل وكتمتْ أنفاسَها ، وقُمتُ أنا بإغلاق باب الخزانة الصّغيرة عليها ، حينَ دخلوا البيتَ فتّشوه غرفةً غرفةً ، وشبرًا شبرًا ، ثمّ ضربني أحدهم بعقبِ بندقيّته فسقطتُ على الأرض ، وخرجوا وهم يشتمون . كانوا قد جمعوا من الحيّ أكثرَ من خمسةَ عشر طفلاً وطفلةً تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّانية عشرة ، أمّا الّذين كانتْ أعمارهم أكبرَ من ذلك فلم يكونوا موجودين بالأصل لأنّهم يكونون قد هجروا أحياءهم للالتحاق بجبهات القِتال . كان منظرًا لا يُمكن لأحدٍ أنْ ينساه ، كنتُ أرتجفُ من رأسي إلى قدمَيّ ، وأتمايل من دوخةٍ خفيفةٍ تأتيني كلّ دقيقةٍ أو دقيقتَين ، يومَها تساءلتُ : إنْ كان الله يرى ما يحدث أم لا؟! يومها سقطتُ في الكفر ، نعم ، كفرتُ لأنّه لا يُمكن أنْ ترى ما رأيت وتظلّ على إيمانك ، كان الكفرُ وسيلةً للتّخفيف من الضّغطِ على أنْ يحتمل عقلي منظرًا كهذا فأصاب بالجنون ، لا تلمْني ، بل لا يحقّ لكَ أنْ تلومني ، بل لا يحقّ لأحدٍ أنْ يفعلَ ذلك ؛ نعم كان الكفر وسيلةً للنّجاة من الجنون المُحقّق!! جمعوا الأطفال في السّاحة ، وعلى محيطها انتشر أكثر من مئة قاتلٍ يحرسونها من تدخّل الأمّهات ، وكانَ هناك عددٌ منهم على الجوانب

يُطلِقون النّار في الهواء لإخافة مَن تبقّى مِن نساء الحيّ ومنع أيّ أحدٍ من الاقتِراب، ثمّ... ثُمّ بدأت المجزرة، صارُوا يُصعدون كلّ طفلٍ أو طفلةٍ إلى بكبٍ واقفٍ في وسط السّاحة، وهناك مجرمٌ من نوع شيطانيّ ماحق كان يحملُ في يده سكّينًا كبيرةً، يُقدّم له الطّفلُ موثوقَ اليدَين خلفَ ظهره، فيقوم هو بإضجاعه على صدره، ثُمّ يُمسك بعنقه ويطقّها إلى الخلف، ويذبحه ذبح النّعاج، وكانَ يُكبّر بعدَ أنْ يجزّ رأسّ كلّ طفلٍ، ولمْ أدرِ أيّ شعورٍ ركبني في ذلك اليوم، لم يكنْ لبشريّ حقيقيّ طاقةٌ على أنْ يرى منظرًا كذلك، والأدهى أنّهم كانوا يذبحون كلّ طفلٍ أو طفلةٍ على مرأى من بقيّة الأطفال، بالطّبع كان بعضهم يُغمَى عليه من الخوف، وبعضُهم يبول على نفسه، وبعضهم يُطلِق صرخات استغاثة تضيعُ وسط طلقات الرّصاص التحذيريّة الّتي تُلعلع في الفضاء... يومَها كان يُمكن أنْ تُؤرّخ لنهاية الإنسانيّة، كان يُمكن أنْ تكون متأكّدًا أنّ منظرًا مثل هذا لم يحدث في التّاريخ ولا يحدثُ إلاّ هنا، إلاّ في سوريّة. رحلوا وقد تركوا وراءهم بركةً من دماء الأطفال لن تجفّ ولو بعد عشرةِ قرون. ولجتُ إلى داخل البيت، وكأنّني كنتُ قد نسيتُها لهول ما رأيتُ، وتذكّرتُها فجأةً وما زالتْ غمامة الفجيعة مثلَ حبلٍ من حديد حاد يحزّ عنقي، فهرعتُ إلى المطبخ لأضمّ ليلاس إلى صدري، وأحمدُ الله على نجاتها من هذه المجزرة، وما إنْ دخلتُ حتّى سقط قلبي بين رجليّ؛ لقد كان باب الخزانة تحت حوض الجلي مفتوحًا، تسمّرتُ مكاني للحظات، قبل أنْ أركض باتّجاه الخزانة وأفتّش فيها بشكلٍ جنونيّ؛ إنّها ليستْ هنا، وعلى عادة الخواطر السّيّئة الّتي تملكُ سأقين أقوى وأسرع من الخواطر الحسنة، رحتُ أفكّر بأنّهم أخذوها وأنّهم ذبحوها مع مَنْ ذُبح، ولكنّني لم أرها

من بينهم ، لقد راقبْتُهم طِفلاً طفلاً ، رأيتُ مُهرة ابنة جارتنا أم فالح تُذبح ، ورأيتُ سعيد ابن البقّال يُذبح ، ورأيتُ أطفالاً أعرفهم من وجوهم كانوا يرتادون ذات السّاحة الّتي ذُبِحوا فيها ليلعبوا كرة القدم ، ورأيتُ . . . ورأيتُ . . . لكنّني لم أرَها . . . صرتُ أصرخُ كالمجنونة ، وأنادِي عليها ليلاس ليلاس . . وأركضُ بين الغُرفِ لعلّني أعثر عليها ، لكنّ الفراغ كان يملأ كلّ شيء ، مرّتْ عليّ دقائق من الموت كأنّها قرون ، قبلَ أنْ أسمع وَقْعَ خطواتها الذّاهلة وهي تنزل الدّرج ، كانَ يبدو أنّها شاهدتْ كلّ شيءٍ من سطح البيت!!» .

(٤٢)

كحركة شراعٍ تاه في البحر ظلّ يتأرجح تحت رحمة الرّيح

لم يعدْ له ذات القلب . ولا الجسد . ولا الرّوح . بعضُ المنعطفات في الحياة تحوّلك إلى إنسان آخَر . لم يدرِ هل الطّريق الّتي يقطعها تغيّرتْ أيضًا أم لا!! هل عادَ من تلك الخيمة إنسانًا آخر ، كانت الصّحراء على امتداد بصره وهو يقود سيّارته إلى عمّان ، لم يكنْ يفعل شيئًا ، ترك لعجلات السّيّارة أنْ تنهبَ الأرضَ مسرعةً وهو سارح ، لم يكنْ يستمع لشيء ، كانَ فقط يسمع صوتَ دموعه وهي تتساقط حبّاتٍ متتابعات على خَدَّيه ، لأوّل مرّة يشعر بعبثيّة مُريعةٍ كهذه ، لأوّل مرّةٍ تتساوَى في عَينَيه الأشياء ، لأوّل مرّة تكتظّ ذاكرته بمشهد الفجائع حتّى لا يعودَ لها قِيمة ، إذا وصلَ المتسابِقون جميعهم إلى خطّ النّهاية في اللّحظةِ نفسِها فمن الفائز ومن الخاسر حينئذ!!

كانت الصّحراء قد صارتْ خلفه حينَ تلوّن التّرابُ بالأحمر على جانبي الطّريق الّتي كانتْ خالِية إلاّ من تداعيات ما سمع وما رأى ، لم يكنْ مُشوّشًا من قبلُ بمثل ما هو اليوم . تذكّر إحدى شجاراته مع سلوى ، كانتْ تقول له : «اترك العالَم للّذي خلقه ، لماذا تظنّ أنّه بإمكانك أنْ تُصلحه وهو يتداعَى ، كثيرٌ من النّاس يتلذّذ بمنظره مُتداعِيًا ، إذا كان من خللٍ فهو فيك لا فيه ، دَعه وشأنه ، إنّ للعالَم ربًا يحميه» . الآن ربّما يفهم هذه الكلمات أكثر ، الآن ربّما يجد أنّها

مُحقّةٌ بعضَ الشّيء ، وإنْ كان قد دأب على أنْ يلتزم الصّمتَ في شجاراته معها إذا لم يقتنع بأهمّيّة ما تقول .

كانَ أذان الظّهر يصدح في مسجد (أبو قورة) وهو يعبر النّفق تحته متوجّهًا إلى بيته في جبل الحُسين ، حينَ دخل تلقّتْه سلوى فاغرةً فاها ، توقّع أنْ تُشعِلَ معه شجارًا جديدًا تبدؤه بالسّؤال الأنثويّ المضمّخ بالشّكّ : «عند مين كنت نايم؟!» . توقّع أمرًا آخر ليس بعيدًا على مثلها أنْ تفعله ، أنْ تتقدّم نحوه وتُمسِك ياقةَ قميصه وتبدأ بالشمشمة لعلّها تكتشفُ عطرًا أنثويًا فتتفجّر بالقلق ، أو رائحة عرقٍ وغُبارٍ فتطمئنّ ، لكنّها ظلّتْ متسمّرةً مكانها وهي تنظرُ إليه بعينَين مفتوحَتَين ، من الجهة الّتي تنظر إليها عرفَ أنّها تقصد شعره ، أرخَى كفّه فوقَ رأسه فاكتشف أنّ شعره الكثّ أشعث مُغبرّ كأنّه نام في مسبعة ، نزلتْ بنظرها إلى أسفل قليلاً ، تابَعها بعينَيه ، هبط بيده من رأسِه إلى صدره فاكتشف أنّ الأزرار الثّلاثة الأولى مفتوحة ، وأنّ القميص يُظهر فانيلته من تحته وأنّ غابةً من الشّعر تنفر من أعلاها . هزّ رأسَه كمن يستعدّ لأنْ يقول شيئًا ، قلّص المسافةَ بينهما إلى خطوةٍ واحدة ، أرسلَ نظرةً إلى غرفة بدر ، سمح له باب الغرفة أنْ يراه جالِسًا إلى كرسيّ الرّسم مُعطِيًا ظهره لهما ، ويبدو أنّه منهمكٌ تمامًا في عمله ، ولم يشعر بدخول أبيه ، سألها : «كيفَ هو؟!» . لم تجبْ . أمسكَ بيدها ، وسارا معًا حتّى جلسَا إلى الأريكة في غرفةِ الجلوس ، قال لها وهو يبتسم بلهجة اعتذار : «إنّها قِصّة طويلةٌ وسأشرحُ لكِ . . . هل ستمنحينني هذه الفرصة؟» . عدّلتْ من جِلستها ، ووضعتْ يدها اليُمنى مُحيطةً بكتفه ، ونظرتْ في عينَيه عميقًا كأنّها تقول له : «نعم» . رقصَ شيءٌ ما في داخله ، حدّث نفسه : «عجيبةٌ هذه المرأة ، إنّها أرقّ من قطرة

النّدى الخفيفة على خدّ الورد إذا رضيتْ ، وأحدّ من الفولاذ على الصّخرة القاسية إذا غضبتْ . . . لأستمتع بحالة الرّضا الّتي تجتاحها ، لديّ مهمّة صعبةٌ في إقناعها» . قصّ عليها قصّةَ ليلاس وأمّها الجديدة ، كانَ يطمح إلى أنْ يُؤمّن لهما مسكنًا متواضعًا يعيشان فيه ، ريثما تُتمّ ليلاس مراحل علاجِها على الأقلّ . قالتْ له : «ليسَ غريبًا أنْ تفعل . . . لقد دأبْتَ على ذلك» . «فهل أنتِ موافقة؟!» . «على ماذا؟!» . «على أنْ أكفّلهم؟!» . «ولماذا سأرفض؟!» . «لأنّني سأقوم بتكفيلهم على مسؤوليّتي ، لي معارفي وسيُساعِدونني في ذلك ، لو تركتُ الأمر بدون وساطة فسيستغرق ذلك وقتًا طويلاً جداً ، هذا إذا سُمِح لهم أساسًا بالخروج من هناك» . «وأينَ سيسكنون؟!» . لوهلة ظنّتْ أنه يُريدُ أنْ يُسكنهما معهم في البيت ، لكنّه ردّ بسرعةٍ : «في أيّ شقّةٍ هنا في الجهة الشّمالية من جبل الحُسين فهناك بيوتٌ متواضعة وإيجارها معقول نوعًا ما ، أو . . .» . قاطعتْه : «لماذا لا يسكنون في الشّقّة المُقابِلة لنا؟ غريب الأطوار الّذي كان يشغلها تركها منذ حوالي أسبوع وسلّم مفتاحها إلى حارس العمارة ، وهي شاغرةٌ الآن ، وقربهم منّا قد يُمكّنني من المساعدة» . ابتسمَ ابتسامةً عريضةً ظهرتْ على عَينَيه من خلال زجاج النّظّارة أكثر مِمّا ظهرتْ على شفتيه . «أمرٌ رائعٌ» . وقفَ على قدمَيه ، أصلحَ من شأنِ قميصه ، وتركَ شَعره كما هو ، نظرَ في ساعته وهو متوجّه نحو الباب خارجًا ، ووفّر عليها سؤالاً في موضعه : «السّاعة الواحدة والنّصف ، بعد ساعة سوف تُغلَق المحاكم ، عليّ أنْ أقومَ بالإجراءات الآن» . وأغلقَ الباب خلفه ، وتركها مشدوهةً مِمّا يفعل .

اتّصل بوزير الصّحّة ، أخبره أنّ الأمر طارِئ ، استثار فيه نخوة

الإنسانيّة الّتي يُقسم الطّبيب على خدمتها : «عليّ أنْ أُكفّل هذه العائلة اليوم» . في المساء والشّمس تُغالِب الانطفاء في الجهة الغربيّة من مخيّم الزّعتري ، وتتوهّج بلون أحمر ، كانتْ تعبر الحاجز امرأةٌ مُلفّعةٌ بالسّواد تقود في يدها طفلةً ملفّعةً بالصّمت . ركبا في المقعد الخلفيّ : «سأهتمّ بها كابنتي تمامًا ، لا تخافي عليها ، سأُشرف على علاجها بنفسي» .

كانتْ سلوى قد شطفت الشّقّة في غياب جلال ، ونظّفتْها بقدر ما تستطيع ، ونقلتْ إليها أثاثًا خفيفًا على عجل ، ريثما يتمّ تأثيثها بشكلٍ جيّد فيما بعد . حينَ وقفتْ (سميرة) على باب الشّقّة وهي تُمسكُ بيد ليلاس لم تُصدّق ما يحدثُ معها ، سألتْ نفسَها في الطّريق ألفَ سؤال : «لماذا أخذنا وتركَ الآخَرين ، لسنا أكثرَ مأساويّةً منهم!!» . دخلتْ ، شعرتْ بأنّها تدخل قصرًا ، كانتْ الجدران سليمة لم ترَ أثر الرّصاص عليها وهو يحوّلها إلى مناخل . والشّبابيك لامعةً تحت أضواء المحلاّت التّجاريّة والسّيّارات القادمة من الشّارع ، وليستْ مُحطّمةً يَصفِر من خلالها الهواء . والأرضيّات مستوية وليستْ مليئةً بالحُفر والأتربة . والأسقف تتدلّى منها أضواء ساطِعة ، ولا تتدلّى منها قُضبان حديدٍ على جانبَي فجوةٍ تطلّ على السّماء كانتْ قد رضختْ لقُبلة قذيفة قاسية من قبلُ!!

كان جلالٌ يقفُ وإلى جانِبه سلوى وبدر ، قال معرّفًا : «هذه زوجتي سلوى ، وهذا ابني بدر» . كان بدر يقفُ إلى جانب أبيه وذراعه تلفّه بحنان ، حينَ انحنى ليقول له : «إنّها ليلاس ، ربّما تُعلّمها الرّسم لاحقًا» . ظلّ صامِتًا ، اكتفى بتحريك كفّه اليُمنى أمام وجهه كحركة شراعٍ تاه في البحر ظلّ يتأرجح تحت رحمة الرّيح . أمّا ليلاس فأمسكتْ

بطرف بلوزتها الأرجوانيّة من أعلى ، وسّعتْ فتحتها لترفعها إلى فمها ، وتحني رأسها إلى الأسفل كأنّها تريدُ أنْ تدفن وجهها داخل البلوزة . وأمّا المرأتان فتصافحَتا بودٍّ حَذِرٍ ، غاصتْ كلّ واحدةٍ منهما في عينَي الأخرى تستطلعُ ما تُخبّئه القلوب ، هل نجحتا؟ ربّما . إنّهما أمام اختبارٍ من نوعٍ لم تعيشاه سابِقًا ، لكنّه مألوفٌ عند كلتيهما بحُكم الغريزة الّتي فُطِرتْ عليها كُلُّ أنثى!!

(٤٣)
لن تصمد الحرب طويلاً أمام الجَمال

نظر في مرآة السّيّارة إليهما ، كانا ملاكَين انْتزعا من الجنّة ، ولحقهما بعضُ الجحيم . الطّفلة مرّ الجحيم بالجانب الأيسر من جسدها ، وسميرة مرّ في صميم قلبِها . كان قلبًا تشبّع بالمأساة ، تظهر المأساةُ في عينَيها الواسِعتَين ، تتّسعان لحجم أكبر منهما فتَغرَقان وتُغرِقان . ومَنْ يشعر بامرأةٍ فقدتْ كلّ ما تملك ، واستَنقذت في طوفان الفقد المنداح وردةً كانتْ علَى جانِبَيه كادتْ أن تنخلع بسهولةٍ من هناك وتذوب في المجرى الكبير . سميرة في الأربعين من عمرها ، أتمّت الثّانوية في الميدان بدمشق ، ودرست الاقتصاد في جامعتها . قالتْ لها زميلاتُها اللّواتي حضرْنَ خطوبتها : «ما الّذي أعجبكِ في فلاّح نشأ بين أتلام الفول ، وحقول الذّرة ، وقضى نصف حياته خلفَ المحراث ، ونصفَها الآخر تحت ظلال اللّوز؟!» . لم تكنْ تملك أكثر من إجابةٍ بكلمةٍ واحدة : «رجل» . تعرف أنّ الرّجال أصبحوا عملةً نادرةً في هذا الزّمان ، لم يعد حتّى مصطلح أشباه الرّجال لائقًا بالهُلاميات الّتي تنمو في المجتمع ، وتتسلّق على جدرانه كلافقاريّات . «رجل . . . واختاره لي أبي ، وهو أعرف الرّجال بالرّجال» .

كان وجهها مُضيئًا كفلقة القمر ، وعيناها السّوداوان يزيدان نضارة الوجه ؛ إذ بضدّها تتباين الأشياء ، وحاجِباها المنبسطان كنهرٍ من ليلٍ فوقَ جفنَين من ثمرٍ ناضج يزيدان الفِتنة فتنةً . وهي؟! وهي في

الأربعين ما زالتْ تحتفظ بألق الأنثى البِكر ، يُضفي عليها الحُزن المتراكم ألقًا من نوع آخَر ، وفيها هدوءٌ كهدوء النّسمات الّتي تصحب لحظات الفجر الأولى . سرحَ بفِكره بعيدًا وهو يُتابعُ صورتها المنطبعة بشالِها الأسود فوق مرآة سيّارته ، وعرف أنّ شيئًا ما بدأ يتحرّك في أعماقه ، أشاحَ بوجهه يريدُ لهذا الشيء أنْ يتوقّف ، فانساب إلى جهة معاكسة للحركةِ في القلب ، تلقّاه القلبُ بجداره ككأس ملأى ، تترنّح ، تكادُ في ترنّحها أن تدلق ما فيها ، لكنّها تنجح في اللّحظة الأخيرة بالمحافظة على قطرات الدّم الخاصّة بالتّوهّج في حالات العشق!!

توقّف بسيّارته أمام المُستشفى التّخصّصي . نزل أوّلاً ، سمحَ لها ولليلاس أنْ تعبرا أمامه ، بدا قَوامها الرّشيق قوامَ فتاة في أواسط العشرين ، سامِقًا ، وتنسدل العباءة فوقه بانسِيابة تكشفُ انسيابيةَ تضاريس الجسد نفسه ، ومشية لم تحنِها الحرب مع بأسِها الشّديد ، ولم تكسرها عاديات الزّمن مع عصفها الأشد . . . مشيةَ اختِيال ، وربّما مكابرة ؛ مكابرة في وجه الحرب الّتي تُحاول أنْ تُخضع كلّ مَنْ لا يحني رأسه لها!! كانتْ تزرع له في كلّ خطوةٍ من خطواتها وردةً في القلب ، خجل من نفسه وهو يُراقبُ خطواتها الذّاهبة باتّجاه البوّابة الرّئيسيّة وقد غفلَ عن مريضته وعن الهدف الّذي من أجله جاءَ بها إلى هنا ، فسبقهما وهو يعتذر لنفسه عمّا فعل ، قادَهما إلى قسم الجلديّة ، كان قد أخذ موعدًا مع الدّكتور (شاهر) أحد أهمّ أطبّاءالجلديّة في الأردنّ .

رحّب الدّكتور شاهر بزميله الدكتور جلال الّذي رافقه في وزارة الصّحّة قبلَ أنْ يغادرها الأوّل في عام ٢٠١٠ ليلتحق بقسم العيادات الخارجيّة في هذا المشفى ، ويتسنّم الأخير منصب رئيس قسم طبّ

الأزمات ، قرأ شاهر بعينَي جلال ما كان يقرؤه على مدى أكثر من عشرةِ أعوام في زمالتهما الخاصّة من وُدٍّ عميق ، وإنسانيّة لا يُمكن تعريفها إلاّ بمقدار روعة الصّفاء في تَينِك العينَين الوادعتَين ، ولذلك لم يسأله مَنْ تكون هذه الطّفلة ، ومَنْ هذه المرأة الّتي ترافقها ، كلّ ما يعرفه أنّ قَسَم الأطبّاء الإنسانيّ يتمثّل فيه أحسنَ تمثُّل .

أشارتِ الممرّضة لليلاس كي تتبعها إلى غرفة التّشخيص . قال جلال : «أريد أنْ أعرف إمكانيّة أنْ تُجرَى لها عمليّات تجميل من أجل تخفيف حدّة الحروق الّتي أتت على جانبها الأيسر» . سأله شاهر : «كم عمر الحروق؟!» . «سنتان على الأرجح» . «أريدُ أنْ أكونَ صريحًا معك ؛ لن نستطيع أنْ نفعل لها الكثير» . سأله جلال بصوتٍ رزينٍ مُغلّف بالأمل : «ألا يُمكن أنْ نُعيدَ لها وجهها؟!» . ضحك شاهر ، رمى برأسه إلى الخلف ، وتساءل وهو يبتلع ما تبقّى من الضّحكة : «تُعيدُ لها وجهها؟! لا . . . لا يُمكن . . . نحنُ لا نستطيع أنْ نستعيدَ وجوهنا الّتي فقدْناها أمس يا صديقي!!» . توقّف قليلاً ، تنحنح ، وبدا الجِدّ في لهجته : «هذه الحروق يبدو أنّها أخذتْ شكلها شبه النّهائيّ من الخلايا المتعفّنة الّتي نمتْ عليها يومَ أصيبتْ . . .» . توقف ثانيةً ، نفثَ هواءً من صدره ، قال بشيءٍ من الأسف : «لو أنّها وفدتْ إلينا لحظةَ الحادثة لكُنّا فعلْنا لها الشّيء الكثير» . «جئتُ بها إليك لتصنع لها ما لمْ تصنعه لأحدٍ من قبل ، يُمكنك أنْ تعتبرها أكثر من مجرّد مريضةٍ وفدتْ إليكَ عن طريقِ صديق ، إنّها بمثابة ابنتي يا شاهر ، وسأحميها ، ولو قبلتْ بي أبًا فسأرقص من الفرح» . نظر إليه مستغربًا وقد ضيّقَ عينَيه : «يبدو أنّك تحبّها!!» . هزّ جلال رأسه : «أكثر مِمّا توقّعت» . «ولكنْ لماذا؟!» . «لا أدري» . «وجهها؟!» . «ما علاقةُ وجهها

بالأمر» . «استدرجَ الإنسانَ فيك» . «ربما» . «أنتَ تُشفق عليها يا صديقي ، الحُبّ شيءٌ آخَر» . «دعنا من فلسفاتك الآن ، قُلْ لي ماذا يُمكن أنْ تُقدّمه لها من أجلي؟» .

أخذه من يده ، ومشيا معًا إلى الغرفة ، كانتْ الممرّضة قد أتمّت لها بعضَ الفُحوصات ، اقتربَ شاهر من ليلاس ، كانَ الوجه البُنّيّ جهةَ الحرق قد صارَ أملس ترتسم فوقه آثار الخُطوط بشكلٍ عشوائيّ . أمّا أسفل العنق مِمّا يلي الكتف فقد تكرمشَ حتّى صارَ كأنّما ينتمي لعجوز لا لطفلةٍ في العاشرة . نهضَ شاهر من معاينته ، قال لجلال وهما يخرجان إلى غرفته : «لقد فاتَ الأمر» . «لا تقلْ ذلك!!» . «لا أريد أنْ أخدعك» . «ألا يُمكن أنْ نأخذ من الأجزاء السّليمة ونرقع بها الأجزاء المُصابة بها» . «كلاّ ، هذه طريقة قديمة ، حتّى جراحة اللّيزر لن تُفيدَ في مثل حالتها ، عليها أنْ تتقبّل ما هي عليه» . «عليها أنْ تفعل ذلك أم عليّ أنا؟!» . همسَ يائسًا .

في السّيّارة وهم عائدون ، كان جلال ينظر في المرآة إلى وجهها الهادِئ الحزين والغاضب معًا ، كانا نِصفَين ؛ الجمال ماثلٌ في النّصف الأيمن ، والحرب الشّوهاء ماثلةٌ في النّصف الأيسر ، قال وهو يُطلِق لسيارته المرسيدس الزّيتيّة العنان : «لن تصمد الحرب طويلاً أمام الجَمال» . سألها بصوتٍ مخنوق انتزعه من البكاء انتِزاعا : «ماذا أشتري لك على الغداء يا بُنيّتي؟!» . ظلّتْ صامِتة ، «ابني يُحبّ شوربة الفطر وصحنًا من البطاطس المقليّة وقطعةً من اللّحم المشويّ ، هل يُمكنك أنْ تُشاركيه غداءً كهذا؟!» . بقيَ صمتُها قاتِلاً ، من اليوم بإمكانِك أن تطلبي منّي ما تشائين ، أنا هنا من أجل أنْ أرعاك» . نطقتِ الأمّ عنها : «يحدث أنْ تبقَى صامتةً أسبوعًا كامِلاً يا دكتور» .

«أنا أُحاول» . ضحك . كأنّما تذكّر اسمه فجأة ، فأحبّ أن يردّده على مسامعها : «ناديني جلال . . . عمّو جلال . . . أو جلال وحدها تكفي . . . بماذا تُحبّين أنْ أُناديك» . صمتتْ من جديد . انزلقتِ الكلمات من نافذة السّيّارة ، لم يعُدْ يُسمع غير أبواق السّيّارات على دُوّار الداخليّة وهي تُحاول أنْ تجد لها منفذًا في مخارجه الخمسة .

على باب شقّتهما ، نظرَ في عينَي (سميرة) كانتْ تريدُ أنْ تشكره لكنّ الكلمات لم تجدْ لها سبيلاً لِتُقال ، نابَ القلبُ عن اللّسان ، هُناك في القلب صعدَ سؤال ظلّ يجول لأيّام ، يُعذّب بتردّده وهو في طريقه إلى أنْ يُصاغ : «لماذا تفعل معنا كلّ ذلك؟!» . لكنّه ارتطم بجدار الحياء فسقط من جديد في ساحة القلب .

كانت الشّقّة قد جُهّزَتْ بشكلٍ أكبر ، وأُثّثتْ أثاثًا جميلاً ، وأُعدّتْ لإقامةٍ طويلة . قال لليلاس ، جاثيًا على رُكبتَيه ليصيرَ في مستوى وجهها قبل أنْ تدخلا إلى الشّقّة : «ماذا قرّرتِ؟!! تتغدّين معنا اليوم ، بدر سيكون سعيدًا لو انضممتِ إلينا» . رفع رأسه إلى أمّها ، كانَ يريدُ أنْ يدعوَها ، لكنّه لم يجرُؤ ، خفضَ بصره ، انتظرَ جوابًا من ليلاس ، لكنّه لم يظفر بشيء . أعطاهما ما اشترى من الطّعام ، ردّته سميرة : «لن نأخذه» . «ألا تشمّين رائحة الطّعام المتسلّلةً من شُقّتنا ، لا بُدّ أنّ سلوى قد أعدّتْ لنا غداءً شهيّا» . أعطَى ظهره لهما وهو يقول : «ربّما يا ليلاس في وقتٍ لاحق . . . ربّما» .

في الفِراش ، قالتْ له سلوى : «ذهبتَ معها إلى الطّبيب وحدك؟!!» . أدار وجهه جهتها كأنّما لم يفهم : «مَنْ تقصدين؟!» . «سميرة؟!» . «كلاّ ، كانتْ معنا ليلاس» . «هذه الطّفلة الشّوهاء لا تفهم شيئًا ، أنا أعني سميرة ، كيفَ سمحتَ لنفسك أنْ تُجلِسها إلى

جـانبك» . «بدأنا يا سلوى . . .!! أوّلاً لم تجلسْ إلى جـانبي بل في المقعد الخلفيّ . . . ثانيًا لم نكنْ وحدنا كانَ معنا ليلاس» . «لقد أخذتَ ليلاس معكما حُجّةً ليلخلوَ لكما الجوّ» . «سلوى . . . ماذا تقولين . . . هل فقدتِ عقلكِ؟!» فجأةً رفعتْ وتيرةَ صوتِها بشكلٍ حادّ : «بل أنتَ الّذي فقدتَ عقلك . . . عُدتَ إلى اللّعب من جديد . . . تأخذها في سيّارتك ، وتُحادثِها ، وتتملّى في محاسنها باسم ماذا . . . باسم الإنسانيّة الكاذبة . . . . تدّعي أنّكَ تعالج ابنةً منسيّة ، فجأةً تريدُ أنْ تنقذها من النّسيان ، يتيمةً تريد أنْ تنتشلها من اليُتم ، وأنا؟! تتسلّى على عادتك بتعذيبي ، وحَرقِ قلبي . . . والتّظاهر بأنّ الأمور بسيطة . . . وأنّني ساذجة ، وأُحمّل الأشياء فوقَ ما تحتمل . . . ماذا تتوقّع منّي أيّها الطّبيب الوسيم؟! أنْ أُصدّقك أنّكَ لا تُفكّر بامرأةٍ في مثلِ جمالِها؟! أنْ أعتبرَ خروجَها معكَ أمرًا اعتِياديًا؟! وهذه البنت الخرساء نصف المحروقة ماذا تظنّها بالنّسبة لك؟! تتذكّر مواعيدَ مراجعتها للمستشفى وتنسَى . . . تنسَى ابننا الوحيد لتهتمّ بفتاةٍ مجهولة ؛ ومن أين؟! غريبة تنقّلتْ بين عشر مخيّمات قبلَ أنْ تُجاورنا ، ما أحنّ قلبكَ على فتيات المُخيّمات!!» . أثارتْه الجملة الأخيرة ، همّ أنْ يقذف في وجهها بسؤالٍ ليخفّف كتلة الاحتقان الّتي تسبّبتْ بها : «وأنتِ ابنةُ مَنْ تكونين؟! ابنةُ باريس؟ أنتِ أيضًا ابنةُ المُخيّمات قبلَها» . لكنّه تراجعَ فورًا ، لامَ نفسَه بشدّةٍ على خاطرٍ وضيع كهذا ، أحسّ أنّه ينساق إلى مهاترةٍ بلهاء ، لن يجرّه غضب امرأتهِ إلى أنْ يُصبحَ سوقيًا ، ويبتذل نفسه ، أراد أنْ يصمتَ على عادته ، أنْ يجعلها تحكي وتحكي ، وتفرّغ شُحنة الغضب الملتهبةِ في أعماقها . . . همّ بعدَ كلّ صرخةٍ من صرخاتها أنْ يردّ ، أن يصرخ هو الآخر ، أليسَ ذا مشاعر

مثل الآخرين؟! لكنْ إنْ أرادَ أنْ يفعل ففيمن يصرخ؟! فيمن يفرّغ كلّ هذا الاحتقان الّذي يكاد ينفجر في أعماقه؟! ليذهبْ من هنا . هذا أفضلُ حلٍّ ممكن . الشّرفة حلٌّ آخَر ، لينظر في الفراغ من هناك ، ليتفحّص ما تبقّى من السّيارات في الشّارع . الشّارع!! لماذا لا يخرج إلى الشّارع ويمشي ، يستطيع أنْ يعثر على أزقّة خالية في هذا اللّيل بعيدًا عن الشّارع الرّئيسيّ الّذي يشقّ جبل الحُسين . ربّما لو ركبَ سيّارته وسار بها إلى مقهى العارضة على طريق السّلط لكانَ ذلك أفضل . أيّ شيء ممكنٌ غير البقاء على ذات الفِراش مع سلوى ، توقّف سيلُ أفكاره فجأةً ، عاودَه شريط الصّباح حينَ أخذهما إلى عيادة الدّكتور شاهر ، فكّر ، ربّما بالفعل عليه أنْ يراجعَ قلبَه نظراته ، أكانتْ زوجته على حقٍّ في شَكّها؟! قد تكونُ كذلك ، تذكّرَ هيأتها وهي تمشي ، تذكّر عينَيها وصوتَها ونظرتها وهي تأخذُ منه وجبةَ الطّعام ظهر هذا اليوم ، ربّما سلوى على حقّ ، ربّما هو لم يُقدّر الأمور بشكلٍ جيّد . لكنْ ، هل كانتْ زوجته تراقبه وهما يقفان أمام باب الشّقةِ اليوم؟! ربّما ، هو لا يستطيع التكهّن بما يُمكن أنْ تُقدِم عليه سلوى بعد ذلك؟! ومَنْ أدراه كيفَ تُفسّر امرأته نظراته ، ولا حتّى حروفه ، خاصّة وأنّ امرأةً أخرى صارتْ في مجال التّهديف . مَنْ يستطيع أنْ يُفسّر شعور امرأة تُجاه أخرى يقفُ بينهما رجل!! اختار أنْ يجلسَ على الشّرفة ، يمدّ قدمَيه على بسطة خشبيّة ويرتشف فُنجانًا من القهوة كان قد صنعه وهو يُفتّش عن أسبابٍ لهذه الغضبة المُباغتة من زوجته ، عرفَ بعدَ اليوم أنّ كلّ حركاته وسكناته تحت مجهر المُراقبة ، يدري - وهو الخبير في ذلك - أنّ المجهر وإنْ كان يُظهر الأشياء على حقيقتها لكنّه يُضخّمها بشكلٍ حادّ .

(٤٤)
حدس الأنثى أقوى

فتحَ حقيبتَه ، تناول منها ملفّ ليلاس ، أخذه في طريقه إلى المطبخ ، وضعه على طاولةٍ صغيرةٍ هناك ، أعدّ قهوةَ الصّباح ، عادَ مع فنجانه ، راحَ يقرأُ الملفّ ، الملفّ الّذي قرأه خمسَ مرّاتٍ حتّى الآن ، وكانَ يتساءل : «لماذا يفعل ذلك ، ولماذا يقرؤه كلّ مرّةٍ كأنّها أوّل مرّة؟!» . فكّر : إذا حافظتْ على عقلها قادرًا على التّذكّر بعد كلّ ما مرّ معها فستُصبح طريقُها إلى الشّفاء أسرع ، لكنّها بسبب ندرة كلامها فسيكون من المتعذّر عليه أنْ يعرف مدى الخطر الّذي لحق بعقلها ، أمل من كلّ قلبه أنْ تتجاوز الصّغيرةُ محنتَها بعد جلساتٍ عند طبيبٍ نفسيّ مختصّ ، ليُساعدها على التّخلّص من الفزع اللّيليّ المستمرّ معها ، والّذي يبدو أنّه مرشّح للزّيادة ؛ استنتجَ ذلك من عدد المرّات الّتي كان يسمع فيها صُراخَها الجنونيّ في هدوء اللّيالي الفائتة . راح يتذكّر معارفه من الأطبّاء النّفسيّين ، في الحقيقة كان يستهويه هذا النّوع من الطّبّ منذ صغره ، ويستطيع أنْ يُحاول هو معها بنفسه لو أراد ، ولربما يجد وسيلةً ليُخفّف من درجة مرضها ، لكنّ المُتخصّص الّذي يُعاين حالاتٍ كثيرةٍ ومتنوّعة ، سيكون بالتّأكيد أفضل منه في معرفة الطّريق الصّحيحة للتّعامل مع الحالة ، وعلى كلّ حالٍ لن يتركها ، سيُساعد الطّبيب النّفسي على أنْ تتعافى بسرعة . رشفَ رشفةً أخيرةً من الفنجان وأراح ظهره على مسند الكرسيّ ، وشبّك بينَ

أصابع كفّيه، وركزهما خلفَ رأسه، وأغمضَ عينَيه، وراح يتذكّر الأسماء اللاّمعة في الطّبّ النّفسيّ. اصطادتْ ذاكرته القويّة اسم الدّكتور خالد، وعيادته الّتي تقع عند تقاطع الواحة في شارع المدينة. حزم أمره على أنْ يتوجّه إليه. أعاد الملفّ إلى الحقيبة، حملها، ومضى. كان يمشي عبر الممرّ الّذي يقع بين غرفة الجلوس والباب الخارجيّ، في منتصفه حانتْ منه التفاتةٌ إلى الحائط الّذي يقع على يمينه. شهق. توقّف قلبُه. أطلقَ زفرةً طويلةً ليستعيدَ الهواء المحبوس قبل أنْ تسقط الحقيبةُ من يده، ظلّ جامدًا في مكانه للحظاتٍ طويلة، عقد كفّه اليُمنى تحت مرفق اليُسرى، وراح يتأمّل اللّوحة الّتي رسمها بدر، كانتْ غايةً في الرّوعة، اندهش من التّفاصيل الّتي تمتلئ بها، حاول أنْ يستوعبَ متى فعل ذلكَ؛ لا بُدّ أنّه رسمها في اللّيل، في حين كانت سلوى تصرخ في وجهه كان هو مُنشغِلاً بموهبته وبهذه العلاقة الاستثنائيّة بينه وبين الفرشاة والألوان. اقتربَ أكثر من الجدار، كانتْ الصّورة تُظهر (ليلاس) في الهيئة الّتي رآها بدر فيها أوّل مرّة، لكنّه اتّكأ على الجانب الأيسر المحروق من الصّورة الّتي انطبعتْ في ذهنه في اللّقاء الأوّل؛ إنّه إرثُ اللّقاء الأوّل، والنّظرة الأولى، والدّهشة الآسِرة!! كانتْ تدفنُ رأسها داخل بلوزتها الأرجوانيّة، وقد تدلّتْ ضفيرةٌ من شعرها الأشقر خلفَ ظهرها، وذراعها المكشوفة تُظهِر آثار الحرق البليغة كما هي، كفّها السّليمة كانتْ تقبضُ بالإبهام والسّبّابة على طرف البلوزة وهي تشدّها على عينِها اليُسرى في هيئةٍ توحي بالبُكاء أو الشّروع به وقد ظهرتْ من الأعلى صفحةُ وجهها الشّوهاء، كانَ قد رسمها على الحائط بحجمها الحقيقيّ، ولو وقفتْ ليلاس بتلك الهيئة أمام الحائط لما استطعتَ أنْ تفرّق بينَ اللّوحة والإنسان، سيبدوان

متطابِقَين أشدّ التّطابُق . أمّا البشريّ الآخَر الّذي كان يظهر في اللّوحة ، فقد كان هو!! بدر ؛ يقف قُبالَتها لابِسًا كَنزته الزّرقاء السّماوية ذات القَبّة السُّباعيّة وقد انفتح السّحّابُ القصير قليلاً من الأعلى عند التقاء القَبّة ، وبوجهه الحليبيّ ، وشعره النّاعم الّذي تتدلّى منه غُرّة فوق الجبهة العريضة ، وبشفتَين متهدّلتَين تنطقان بالتّعاطُف ، وعينَين تلمعان بالأسى والحُبّ معًا بدا بدر حقيقيًا على نحوٍ مُدهِش ، كانت نظرته الحزينة تقول شيئًا له علاقةٌ بدَفْقٍ من المشاعر الّتي تنمو في القلبِ على غفلةٍ من الآخَرين . اقتربَ جلال من اللّوحة أكثر ، كانتْ رائحة الألوان تُظهر أنّها طازَجة ، وبقايا البُقع الّتي تنتشر على الأرض تدلّ على ذلك . والسّلّم الّذي استخدمه بدر ليرسُم سقفَ البيت الخالي أوّل ما حضرتْ ليلاس وسميرة إلى هنا يشهد بذلك أيضًا! صرخَ بصوتٍ انفجر فجأةً كأنّما كان قد حُبِسَ لأمدٍ بعيد : «سلوى . . . سلوى» . هُرِعت من غرفة النّوم على صُراخه ، كانتْ تتمطّى على الجهة الأخرى من الممرّ وهي تهتف : «لماذا تصرخ بهذا الشّكل ، ما الّذي يحدث؟!» . أشارَ إلى اللّوحة وهو واقفٌ مكانه ، ثُمّ دعاها بإشارةٍ من يده كي تقترب ، حينَ استوعبت المشهد من خلال عينَيها النعساوَين ندّتْ منها صرخةٌ مبحوحة ، وضعتْ باطنَ كفّيها على فمها لتصدّ ما تبقّى منها ، وغمرتْها موجةٌ طاغيةٌ من السّرور ، كانت اللّوحةُ ناطِقة ، لم يجتمعْ هذا الكمّ من المشاعر البادية في الوجوه والعيون في أيّ لوحةٍ من اللّوحات السّابقة الّتي رسمها ، همّتْ بأنْ تركضَ باتّجاه غرفةِ ابنها وتحتضنه طويلاً ، لكنّه وفّر عليها ذلك ، كان يقفُ بنظرته السّاهمة على أوّل الممرّ ، يداه المُلوّثتان بالأصباغ كانتا ما تزالان شاهدَتين على أنّه سهر اللّيلَ بطوله حتّى هذه اللّحظة لكي يُتمّها ، أمّا

كنزته الزّرقاء فبدا أنّه لبسها لكي يرسمَ فيها نفسه . قلّص المسافةَ بينه وبينَ أبويه بخطوات هادئة ، ركضتْ نحوه سلوى ، لفّت ذراعَيها حول كتفَيه بقوّة ، وراحتْ تلثمُ رأسه ، وتهتف : «لقد كبرتَ يا حبيبي . . . أنتَ فنّان ساحر . . . سأجعل العالَم يعرف كم أنت موهوب» . استسلم لعاطفته الدّفّاقة ، فيما كانت الدّموع تتهاوى على خدّيها وخدّي جلال . «هل يُمكن أنْ نقول إنّه يُكنّ لها مشاعر مختلفة» . سألتْه . أجابها : «إنّه ما يزال في الرّابعة عشرة ، وهي في العاشرة . . . إنّها مجرّد مشاعر طفوليّة» . «أحدس أنّ الأمر أبعدُ من ذلك» . «في هذه الحالة حدس الأنثى أقوى» .

لا يزال يحتفظ بسيّارة المرسيدس القديمة ، نوعٌ من العلاقة بينهما لا يُمكن تفسيره يدفعه ألاّ يتخلّى عنها ، فكّر : إذا كانتْ علاقةٌ من المودّة نشأتْ بينه وبين السّيّارة الّتي هي كومةٌ من الحديد ، فلماذا لا تنشأ مثل هذه العلاقات الودودة بين البشر أنفسِهم؟! وابنه؟! لقد كبر ، لم يعدْ ذلك الطّفل ، إنّه إنْ كانَ لا يستطيعُ أنْ يعبّر عن نفسه بالكلام ، فلا علاقةَ بينَ ندرة الكلمات القادر على النّطقِ بها وبين مشاعره ، المشاعر إنْ لم تجدْ لها سبيلاً إلى الإفصاح عن طريق البوح فستجد ألفَ طريقةٍ أخرى ، الرّسم في حالة ابنه إحدى هذه الطّرق الألف ، لقد قال ذلك عبر عَينَين ودودَتين ، مَنْ يدري كيفَ يُمكن أنْ يقول (إنّه يحبّها) بطريقة أخرى . . . كفّ عن استرساله في خواطره لحظاتٍ ثُمّ تابع : سنرى . . . أنا مُتشوّقٌ إلى اللّوحةِ القادمة .

«إنّها في العاشرة تقريبًا تستيقظُ في اللّيل فجأةً ، وتبدأ بالصّراخ بشكلٍ مُخيف ، كانتْ تُخبّئ فيما مضى سكّينًا تحتَ رأسها ، استطعْنا أنْ نُبعدَ السّكاكين عن محيطها ومُتناول أيديها ، فكّفتْ عن البحث ،

لكنّها ما زالتْ تستيقظ كلّ ليلة لتبدأ صراخَها» . قال جلال وهو يجلسُ عن يمين الدّكتور خالد القابع خلف مكتبه الأبيض ونظّارته السّميكة . أجابه بصوت واثق وهو يرفع النّظارة عن عينَيه ويضعها على المكتب أمامه : «أعيدوا وضعاً السّكّين تحت وسادتها» . صدمت الإجابة جلال ، عدّل من جلسته ، وسأل متعجّبًا : «نُعيد وضع السّكّين تحت وسادتها!!» . «بأنفُسكم» . «ماذا تقول يا دكتور؟!» . «بالطّبع سكّينًا من البلاستيك يُشبه السّكّين الحقيقيّة» قال ذلك وهو يضحك ، ثمّ تابع : «استمرارها في الاستيقاظ والصّراخ جزءٌ منه سببه فُقدانها للسّكّين تحت مخدّتها ، السّكّين في هذه الحالة تملك خاصّيّة التّفريغ ، تفرّغ جزءاً من الرّعب المختزن في خيالها عن طريقها ، لكنّها حينَ لا تجدها هناك ، تتحوّل طاقة التّفريغ كلّها عبر الصُّراخ . . . جرّبوا ذلك معها ، ودعْني أرَ النّتيجة . . . سنفعل ذلك معها لمدّة ثلاثة أشهر ، وسنراقبها أثناء ذلك» .

لم يُدخِل زوجته في قصّة السّكّين ، كان يبدو أنّ الأمور تسير على غيرِ ما يريدان ، هناك في قلب بدر شيء ، وهناك في ذاكرة ليلاس أشياء . الانسحاب لصالح الطّرفَين قد يكون الحلّ الأمثل من فرضِ الوصاية ، أو التّكهّن بالنّتائج حسب القناعات الّتي هي ليسَتْ قناعات الآخرين المعنيّين . جميلٌ أنْ يخرج الإنسان من الكهف ليرى السّماء . تَخلَّ عن آرائك المُقيَّدة لصالح تلك المُطلَقة!!

في اللّيلة الّتي تسبق الذّهاب إلى الطّبيب النّفسيّ استأذنها أنْ يُوصلهما إلى هناك . فزّتْ من الأريكة الّتي كانتْ تستلقي فوقها ، واعتدلتْ لتقول بلهجة الشّكّ وهي تهزّ أصبع السّبّابة في وجه جلال : «ستركب معك في سيّارتك؟!» . أجابها بصوتِ طفلٍ يرتكبُ خطأً

شنيعًا : «نعم» . صرختْ : «لا . . . لا يُمكن ، اذهبْ بليلاس وحدها» . «يا سلوى ؛ إنّها لا تستطيع أنْ تتدبّر أمورها بنفسها» . «إذًا هكذا تريد ؛ أنْ تتدبّرا أمرها معًا . . . إنّكَ تسعَى بكلّ وسيلةٍ لكي تجلسَ معك في السيّارة ويخلو لكما الجوّ ، وتبدأ بمغازلتها» . «كُفّي عن هذا العبث يا امرأة» . «الأولى أنْ تكفّ أنتَ عنه ، هل تحسبني عمياء ، أنا أرى الشّوق والوله في عينَيك وأنتَ تنظرُ إليها ، كلّما جاءتْ هذه الملعونة لكي تطلبَ صحنًا أو خُبزًا أو مِلحًا فتحتَ أنتَ لها الباب ، وانهالَ عليها كرمُكَ الحاتميّ . . . يا ويلتي . . لا أدري أيّ مجنونةٍ أنا؟! كيفَ وافقتُ على أنْ تسكنَ هنا في جوارِنا . . . كنتُ مضروبةً في عقلي حينَ سمحتُ لكَ أنْ تفعل هذا . . . لكنْ ما علينا . . . أخطأت وأريد أنْ أُصحّح خطئي» . هدّأتْ من زوبعتها قليلاً ، سألها مُستطلِعًا : «ماذا تقصدين؟!» . «عليها أنْ ترحل من هنا اليوم قبلَ غدٍ» . «هل جننتِ؟!» . «كنتُ ، والآن قد عقلت . . . سترحل . . . يعني سترحل» . «لا يُمكننا فِعل ذلك؟!» . «بالطّبع ؛ لا يُمكنكَ فِعلُ ذلك ؛ لأنّها حبيبةُ القلب» . «ألا يُمكن أنْ ننتهي من الموضوع؟!» . «سننتهي من الموضوعِ برحيلها» . «لن ترحل» . «أنتَ تريد أنْ تتحدّاني!!» . «لا . . . لا . . . لا يُمكن أن أتحدّى واحدةً مثلكِ ، لكنّ ذلك سيسيءُ إلى مشاعر بدر ، وأنتِ تعرفين أنّه يحبّ ابنتها» . رمتْ ذراعَيها حولَها مُستسلمةً ، كادتْ أنْ تبكي من القهر ، فعلتْها ؛ شدّتْ شعرَها ، وأطلقتْ صرخةَ غيظٍ خرجتْ مطحونةً من بين أسنانِها ، فيما راح جلال يرمقها بنظرةِ المُنتصر .

(٤٥)
لمسةٌ واحدةٌ صادقةٌ قادرةٌ على تحويل الصّحراء إلى جنّة وارفة

في ظهرِ يوم بعدَ أسبوع من ذلك الحِوار ، طرقتْ بابَ البيت . نظرتْ سلوى من عينِ الباب ، فرأتْها واقفةً تنتظر ، كانتْ مكشوفةَ الذّراعَين ، وتندلقُ من تحتِ أصابعها بعضُ قطع العجين الصّغيرة . ضربتْ بكفّها على صدرها : «المقصوفة لا تتعلّم . . . قلتُ لها ألفَ مرّة ألاّ تطرق بابَنا أبدًا!! لماذا لا تفهم؟! هل تريدُ أنْ تسرقَ زوجي منّي ، أنا أعرفُ كيفَ سأتدبّر الموضوع» . مدّتْ يدها بعصبيّة إلى الباب ففتحتْه بسرعة ، انخلع قلبُ سميرة لانفتاح الباب بهذه الطّريقة ، ولصوتِ سلوى الّذي باغتَها بكلمةٍ جارحة : «وَقِحة» . وقبلَ أنْ تبلع المُفاجأة كانت أكفّ سلوى تنهال بصَفعاتٍ حادّةٍ على وجهها ، تراجعتْ إلى الوراء وهي تحاول أنْ تستوعبَ ما حدث ، لكنّ الصّفعات المتتالية لم تتركْ لها تلك الفرصة ، وجدتْ نفسَها في لحظةٍ خاطفة بلا غطاء الرّأس ، كانتْ ذراعٌ تمتدّ إلى الشّعر ، حينَها بدأَ نوعٌ فريدٌ من العِراك الوحشيّ ؛ انهالتِ اللّكمات ، وتطايرتْ أحذية ، ونُتِفتْ شعورٌ سبحتْ في الفُسحة بين الشُّقّتَين ، وتعالتِ الأصوات ، وراحتِ الشّتائم المُتبادلة تصكّ الأسماع ، قالتْ لها : «تستحقّون الموت ، كان عليه أنْ يقصفكم بالنّوويّ ليتخلّص منكم ، ليس من قليلٍ ما حدث معكم في سوريّة» . «نستحقّ الموت لأنّنا لجأنا إليكم» . «انظري كيف يسحقكم كالفئران» .

«إنّنا صامدون طوال هذه السّنين رغم كلّ شيء، لو كنتم مكاننا لما استطعتم أنْ تصمدوا يومًا واحدًا». وهُرِع الجيران على الأصوات. «وَقِحة». «قليلة أدب». «تظنّين أنّه بغمزتَين سيسقط في حضنك، إنّه رجل وليس ولدٌ يا قليلة الأصل». «اشبعي به يا عجوز». «أنا عجوز يا أمّ قرون؟!». «لو لم تكوني عجوزًا لما فكّر بسواكِ». طعنتْها الجملة الأخيرة تمامًا، فلم تتمالك أعصابَها، نظرتْ حواليها تبحثُ عن شيءٍ حادّ تكسر به رأسَها، فلم تجد، دارتْ يمنةً ويسرةً كالمجنونة، دخلتِ البيت وهي تصرخ: «أنا سأريك يا بنت الفلتانة...» وتوجهتْ إلى المَطبخ، وجدتْ في وجهها مجموعةً من السّكاكين ومشبكًا للّحم، مالتْ نحو السّكاكين بلا وعي، ثُمّ عدلتْ إلى المشبك، حملتْه بين يديها، كانَ ثقيلاً، هزّته في الهواء وهي تشدّ على مقبضه بقوّة لتتأكّد من أنّه سيكونُ ناجعًا، ومضتْ، كان بابُ شقّتها لا يزال مفتوحًا، وقد تجمّع أمامه عددٌ من الجيران يستطلعون الأمر، لم يُوقِفْها منظرهم وهم يسألون: «ماذا حدث يا أمّ بدر... ماذا حدث؟!». كانتْ سميرة قد دخلتْ إلى شقّتها وأقفلتْ الباب، تجاوزتْ من كان في طريقها من الجيران وراحت تدقّ على الباب بالمشبك الّذي تحمله، وهي تصرخ: «افتحي يا سافلة». بقيتْ لمرّات تصرخ دون أنْ تسمعَ شيئًا من الطّرف الآخر، حاولتْ بعض الجارات تهدِئتها، كانتْ أعصابُها قد استُهلِكتْ تمامًا، تهادَى جِذعها وهي تكرّ راجعة، ارتختْ يداها وسقط المشبك منها، كانتْ تترنّح لولا أنّها صارتْ في شقّتها، أغلقتْ على نفسِها الباب، ورمتْ جسدها المُتهاوي على أقربِ أريكة وراحتْ تنتحب.

في الدّاخل في غرفته، كان يبدو هادِئًا، كأنّ كلّ هذه الضّجّة الّتي حدثتْ حوله لا تعنيه في شيء، إنّه يستعدّ لمغامرةٍ جديدة، كانَ

يخلطُ الألوان ، ويرفع الفرشاة من الدلو ، يضرب بها لوحةً بيضاء مُثبّتة على المرسم ، ويراقب درجـةَ اللّون ، ويُعـيـدُ الكرَة إذا لـم تصلْ إلى المستوى الّذي يريد ، فإذا انتهى من لونٍ أودعه في علبةٍ خاصّةٍ به ، ثُمّ انتقلَ إلى مزج لونٍ آخَر ، لأيّ شيءٍ كـانَ يُخطّط ، لا شيءَ يُمكنُ أنْ يقوله في أيّ مكانٍ باستثناء ذلك المكان ؛ الجدار اللّوحة ، اللّغة الّتي يُتقنها أكثرَ من أيّ لغةٍ أخرى .

حينَ عادَ من عمله ، كان الشّارع الّذي يعيشُ فيه قد سمع بما حدث ، لم يُصدّقْ ، ذُهِلَ حينَ روتْ له التّفاصيل ، أراد أنْ يُكذّب كلّ ما روتْ ، تمنّى لو أنّ هذا كان حلمًا ، أو حديثَ خُرافة ، لكنّها زادتْ عليه بقولها : «وسأقتلها إنْ لم ترحل ، عليكَ أنْ تحذّرها ، وأنْ تطلبَ منها أنْ تغادر جبلَ الحُسين بأكلمه ، وإلاّ فسألحقها إلى كلّ شبرٍ فيه ، وسأبحثُ عنها حتّى أجدها وأقضي عليها» . «إنّها امرأةٌ بسيطةٌ يا سلوى ، وأنتِ لا تستحقّين أنْ تضعي نفسكِ في هذا الموقف» . انفجرتْ في وجهه باكِيةً : «ما زلتَ تُدافعُ عنها . . . إنّها ساقِطة» . «حرامٌ علينا أنْ نخوضَ في أعراضِ النّاس . . . كُفّي لِسانَكِ عن هذا» . «سأفعل إذا ذهبتَ إليها الآن وطلبتَ منها ألاّ تُرينا وجهها بعدَ اليوم» . كانَ يعرفُ أنّه لا يستطيعُ أنْ يقول لها ذلك ، أشياء كثيرة تمنعه . في لحظة صدق مع نفسه حاول أنْ يقترب من هذه الأشياء . هل لأنّه أشدّ خجلاً من أنْ يطلبَ ذلك من امرأةٍ آواها هي وهذه اليتيمة ، وأسدى إليهما معروفًا تمنعه المروءة من أنْ ينتزعه هكذا دونَ سابقِ إنذار؟! أم لأنّه يُدرك أنّهما لن تجدا مأوىً غير الّذي وفّره هو لهما ، ويخافُ عليهما أنْ يُضيفَ إلى حياتهما مُصيبةً فوقَ مصائبهما الّتي لا تُحصَى!! أمْ لأنّه أحبّ ليلاس كما لو كانتْ من صُلبه ولا يستطيع أنْ يتخلّى عن طفلةٍ

يُمكنُ أن تُرمَى في الشّارع بسبب ادّعاءات واهية بين امرأتين؟! أمْ لشيءٍ آخَر؟! هل هناك سببٌ غير هذه الأسباب الّتي طرحها على نفسه للتّو؟! صمتَ ليسمعَ الإجابة . سمحَ للإنسان فيه أنْ يغوصَ أكثرَ في قلبِه ؛ هل يُحبّها بالفِعل ، وهل شكوكُ امرأته في محلّها؟! هل كان لا يقوَى على إبعادها عن طريقه لأنّه لا يحتملُ ذلك بالفعل ، ولا يحتمل أن يفقدها؟! وإذًا فما الّذي ذهبَ به إلى ساحتِها تاركًا ساحةَ مَنْ تحمّلتْه وتحمّلتْ ابنه بدرًا الّذي ضحّتْ بكلّ شيءٍ من أجل أنْ تظلّ إلى جانِبه ، وتعمل على عِلاجه من اضطرابه المُزمِن مذ أربعةَ عشر عامًا خالية ، لماذا يعمد إلى نِسيان فضلها طوال هذه السّنين؟! أيّ شيءٍ هذا الّذي يُمكنُ له أنْ يُميلَ قلبَه وهو النّاضج والواعي والعارف إلى امرأةٍ عبرتْ عشرةَ مَنافٍ لتحطّ بها الرّحال عند المنفَى الأخير في الأردنّ ، ولترمي بها الأقدار في شقّةٍ مقابلةٍ لشقّته ، شُقّةٍ ربّما تطلّ على جانبٍ ما غير مَطروق من قلبه!!

قالتْ له حينَ بدأ يرتاد عيادة الدّكتور خالد للطّبّ النّفسيّ : «الملعونة تبقَى في شقّتها ، وأنا أذهبُ معكَ ومع ليلاس إلى العِيادة» . «وبدر؟!» . «يرافِقنا ، يجلس في الخلف إلى جِوارها» . «هل هذه فِكرةٌ حسنة ، ربّما من الأفضل أنْ تتّصلي بإنصاف لتأتي إلى البيت من أجلِ رعايته» . «إنصاف لم تعدْ تقوى على ذلك كثيرًا ، سِنّها الّتي كبرتْ ، وحُزنها على زوجها ، ووحدتها ، كلّ ذلك أهرمها سريعًا في الأيّام الأخيرة ، ليسَ من اللاّئق أنْ نتعبَها معنا أكثرَ من ذلك . . ثُمّ . . . ثُمّ إنّني أريدُ أنْ يجلسَ إلى جانِبها ، أظنّه يرغبُ بذلك» . ظلّ صامتًا عرف أنّها أطاحتْ بكلّ مشاريعه ، كانتْ قد قضتْ تمامًا على كلّ رَغبةٍ في ألاّ تفعل حين أتمّتْ لِبْسَ ثيابها استِعدادًا للخروج منذ

الصّباح الباكر ، وأردفتْ : «هيّا ماذا تنتظر ؛ لقد تأخّرنا على موعد الطّبيب!!» .

لم يكنْ بحاجة شديدة هذه المرّة ليسترق النّظر عبر المرآة . في الخلف ، كانتْ ليلاس تنظرُ عبر النّافذة إلى الحياة الصّاخبة الّتي بدأ الجبل يضجّ بها ، وهو؟ كان شقّها الأيسر المحروق قريبًا منه ، أحسّ بها ؛ بهذا النّداء الإلهيّ المُركّب في النّفوس القادر على أنْ يرتقي بالرّوح في رقود الجسد . كان ينظرُ بعيون قلبه وروحه ، رآه كما لو كان حاضرًا تمامًا!! رأى الصّاروخ الأعمى ، مزّقَ السّيّارتين ، طار فؤادُه معها وهي تحلّق في سماءٍ بعيدة ، شمّ رائحة الدُّخان ، زكمتْ أنفه رائحةُ الشّواء البشريّ ، ركضَ نحوها يريدُ أنْ يحملها بينَ ذراعَيه ، حجبه عنها دخانٌ كثيفٌ ، تاه في تلافيفه ، حينَ انجلى الدُّخان لم يجدْها هناك ، ووجد نفسه ضائعًا ، استيقظَ من خيالاته ، بكى ، نزلتِ الدّموع من عينَيه ، كانتِ المرّة الأولى الّتي يبكي فيها ، لأوّل مرّةٍ يحسّ كيف يسري تيّارٌ غامضٌ من الشّعور في جوارحه فيدفع بالدّموع لتصعدَ إلى عَينَيه . جفل أبوه وهو يرى وجهه المطبوع على المرآة خاشعًا وحبّات الدّمع تنزل ببطءٍ على خدَّيه ، أرادَ أنْ يوقفَ السّيّارة ، لكنّه لم يفعل ، رأى ابنه ينحرفُ بشقّه الأيمن تُجاهها ، يده تُلامِسُ الجانب المحروق من وجهها ، مرّت الكفّ الوادعة مرور الغمام على الجبهة ، ثُمّ هبطتْ إلى الجانب البُنّيّ الأملس كأنّما تستنهضُ فيه حياةً غادرتْ منذ زمنٍ سحيق ، حياة لم يتركْ لها الموت فرصةً لتعود!! ماذا كان يفعل إذًا؟! هل كان يعتذر لها؟! أمْ يمسحُ على الجروح لتشفى؟! أمْ يردم آخَر الحُفَر الحاجزة بينهما بسبب نزاعات المرأتين!! لا أحدَ كان يدري على وجه الدّقّة ماذا يحدث؟! وهي؟! فكّ الخدر الشّفيف في يده الحانية عُقدة اللّسان ،

شعرتْ بأنّ جروحها تغور، تغور بعيدًا، وأنّها تختفي. وأنّها تنتقل من أودية الموت والجحيم إلى حدائق الحياة البهيجة، اقتربتْ إلى جهته قليلاً، أرادتْ أن تنظر في المرآة لتتأكّد من أنّ ما شعرتْ به تحوّل إلى حقيقة، ظهرتْ على المرآةِ لجلال، كان وجهها المحروق هو هو لكنّه كان مُضيئًا، ومُشرِقًا، كطائرٍ حبيسٍ اهتدَى إلى صوته المفقود الضّائع في أصوات الانفجارات، تخلّى جلال عن المرآة لصالحِها، رأتْ وجهها، لقد تبدّل، لم يعدْ منقسِمًا على نفسه، تخلّى عن نصفه الأشوه لصالح النّصف السّاحِر، هل من المعقول أنّ لمسةً واحدةً صادقةً قادرةٌ على تحويل الصّحراء إلى جنّة وارفة، وقادرةٌ على أن تزرع الأمل في حدائق اليأس؟! ما الحاجةُ إذاً إلى طبيبٍ نفسيّ وهو موجود؟!

في العيادة، قال الدّكتور خالد: «إنّها تُظهِر تحسُّنًا سريعًا... إذا بدأتِ الكلام بشكلٍ طبيعيّ، ولم تُصبْها حالاتٌ من الخَرَس المُؤقّت فستنتهي المشكلة بسرعة». «كيفَ سيُساعِدها الكلام يا دكتور؟!». سألتْ سلوى. «المريض يحتاج إلى تفريغ شعوريّ لكي يُشفَى، يُمكن أنْ يتمّ ذلك عبرَ الحكي، ويُمكن أنْ يتمَّ بوسائل أخرى كالرّسم، أو المشي، أو الرّفقة، أو الانهِماك في عملٍ مُفيد، أو وسائل أخرى».

(٤٦)
العالَم محتاجٌ إلى هذه القلوب الطَّاهرة لينعم بالسَّلام

كانتْ تنتظرهم على الباب حين عادوا . رمقتْها سلوى أوّل ما وقعتْ عينُها عليها بنظرةِ ازدراء . شعرتْ بغيظٍ شديدٍ تُجاهها ، كانتْ تريدُ أنْ تخمشَ وجهها ، أنْ تشدّ لها شعرها ، أنْ تسحبها من عنقها وترميها على الأرض وتبدأ بتوجيه اللكمات إلى أنفها حتّى يتفجّر بالدّم ويسيلَ خطوطًا على الوجه ، وتفقد الوعي ، ثُمّ تقوم من فوقها وهي تلهث ، وقد ارتاحت بعض الشّيء ، وأطفأت قليلاً من النّار الّتي تلتهبُ في أعماقها كلّما رأتْها . لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث ، ظلّ حُرًا في الخيال الواسع لسلوى ، وإنْ تمنّتْ لو أنّه يتحوّل إلى حقيقةٍ في المرّة القادمة!!

قال جلال : «سنتناول الطّعام معًا» . شدّتْه سلوى من كمّ قميصه إليها وهمستْ في أذنه : «لم أطبخ بعد» . أجابها بهمسةٍ مُشابهة : «سنأكلُ في بيتها ، ها هي رائحة الطّعام تتسلّل من الدّاخل» . ثارَ بركانٌ في داخلها : «من جديدٍ تتعمّد إغاظتي» . «إذًا تطبخين أنت وننتظر» . «لا أريدها أنْ تأكل معي على طاولةٍ واحدةٍ ، هل فهمت؟!» . «تمامًا» . «هيّا بنا إذًا» . قالتْ ذلك وهي تدفعه بباطن كفّها من كتفه وتسير معه إلى باب شقّتهما ، توقّف ليُحاول محاولةً أخيرة : «هل تأذنين لليلاس أنْ تبقَى مع بدر في شقّتنا ريثما تُجهّزين الطّعام» . زمّتْ

شفتَيها ، وهزّتْ رأسَها : «يُمكن إذا سمحتْ خالتها بذلك» . كانتْ تبعثر الكلمات بعد أنْ تضغط عليها ، أجابتْها سميرة : «بإمكانكم أنْ تسألوها هي» . خفضتْ ليلاس رأسها ثُمّ رفعتْ عينَيها إلى بدر ، وهمستْ : «نعم» .

قالتْ لها سلوى بعد شهرَين من ذلك وهما تتشاركان المصعد عائدتَين من الخارج بصوت تقريريّ مُباغت : «اخرجي من حياتي» . «لم أدخلْها يومًا لأخرجَ منها» ردّتْ . «أنت تتقنين إثارة أعصابي» . «أنتِ تثيرين أعصابَكِ بنفسك ، عندكَ ابنٌ رائعٌ ؛ بدل أنْ تهتمّي به تفتعلين معارك لا طائل من ورائها» . «دعي ابني جانبًا ، ما علاقته فيما يحدث بيننا؟!» . «هو أصل المشكلة» . «أصلُ المشكلة؟! كيف!!» . «أنتِ تهتمّين به ، وهو يهتمّ بليلاس ، ولكنّك تضعين بينه وبين هذا الاهتمام حاجزًا بسبب عنادك وموقفك منّي» . «أنا أعرفُ ما يريده ابني» . «لا يبدو أنّكِ تعرفين ما يريدُه حقًّا» . ضيّقتْ عينَيها اندهاشًا وغضبًا ، كان المصعد قد انفتح على الدّور الثّاني ، خرجتا ، توجّهتْ سلوى إلى باب الشّقّة ، أدارت المفتاح في القفل ، لفّتْ باتّجاه سميرة لتقول : «مُذ دخلت حياتنا أفسدْتِها على نحوٍ كبير . . . آخ بس» وحرّكتْ يدَها في الهواء حنقًا . «زوجُكِ هو الّذي اختار لنا أنْ نخرج من المخيّم ، وقدومنا إلى هنا لو كنتِ تفكّرين بطريقةٍ صحيحة كان أفضلَ شيءٍ حدثَ لكِ ولبدر ، لقد خرجَ من قوقعته حين أحبّها . . . لا يُمكنكِ أنْ تُنكري ذلك ، كلّ محاولاتكِ السّابقة في أن تدمجيه في المجتمع وتجدي له أصدقاء ذهبتْ أدراج الرّياح ، بل وزادتْ عُزلته ووحدته ، وحدها ليلاس استطاعتْ أنْ تكسر ذلك الحاجز ، عليكِ أنْ تحمدي الله على وجودنا ، لا أنْ تستمرّي في تحقيري وشتمي . . .»

توقّفتْ قليلاً ، انخفضَ صوتُها ، ورقّ ، وصار متهدّلاً وهي تتابع : «أتظنّين أنّنا خرجنا من بلادنا راغبين ، لقد قاومنا الموت كثيرًا قبلَ أنْ يضطرّنا إلى النّزوح ، ورأيناه ألفَ مرّةٍ في الطّرقات ، وحاولنا الحياةَ بعيدًا عنه ، أو معه ، لكنّنا في النّهاية بشر ، قد نكون جبناء ، قد نكون آثرنا حياةَ الذّلّ على الموت ، ولكنّنا لسنا متسوّلين ، ولا نستحقّ الشّفقة لِنُعامَل بهذه الطّريقة ، ولو استطعتُ أنْ أعود إلى بلدي اليوم قبلَ غد لفعلتُ ، ولو كانتْ عودةً على أنقاض البيوت المهجورة ، لقد صدقوا حين قالوا إنّ الغربة مُرّة» . ثمّ تهدّج صوتُها وبكتْ ، شعرتْ سلوى بالتّعاطف معها ، كادتْ تقترب منها وتمسحَ دموعها بأصابعها ، وتحتضنها لتخفّف عنها ، همّتْ بذلك فعلاً مشتْ خطوةً باتّجاهها لكنّها تسمّرتْ مكانها ، كانتْ موجة التّعاطف قد انحسرتْ تمامًا ، هتفتْ في داخلها : «إنّها ممثّلة بارعة ، ها هي تحاول استدرار عاطفتي ، ربّما فعلتْ ذلك مع زوجي في السّابق ، ولذلك حاول بكلّ الطّرق ألاّ يُبعدها من هنا ، آه كم هي فتّانة ، إنّها تملكُ لِسانًا قادِرًا على الإقناع ، لن أسمح لقلبي أنْ يُصدّق هذه المُخادِعة» . جمدتْ في مكانها . كانتْ سميرة تنظر في عينَي سلوى تستطلع ما تريدُ قوله ، مرّتْ لحظاتٌ . قالتْ سلوى : «اسمعي . . من المرجّح أنّ الأمور لا يُمكنُ أنْ تُسوّى بيننا ، نحن لا نصلح أنْ نكون في مكانٍ واحدٍ ؛ أنتِ زيتٌ وأنا نار ، ووجودنا معًا سيحرقُ كلّ شيء» .

في اللّيل ، تقلّبتْ على فِراشها كثيرًا ، حاصرتْها الهواجس : «معها حقّ هذه الملعونة في مسألة بدر ، لقد تغيّر كثيرًا بسببها . . . لكنّ هذه الكذّابة لم تقل إنّ ليلاس أيضًا تحسّنتْ بسبب وجود بدر ، لقد صارتْ تتحدّث بشكلٍ طبيعيّ تقريبًا ، قصّة السّكّين لم تعدْ موجودة ، آخ . . .

لو تذكّرتُ ذلك في حوار الظّهر اليوم لقلته ، كيفَ نسيت ذلك ، يا لي من حمقاء . . . نعم ليلاس تغيّرت كثيرًا بسببه ، هل هي الأقدار الّتي بعثتْ بها من هناك من الشّمال لتعبر كلّ هذه المسافات إلينا وتكونَ الهديّة السّماويّة لبدر؟! ربّما . . . لكنْ عليها أيضًا أنْ تتذكّر ما فعلْناه من أجلها ومن أجل ابنتها ، كثيرٌ من البشر ينسَون ، يتذكّرون فقط ما يهمّهم ، يُتقِنون لعب دور الضّحيّة ، ويُشعِروننا بالذّنب تُجاههم لأنّنا لم نفعل لهم المزيد . . .» . تقلّبتْ أكثر ، كانتْ أحيانًا تندّ منها آهات بعد أنْ تحاور نفسَها وتسترجع الأحداث السّابقة ، وأحيانا تتلفّظ بكلماتٍ لا يُعرَف لها معنى . شعر بذلك جلال ، أراد أنْ يُحاورها ، يعرفُ كم صبرتْ ، يعرفُ أنّها قد تُستثار بسهولة ، وتغضب بسرعة ، لكنّها أمّ مُتفانية ، لن ينكر فضلها عليه وعلى بدر ، لنْ يُنكر أنّها صبرتْ على رحلاته في بلاد الله الواسعة شرقًا وغربًا باحِثًا عن الموجوعين والمحرومين في هذا العالَم من أجل أنْ يُقدّم لهم قلبَه وحُبّه قبلَ عِلاجه وأدويته ، يعرف أنّها في النّهاية ستسمح لهذا الماء المحبوس بين ليلاس وبدر أنْ يسيل ، وأنْ يُصبحا ثنائيًا لائِقًا ، هو أيضًا فكّر بذلك ، واطمأنّ إليه ، هو أيضًا رأى في وجود ليلاس في حياة بدر كنزًا ثمينًا ، وعليه أنْ يسعى إلى أنْ يعيشا معًا ، لا يدري بالضّبط هل يمكنهما أنْ يُصبحا زوجَين أم لا؟! لكنْ كُلّ شيءٍ ممكنٌ . حتّى المستحيل يستحيلُ فيصبح ممكنًا!!

كانتْ ما تزال تتقلّب في فراشها متظاهرةً بالنّوم ، يشعر بها ، يعرفها ، إنّها حبيبتُه على كلّ حال ، إنّها أثيرته ، جوهرته الّتي لن يفرّط بها ، بدأها بالقول : «للسّاهرين أسبابهم» تجاهلتْ عبارته الغامضة . أردفها : «ما الّذي منع النّوم عن عينَيك يا جميل؟!» . استدارت نحوه :

«ماذا تظن؟!» . «بدر؟!» . «ومَنْ غيره!!» . «إنّهما ملائمان» . «لكنّ وجودها يُفسد كلّ شيء» . قال لنفسه : «بدأتْ من جديد» . لكنّه كذلك يدرك أنّ هذه الطّبيعةَ فيها لن تتغيّر ، فسألها بودّ : «وماذا تقترحين؟!» . «لم أغيّر اقتراحي الأوّل ؛ ترحل» . «لن ترحل بدون ليلاس ، هل تتخيّلين نفسك ترحلين تاركةً وراءك بدر» . «كلاّ . . . كلاّ» . «وهي كذلك ، فكّري بها» . «وما الحلّ في رأيك؟!» . «سأرحل أنا» . «لا . . .لا . .» . «لديّ بعثةٌ ستتوجّه إلى حمص وحلب مع منظّمة الصّحّة العالَميّة» . «ستغادرني من جديد» . «لأعود إليكِ» . «كلاّ . .» . «إنّها فرصةٌ جيّدة من أجل أنْ تتعايشا ، وجودي بينكما هو الّذي أوغر صدرك تُجاهها ، برحيلي قد تردمين الحُفر الكثيرة الّتي تشكّلتْ بسبب ذلك ، قد تستطيعان معًا أنْ تجدا طريقةً للتّفاهم ، والأهمّ طريقةً للعيش ما بين ليلاس وبدر ، أنتما أقدر منّي على إيجاد هذه المنافذ» . «حقًا؟!» . «آمُل ذلك» . «وكم ستغيب في سوريّة مع البعثة» . «المُقرّر سنة ، لكنْ لا أحدَ يعرف كيفَ تتعامل الحرب مع الأيّام!» .

بعدَ صباحَين ، جهّزتْ له حقيبة السّفر وهي تبكي بصمت : «أمران أحلاهما مرّ» . قالتْ وهي ترتّب له ملابسه في الحقيبة . «نتألّم من أجل الآخرين ، لكنّنا نُشفَى من الدّاخل . أريدُ أنْ أعيشَ حياتي مُتصالحًا مع نفسي» . ظلّتْ تبكي بصمت . كان بدر يراقب المشهد واقِفًا وقفته المُعتادة أمام باب غرفته . كانَ هادئًا ودودًا . وجهٌ صافٍ ، وبعض الشّعرات يرتسمنْ في شاربه ، وتُفّاحة آدم بارزةٌ أسفل عنقه ، قالتْ وهي منهمكةٌ في ترتيب ما تبقّى من الأغراض : «إنّه محتاجك» . ردّ وهو يُشير إلى الجهة الأخرى : «إنّه محتاجٌ إليها أكثر

منّي . . . حاولي أنْ تُقدّمي بعضَ التّضحيات لأجله ، ليتني خبيرٌ اجتماعيٌ لكي أفهمكما ، لا يوجد أقدر من المرأة على فهم المرأة ، فحاولي أنْ ترتّبي مشاعرك على أساس الفهم لا على أساس موقفك منها ، والبوصلة هي هذا العبقريّ الواقف هناك ، فكّري به قبل كلّ شيء» . هزّتْ رأسها فتناثرتْ قطرات الدّمع على الحقيبة الّتي كانتْ قد أتمّت إعدادها . كانَ بدر قد دخل إلى غرفته وعادَ يحملُ مغلّفًا كبيرًا ، قدّمه إلى أبيه وهو يبتسم ، أخذه منه أبوه وعانقه ، لم يكنْ صعبًا عليه أنْ يعرف أنّه يحوي في الدّاخل بعضَ لوحاته ، لكنّه كان يجهل أيّ لوحاته اختار له لترافقه في سفره إلى الشّمال . قادتْ سلوى السّيّارة إلى وزارة الصّحّة حيثُ يتجمّع الوفد ليغادروا معًا ، قالتْ له في الطّريق وهي تنظر في المرآة إلى بدر الجالس بسكينةٍ في المقعد الخلفيّ : «لقد جعل لحياتي هدفًا» . أجابها وهو يشعر بالامتنان لها : « لم أكنْ لأتصوّر أنّ أحدنا يُمكن أنْ يهبَ الآخَر كلّ ما يملك حتّى عرفتُك» . في السّاحة الفسيحة أمام الوزارة توقّفت السّيّارة ، ترجّل منها جلال ، كانَ قد طُلِب منه أنْ يرأس البعثة ، حملَ حقيبته بنفسه ، وتوجّه إلى مجموعة من الأطبّاء ، من بعيدٍ بدَوا كما لو كانوا طيورًا مُهاجرة تستعدّ للتّحليقً في السّماء إلى البعيد . رمقتْهم سلوى بودّ وهي تستدير بسيّارتها عائدة ، هتفتْ وهي ترى ابتِهاجهم الطّفولي وتسمع ضحكاتهم العالية : «العالَم محتاجٌ إلى هذه القلوب الطّاهرة لينعم بالسّلام» .

(٤٧)
كلّ صعبٍ إلى هَوْن، وكلّ عسيرٍ إلى يسير

حدث ذلك التّحوّل عام ٢٠١٧ ، كان المُخيّم قد أُغلِق تمامًا ، لم يعدْ بإمكانه أنْ يستوعبَ المزيد إلاّ في حالاتٍ استثنائيّة ، لكنّه أيضًا تحوّل إلى ما يُشبه مكانًا دائمًا للإقامة ، سُمِحَ في الأعوام الأولى للاجئين بأنْ يبنوا مصطبةً أمام الخيمة الّتي يسكنون فيها على ألاّ تتجاوز مساحتها المُربّعة الأمتار الثلاثة ، ثُمّ طال الأمد ، فنُسِي العهد . شقّتْ لهم الدّولة بعض الطّرق الفرعيّة الأخرى بالإضافة إلى الطّريق الرّئيسيّة ، سمحتْ بإدخال الموادّ الخامّ دون أيّ رقابة من الإسمنت والطّوب والحديد والرّمل ، صار البناء مُمكنًا ، الطّوب سُمِحَ به في وقتٍ لاحق ، لكنّ البداية كانت في التّحوّل من الخيم البالية إلى الزّينكو المُولَع بالموسيقى المطريّة في ليالي الشّتاء القارسة والدّامسة . ثُمّ اضطرّت الدّولة إلى أنْ تتخلّى عن فكرةِ إغلاق المُخيّم بعدم قبول لاجئين جدد لصالح فكرة توسيعه ، إذ لم يكنْ بإمكانها أنْ توقف التدفّق البشريّ المتوالد بشكلٍ مُتسارع من الدّاخل ، فوجدتْ نفسها أمام خيارٍ لا يوجد له بديل ، فنزعت الشّيك الخارجيّ الّذي كان يحجز مئة ألفٍ من المُهاجرين في ما يُشبه السّجن الكبير واندفعتْ به خارجةً في الاتّجاهات الأربعة ، ثُمّ صار لِزامًا عليها بعد أنْ تضخّم العدد من جديد بسبب الأعراس الّتي لم تجد لها مكانًا خصبًا أكثر من هذا

المُخيّم الشّهير أنْ تخلع الحواجز والبوّابات ونقاط الحراسة وتمتدّ أفقيًا في الصّحراء الواسعة ، وحدث هذا فعلاً بمرور الأيّام في غفلةٍ من الحياة الّتي راحتْ تتغلّب على الشّقاء والموت ، تمدّد المُخيّم ضعفي مساحته الّتي كان عليها بعد ثماني سنوات من بداية أوّل خيمةٍ زُرِعت في هذه الرّمال اللاّهبة!!

كانت الدّفعة الأخيرة الّتي قُبِلت استثنائيًا في شهر آذار من عام ٢٠١٧ تتشكّل من مجموعةٍ من البنّائين المهرة ، والحِرفيّين الحاذقين . بعد ستّة أشهر من وجودهم في المُخيّم استغلّوا الانفراجة في بعض القوانين الصّارمة الخاصّة بالبناء ، فبدأت البيوت تظهر ، البيوت ذات الغرف الحقيقيّة والأبواب والشّبابيك ، وبدا كما لو أنّ الدّولة تتجّه إلى توطينهم اضطرارًا أو اختيارًا لا أحدَ يدري . قادَ مجموعة البنّائين لاجئٌ اسمه (خلدون) ، تبيّن لاحقًا أنّه كان مُقاتلاً حمل السّلاح منذ عام ٢٠١١ في الجبهات الشّماليّة ، ثُمّ لمّا أنهكتِ الحرب الأمل الّذي خرج من أجله تخلّى عنهما ، أدرك بعد أنْ أطلقَ آلاف الرّصاصات من رشّاشه ، ومئات قذائف الآر بي جي وعشرات صواريخ الكاتيوشا أنّه لم يكنْ يقاتلُ عدواً ظاهِرًا ، وأنّ تعدّد الأعداء والأصدقاء على حدّ سواء ضيّع بوصلته ، فتركها تتأرجح جهة الشّمال ويمّم جنوبًا باحِثًا عن ضوء جديد في عالَم يحترفُ عن جدارة قتل الشّمس والأمل والحياة . جاء ليتخلّى عنْ إرثٍ ثقيلٍ ركّبْته الحربُ على كتفَيه ، ويُكفّر عن أوزارٍ أثقل ناءتْ بها روحه ، جاء ليتوب في دُنيا لا يقبلُ غيرُ الله توبةَ أحدٍ فيها ، أدركَ بعد أكثر من ستّ سنوات أنّه متّهمٌ إنْ شاركَ في الحرب ، متّهم إنْ تركها ، ملعونٌ إنْ دعا إلى الثّورة على النّظام ، وملعونٌ إنْ لم يفعل ، وحتّى الوقوف بين المنزلتَين في وطنه كان يصمه بأنّه جبان لم

ينحزْ إلى أحدِ الفريقَين ، فقرّر أنْ ينزعَ قلبَه من وطنه ، أو وطنه من قلبِه حتّى يتخلّص من آثامٍ لم يكنْ له يدٌ فيها ، كلّ خطيئته أنّه وُلِدَ قدرًا في وطنٍ يحترق!!

فيما بعد قرّرت وزارة التّربية أنْ توسّع التّدريس في مدارس أُعدّتْ حديثًا ، وعقدتْ امتحانات التّوجيهيّ فيها ، وخصّصتْ حافلاتٍ لكي تنقل المقبولين إلى جامعاتهم . أمّا القادرون على العمل وكانوا كُثرًا فقد عملوا خارج المخيّم بأوقات دوام كاملة فتسرّبت الأموال إلى الدّاخل فانتعش المخيّم . وصار خليّةً من النّشاط ، وأتى بكلّ عجيبة .

بعد عشرين عامًا أخرى ، غيّرتِ الصّحراء جلدها ، بدا أنّها تخلّتْ عن فراغها الذّابح ، ورملها الأصفر ، إلى فضاءٍ مشغول ، وجناتٍ وعيون ، وفَيءٍ ظليل . اختفت لفظة المُخيّم البغيضة من القاموس ، ومُحيت من الاسم كأنّها كانتْ وهمًا ، واحتلّت هذه المدينة الصّحراوية مكانًا مرموقًا في الدّولة ، وأصبحت (الزّعتري) ثالث أكبر مدينة في الأردنّ . . .!!

قال له الطّبيب وهو يُعايِن ذراعه الدّامية جرّاء دخول طرف سيخٍ من الحديد فيها أثناء عمله في البناء : «الجُرحُ غائر ، ويحتاج إلى خياطة . . . سأبعثُ بكَ إلى مستشفى المفرق» . ردّ عليه خلدون : «خَيّطْهُ هنا» . «أنا لستُ مُخوّلاً بذلك» . «أنا سأفعل ، هل لديكَ إبرة؟!» . ردّ الطّبيب عليه مُتعجّبًا : «وهل ستخيطُ جرحكَ بنفسِك؟!» . «تعلّمتُ ذلك في الحرب ، جرحٌ مثل هذا لم أكنْ أفكّر فيه هناك ، يبدو أنّني فقدتُ أشياء كثيرة هنا» . «لا بأس ، سأنظّف لك الجرح بمساعدة الممرّض ، وأخيطه لك ، لكنْ ليسَ لدينا مخدّر» . ردّ عليه ببرود وهو ينظر إلى ذراعه : «لا يحتاج» . راحَ يطلبُ منه أنْ يخلع

قميصه، بان جذعه كاملاً. كان قويًا، مفتول العضلات، صلبًا كأنّه سُبِك سبكًا، في أعلى الكَتف وأسفل العنق رأى آثار حرق هناك، كان الجلدُ المنكمش المتجعّد لا يُشبه بقيّة الجسد المصبوب، أيقظ المشهدُ ذاكرة طبيب المخيّم، قال له بعد أنْ أنهى تنظيف الجرح، وهمّ بالخياطة: «يذكّرني هذا الحرق بفتاة صغيرة». ردّ عليه خلدون ساخِرًا: «ألم يذكّرك بغير فتاة صغيرة؟! كلّ الآلاف المتراكمة في هذا المخيّم ألم يمرّ عليك محروقًا سِواها، نحن جئنا من بلاد الأرض المحروقة، كان كلّ شيءٍ هناك يُدمن الحريق». «لا... هذه الفتاة كانت مميّزة، ما زلتُ أذكر عينَيها الزّرقاوَين، وشعرها الأشقر». انتبه خلدون قليلاً، حكّ بكفّه أسفل ذقنه، وسأل: «هل تتذكّر اسمها؟!». «بالطّبع، كان اسمُها ليلاس». فزّ خلدون من مكانه، حتّى إنّه لم يشعر بالإبرة الّتي غاصت في ذراعه المُصابة نتيجة هذه الاضطرابة الجسديّة: «هل أنتَ متأكّد؟!». «نعم، وماذا يعنيكَ أنتَ؟! هل تعرفها؟!». «لا... نعم... أعني لا أعرفها شخصيًا، ولكنّني أعرفها من الدّفتر». «أيّ دفتر، هل بدأتَ تهذي؟!». «كلاّ يا دكتور، كنتُ متأكّدًا أنّني سأصل إليها، لا شكّ في أنّها هي». «ما القصّة يا خلدون، قل لي هل هذه أحجية؟!».

في المساء كان الدّفتر ذو الجلدة الزّرقاء والثّنيات الكثيرة بين يدي الطّبيب، اتّصل بالبعثة الطّبيّة في مقرّ إقامتها في شمال حلب: «أريد أنْ أتحدّث إلى الدّكتور جلال». جاءه صوتُه على السّمّاعة في الطّرف الآخر حزينًا: «نعم، صديقي». «لديّ شيءٌ يخصّ ليلاس». «ماذا هنالك؟!». «قال لي خلدون وهو أحد اللاّجئين هنا، أنّ أخاها الّذي كان مُقاتِلاً معه بعثَ لها بدفتر ذي جلدةٍ زرقاء». «يا صديقي...

البشر هنا ينتهون، وأنتَ تحدّثني عن دفتر!!». «أفعل ذلك من باب الأمانة، ولكنّني أظنّ أنّه لو وقع بين يديك فستهتمّ بالأمر». «ماذا تعني؟!». «الدّفتر فيه توثيقٌ لكلّ الفظائع الّتي كانتْ تُرتَكب في الحرب... صحيح أنّ صفحاته الأولى مليئة بالأرقام والحسابات، وأنا لم أقرأه بالكامل، لكنّه يبدو شاهدًا على المرحلة». «لا بأس، تعرف بيتي، ليلاس وأمّها تسكنان الشّقّة المُقابلة يُمكنكَ أنْ توصله لهما».

في عصر اليوم التّالي طرق بابَ الشّقّة، انتظر طويلاً حتّى فتحَ له عجوز بدا أنّ العقود الثّمانية قد رَكِبت فوق كاهِلَيه فأثقلتْ حركته، كان محنيّ الظّهر، يتّكئ على عُكّاز، وصوته ضعيف لا يكاد يُسمع. لوهلة ظنّ الطّبيب أنّه أخطأ المكان فالتفتَ خلفه نحو شُقّة الدّكتور جلال، فوجد اسمه مطبوعًا فوق زرّ الجرس. فكّر في نفسه: «لا بُدّ أنّهم كانوا هنا ورحلوا». شكر الرّجل الثّمانينيّ، واستدار لكي يجرّب حظّه مع الشّقّة الأخرى، قرع الجرس، لتفتحه الفتاة الشّقراء، عرفها على الفور إنّها ليلاس، تفرّستْ فيه بقوّة، قبل أنْ تسأله: «ماذا تريد؟!». لم يفهم كثيرًا، فظلّ صامتًا لا يدري ما يفعل، لكنّها كرّرتْ عليه السّؤال مرّة أخرى: «هل تريدُ شيئًا؟!». «ألم تعرفيني؟!». «أنا لا أعرفُ الغرباء، ما أكثرهم في هذه المدينة!!». أراد أنْ يضحك، لكنّه لم يجدْ معنًى لذلك، فهتف: «لديّ شيءٌ لكِ». هزّتْ رأسها بالرّفض، وهمّتْ أنْ تغلقَ البابَ. قال وهو يمدّ يده: «انتظري يا ليلاس... انتظري، هذا الدّفتر من أخيك... أخيك زياد». دفعَ به إليها، وغابَ سريعًا قبلَ أنْ يرصدَ ردّة فِعلها!

**

من قال إنّ الشّجرة في الأرض المالحة لا تُثمر!! مَنْ قال إنّ النّفوس لا تتغيّر، كلّ صعب إلى هَوْن، وكلّ عسير إلى يسير. قالتْ لها بعدَ أنْ رحل: «البيتُ واسعٌ، والأنسُ خيرٌ من الوحشة». «لا يُمكن أنْ تفعلي ذلك كرمًا واقتناعًا». «ماذا تقصدين؟!». «تفعلين ذلك من أجل بدر، هو يريدها». «وماذا في ذلك؟! وهي تريده!! ما الخطأ إذا علمتُ من أجل مصلحة ابني، وعملتِ أنتِ من أجل مصلحتها، في النّهاية نكتشف أنّنا نكرّس حياتنا وهي تنسحبُ تدريجيًا خارجَنا من أجل مَنْ خرجوا من أرحامنا، أو احتلّوا قلوبَنا. بالنّسبة لي مستعدّةٌ أنْ أفعل المستحيل من أجل بدر». «أنا موافقة، إذا كان ذلك يُساعدها على أن تبدأ حياةً جديدةً، أعرفُ أنّ وجوده قد يُساعدها على أنْ يُصبح الفزع اللّيليّ من الماضي». «لكنْ لديّ شروط». «بدأنا!!». «لا بُدّ من ذلك لكي تسير الحياةُ على نحو أقلّ تعثُّرًا». «هه... ماذا؟».

كان اتفاقًا غير مكتوبٍ بين امرأتَين ظلّتا جبلَين لا يلتقيان، حتّى جاء بدر فحطّم قمّة الجبل الأوّل وردمَ جزءًا من الوادي بينهما، ثُمّ جاءتْ ليلاس فحطّمتْ قمّة الجبل الثّاني وردمت الجزء المتبقّي، أيْ فاستوى الأمر على سُوقه. قالتْ سلوى: «لن أتلقّى منكِ الأوامر، أنا في النّهاية سيّدة هذا البيت، وأعرفُ أنْ زوجي يدفع أكثر من ثلاثةَ أرباع راتبه على الشّقق الّتي استأجرها لكم أيّها السّوريّون، وأدري أنّه قبلَ خمس سنوات باع أرضًا ورثها عن أبيه؛ ليشتري عمارةً سكنيّة كاملة ويُسكّن فيها عائلات اللّاجئين دون مقابل، وعالجَ الكثيرين دون مقابل، بل دفع للمُصابين بأمراضٍ خطيرةٍ كالسّرطان تكاليفَ علاجهم في المشافي، ربّما أنتِ لا تعرفين هذه الحقائق، وربّما هو لا يعرف أنّني أعرف!! هو رجلٌ مختلف، صدّقيني لا يُمكن أنْ يُقارَن ما في

قلبه من إنسانيّة بأيّ رجلٍ قد تلتقينه في أيّ مكان ، كلّ ذلك يخوّلني بالطّبع أنْ أكون أنا السّيّدة هنا» . كانتْ أصواتُ صافراتٍ بعيدةٍ في هذه اللّحظات تنخر في أذنَي سميرة ، وانفِجاراتٌ في مكانٍ ما ، وجعجعات وهوشات هنا وهناك ، كانتْ شفتاها ترتجفان كجناحَي ذبابة وهي تستمع إلى سلوى تودّ لو تستطيع أنْ تهجم عليها وتفقأ عينَيها الكريهتَين بحركةٍ واحدة ، وتتخلّص من هذا القيح الّذي يخرج من فمها ، لكنّها لم تفعل من ذلك شيئًا ، واضطرّتْ إلى أنْ تتابع الاستِماع إلى فحيحها : «لم يعدْ موجودًا من أجل أنْ تُغويه ، استخدام المَسكنة غير وارد أيضًا فلا رجلَ في البيت ينكسر قلبه الرّقيق لشكواكِ ، واستغلال حُسنكِ الفتّان من أجل الإيقاع به وسرقته منّي أيضًا لم يعدْ بإمكانك ، صحيحٌ أنّ ابتِعاده أراحني قليلاً من هذه النّاحية ، لكنّني - وافرحي إذا أردتِ - ما زلتُ أخافُ عليه من عينَيكِ اللّتين تبرقان كعينَي ساحرةٍ . . .» . كانَ الغيظ يُشكّل سحابةً دُخانيّة يضغطُ على روح سميرة ، همّتْ بأنْ تُنشبَ أصابَعها في رقبةِ سلوى وتخلعها من مكانها ، لكنّ الأخيرة تابعتْ : «المهمّ دعيني أتحدّث لكِ في المُفيد ، ستعيشين معي في هذا البيت بقوانينه ، تعرفين - وأنتِ سيّدة العارفين - أنّ صاحب البيت هو الّذي يفرض قوانينه ، ستطبخين وتجلين الصّحون وتكنسين البيت ، وأنا سأغسل الثّياب وأطويها ، وربّما نتبادل الأدوار لاحقًا ، ستنامين أنتِ وليلاس في الغرفة الجنوبيّة ، وسينام بدر في غرفتَه وأنا في غرفتي ، والجلوس على الشّرفة يكونُ بالاتّفاق ، واستخدام الغاز سيكون بالاستِئذان منّي ، وأيّ مشكلة تحدث سأبتّ أنا فيها» .

(٤٨)

هل يمكن أنْ يقضي الحزن على الإنسان؟!

نحاول الحياةَ في دوّامة الموت، أكانتْ أرواحنا منذورةً للحزن!!
كلاّ، نحنُ الّذين نُغرِقها في كأسه، فليرحلِ الحزن إذًا؛ في قلوبنا دفقةُ التّائقين إلى العيش، وغمرةُ المشتاقين إلى الفرح، فلِمَ لا نفرحْ... لِمَ لا ترقصُ أرواحنا، لِمَ لا تُغنّي شفاهُنا، لم لا تصفّق قلوبنا؟! وليكنْ ما يكون، افْرحا أيّها الرّائعان، لقد رأيتما في الحياة ما يكفي من البؤس والعثرات، فاملأ بالحبور جسديكما.

كان عام ٢٠١٩ عامًا أخضر بالنّسبة لهما، انطلقَ لسان ليلاس بشكلٍ عجيب، تفتّح قلبُها بالسّرور، كانَ جافًا كأنّ حفنةً سفّاء من رمادٍ ظلّتْ تنتشر في ساحته، حتّى جاءَ هو فكنس الرّماد، وزرعَ الياسمين، ورسم الضّحكة. كانتْ تتغلّب على الخيالات المُرعِبة بحكاياتها، ظلّتْ تحكي لبدر كلّ ما في روحها من خَبَثٍ عن مناظر الأشلاء والدّماء المخزونة في الذّاكرة حتّى تخلّصتْ منها تمامًا، ونظّفتْ روحها من الأوساخ. وكان هو يرسم المشهد كأنّه يراه، لَعِبا دورَيهما بإتقان وبإيقاع متناغم؛ هي كانتْ تُتقن رَسمَ المشهدِ بالحَكي، وهو كان يُتقن رَسمه بالفرشاة؛ في سنةٍ واحدةٍ رسم خمسين لوحةً مثّلتِ الحرب والجوع والخوف والأمل والحياة والموت، كان يسمع ويتخيّل، وقدرته على التّخيّل لم يكنْ لها حدود. وهي ساعدتْه على أنْ يتخطّى حاجز الفهم، اخترعتْ له لغةً خاصّة بهما، عرفتْ كيفَ توصلَ

لفرشاته المشهد بعد أنْ تناغَما عقلاً وقلبًا!!

هل يُمكن لهما أنْ يعيشا حياتهما الخاصّة؟! كانا يفعلان ذلك حقًا، ظلّتْ هذه العلاقةُ خيطًا رفيعًا بين المرأتين تُحافظ كلّ واحدة منهما عليه ألاّ ينقطع، كانتا تُدركان أنّ انقطاعه يعني النّهاية، نهاية البيتَين، ونهاية العاشقَين!!

في أواخر ذلك العام، بينما كانت درجة الحرارة تهوي تحت الصّفر، وكان البرد يدفع بالأحياء إلى التدثّر، والاكتفاء بالاختباء والبحث عن الدّفْء والسّكون، كان الثّلج قد تراكم في طرقات جبل الحسين فبدتْ هادئةً تمامًا كأنّ صمتًا من صمتِ الدّهور والقبور يعتريها، غطّى البياض كلّ شيء ورمى ضبابٌ خفيفٌ شاله على الفضاء فبدت البيوت من خلفه شاحبة، آنئذ استيقظتْ سلوى مُبكّرًا على صوتِ نشيج قادم من غرفةِ الجلوس، لم تحتجْ إلى ذكاءٍ لتعرف أنّه ابنها. نهضتْ مُسرِعةً وهي تتوقّع أنّه رسمَ لوحةً على الحائط - كما كان يفعل في مرّات كثيرةٍ - لمشهدٍ من مشاهد الحرب الّتي قرأتْها له ليلاس من الدّفتر ذي الجلدة الزّرقاء. فركتْ عينَيها لتستطيع الرّؤيةَ بشكلٍ أكبر، لكنّ الغباش كانَ ما زال يمنعها من الرّؤية الجيّدة. تقدّمتْ نحو اللّوحة - الجدار لتشاهدَ عليه وجهًا مألوفًا، وجهًا كان بلطفه يظلّل البيت بالطّمأنينة خلال سنوات التّعب والبكاء، السّنوات الأولى من عمر بدر، إنّه وجهٌ ملائكيّ يستحقّ أنْ يُرسَم بهذه الوداعة والسّكينة، كان هذا الوجه هو... وجه إنصاف. هبطَتِ الذّكرى إلى قلبِ سلوى هبوطَ الحجر إلى قعر بئرٍ عميقة، لوهلةٍ أحسّتْ أنّ إنصاف ليستْ بخير، كانت اللّوحة هي ذاتَ المشهد الّذي رآه بدر في زيارتهما لإنصاف قبلَ شهرَين في مستشفَى الإسراء، كانت ترقدُ في السّرير مستسلمةً لقدَرٍ

ما ، يومَها لم يستطع الأطبّاء أنّ يُشخّصوا مرضها بشكلٍ دقيق ، كلّ الفحوصات الّتي أجرتْها لم تُسفِر عن الإشارةِ إلى مرضٍ محدّد ، قال لها الطّبيب : «إنّها مُصابةٌ بضعف عامّ ، عليها أنْ تأكل جيّدًا من أجل ألاّ تستمرّ صحّتها بالتّدهور» . لم يكنْ أحدٌ يدري أنّ غمامةَ الحزن الّتي بدأتْ تتكثّف في قلبِها منذ رحيلِ زوجها هي السّبب وراء كلّ هذا ، وها هي تأذن بوقوع الكارثة! هل يمكن أنْ يقضي الحزن على الإنسان؟! كانت هذه الغمامة تزداد كثافةً بالذّكرى ، وتتضخّم كلّما استيقظتْ من نومها لتجد الفراغ إلى جانبها في السّرير يقضم روحها كتفّاحة بشكلٍ تدريجيّ!! امتنعتْ في الأسابيع الأخيرة عن الطّعام ، لم تعدْ تأكل شيئًا ، ولا تشربُ إلاّ جرعاتٍ صغيرة من الماء ، «فمي مرّ ، وجفوني ترتعش ، والماء يجعلني أتقيّأ» تقول لسلوى ، ثُمّ تتابع : «أجدُ الحياةَ تنسحبُ من داخلي ولا أستطيع أنْ أفعل شيئًا . الرّحيل قريبٌ ، وإذا كان ذلك يقصّر المسافة بيننا فأنا أرحّب به» . وتطلقُ تنهيدةً طويلة تختزنُ نهرًا من الذّكريات الجميلة مع زوجها الرّاحل ، ثمّ تستسلمُ للصّمتِ والدّموع . اليوم تقفز اللّوحة في وجهها لتذكّرها بذلك اللّقاء . شهقتْ كأنّ قارعةً قد حلّتْ بها ، أسرعتْ إلى الهاتف ، اتّصلتْ بالبيت ، لم يردّ عليها أحدٌ ، بقيتْ ساعةً تحاول دون جدوى . اتّصلتْ بمستشفى الإسراء ، أخبروها أنّ المريضة قد غادرت المستشفى قبل أسبوع . سألَتْهم إنْ كانتْ صحّتها قد تحسّنتْ ، فأجابوا بالنّفي . ازداد وجيبُ قلبها ، لم تهدأ ، راحت تنظر إلى اللّوحة من جديد فيزدادُ قلقُها ؛ كانتْ إنصاف تبدو نائمةً بهدوء على السّرير ، وهي تضعُ كفّها اليُمنى على اليُسرى وتركزهما على صدرها كأنّها في صلاة ، كانتْ عيناها مُسبَلتَين ، ووجهها أبيض ، وشفتاها بنفسجيّتَين ، وجبينُها باردًا!!

عاودت سلوى الاتّصال بالبيتْ، ردّ على الطّرف الآخر صوتٌ شابٌ، يبدو أنّه ابنُ أخيها الّذي كان معها في المستشفى هكذا تخيّلتْ، سألتْه بصوتٍ مرتعش: «أهذا بيتُ إنصاف؟!». جاءها الرّدّ بعد فترةِ صمت: «نعم». «هل أستطيع أنْ أكلّمها؟!». «مَنْ أنت؟!!». «أنا صديقتها سلوى». «سلوى... !!». «نعم». «لقد ماتتْ منذ ثلاثة أيّام». ترنّحتْ في مكانها، أرادتْ ألاّ تُصدّق، لكنّ اللّوحة الّتي تنتصبُ قبالَتها كانتْ تكذّب تكذيبَها، جمّعتْ حروفَها المتناثرة من بين شفتَيها المرتجفتَين: «كيف؟!». «لقد قال الطّبيب الشّرعي إنّه انفِجارٌ في الكبد!! هل تصدّقين ذلك؟!».

**

لم يستطع النّوم في اللّيلة الأولى الّتي قضاها جلال في المستشفى الميدانيّ شمال حلب رغم التّعب الشّديد الّذي أرهقه طوال الرّحلة إلى تركيّا، ثمّ الدّخول مع الوفد عبر سيّارات الأمم المتّحدة المُحاطَة بحراسة شديدةٍ من خلال معبر غازي عنتاب. كان يتشوّق إلى أنْ يفتح المغلّف الّذي أعطاه له بدر، استوقفتْه لوحةٌ يبدو فيها بدر قد رسم نفسه جالسًا على مقعدٍ خشبيّ واسع بدون ظهر، ومن تحتِ قدمَيه تتدفّق أسرابٌ من النّمل في كلّ اتّجاهٍ، كانتْ رِجلاه غارقَتين في بحرٍ من النّمل، وبعضُها يتسلّق رجلَيه العاريتَين ويُتابع صعوده إلى الأعلى، وهو ينظر إليها في هيئةٍ استسلاميّة مادّاً عنقه، ومُباعِدًا بين ساقَيه، وراكِزًا كفّيه على رُكبتَيه دون أنْ يفعل شيئًا. لم يستغربْ جلال المشهديّة الصّادمة في هذه اللّوحة، أدركَ أنّه يعبّر عن شعوره تمامًا حتّى لا يلومه الآخرون لحركته الدّائبة الّتي لم تكنْ تنقطع في بعضِ الأحيان ولو لبرهةٍ خاطفة؛ إذًا جيشٌ من النّمل أسفلَ قدَميه هو

ما يجعله لا يكفّ لحظةً عن الحركة . قلبَ اللّوحة ليُتابع غيرها ، في الثّانية كان قد رسمهما ، واقفَين على مسافة مترٍ واحدة هي تصرخ وقد حنتْ جذعها إلى الأمام ، وبدتْ عروق رقبتها لشدّة انفعالها ، وهو يُكتّف يدَيه ويركزهما على بطنه في هيئة تدلّ على اللا مبالاة ، وأمّا بدر فقد حجز المسافة الوسطيّة بين أبيه وأمّه ووجهه يُقابل النّاظر للّوحة ، وقد بدا أنّه منزعجٌ تمامًا من الصّراخ ، ويضع باطن كفّيه على أذنيه مُسترحِمًا أنّ يكفّا عمّا يفعلان . اعترتْ جلال هزّةٌ في قلبه ، أدرك أنّ ابنه يُوصل له رسالةً أقوى من أيّ رسالةٍ أخرى لكي لا تتّسع الفجوةُ بينهما ، تمنّى لو أنّه الآن بينَ حبيبَيه في الأردنّ ، ويقرأ على سلوى ما أراد أنْ يقوله لهما بدر من خلال اللّوحة . قلبها من جديدٍ ، لينظر إلى اللّوحة الثّالثة ، كانَ في وسطها رجلٌ عسكريّ ذو شعرٍ طويلٍ ولحية كثّة ، ثيابه ملطّخة بالدّم ، يحمل بإحدى يديه رأسًا مقطوعةً لطفلٍ صغير ، وفي يده الأخرى سكّينٌ تتراشقُ قطرات الدّم منه في كلّ اتّجاه ، ذُهِل لدقّة المشهد وبشاعته ، من أينَ له أنْ يرسم لوحةً دقيقةً كهذه وهو لم يُشاهد منظرًا كهذا في حياته ، هزّ رأسه ، لا بُدّ أنّها ليلاس ؛ أيّ لغةٍ تلك الّتي تفاهما عليها حتّى تجعله يتخيّل المشهد كما لو أنّه حدث أمامه!!

كان المستشفى الميدانيّ ، يضمّ أكثر من أربعين طبيبًا وممرّضًا من حوالي عشرِ دول مختلفة ، ويملكون اثنتي عشرة سيّارة إسعاف مُجهّزة باللّوازم الطّبّيّة كافّة ، ومئة سرير ، كانَ هذا في الشّهور الأولى لمجيئه إلى هنا ، بعدَ ستّة أشهر فقدوا ثلاث سيّارات من سيّارات الإسعاف ، وطبيبَين أحدهما طبيبٌ سوريّ مُقيمٌ في فرنسا جاء ليمسح جراح بلاده النّازفة بعد أنْ قضى في مدينة المسارح أكثر من ثلاثين عامًا ،

والثّاني أفغانيّ جاء من قندهار بدافع إنسانيّ ، ومن أجل ألاّ تتكرّر في سوريّة المأساة الّتي تكرّرتْ في بلاده في الثّمانينيّات والتّسعينيّات من القرن المنصرم!!

بعدَ عام ، قُصِف الموقع الّذي يُقدّمون فيه الخدمات الطّبّيّة ، وفقدوا سيّارةً أخرى ، وأصيبَ عددٌ كبيرٌ منهم ، وتحوّل يومَها نِصفُهم إلى مُسعفين يداوون النّصف الآخَر الجريح . اضطرّوا بعدها أن ينتقلوا إلى موقع أبعدَ عن جبهات القتال لكنّه أكثر أمانًا ، غيرَ أنّه لم يُلبِّ إسعافَ الجرحَى والمُصابين بالطّريقة المُناسبة ، إذ كانَ حَمْلهم من مكان الإصابة يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ ، وجلال يتذكّر بحرقةٍ شديدةٍ أنّ روح أحدهم قد أفلتتْ من بين يديه ذات مرّة لأنّ بُعدَ المسافة وشدّة الإصابة لم تُمكّناه من إنقاذه .

في غرفته ظلّتْ لوحات بدر خلال خدمته الطّويلة هنا تنتشر على الجدران ، كانَ قد غلّفها بورقٍ شفّاف ، وحاول أنْ يضع بعضَ الشّرائط اللاّصقة على حوافّها لكي لا تهترئ ، وراح يُثبّتها على الجدران الصّمّاء فتهبها بعض الحياة ، وإنْ كانتْ تُبرز كثيرًا من القسوة ، كان قد وضع لوحات ابنه العشرين الّتي أعطاها له عشيّة قدومه إلى هنا ، حتّى بدا المكان أشبه بمعرضٍ فنّي في وسطٍ ملتهبٍ لا يعترفُ بالفنّ من الأساس!!

في مكان آخر بعيد ، وسط هدوءٍ خادع لكنّه حقيقيّ تُحافظ عليه كلتاهما من ألاّ ينفجر ، وإنْ كان مرشّحًا للتّهاوي والانفجار في أيّة لحظة ، قالتْ لها سلوى : «إنّهما يتقدّمان نحو الشّيء الّذي لا مفرّ منه» . «الحبّ ؛ تقصدين؟!» سألتْها سميرة . «لا شيء يبقى خافِيًا ، ولسنا صِغارًا لكي لا نناقش المسألة ، الأمور تتّجه إلى ذلك بسرعةٍ ؛ ألا

تُلاحظين؟!» . «بالطّبع» . «إذًا ؛ فــهل يُمكن لزواج مــثل هذا أنْ ينجح؟!» . «لستُ أدري ، أشكّ في أنّه سـينجح ، الزّواج يحتـاج إلى وعي تامّ» . «يا عزيزتي الزّواج ليسَ فصلاً يُدرَّسُ في كِتاب ؛ إنّه غريزة ؛ حينَ تنهضُ في كيمياء الجسد تجدُ طريقَها للخروج» .

(٤٩)
ولكنَّ الأمنيات هي الأخرى سرابٌ في صحراء الحياة

غصّ الممرّ الطّويل بالمُراجِعين الّذين ينتظرون دورهم من أجل أنْ يتوزّعوا على خمسةَ عشر طبيبًا هُم مَنْ تبقَّوا من أربعين ، بعد أنْ قلّص الموتُ بعضَهم ، وغادرَ بعضهم الآخر عائدًا إلى بلده بعد أنْ قضى هنا أكثر من ستّ سنواتٍ بين الآهات والدّموع وصيّاح الآلام الفظيعة ، وحده جلال حافظَ على بقائه المُستمرّ ، ونجا ألفَ مرّة من الموت حتّى لم يعدْ ليشكّ بأنّ الموتَ اتّخذَ منه صديقًا حميمًا ، وألِفَ صُحبته حتّى يتجاهله كلّ هذه السّنوات الذّابِحات ، ويُبقي عليه كوكبًا هاديًا للحيارى والمحرومين في بلدٍ عمّه الظّلام منذ أوّل رصاصةٍ أُطلقتْ إلى صدر الحرّيّة .

جلست امرأةٌ في الثّلاثين مع ابنتها الرّضيعة ، كانتْ تُحاول أنْ تُهدِّئها من بُكاءٍ مستمرّ دون أنْ تنجح ، عينا المرأة السّاهِمتان لم تستطيعا أنْ تُخفيا الحزن الّذي يختصر مشاهد أليمة تتوالد من مشاهد أخرى أشدّ ألمًا ، قالتْ له : «لا أشعر أنّها تكبر ، هي على هذه الحال منذ ولدتُها» . سألها جلال والدّمعةُ تكاد تنفر من عينه ، ما زال يحتفظ بقلبه الهَشّ بعدَ كلّ ما مرّ عليه وشاهده من أهوال ، قلبه الّذي يفيضُ بالرّحمة الإلهيّة المُرسَلة : «كم عمرها؟!» . «سنة» . «هل تُرضعينها؟!» . «ليس في صدري حليبٌ لأفعل» . «هل ترضع حليبًا صناعيًا؟!» . «إنّه

ليسَ موجودًا عوض أنْ يكون معي ثمنه» . كان يعرفُ الإجابة عن أسئلةٍ لم تكنْ من حاجةٍ لطرحها إلاّ تخفيفًا عن الموجوعين الّذين يفدون إلى هذا المستشفى الميدانيّ بالمئات كلّ يوم ، إذ يجدون في التّعاطف معهم فرصةً للتّعافي من بعضِ أسقامهم . «أينَ أبوها؟!» . «في السّماء ، سأقول لها ذلك حينَ تكبر ويكبرُ معها سؤالها عنه ، هل تريدُ أنْ تسمعَ قصّتي؟!» . «بالطّبع» . «كان كلّ شيءٍ سيهون لو كانَ معنا ، إنّه جدارنا الحامي ، حينَ هوى صرنا في العراء» . بكتْ . بكى معها . «ولدتُها وحدي ، في غرفةٍ بلا سقف ، قطعتُ حبلها السّرّيّ بيدي ، وعشنا أسبوعًا دون طعام ، لم يكنْ هناك من مكانٍ نأوي إليه ، أخرج لكي أبحث في البيوت المُهدّمة الّتي حولنا عن بقايا طعامٍ ، أطوفُ الحيّ نازفةً دون أنْ أعثر على شيء ، أبحثُ تحت الرّكام ، وبينَ الأشلاء فلا أجدُ غير الموت في صُوره الكثيرة ، الصّواريخ لم تُبقِ لنا ولو خبزًا عفنًا ، إذا حالفني الحظّ كنتُ أعثر على علبة سردين فارغة احتفظتْ ببقايا زيتٍ وغُبار وقطع خبزٍ معفّرة بالتّراب لمُقاتلين تمركزوا هنا قبلَ أيّام ثُمّ رحلوا . في اللّيل حينَ لا سقفَ ولا دفءَ ولا أمان تُفكّر في التّخلّص من الحياة الّتي لا تُشبه أيّ حياة ، أقول لنفسي ما أسهل أنْ أرميها وأرمي نفسي في حفرةٍ عميقة من تلك الّتي حفرها صاروخٌ أعمى ، لكنّ الموت بهذه الطّريقة يحتاج إلى وقت ، حينَها تفكّر بطريقةٍ أسرع ، تنظر إلى أعلى فتعمى أنْ تُشاهدَ السّماء المُرصّعة بالنّجوم الخَجلى ، وتُشاهد عوَضًا عن ذلك ثُقبًا أحدثتْه قذيفةٌ أفرغتِ السّقفَ إلاّ من قُضبان الحديد المُتدلّية على الجوانب حيثُ تبرز بشكلٍ مُرعِب كشواهد القبور عالقةً ببقايا الإسمنت . وأخطّط : حبلٌ واحدٌ يُلَفّ حول عنقي وعنقها يُعلّق على هذه القضبان سيكون كفيلاً بأنْ ينقلنا إلى

الآخرة في لحظات!! كانتْ خيارات الموت كثيرة وخيار الحياة الوحيد شبه معدوم ، كان الموتُ أسهل ، وبدا كذلك أجمل ، لكنّني استغفرتُ الله واخترتُ في النّهاية الحياة» .

قضتِ الحربُ على الشّباب ، أملِ كلّ أمّة ، بعثتْ بهم إلى المحرقة ليهلكوا فيه ، وزّعتهم على جهنّمات تنشأ بين أمراء حربٍ اختلفوا فيما بينهم ، سرقتْ منهم الأحلام وأعطتْهم الأوهام ، رمتْهم كأفعى بسمّ ينتشر في الجسد شيئًا فشيئًا حتّى يقضي عليهم ، حولّتْهم إلى قتَلة ، أرغمتهم على أنْ يحملوا السّلاح ، ويحرسوا الحواجز ، ويقصفوا البيوت ، ويهدّموا الدّور ، ويفقؤوا العيون ، ويجزّوا الرّقاب ، ويُعلِنوا الجهاد المُقدَّس وهم بعدُ لم يبلغوا الحُلُم . لم تكنْ من لعنةٍ في هذه الحرب الضَّروس أشدّ من تلك الّتي جعلتْهم يُشهرون البنادق وهم ما زالوا في العاشرة من عمرهم ويُطلِقون الرّصاص من الخلف على جماجم الكافرين!! ولا تلك الّتي حولّتْهم إلى ظلٍّ لله في الأرض يمدّ يده فيقسم النّاسَ إلى فُسطاطَين ، ويبعثر النّاسَ في اتّجاهَين ، فيقتل الأوّل الثّاني بزعمه أنّه يفعل ذلك بحكم الله الّذي لا تبديلَ لحكمه ، حكم الله الّذي لم يجد تربةً أكثرَ خصوبةً لكي يترعرع فيها من عقول عددٍ من الجَهَلة ومريضي النّفوس . أيُّ سَوأةٍ تلك الّتي أظهرتْها الحربُ فينا!!

في هذا المحيط القاسي لم يكونا لِيُفارقاه . أحسَّ أنّهما هبةُ الله له ، بهما أدركَ أنّ الأملَ يمكن أنْ ينمو مهما أحاطتْ به جيوش اليأس . شعرَ أنّ الحياةَ تسرقُ منهما اللّحظاتِ الجميلة ، سأل نفسه هذا السّؤال كلّما شاهدَ طفلاً في عمر ابنه : «لماذا تركتُه هناك وحده ، هل يمكن أنْ يغفر لي بُعدي عنه؟! سأعودُ إليك يا بُنيّ . . . سأعودُ إليكَ حين

تنتهي الحرب» همّ أنْ يقول : «حين تنتهي الحربُ الّتي تشنّها أمّك عليّ أيضًا» لكنّه توقّف . عبَرَ طيفُها أمامه ، رآها تبتسم وتحتضنُ بدرًا وهي تُغنّي له الأغنيات القديمة ، الأغنيات الّتي دأبتْ وهو في الثّانية أنْ تردّدها على مسامعه قبلَ أنْ تعرفَ أنّها ذهبتْ به بعيدًا عن عالَمها . توقّفتْ عن الغناء فجأة . رآها تنظر إليه مُباشرةً وتهمسُ همسًا حادًا كأنّها لا تريدُ لبدر أنْ يسمعها : «كيفَ طاوعكَ قلبُك أنْ تتركه يكبرُ بعيدًا عنك ، كيفَ استطعتَ أنْ تعيشَ كلّ هذه السّنوات تمسح على رؤوس الأيتام وتترك ابنك يُعاني اليُتم والفقدَ معًا؟!» . لم يستطعْ أنْ يحتمل عِتابَها الجارح ، همّ أنْ يقول لها إنّ كلّ ذلك كان بسببها ، وإنّ رحيله عنهما جعل قلبه مثلَ عود ثقابٍ مُحترق ، وأنّه هو الآخر يحتاج إلى التّعافي من أشواقه الّتي تحزّ روحه . أغمضَ عينَيه في ظلامٍ دامس ، كان السّكون يُخيّم على كلّ شيءٍ في المكان ، وعلى فتراتٍ متباعدة تصل إلى أسماعه أصواتُ انفجاراتٍ بعيدة ذات صدى عميق يُشير إلى هولها ، هتف : «متى تستريحُ هذه البلاد من الموت؟!» . لم يكنْ قد بقي من اللّيل شيءٌ كثيرٌ حينَ فتح دفتره الّذي رافقه منذ أوّل يوم قَدِمَ فيه إلى هنا ، خطّ فيه أوجع المشاهد الّتي رآها ، وأصعب الحالات الطّبّيّة الّتي عايَنها ، كان ينوي أنْ يكتب مذكّراته في بلاد الموت والحصار حين يعود إلى الأردنّ . أغمضَ عينَيه ليراها ، ها هي . . . إنّها تلبس مريولها الأخضر وتكشفُ عن ذراعها في أوّل لقاءٍ استطاعتْ فيه عيناها أنْ تقلبَ له كيانه ، وتُغيّر له مجرى حياته : «أيّتها النّبيلة ؛ تفّاحةَ القلب ، نافذةَ الرّوح على الماضي الجميل الّذي لا يُمكن أنْ يعود أبدًا ، كيفَ كبرنا هكذا كأنّنا غريبان!! ليسَ في وجع النّهايات ما يُمكن أنْ يُحتَمل ، ها نحن ننتهي ، ننتهي على نحوٍ

مُؤلم!! كنتِ بدايتي الّتي حلمتُ بها وأنا طفلٌ في الثّانية عشرة من عمري أيّام عددتُ النّجوم في سماء العالوك في المُخيّم الصّيفيّ، واخترتُ أجملهنّ، تلك الّتي عبرت الأفلاك وملايين السّنين الضّوئيّة لتنزرع في فؤادي. وكنتِ نجمتي... ثُمّ جاءت الثّمرة بعد طول انتظار، وبقدْر ما كانتْ حلوة لكنّها غيّرتْ شكلَ الأقدام على الطّريق وباعدتْ بينَ قلبَينا، أتصدّقين أنّ الّذي انتظرْناه بشوق الأولياء كان سببًا في أنْ يجعل من الدّربِ دربَين، ومن الحياةِ حياتَين، فسرتِ به بعيدًا واستأثرْتِ به دوني، وهل عليّ بعد كلّ هذه السّنوات أنْ أبوح بهذا دون أنْ يحزّ سكّينُ الألم أوردتي ويُقطّعها تقطيعًا؟ أتظنّين أنّني ألومُ أحدًا؟! كلاّ أيّتها الغالية، لا أحدَ منّا نحن الثلاثةَ يستحقّ اللّوم، ثُمّ وجدْنا أنفسَنا في غابةٍ من الشّكّ والشّوك!! أكانَ هو سببًا في ذلك؟! ربّما، لكنّه لا يدري ولا يقصد. أكنتُ سببًا في ذلك؟! ربّما، لكنّني حاولتُ كثيرًا ونجحتُ قليلاً!! أكنتِ أنتِ السّبب في ذلك؟! كلاّ؛ كنتِ وردَتنا ولكنّني لم أستطع أنْ أسقيها وإنْ كنتُ أعرفُ كيف. ولم أتمكّنْ من الحِفاظ عليها وإنْ كانت الفرصةُ متاحة!! أريحي قلبَكِ قليلاً، علينا أنْ نعترف؛ هربْتِ منّي إليه، وهربْتُ منه إليّ!! أريحيني قليلاً واعترفي مرّةً واحدةً أنّني لم أكنْ لأستحقّكما. وسأريح نفسي أنا وأعترف: من أجل ذلك هربْتُ منكما!! لا تفكّري بحياتنا كثيرًا، أرْخِي قبضة التّرقّب القديم، ها نحن يا قدَري الجميل والقاتلُ معًا، ها نحن نكبُر غريبَين، بعيدَين، وغدًا تترهّل أجسادُنا، وتحدودبُ ظهورنا، وسنكتشف بعدَ فوات الأوان أنّنا آثرْنا أنْ نهتمّ بالتّفاصيل الصّغيرة الكاذبة بدل أنْ نهتمّ بالفرح الطّفوليّ الّذي كان يعتمر قلوبَنا أيّامَ كُنّا أسعدَ زوجَين، وأنّنا أضعْنا حياتَنا الحقيقيّة في الحكم على

الأشـيـاء بالوهم ، كم كـان رائعًـا لو أنّنا بقـينا نحـمل في قلبَـينا تلك الدّهشة الحقيقيّة في اللّقاء الأوّل الّذي جمعني بك في المدرسة ، لقد كُنّا نصلح لأنْ نعيشَ أروع حياةٍ لو قدرْنا ، ولكنّ الأمنيات هي الأخرى سرابٌ في صحراء الحياة ، لقد كسرتْنا نحن حربُنا الخاصّة أيضًا ، لا تظنّي أنْ بقـعـةً مـا على وجـه الأرض تخلو من حـربٍ مـا ، ونحن؟! ضحايا؟! نعم ، ضحايا على قياسنا وبأيدينا . لهثْنا خلفَ وعد القلبِ بماء الحُبّ ، لكنّنا بقـينا عَطشَى ، وغـدًا مـثلَ أيّ عـاشِقَين لم يعـيشـا لنفسَيهما سيلفّنا النّسيان . . . نعم سيلُفّنا النّسيان!!» . بلّل بالدّمع خدّ الورقـة فسـاح الحبـر ، لم يسـتطعْ أن يُكمل . نهض . أودع الدّفتـر في خزانته . وعادَ إلى الفراش ، كان صوتُ الانفِجارات ما زالَ يُسمَع بين الحينِ والآخَر . ألقَى بجسده المنهك على السّرير ، أيّ ذكرى هذه الّتي تسكنه وتمنعه من النّوم!! لفّ الغِطاء على جسده ، وراح يستجدي طائر النّوم أنْ يأتي ، لكنّه كان يُحلّق بعيدًا بعيدًا!!!

(٥٠)

لا مكان نذهب إليه، أنا سأموت هنا!!

حدث ذلك في أوائل عام ٢٠٢١ كانتْ معركةُ حلب قد قضتْ على ما تبقّى منها ، فلم يعدْ فيها شيءٌ ، مجرّد هياكل بشريّة تُشاهَد بشكلٍ نادرٍ ومتقطّع تجوبُ بعض الخرابات في اللّيل ، ناهيكَ بأنّ البرد قتلَ كباراً السّنّ الّذين أخطأهم الموت وعاشوا دون معيل حتّى هجم عليهم هذا البرد القارس فقضمَ عظامهم الواهنة . وأمّا حمص فكانتْ قد تحوّلتْ إلى مدينة أشباح منذُ عامَين ، إذْ كانتْ تمرّ عليها عشرةُ أيّام متتاليات دون أنْ تسمع صوتًا ولو خافِتًا لأيّ مخلوق حتّى ولو كان كلباً مُشرّدًا ، عشرةُ أيّام من السّكون والهمود ، حتّى الرّيح تخلّتْ عن رقصتها بين الأنقاض وانسحبتْ بعيدًا عن المكان الّذي تملؤه رائحة الجثث المتعفّنة . كانت البعثةُ الطّبّيّة الضّخمة الّتي وفدتْ إلى الشّمال بالمئات على هيئة وفود متتابعة قد تقلّصتْ إلى ثلاثة أطبّاء صمدوا في وجه الموت إلى هذه اللّحظة ، كان يبدو أنّ خيارَ بقائهم في كلّ هذا الدّمار ليسَ بأيديهم ، إذْ اضطرّوا أنْ يموتوا هنا بعد أنْ دفعوا الموتَ عمّن استطاعوا من الأحياء ولم يعدْ لهم من مكانٍ ليرحلوا إليه ، لقد اقتنعوا أنّ المكان سيبقَى بحاجةٍ إليهم ولو قضوا نحبهم دون أنْ يَسمعَ شهقات استغاثتهم في اللّحظاتِ الأخيرة أحدٌ ، بعد أنْ لبّوا صرخات الآلاف وعشرات الآلاف عبر السّنوات الغابرة!!

كان المُستَشفى الميداني قد صار في حالةٍ يُرثَى لها هو الآخَر ،

كرافانات مهجورة ، وغرف طبّيّة لم يبقَ فيها مِمّا يُذكّر بالمُسعفين سوى العلامة الباهتة الّتي حال لونها للهلال الأحمر ، كانتِ الأسرّة ممزّقة قد عاثَ فيها النّمل والحشرات ، وحاملات الأمصال قد تثنّت وصَدئت ، وعتبات الغرف وساحة المُستشفى قد امتلأت بالحُقَن الفارغة المُتناثرة في كلّ شبرٍ ، والمغاسل لم يسلمْ منها سوى أحواض مُهشّمة الأطراف ، وأنابيب مثقوبة ، في حين اكتظّت حوافّ المصارف باللّون الأصفر ذي الرّائحة الكريهة .

مات الطّبيب الألمانيّ عصر اليوم ، كان قد اغتسلَ منذُ الظّهر بالماء البارد ، ولبسَ مريوله الأبيض النّظيف الّذي قَدِم معه من بلاده قبلَ ثماني سنوات ، ورجّل شعره الذّهبيّ الكثيف ، وحلقَ ذقنه الطّويلة بموسى جراحيّة هي بعضُ ما تبقّى له من أدوات ، وأعدّ لنفسه كوبًا من الشّاي بالنّعنع ، كان النّعنع لا يزال ينبتُ على أطراف الأصص في موقع المُستَشفَى رغم كلّ هذا الخواء ، وكان لا يزال يحتفظ برائحته العبقة . ركز كأس الشّاي على مكتبه المُهترئ في غرفة عيادته الّتي شهدتْ عتبتُها دخول آلاف المُصابين وخروجهم ، شربه باستمتاع استثنائيّ ، ثُمّ تناول مجلّة طبّيّةً قديمة ، وقام من خلفَ مكتبه ، واضطجع على السّرير الّذي كان يُعالجُ فوقه مرضاه ، لبسَ نظّارته ، عبرتْ أمامه صُور كلّ الّذين أسكنَ آلامهم ، وخفّف أوجاعهم ، ورسمَ البسمة على وجوههم . فتح المجلّة الّتي لم تعد معلوماتها الطّبّيّة صالحة بعد أنْ تطوّر الطّبّ خارجَ هذه البقعة المعزولة عن العالَم ، قلّب أوراقَها كأنّما ليتسلّى ، كان يعرفُ أنّه ينظرُ في الفراغ ، وضعَ المجلّة جانبًا ، وخلع نظّارته وركنها بهدوء على حافّة السّرير . عقدَ ما بين قدمَيه ، ثُمّ أغمضَ جفنَيه ، رأى سُهُوب ألمانيا الخضراء تُناديه ، رأى زوجته الّتي

انفصل عنها قبلَ ربع قرن تسير إلى جانبه ثمّ تختفي بعدَ مسافة قصيرة ، ورأى الغمامات البيضاء الجميلة تُقبِلُ نحوه من بعيد حتّى إذاً صارتْ فوق رأسه تمامًا نزلتْ إليه ولفّته داخلها وحلّقتْ من جديدٍ في السّماوات الصّافية العالية!!

قال هنريش لجلال وهو يحفر القبر ويتطلّع إليه عبر الطّين الّذي لم ينشف بسبب مطر أمس الثّقيل : «لم يعدْ أحدٌ من الأحياء سِوانا ، هل ما زلتَ تفكّر بأنْ تموت هنا؟!» . أجابه جلال وهو يدفع التّابوت باتّجاه الحفرة : «لو كنتَ تملكُ جوابًا على سؤالٍ كهذا لكنتُ أملكه أنا ، ولما بقينا معًا إلى هذه اللّحظة في هذه الأرض الغريبة» .

في المساء تَقَاسَما ما تبقّى منه ؛ مريوله ، ونظّارته ، ومجلّته ، وعلبةَ سجائره الفارغة . قال له جلال : لم يعدْ يطرق المكانَ أحدٌ ، نحن هنا في بقعة معزولة ، يبدو المكان كما لو كان ينتمي لكوكبٍ آخر غير الأرض ، لا بُدّ أنْ نرحل» . أجابه هنريش : «لا مكان نذهب إليه ، أنا سأموت هنا ، وأرجو أنْ تحترم رغبتي» . وأشار إلى حقنةٍ من السّموم يضعها في علبة خاصّة ويودعها جيب قميصه . هزّ جلال رأسه ولم ينبسْ ببنت شفةً ، غادره دون أنْ يودّعه ، همّ في اللّحظات الأخيرة أنْ يأخذه بين أحضانه ويبكي على كتفه طويلاً ، أراد أنْ يُفرّغ مجرّات من الشّوق العارم المُتخَم بالحزن ، ويعوّض بذلك عن سنواتٍ طويلة من البُعد والحرمان ، ولكنّه قدّر أنّ ذلك لا يُجدي شيئًا . «هل آخذُ نظّارته؟!» . ظلّ هنريش يفحص الأرض بنظراته الزّائغة بصمتْ .

حمل جلال الحقيبة ذاتَها الّتي قدمتْ معه إلى هنا مع عشرين طبيبًا من زملائه في البعثة الأردنيّة ، كانوا جميعًا قد عادوا إلى بلادهم باستثناء طبيبٍ واحدٍ سافر من هنا إلى مكانٍ مجهول دون أنْ

تعرف الوزارة ولا أهلُه البُقعة الّتي غادر باتّجاهها!!

مشى على قدمَيه، آثر هو أنْ يفعل ذلك بنفسه، تارِكًا سيّارةَ دَفْع رُباعيّة موديل ٢٠١٧ كانت قطر قد أهدتْها للبعثة، وقد تحوّلتْ إلى شبهِ مركبة جرّاء ما تعرّضتْ له من حوادث؛ زجاجها الأمامي كان قد تهشّم بالكامل، وجوانبها قد تحوّلتْ إلى مصفاة بفعل طلقات الرّشاش من قنّاصين مجهولين اتّخذوا من القَنْص تسلية لكلّ مَنْ يتحرّك في طريق رِمايتهم، مع أنّ السّيّارة كانتْ تحمل شارة الإسعاف. طلبَ جلال من صديقه هنريش قبلَ أنْ يولّي وجهه راحِلاً من هنا طلبًا أخيرًا: «إذا حانتْ ساعتُك فلا تُبقِها من بعدِك للعصابات، عليكَ أنْ تُنهي حياتَها قبل حياتِك».

مشى مسافةً طويلة، منذ الصّباح توجّه ناحية طريق حلب دمشق الّذي كان دوليًا، يعرفه خلال سنوات خدمته في مناطق النّزاع شبرًا شبرًا، اليوم تحوّل إلى حُفرٍ تنتشر في المكان كثيرةٍ انتشار الطّفح في وجه المجدور، توجّه إلى حمص، كلّ شيءٍ في الطّريق يُذكّرُ بأنّ الموتَ مرّ من هنا؛ عَرَبات مُصفّحة مقلوبة، ودبّابات معطوبة منذ سنين، بعضُها صدئتْ جنازيرها، وأخرى نبتَ العُشب على أطرافها بعد آخر هُمودٍ لها بين الطّين والماء، وأسلحة مرميّة في كلّ مكان لم تعدْ صالحةً للاستِعمال، وفوارغ رصاص من كلّ الأحجام بين شبرٍ وآخر، وأشجار مقطوعة، وآثار نيرانٍ أتتْ على مساحاتٍ واسعة، وسواتر رمليّة وإسمنتيّة مُبعثَرة جرّاء صواريخ أصابتْها في غابر الأحداث، وجُدران من الطّوب شطرَتها القذائف فظلّ بعضُها القليل شاهِدًا على مرور الدّمار من هنا، ها هو جدارٌ يقف بلا سقفٍ ولا أبواب ولا جدران أخرى تسنده، وحده يُعلن صموده بلا معنى في معارك لا تعترف

بشيءٍ ولا بأحد ، وركام من الحجارة تتكوّم على نفسها هنا وهناك ، كان يبدو أنّ الفناء قد لفّ الجميع ، وأنّ الحربَ لم تنتهِ حتّى جرفتْ كلّ شيءٍ في طريقها ، وقضتْ على كلّ حيّ ، هل سادَ الموتُ حقًا؟! هل قضى على الفريقَين ، هل ابتلعَ الجلاّد والضّحيّة ، ومن الجلاّد ومن الضّحيّة في معادلة الحرب السّورياليّة ، القتلةُ قُتلوا ، والمقتولون خرج من أصلابهم من يبحثُ عن الثأر فقَتل ، واستمرّتْ دوّامة القتل حتّى سحقت كلّ أحد ، كان يبدو أنّ الجميع طُحِنوا تحت ضِرس الموت الّذي لا يشبع!!

مشى أكثر من عشر ساعاتٍ متواصلة . تعب . شاهدَ شجرة كينياء على جانب الطّريق نجتْ من عبث القذائف ، مال إليها ، أراح تحتها ، أسند ظهره إلى جذعها العتيق ، والتقطَ أنفاسه ، رفع رُكبته اليُمنى حتّى لامستْ صدره ، وأراح ذراعه فوقها ، وراح ينظر في البعيد ، كان كلّ شيءٍ هادئًا خاليًا من الحياة ، شعر أنّ وحدته تزيدُ حزنه وسعادته معًا ، هجمَ عليه سيلُ الذّكريات ، فأوقفه بنفض رأسه ، يعرفُ أنّه إذا بدأ ذلك فلن يصل إلى حمص ، الذّكريات تقتلكَ أحيانًا وتهوي بكَ إلى قَعر الحزن السّحيق ، ربّما لم يفكّر في الانتحار مثل هنريش ، لكنّه فكّر في أنْ ينامَ تحتَ هذه الشّجرة ويبعث الله إليه وحشًا يفترسه ويُنهي حياته الحافلة بينَ أنيابه . شعر بالجوع ، التقمَ خُبزًا جافًا حمله معه من المستشفَى الميداني ، كانَ ما تبقّى هُناك ، أشعلَ نارًا بين حجارةٍ على شكلِ دائرة صغيرة ، وصنعَ لنفسه إبريقًا من الشّاي ، كانَ قد أحضر أدواته في الحقيبة الّتي يحملها على ظهره . بعدَ أنْ شعر بسريان الحياةِ في أوصاله قام من جديد ، وتابَع سيره .

مرّتْ عليه عشرات القُرى المُهدّمة ، سَمعَ صياحَ بعضِ الأطفال

يأتيه من بعيد ، كانوا يلعبون ويضحكون ، كما لو أنَّ الحربَ لم تضعهم في معادلتها ، ولم تُؤثّر في فرحهم البريء . فكّر : من الموت تنبثق الحياة ، ومن الأمس يُولَد الغد ، ومن الظّلام تُشرِق الشّمس . حين تُولّي الحربُ بعيدًا بعيدًا ، وتنتهي آثارُها ، سيصنع هؤلاء الأطفال مُستقبَل سوريّة . تناهتْ إليه أصواتهم ، استطاع أنْ يميّز بعضَ كلماتهم ، إنّهم يُغنّون ، كادَ قلبُه يقفز من صدره فرحًا ، هتف في أعماقه : «ما زال الغناءُ مُمكنًا ، ما زال الفرح مُستطاعًا ، والغد لمن لا تقتله آلام الماضي» .

منذ زمن توقّف الدّيّارون عن التّجوّل فيها ، مدينةٌ خاوية كما لو أنّ الموتَ يقفُ على أبوابها ، ويحرسُ أحياءَها ، ويُظلّلُ سماءَها ، وينزرع في طرقاتها ، لا أحدَ . . . تعني لا أحد . . . حدّث جلال نفسه وهو يقترب من حمص : «إنْ كان لا حيّ فيها إلاّ الله ، فلِمَ أدخلُها؟!» . كان يدري أنّ سؤالاً كهذا لا توجَد له إجابةٌ جاهزة ، كثيرةٌ هي الأمور الّتي تفعلها دون أنْ تدري لماذا تقوم بذلك ، وكثيرٌ مِمّا تُقدمُ عليه يكونُ استجابةً لنداءٍ داخليّ يدفعكَ إلى أنْ تفعل ، وعليه فإنَّ صوتًا يسمعه بوضوح يخرجُ من أعماقه الآن ويلتفّ حول قلبه ، ويصعدُ إلى روحه يطلبُ منه أنْ يدخل هذه المدينة!!

وصل إليها والشّمسُ تولّي باتّجاه الغرب الأرجوانيّ ، ما زالت الشّمسُ تقول إنّ الحياة مستمرّة رغم كلّ شيءٍ ، كم شهدتْ من فجائع مُعتِمة لكنّها ظلّتْ مُشرِقة ، وكم عاينتْ من توقّف النّبض في حياة الكثيرين لكنّها ظلّتْ حيّة ، اليوم في هذا المساء الأرجوانيّ شاهدَها تختفي خلف العمارات المُهدّمة الّتي مرّ على انهياراتها الدّائمة أكثر من ثلاثين شهرًا ، مشى فيها أكثرَ من ساعتَين ، كان اللّيل قد خيّمَ

تمامًا ، لم يشعر بالخوف مع أنّ الرّعب كان يلفّ كلّ شيء . هدوءٌ تامّ لم يجرحْه أيّ صوت ، كان يتأمّل في البنايات الّتي صارتْ أشباحًا من الماضي حينَ أحسّ أنّ صوتًا قادمًا من جهة الشّرق يأتيه عميقًا وشجيًا وبعيدًا جِدًا أرهفَ السّمع لعلّه يعرف مصدره لكنّه لم ينجح ، أمال عنقه إلى الأعلى ، وتوقّف عن المشي علّه يسمع هذا الصّوتَ المُرنّم الجميل بصورةٍ أوضح ، إنّه صوتٌ مألوف ، أدركَ بعدَ طول إنصات أنّه صوتُ الأذان ، أصابتْه الدّهشة ، كذّبَ أُذنَيه ، مِن أين يأتي صوتٌ كذلك ولا حياةَ هنا تبعثه ، أرهفَ سمعه مرّة أخرى فسمعه بصورةٍ أوضح هذه المرّة ، من أيّ مئذنةٍ يأتي يا تُرى وكُلّ المآذن هنا اقتُلعتْ من أساساتها ، وأُطيح بها ، وسُوّيتْ بالأرض!!

كانَ قد وصل لتوّه إلى شارع الخراب ، أكثر الشّوارع حيويّةً فيما مضى ، كان يضجّ قبلَ عشر سنين بالحياة ، كان النّاسُ يعيشون فيه كأنّما يعيشون الحياة الأبديّة ، وينعمون بالخلود ؛ يضحكون ويلعبون ويأكلون ويشربون ويُغنّون ويتبادلون النّكات ويخرجون إلى المحلاّت والحدائق ويمرحون كأنّ إيمانهم بأنّ يدًا لا يُمكن أنْ تمسّ مدينتهم وشارعهم بأذى تحصيلُ حاصل!! لم يعد منهم اليوم أحد ، سرقهم الموت من غمرتهم في لحظات خاطِفة . المحلاّت الّتي كانتْ تحوّل اللّيل إلى نهار لشدّة إضاءتها والتّفنّن فيها قد صارتْ مُعتمةً باردة ، فارغة لا شيءَ فيها غير الخواء ، كانت بعضُ الأبواب الحديديّة الجرّارة قد عُجنت ، وبعضُها الآخَر قد تشقّق فظلّ مُخبِرًا عن الويلات الّتي حلّتْ بالمكان . فكّر في أنْ ينام اللّيل في إحدى هذه الخرابات ، لكنّه كان لا يزال يحتفظ بقليلٍ من القُوّة الجسديّة تُمكّنه من أنْ يسير بضعة كيلو متراتٍ أخرى ، شيءٌ ما هتفَ به في داخله : «لا تتوقّف ، هناكَ مَنْ

ينتظرك» فقرّر مواصلة السّير!! مشى ، لكنّ اللّيل لم يكنْ به رحيمًا ، تعثّرَ في طريقه كثيرًا وسقطَ في أكثرَ من حفرةٍ لكنّه ظلّ محافظًا على هدوئه وتصميمه على السّير حتّى يستنفد قُواه كلّها . تخيّل لوهلةٍ وهو يجتاز الخرابات والطّرق المُحفرة أنّ الموت سيأتيه على هيئة لُغم أرضيّ ، ضحك من مجرّد التّفكير في ذلك ، هتف : «لن يُخطِئني الموت كلّ هذه المسافات ويبرز لي في لُغم أحمق ، سيكون جبانًا إذا فعل ، إنْ كان ينوي أن يحتضنني فليفْعلْ ذلك بطريقةٍ مُناسبة ، أيّها الموت كُنْ شُجاعًا وعادلاً مرّةً واحدة» . وطوّح بيدَيه في الهواء كأنّما يتوعّده!!

مشى ساعةً أخرى ، لكنّه قرّر في النّهاية أنْ يرمي جسده خلفَ أحد الجدران وينام ، سحبَ غطاء تمويه من ذلك الّذي تستخدمه الدّبابات وجده في إحدى الحُفَر مليئًا بقاذوراتٍ يصعب التّكهّن بها ، وكوّم نصفه تحت جسده النّحيل ، ولفّ بقيّته فوقه ، وسرعان ما غرق في النّوم .

مرّ اللّيل كُلّه دون أحلام ، في الصّباح زاره حلمٌ ثقيل ، رأى أحد المشرّدين الّذين أنجبتْهم الحرب يُصوّب فوهة بندقيّته إلى رأسه ، حدّث نفسه : «ما أثقله من حلم!» . لكنّه شعرَ بعدها بدوخةٍ ، أحسّ أنّ رأسه تدور ، وأنّ المُشرّد كان يحوم فوق رأسه مثلَ صوفيّ أضاع نقطة ارتكازه ، ثُمّ سمعه يصرخ به : «انهضْ أيّها الكلب ، ما الّذي جاء بِكَ إلى هنا؟!» . نهض . صرخ به المُشرّد : «ارفعْ يديكَ فوق رأسك . . . هيّا» . كانت الشّمس قد سقطتْ في عينَيه ، فلمْ يتبيّنْه تمامًا ، كرّر الصّوت أوامره ، فرفع يديه بعد أنْ زحف المسافة القليلة باتّجاه الجدار وأسندَ ظهره إليه . من جديد صرخ به المُشرّد : «من أينَ أتيت؟! هل أنتَ مُسلّح؟!» . استثقل جلال صرخات المُشرّد ، فهتفَ به دون مبالاة : «إذا

كنتَ تريدُ أنْ تقتلني فافْعلْ» . اقترب المُشرّد منه ، راحَ يُفتّشه بفوهة بندقيّته بحذر ، سمعه يتعجّب : «لستَ مُسلَّحًا!!» . توقّف قليلاً قبل أنْ يسأله من جديد : «هل معكَ طعام؟!» . أشارَ جلال إلى حقيبته : «هناك . . . ربّما تجدُ شيئًا يُؤكل» . فتّش الحقيبة ، وجد بعض الخبز اليابس ، قضمَ منه بنهم ، سمع جلال صوتُ طقطقة الخبز تحت أسنانه . سأله المُشرّد : «مَنْ أنت؟!» . «جلال» . «من أينَ قدمت؟!» . «من شمال حلب» . همهمَ المُشرّد ، وسكت ، نظر جلال في عينَيه ، كانتا تبدوان صافِيتَين وودودتَين رغم ما سكنهما من الأسى . لا يدري لماذا شعر بأنه رأى هاتَين العينَين من قبل ، فكّر ربّما كان أحد مرضاه أو مُصابيه الّذين عالجَهم فيما مضى ، لكنّ العينَين أخذتاه أبعدَ من ذلك ، حدّق في الوجه أكثر ، الوجه يبدو كذلكَ مألوفًا ، «لماذا تنظر إليّ بهذه الطّريقة؟!» سأله المُشرّد . «أحسّ أنّني التقيتُكَ سابِقًا» . «مُستحيل» . قامَ جلال من مكانه ، اقتربَ منه أكثر ، صار في مواجهته ، تفحّصه ، حاول أنْ يتخيّله بلا لحيةٍ كثيفة أو شعر طويل . صار مُمكنًا أنْ يتعرّف عليه لو أنّه حفر في ذاكرته أعمق . خطر بباله ذلك الشّخص ، لكنّه قال لنفسه : «مستحيل أنْ يكون هو» . سكت صوته الدّاخليّ قليلاً قبل أنْ يُتابع : «وما المانع؟!» . استحضرَ صورته أيّام الجامعة ، تجسّدتْ أمامه أشجار الزّيزفون ، وكتاب (الحرب والسّلام) ، كادَ يصرخُ باسمه لولا أنّه خاف أنْ يكون مُخطِئًا ، هتف دون أنْ يدري : «لا تتزوّجْ بامرأةٍ عاديّة» . لكنّ المُشرّد ظلّ ينظر إليه ببلاهة ، مدّ جلال يده إلى جبينِ المُشرّد وأزال عنه الشّعر الكثيف ، ورآها ؛ رأى الشّامة السّوداء في الجزء الأيمن من جبينه ؛ إنّه هو . صرخَ به كأنّه عثرَ على حبيبٍ غائبٍ : «عادل . . . الدّكتور عادل . . . أنتَ

الدّكتور عادل . . . أنا صديقك أيّام الدّراسة في لندن . . .» ارتجفتْ شفتا المُشرّد كأنّهما تُغالِبان كلمةً تُناضِل من أجل الخروج ، ارتجفتا أكثر وهو يُطيل النّظر ، انفجرت الكلمة أخيرًا : «جلاااال . . .!!» . تعانَقا ، بَكَيا طويلاً كطِفلَين ، شدا بصوت ملائكيٍّ حنون : «وقد يجمع الله الشّتيتَين بعدما . . . يظنّان كلّ الظّنّ ألاّ تَلاقِيا» .

(٥١)
الحُزنُ لا يُكافأ بالحزن، نحن موعودون بالفرح في النّهاية

«هنا أعيش، على ما يسقط من السّماء، في النّهاية هذه ليست هي الحياة، نحن ننتظرُ حياةً أخرى، كلّ المصائب يُمكن احتمالها ما لم تكنْ في الرأس، إنْ سلمتُ من وجع فيه فيمكن القول إنّ الأمور بخير». كان المكان الّذي لا يصلح لأنْ تبيتَ فيه الكلاب يبدو قبرًا أقربَ منه إلى مأوى. «كلّ أمجادنا تبخّرتْ، مدينةُ الضّباب تبدو كما لو أنّها وهبتْنا حُلمًا لكنّه سرعان ما حلّقَ بعيدًا». قال جلال. أجابه عادل حانقًا: «لا تقلْ ذلك. الحُزنُ لا يُكافأ بالحزن، نحن موعودون بالفرح في النّهاية». «وهذا الدّمار الّذي حلّ بسوريّة؟!». «كان يجب أنْ يحلّ، الأرض لا تُنبِت إلاّ بعد أنْ تُصبح خاوية، من وسط الخراب ستنبتُ الورود وسيكون بإمكان الأجيال الّتي لم تشهدْ قذاراتنا أنْ تُنقذ وطنها وتقوده إلى المجد». «أنتَ مُتفائلٌ جدًا يا عادل». «أتجدني في وضع يسمح لي بالتّفاؤل!! لكنْ ما العمل، ليس أمامنا غير التّفاؤل، سنحكم على بلادنا بالموت الّذي لا رجعة منه إنْ لم نفعلْ». «والحرب؛ إنّها لن ترحل حتّى ترحل بكلّ شيء». «الحربُ خسارتُنا الأولى؛ آه لو لم تشتعلْ، كان يُمكن تفاديها لولا حماقة الّذين أوقدوها وعجرفتهم وأناهم المُتضخّمة، الحرب يُوقدها شخصٌ أحمق ويصلى بنارها شعبٌ بأكمله وبلادٌ بطولها وعرضها، ما من شيءٍ يُسوّغ جريمةً

كهذه أبدًا ؛ إنَّ نارَها لن تلتهمَ الّذي عايَشها ، بل ستمتدّ إلى أجيالٍ وأجيالٍ من بعدِ أنْ تنتهي ، لأنّ الّذين سيولَدون من رَحِم المُعاصِرين لها سيكونُ قدَرُهم أنْ يعيشوا حريقًا في القلب والرّوح وإنْ لم يعيشوه في الجسد ، ليست الحربُ مرعبةً بحدّ ذاتها أكثر من الرّعب النّاجم عن آثارِها ؛ الحرب يُمكن أنْ تنتهي في سنوات ، ولكنّ نتائجها لا تنتهي في قرون . ومع كلّ ذلك ، فلا مهرب من أنْ تُشرِق الشّمس ولو طال اللّيل حتّى ظنّ المألوم أنّه سرمديّ» . تلفّتَ جلال حوله ، كان كلّ شيءٍ يبعثُ على اليأس والأسى ، لا شيءَ هنا يدعو لأنْ تقاوم طوفانَ الخرابِ ، أسهلُ الأمور أنْ ترمي نفسك فيه وترحل من هذا العالَم . أدهشَه أنْ يكون صديقه الدّكتور عادل ظلّ مُحافِظًا على روحه المُقاومة بعد كلّ هذا ، أينَ ذهبتْ أيّام الرّخاء في بريطانيا ، طافتْ بخيالاته الذّكريات الفاتنة ؛ سكَنُهما معًا ، دراستهما ، لقاءاتهما تحتَ أشجار الزّيزفون وعشرات الغزلان من الجميلات تتقافز برشاقةٍ من حولهما ، وفراشات الرّبيع تطوّف بمقعدهما . تفوّقهما حتّى على طلبة بريطانيا أنفسهم ، حصولهما على أعلى الدّرجات ، تقدُّم عادل في الاختراعات ، مجدُه وعبقريّته الّتي وهبها من أجل بلاده . بلاده الّتي عادَ إليها ليعملَ في جامعتها ، جامعة دمشق ؛ كلّه ذهبَ أدراج الرّياح اليوم ، كادَ يبكي وهو ينظر إلى ثيابه الممزّقة ، وشعره الطّويل المُلبّد الّذي طال عهده بالماء ، ووجهه المُتغضّن الّذي صيّرته المأساةُ عجوزًا .

قام عادل من مكانه ليتّقي نظرات جلال إليه . «سأطبخُ لكَ طعامًا» . «أعرفُ أنّكَ ماهرٌ في الطّبخ من أيّام لندن ، ولكنْ هل لديكَ ما يُؤكَل؟!» . «النّار ممكنة فهي في كلّ مكان ، إنْ وجدتَ النّار فقد وجدتَ الطّعام ، كلّ شيءٍ يُنضَجُ بها يُصبح صالحًا للأكل ولو كان

كـتفَ كلبٍ مـيّت» . «هل تزوّجت؟!» . «تريدُ قـصّـتي إذًا؟» . «في الحقيقة نعم ، أنتظر هذه اللّحظة بفارغ الصّبر» . تنهّد عادل ، كان قد أعدّ مقلاةً من صفيحة معدنيّة انتزعها من مُقدّمة عربة نقل جنود وسوّاها على هيئة صالحة لأن يوضَع داخلها الطّعام . هتفَ عادل من خلف كتفَيه وهو يُعدّ النّار للطّبخ : «الأرض تجود ببعض ما يُنبته المطر ، على أعشابها نعيش ، هي الوحيدة الّتي لم ترضخ لقوانين الحرب» . أجابه جلال : «هذه ليستْ قصّتك!» . «تريّث قليلاً ، روايةُ المأساة يبدو أحيانًا أوجع من المأساة نفسها!! لكنْ لا بأس ؛ لقد تدرّبتُ على ذلك جيّدًا فيما مضى ، قصصتُ هذه القصّة على نفسي ألف مرّةٍ هنا لكي أتخفّف من أعبائِها ، نعم . . .» . هزّ كتفَيه بلا مبالاة ، استدار بوجه مكروب نحو جلال : «زوجتي قُتلتْ مع ثلاثةٍ من أبنائي في عمر الورود ، تحوّلوا إلى أشلاء بدون أيّ مُقدّمات ، دفنْتُهم جميعًا في قبرٍ واحد ، لم يكنْ هناك من وقتٍ ليُصلّي عليهم الآخَرون معي . . . صلّيتُ وحدي ، ورثيتُهم وحدي ، ودفنتْهم وحدي . . . أتعرفُ ما معنى أنْ تدفن بعضَكَ في التّراب ، جزءًا منكَ تُواريه وأنتَ حيّ!! هكذا فعلت . صار الموتُ من بعدهم أمنيةً بالنّسبة لي ، لم يكنْ هناكَ من سببٍ واحدٍ يدفعني للعيش فقد فقدتُ كلّ شيء . . .» توقّف قليلاً ، سمعَ جلال صوتَ نشيجه المحبوس . «سنعود أنا وأنتَ إلى الأردنّ ، وجدتُ الآنَ سببًا يدفعني لكي أعود ، سأجدُ لك عملاً محترمًا يليقُ بكَ في أحسن المستشفيات ، مكانُكَ كطبيبٍ مختصّ هو في أرقى المشافي لا هُنا بين أنقاض الحجارة والصّفائح الخرساء» . سمعه يقول بصوتٍ حازم : «لن أتحرّك من هنا بوصةً واحدةً!!» . «أنتَ تريدُ أنْ تعيشَ في كنفِ ذكرياتك ولا تريدُ أنْ تخرج من أَسْرها» . «كلاّ يا

جـلال . . . كـلاّ ؛ لو كنتُ أريدُ أنْ أُغـادر وطني لَمَا عُـدتُ إليـه من بريطانيـا ، ألم يكنْ ملمسُ العيشِ هناك أرقّ وألين!! إنّهـا دمـشق يا جلال ، مغروسـةٌ في القلب ، وكلّ شبرٍ يُبعدني عنها يقرّبني من الرّحيل أكثر ، أنا الآن على حافّة الحياة الآخرة ، فما الفائدة أنْ أتركها!!» . «لكنّ دمشق يا عادل هي الأخرى مذبوحة مخنوقة» . «صحيح ، لكنّها ستعيش ، ستقاوم ، وستنتهي هذه الحرب اللّعينة ؛ الحياة تنتهي يا جلال أَمِنَ المعقول ألاّ تنتهي الحرب؟!! كلاّ ، ستنتهي وسيعودُ الياسمينُ إلى دمشق ، وأعودُ أنا إلى زواريبها وحاراتها وبيوتها القديمة ، وإلى رائحة أهلي فيها . لا نصرَ يأتي بلا ثمن . ثمن الحرب باهظ لكنّنا سندفعه على أمل الخَلاص» . أتعجبكَ الحياةُ هنا يا عادل ، أتريدُ أنْ تبقَى في هذا الدّمار يا رجل؟! فلْتَرحلْ بشهاداتك إلى أيّ بلدٍ عربيٍّ آمن ، أو إلى أوروبّا» . «أوروبّا؟! لم تُغْرِني في فورة الشّباب حينَ كنتُ الأوّل على جامعاتها أفتغريني اليوم؟! لم أحبّ وطنًا في حياتي كالشّام ؛ أتعرفُ معنى هذا يا جلال؟!! لا شيءَ يُمكنُ أنْ يطعنكَ كالحبّ ، ولا شيءَ يُمكن أنْ يُحصّنكَ ضدّ الألم والبُؤس مثله» . «لا أريدُ أنْ أفقدك بعد أنْ وجدتُك ، أيّ خطأ في أنْ تتركَ الحربَ والموت وتأتي معي؟! إنّني أيضًا محتاجٌ أنْ أجدَ مَنْ يدفعني إلى العودة» . «لديكَ عائلة أمّا أنا فلا ، عُدْ إليهم ولا تجعل الحرب تسرقُكَ كما سرقتْني» . «لن أعودَ إلاّ وأنتَ معي ، أمدُ الحرب طويل ، وانتظارك لرحيلها في وسط هذا الدّمار سيطول أكثر ، وستموتُ مثلما ماتوا جميعًا قبل أنْ تنتهي» . «قلتَ لكَ يا صديقي ؛ الحربُ ستنتهي هنا ، وسأرى بلادي تنهضُ من رمادها كالعنقاء ، لا شيءَ يستمرّ إلى الأبد ، لكنْ حالَ أنْ تنتهي هُنا ستبدأ هناك ، ستشتعل ألسنتها في قلبِ مَنْ

أشعلوها ؛ عدالةُ النّار أنّها إنْ لم تبدأ بالتهام مَنْ أشعلها فإنّها بالضّرورة ستنتهي به ؛ ستفكّك أوروبّا دولةً دولةً ، وسينغرز السّكين في خاصرتها ، ثُمّ تبدأ بمن حولها حتّى لا تبقى دولةٌ إلاّ وينالها من السّكّين طعنةٌ غائصة ؛ تلك هي عدالةُ السّماء يا صديقي» . كان الطّعام قد صار جاهزًا . حملَ المِقلاة المعدنيّة السّوداء ، وركزها على كومة من الحجارةِ كانَ قد صنع منها طاولةً ، وعلى مقعدَين من صفائح معدنيّة جلسا للطّعام ، كانت الرّائحةُ شهيّة ، لم يسأله جلال ما الّذي طبخه ، لقد جرّب آخر طبخةٍ أعدّها له صديقه قبلَ ما يقرب من ربع قرنٍ ، قال له وهو يمضغ لقمته الأولى : «سأتوجّه غدًا شمالاً باتّجاه الحدود التّركيّة ، بالتّحديد إلى غازي عنتاب ، ومن هناك سأحاول أنْ أعود إلى بلدي ، وأحتاج في الطّريق إلى رفيق ، فلا تكنْ يابس الرّأس ، وساعدْني على أنْ نبدأ معًا حياةً جديدة» . نظر إليه وقد تكوّرت اللقمة جهة الخدّ الأيمن قبل أنْ يمضغها ، ضيّق عينَيه ، ازدرد اللّقمة بسرعة ، كان يبدو أنّ الكلام لم يُعجبْه : «أترى هذه الحجارة . . . ستبكيني وأبكيها إنْ فارقتُها ؛ سنعيشُ معًا ، وسنموتُ معًا . وأنتَ ارحلْ غدًا كما تشاء ؛ لقد نبشْنا من الذّكريات ما يكفي» .

في اللّيل أوقدا نارًا ، بدا راهبَين في صومعةٍ معزولةٍ عن البشر ، يعيشان حياةً خارج الفيزياء الكونيّة . جلسا صامتَين طوال اللّيل يُحدّقان في النّار دون أنْ يقولا كلمةً واحدةً . حينَ تسلّل إلى عيونهم النّعاس ، قاما ، اتّخذ كلٌّ منهما زاويةً وخلدا إلى النّوم . تقلّب جلال على جنبه أكثر من مرّة ، استلقَى على ظهره ، حدّق في النّجوم البعيدة ، كانت تتلألأ في الصّفحة الكحليّة قادمةً إليها من أزمنةٍ سحيقة لا يعلم بُعدَها إلاّ الله . هجمتْ عليه صورةُ ابنه ؛ تشكّلتْ في

الخيال الّذي يملأ الظّلام، سمعه يغنّي، لم يفعلْ ذلك من قبل، إنّه لا يملكُ لسانًا، لكنّه كان يغنّي في هدوء اللّيل أغنيات أمّه القديمة، أنصتَ إليه بقلبه، بكى، مسح دموعه بطرفِ أصابعه. أطلقَ تنهيدةً طويلةً، حاول أنْ يحبسَ المزيد من دموعه... جاءه صوتُ عادل هادئًا مُطمئنًا: «لا تحبسها، إنّها جلاء ما في الصّدور».

في الصّباح، حزمَ أمتعته، استعدّ للرّحيل، نظرَ في عينَي عادل، أراد أنْ يقول له شيئًا، لكنّ عادل أخذه من يده وسار به حتّى وصلا إلى خندق يمتدّ إلى قنطرةٍ من الحجارة، عبراها إلى سردابٍ قصيرٍ تحتَ الأرض. سأله جلال: «إلى أينَ تأخذني؟!». «ستعرف، استمرّ بمتابعتي». وصلا إلى زاويةٍ في آخر السّرداب كانتْ قد أُعدّتْ كمخبأ، أزال بعضَ الحجارة الثّقيلة فانبرى لهما صندوقٌ فولاذيّ، انحنى عادل وسحبه بكلتا يدَيه: «صندوق عتاد كما ترى، وجدتُه بالقرب من دبّابة معطوبةٍ، إنّهم يُخبّئون فيه سلاحًا، وأنا فعلتُ مثلهم؛ خبّأتُ فيه سلاحًا». حمله على كتفه وسار به عائدًا إلى مأواه، وضعه على الطّاولة الحجريّة، وأزال غطاءه الّذي غمرتْه الأتربة، قال لجلال: «تعالَ اقترب، انظرْ إلى هذا السّلاح المُهمّ». ألقى جلال نظرةً على قلبِ الصّندوق، هزّ كتفَيه مُستغربًا: «إنّها كومةٌ من الأوراق... ما الّذي تريدُ أن تقوله لي يا عادل؟!». «إنّه كتابٌ في الطّبّ، استغرقَ تأليفه عشر سنوات، إنّه يتكلّم عن مواضع التّحكّم في الشّعيرات الدّقيقة في الجهاز العصبي؛ وهو يُفسّر كثيرًا من حالات الصّرع والهذيان والاكتئاب واضطرابات التوحّد، ويُحدّد لكلّ حالةٍ موضعها من هذه الأعصاب الدّقيقة المتحكّمة بها؛ إنْ نجح الطّبّ في اختراع جهازٍ أو مصلٍ قادرٍ على النّفاذ إلى جذور هذه الشّعيرات الدّقيقة فسيكون

بإمكانهم إيجاد العلاج لكلّ الأعراض السّابقة الّتي حدّثتُكَ عنها . . . ما أريده منك أنْ تعود به إلى الأردنّ وتنشره ، لا يهمّني إنْ ذُكِر اسمي كمؤلِّف له أمْ لا ، ما يهمّني أنْ يكون في هذا الكتاب الأمل في علاج أمراضٍ وصلوا فيها إلى درجة اليأس . . . حقًا لا يهمّني ذِكرُ اسمي على غلاف هذا الكتاب ، مالفرق . . ؟! ربّما حينَ يولد هو سأكون أنا قد متّ ، وحينَ يرى النّور أكون قد فقدْتُه!!» . كان الكتاب قد غُلِّفَ بعنايةٍ حتّى لا تطاله الحشرات والقوارض ، حينَ وضعه بينَ يدَي جلال ، سأله إنّ كان بإمكانه أنْ يطّلع على محتواه ، «لا تفعلْ ذلك هنا ، يمكنك أنْ تفعله في الطّريق حينَ تُغادرني ، أو في الطّائرة حينَ تستقلّها عائدًا إلى وطنك وعائلتك ، لكنْ هناك شيءٌ آخر» . مدّ عادل يده إلى قعر الصّندوق وتناول قطعةً كان الكتاب يرقد فوقها ، رفعها عاليًا لكي يراها جلال ، سقطتْ عليها أشعّة الشّمس فلمعتْ لمعانًا يخطفُ الأبصار . سأله جلال : «قطعة يورانيوم؟!» . ضحك . «كلاّ ، إنّها قطعةُ ذهب ، هي كلّ ما ادّخرتُه من عملي في الطّبّ خلال عشرين عامًا . . . خُذها» . «أنا؟! وماذا أفعل بها؟!» . «أتعرف نيقولاي تروفيموف؟!» . «لا ؛ لكنّك لن تطلب منّي أنْ أوصلها له ؛ فأنا لا أدري أينَ يعيش ، ولا أدري إنْ كان ما يزال حيًا أم مات منذ زمن» أجابه ساخرًا . «أنا جادّ فيما أقول ؛ أريد أنْ أصنعَ مثله ؛ احتفظْ بهذه القطعة عندك ، وحينَ تضع الحربُ أوزارها ، أريدُكَ أنْ تتبرّع بهذه القِطعة من أجل أنْ يبنوا دارًا للأيتام في دمشق ؛ أحسّ أنّني يُمكن بذلك أنْ أخفّف عن أبنائي رقدتهم الطّويلة ، بهذا نقاوم الحرب ، وبهذا نُخفّف من مأساتها» .

لم يكنْ بعدها من شيءٍ ليُقال . دسّ الكتاب والقِطعة الذّهبيّة في

حقيبته . عانقه . يعرفُ تمامًا أنّه لن يعيشَ طويلاً . لكنّ شيئًا منه في هذا الكتاب هو الّذي سيعيشُ قرونًا طويلةً بعدَ رحيله ، وشيئًا منه في هذه القطعة سيُخفّف عن أبنائه ، وأبناء بلده ، وسيزرع البسمة على شفاههم والأمل في قلوبهم ، كان هذا أقصى ما يريد ، كان هذا كلّ ما يريد .

كان قد خطا عشرات الخُطوات متّجهًا إلى طريق الشّمال ، قاومَ رغبةً شديدةً في أنْ يستدير نحوه ويلوّح له بيدَيه مُودّعًا ، أو يقول كلمةً واحدةً ، أو يصرخ ، أو يطلب منه لمرّة أخيرة أنْ يرافقه ، لكنّه استمرّ في الابتعاد دون أنْ يفعل ، شيءٌ ما في المسافة بينهما كان يحدث ، شيء ما لا يُمكن توقّعه ، كانت الحياة بكلّ غدها الأخضر تنتصر في معركتها الطّويلة على الموت!!

* في عام ٢٠٢٢ انتشر القنّاصة على أسطح الخرابات ، وفوق الأعمدة الّتي نجتْ من الرّكوع ، لم يكونوا يصوّبون بنادقهم الّتي يزيدُ طولها عن مترَين إلى بشريّ عابرٍ في الطّريق الميّتة أو بين الأزقّة الّتي تحوّلتْ إلى قبور مكشوفة . . . كان البشر جميعًا قد رحلوا عن هذه الأرضِ المحروقة ، منذ الثّلجة الكبيرة الّتي غطّتْ أسواق حلب القديمة ، والمكان الّذي أقيمتْ فيه لم يبقَ غير الرّماد . القنّاصة اليوم لا يحمون أنفسهم من البشر فقد أصبح وجودهم نادِرًا جداً ، القنّاصة اليوم يحمون أنفسهم من وحوشٍ تظهر لأوّل مرّة ، تتبع رائحة الأحياء ، وتزرع في كلّ شبرٍ ضحيّة .

* في عام ٢٠٢٣ توقّفت الحرب بعدَ لُهاثٍ طويلٍ في السّاحات . كان السّبب في ذلك طوفان لم تستطع الأرصاد الجويّة التّركيّة التّنبّؤ به ، ابتلع حلب وحمص وحماة ووصل إلى قلب دمشق قادمًا من البحر الأبيض المتوسّط . استمرّت الفيضانات الّتي صاحبتْها أعاصير عنيفة وأمطار شديدة ستّة أشهر . كنس الطّوفان كلّ ما مرّ في طريقه من البشر والحجر . وأوّل صوتٍ سُمعَ بعد انتهاء الطّوفان هو صوتُ الأذان بذات المَقام الّذي سمعه جلال من قبل!!

* في عام ٢٠٢٤ أُقيم نصبٌ تذكاريّ في دمشق الجديدة لضحايا الحرب من الأطفال ، كُتِبَ تحت النّصب هذه العبارة : «أنا ذاهبٌ إلى الله وسأُخبره بكلّ شيء» .

* في عـام ٢٠٢٥ أنشـأ بدر مَـعـهـدًا للفنون الجـمـيلة في دمـشق ، تخـصّص في رَسْم الوجوه ، طاف هو وليـلاس بلدان أوروبا وأمـريكا يتـحـدّث بالفـرشـاة ذات اللّسـان العـالَميّ ليكون شـاهِدًا على زمنِ الفجيعة ، وزمن الأمل أيضًا ، كـان سفيرًا لبلاده في الحرب والحُبّ ، زيّن واجهات معارضه بعبارته الأثيرة : «لا شيء يُمكن أنْ يحوّل الإبداع إلى فنّ حقيقيّ مثل المأساة» .

انتهت

أيمن العتوم
عمّان ١٢-٨-٢٠١٦



Ahmad RM



في المكتبة قمنا بتصوير عدة كتب وتوفير نسخة pdf منها ..
مأمون القانوني
في كل قلب مقبرة
على متن حقيبة
حب في زمن الجاهلية
اخاف عليك
لا نأسف على الازعاج
جرائم الأحرف المزخرفة
ماضٍ إلي برفقتي
الذين أحببناهم .. ولم
رسائل الحنين إلى الياسمين
الهالة المقدسة
حديث المساء
مميز بالأصفر
فلسطين العاشقة والمعشوق
سيكبر أنفها
تسعة من عشرة
أبي اسمه ابراهيم
خاوية |